

جمال الغيطاني

حكايات
هائمه



جمال الغيطاني

حكايات هائلة



العنوان:
حكايات هائمة

تأليف:
جمال الغيطاني

إشراف عام:
داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي، 978-977-14-5257-7

رقم الإيداع، 27340 / 2014

الطبعة الأولى، مارس 2015

تليفون، 02 33472864 - 33466434

فاكس، 02 33462576

خدمة العملاء، 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com



نسبها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

حكايات هائمة





هذه حكايات هائلة في الذاكرة،
بعضها ربما تكون له أصول في الواقع
إلا أنه يصعب تحديدها، وبعضها توهم
محض، المصادر المذكورة لا أصول لها،
ربما فُقدت إلى الأبد، وربما لا توجد إلا
في مخيلتي.

حكايات سديمية

رحلة

بعد سفر طويل استغرق شهورًا، اجتاز خلاله طالب العلم اليافع براري وهضابًا وعمرات صخرية وأنهارًا وعدة بحور، مكث في فنادق وقياسر شتى، ودور لإقامة الغرباء، وحل ضيفًا على من لا يعرفهم، بعد أن يعلم القوم وجهته يفسحون له، يضيفون إليه، يبدون التعاطف مع الذي بدأ من أقصى المغرب قاصدًا تلك الجزيرة النائية في أقصى المشرق، لم يخترها الحكيم عبثًا للإقامة النهائية، يؤكد كل من له إلمام بالفلك أن أول شروق للشمس يكون عندها، صخورها أول ما تلامسه الأشعة الوافدة والضوء المسافر عبر ثماني دقائق بمقياس ينسب إلى سرعته، ثم يبدأ الانتقال من موضع إلى موضع، من بحر إلى بحيرة، من سهل إلى جبل، من برد إلى حر، إلى اعتدال، لم يتوقف عند المشاق المتوقعة، وكلما ضاق به الحال استعاد اللقاء المتوقع فيبدأ من داخله استنفار فيستأنف، إلى أن حلت اللحظة التي رسا فيها عند شاطئ تلك الجزيرة التي تتدرج أرضها في الارتفاع المغطى بأشجار كثيفة، ما تعجب له أن كل من التقاه بدا وكأنه متوقع لوصوله، ولم يكن استفساره عن مكان إقامة الحكيم، المعمر، الذي ذاع صيته يقابل إلا بصداق المعاونة، والنطق بما يدل لا أكثر.

أخيرًا... مثل بين يدي الرجل الذي بدا نحيلًا حتى ليكاد يمكنه الرؤية من خلاله، بدا المكان بسيطًا، يسيرًا، لا امتداد له، كوخ أو بيت صغير من جذوع

النخيل المنتشر في الجزيرة، غير أن ما لفت نظره أربعة كتب إلى يمين الرجل الذي ذاع صيت علمه وحكمته حتى قيل إنه ينطق بالخلاصة.

بقدر انبهاره بمثوله أخيرًا بين يديه، بقدر ما دهش لقلة ما رآه من مجلدات وتقشف في المكان، فقط أربعة كتب؟ أين الخزانة العامرة التي تخيلها؟ أين الصومعة المدججة بالمخطوط والمطبوع؟ لم يستطع إلا أن ينطق بما لحظه، مع أنه ليس من اللائق إبداء الملاحظة في الحضرة، ولكنه هنا، بعد هذا التنقل الطويل لا يستطيع إلا النطق بما يجول عنده.

«لا أرى إلا أربعة مجلدات، أين الكتب التي تستمد منها حكمتك وعلمك؟».

بدأ الحكيم هينًا، حنونًا، كثير العطف، عندما قال:

«لماذا تسأل، ولا أرى معك إلا أربعة كتب أيضًا؟!».

قال المسافر الذي وصل أخيرًا:

«لكنني في رحلة..»

جاوبه الحكيم بهدوء وديع، باسمًا:

«أنا أيضًا في رحلة..»

بستان

جاء في مخطوط نادر لمؤلف مجهول: إنه في عام ستمائة وثلاثين هجرية، وصل إلى مصر شخص مغربي دخل القاهرة من باب زويلة قبل الغسق، كان له يد طائلة في علم السيمياء، أقنع واحدًا من كبار صنّاع البُلغ المذهبة بشراء بستان يمتد في الصحراء، لا يطاله أحد ولا يقربه إنسان أو حيوان أو هوام، يحوي أشجارًا لا مثيل لها، وفواكه غريبة المذاق لا تنبت إلا فيه، فيه سواقي تدور بغير ثيران أو بغال تأتي بهاء زلال فيه شفاء من كل علة، ورجال يكدون أربعًا وعشرين ساعة، لرعاية النبات والتنسيق، لا ينطقون ولا يُسمع لأحدهم شكوى، قبل تمام الشروق خرجوا من باب الفتوح قاصدين صحراء الريدانية، المغربي وصانع البُلغ المعروف بالحاج ظريف وثلاثة من معارفه جاءوا كشهود، بعد حوالي ساعتين اجتازوا خلالها رمالًا ممتدة وكتبانًا باقية، أشار المغربي أن يقفوا، ولَّى الوجه تجاه الشرق، تبعوه، أطالوا التحديق، شيئًا فشيئًا بدا ظهور الأشجار والنخيل وأغصان النبات، وكلها أحوال لم يعرفها أحد في بر مصر ولا البلدان المجاورة، تجولوا في الممرات المؤدية، عبروا الجسور الموصلة، وقرب الظهر جلسوا تحت مجموعة من أشجار النارج، لا يُعرف مثلها في الوادي، إذ إنه لا ينبت إلا في جزء صغير من ساحل عُمان، بلدة مرتفعة اسمها صلالة، وفي بلاد ما وراء الشرق، لا بد من اجتياز المحيط إليها، أبدى المعلم

ظريف الرغبة، وتم الاتفاق، اشترى البستان بألف دينار، أشهد الشهود، وعادوا إلى المدينة لتسجيل البيع والشراء عند القاضي، مضى المغربي إلى حال سبيله.

صباح اليوم التالي خرج الرجل قاصداً البستان، وصل إلى ما خيل إليه أنه المكان، غير أنه لم ير إلا الرمال، صار إلى كل اتجاه، التقى ببعض عربان أكدوا أنهم لم يسمعوا عن وجود بستان، هذا محال، حصل له ماخوليا، لزم الصحراء بحثاً عن البستان ولم يره أحد في محل تجارته أو إقامته.

الاسم الأعظم

لم يشتهر حاله لأنه يعرف علوم القوم فحسب، إنما لأمرين آخرين ألم بهما كل قاصٍ ودانٍ، الأول أنه الوحيد الذي ما زال حيًّا يسعى، يمكنه قراءة قلم الطير، أي تلك الكلمات الغامضة، المستعصية، المستغلقة على الأفهام والأذهان، أطلق عليها العرب الذين نزلوا صعيد مصر ذلك الاسم لتكرار ظهور الطيور بمختلف أنواعها بين علامات أخرى فيها مفردات من الحياة اليومية المستمرة، مثل الثعبان والعين البشرية واليد والعصا والنحلة.

كيف أتقن ذو النون قلم الطير؟

هنا تتعدد الروايات، فمنها القائل بقاء جرى له أثناء عزلته في البرية مع أحد الكهان القدامى الذين اعتزلوا قرب عين ماء نحيلة في الصحراء التالية لأخميم جهة الشرق، حيث توجد مسارب وخيران وأودية مفضية إلى البحر الذي تشرق الشمس من ضفته الأخرى، في الديار كما يقول العارفون ببحران، الأول شرقي تطلع منه الشمس، والثاني غربي ترحل فيه عند تمام اليوم، يبزغ القرص من الماء وينزل إلى الماء مثل كل شيء يدب فيه نفس ويكون منه سعي، أصله الماء.

لولا الماء لما عاش هؤلاء الكهان القدامى الذين توارثوا مكانهم هذا أبا عن جد ومعه العلم القديم، ليس كله، إنما ما يمكن به فهم المدونات، هكذا بقوا جيلاً بعد جيل في الصحراء العميقة، لا يعرف أحد ولا يلم مخلوق بكيفية تناسلهم

واستمرارهم إلى أن انتهى الأمر إليه، ربما يوجد غيره في مكان ما قريب من النهر أو في البرية، لكنه الوحيد المعروف في وقته.

أيًا كانت الروايات المتناقلة فمعرفته بهذا القلم الغامض، المحير، الذي غابت مفاتيحه، وتوارت السبل المؤدية إلى فهمه وإتقانه، يقين لا شك فيه حتى إن البعض قصده من أماكن شتى للاطلاع على بعض ما يعرف لكنه لم يفض إلا بقدر، وبعد تأكيدات يقينية لا حصر لها، يمكن الإحاطة ببعضها، مما اشتهر عنه وبلغ الأفاصي معرفته بالأسماء، هؤلاء الكهان الذين اتصل بهم وأخذ عنهم أحفاد من سمووا الأشياء بأسمائها، لنا أن نتخيل هذا الوجود بلا أسماء، كعالم بلا ألوان، يستوي فيه الشيء بالشيء فلا يكون وجود، ولا تكون صيرورة كل الأسماء معلنة، متاحة، متداولة، يختلف نطقها من قوم إلى قوم، لكن الجوهر واحد. إنه المميز المحدد، كل الأسماء معروفة عدا واحد فقط، إنه الاسم الأعظم، اسم الله الأعظم، أسماؤه الشائعة معروفة، جليلة، تسعة وتسعون، لكن الاسم الأعظم خفي، متوار، لا يعرفه إلا إنسان واحد في كل زمان بعينه، كثيرة تلك الإشارات التي تجعل البعض على يقين من إحاطة ذي النون به، عديد أولئك الذين قصدوه من مسافات قَصِيَّة وقريبة، ينتظرون فراغه من عمله الذي يتقنه ويقتات منه، نسج الحرير طبقاً للأصول العتيقة، هذا حرير ذاع صيته وبلغ الضفاف الأخرى من البحار القصية والدانية، كان يتعهد بدءاً من كمونه في أوراق شجر التوت الأبيض والتي يطعمها للديدان المعنية، ثم يتابع الأطوار حتى الحصول على خيوط الحرير الذي لا مثيل له إلا في أقصى الدنيا من ناحية الشرق، لكن يظل حرير أخميم خصوصيته وفرادته.

يحفظ ذو النون الأشكال المتوارثة، الخوض في معانيها يقتضي التفصيل الدقيق، والإحاطة بأمور ضاع معظمها وتلاشى، لكن ثمة معان كامنة، فتلک المربعات المتداخلة مع المستطيلات، والمثلثات، المشمولة بالدوائر لها معان، كذلك الألوان، لها دلالات، ومنها تمييز.

كان القوم يجيئون إلى أخميم قاصدين ذا النون لمسائل، لكن بمجرد وقوع
أبصارهم عليه أثناء عمله، يدها تمسكان بطرفي الخيوط وقدماه تضغطان دواسات
النول المتصلة بطبقات السدى، تتعلق أبصارهم بحركته المنتظمة، الرتيبة، الدقيقة،
شيئا فشيئا ينتبهون إلى وضعيته، جلسته، انحناءه، نظره المسدد إلى نقطة يخيّل
للرائين في البداية أنها إلى الخيوط، لكنهم يكتشفون بعد لحظات أنها راحلة إلى
حيث لا يمكن التعيين، يدرّكهم صمت ويأخذهم ورع ممتزج برهبة، تمضي الساعة
في إثر الساعة وهم شاخصون، هو لا يكل ولا يتوقف، بل إنه يبدو لا نهائياً في
حركته.

لم يكن أحداً أياً كان يجروء على النطق في حضرة انهياكه، دفعه للخيوط من حد
إلى حد، تحريكه مشط النول ليكبس الخيوط، لتتحول الأنفاس إلى قماش حريري
تضاهي رهافته الأفكار العابرة والأحلام التي لا تعمّر إلا وقت وقوعها، كثيراً ما
ردد أصداء الأنفاس في المسافات الفاصلة بين السدى واللحمة سواء كان النسيج
من قطن أو حرير أو صوف.

صلته واستغراقه بنسج الخيط بعد الخيط ذاعت وشاعت، وصار له في ذلك
مسائل، شأن مسائله في الأبواب الأخرى، عندما جاء الأمير قمري ساعياً إليه
سيراً على الأقدام من منطلقه في حاضرة البلاد ومركزها، لزم بابه أربعين يوماً؛
إذ كان مشغولاً بنسج قطعة من حرير وزخرفتها برسوم رآها في المنام، أيقظته
ألوانها وتداخل خطوطها. ورغم نوء الوسن، لم يفعل كما جرى منه قبل ذلك
خاصة أن الليلة شتوية، باردة، والدفء مغرٍ بمواصلة النوم، يحدث هذا كثيراً،
أن يستيقظ أثناء الحلم أو بعد الفراغ منه بتأثير منه وبه، يبدو كل شيء واضحاً
ناصعاً، فيظن أن ذلك لن يبيد أبداً، في الصباح يدون ما رأى، يغمض عينيه، لكنه
في اللحظات الأولى من اليقظة يجتهد لتذكر ما مرّ به، ولكن عبثاً، هذا حال عام
يعرفه الكثيرون، لكن الأمر يختلف في تلك الليلة، رأى الزخارف التي طال

انتظاره لرؤيتها، لرصدها، لتدوين تفاصيلها، لم يكن في حاجة إلى رسم ما رأى، أو تدوين الألوان، الخطوط المتداخلة، المكونة لما رأى، كذلك درجات الألوان، أدرك من منامه أن شرط تجسدها في تدفقها من مخيلته إلى الخيوط مباشرة، إلى النسيج، مكونات الصباغة لديه، عند الحاجة يبدأ، المقادير كأن مجهولاً أعدها له، ما عليه إلا التدويب والتقليب، ثم غمر الخيوط وتحفيفها، هكذا ظهرت درجات لم يعرفها من قبل، لم تدون على جدران ولا في منمنمات أو مداخل مخطوطات، أحمر غير مطروق، وأصفر مجهول، وأزرق وافد، أما الأخضر فلا نهائي، أغرب ما عاينه أن الأبيض يوحى بالأسود، والأسود يُبدي الأبيض.

لم يكن بحاجة إلى أن يفهم، أو يدرك، فالهاتف الخفي تكفل وأوفى، شرط التمام ألا يتوقف أبداً، أن يشرع ولا يكف، هكذا أقدم، بدأ، تعاقب عليه الشروق المهيّب والمغيب الغامض، الغسق والليل وما وسق، لكنه لم يهن ولم يكف عن النسيج بلا كلل، بلا ملل، بلا وهن رغم أنه لم يتناول إلا رشقات ماء شحيحة من وعاء لم يملأه، إنها كان يحتفظ بمستوى معين من الماء لا يزيد ولا ينقص.

قال القوم للأمير المرشح للولاية بعد أبيه إنه لن يخرج من الخلوة قبل إتمام النقوش، لو فارق النسيج مرة واحدة فلن تكتمل، يبدو أنهم ملمون بالحال عبر لحظات منقضية، سوابق مولية، أمضى الأمير قمرى أربعين يوماً يجاهد الوسن حتى لا يغفو، لم يشترط أحد عليه شيئاً محدداً، لم ينبئه أحد بضرورة يقظة موازية، لكنه الخجل، هل يغفو وذو النون لا يتوقف عن النسيج، عن العمل، منذ أن بدأ وظهره منحني على النول، قدماء تحركان الدواسات التي تشد السدى، ترفع الخيوط وتخفضها لتفسح الفراغ الكافي، المحقق لتلقيح اللحمة.

عندما فرغ ذو النون من النسيج بعد أن صف الخطوط المعاكسة، الحافظة، حتى لا تنسل الخيوط من بعضها، تراجع متأملاً نتاج ما فعل، احترم جميع الشاخصين

المحيطين به صمته، فلم ينطقوا إلا عندما فارق مكانه من النول، المقعد جزء منه، يتوحد الصانع بالآلة تمامًا، عند جلوسه واندماجه يبدو أنه جزء منها.

إنها اللحظة المناسبة لكي يتقدم منه الأمير قمري، نال الجهد منه، نحل، لكنه لم يهن، كان قادرًا على النطق بوضوح وسلاسة، قال إنه جاء مشيًا مسيرة أحد عشر يومًا، هكذا أخبره شيوخ الوقت، حددوا المدة. إنها عين الفترة التي تستغرقها نقطة الماء في تدفقها المعتاد من أخيم إلى حاضرة البلاد في الشمال.

أصغى إليه ذو النون هادئًا، متقبلًا، مؤمنًا، قال الأمير إنه يطلب الخلوة، عندما تطلع ذو النون إلى ملتسمي البركة والفرج كان ذلك يعني بالنسبة إليهم الانصراف، ابتعدوا، عندما صار كل منهما إلى الآخر، صرح الأمير بما سعى من أجله، إنه لا يطلب تعلم قلم الطير، ولا إتقان فنون تخليق الألوان وتحديد درجاتها، ولا طرائق النسيج المختلفة، إنه يسعى إلى معرفة الاسم الأعظم، الاسم الأعظم ذاته، إنه مقبل على تولي المسئولية والإمساك بمقاليد الأمور إلى حد لا يعلمه إلا الله، هكذا شاءت الأقدار، فإذا علم ما لم يعلمه غيره أمكنه السداد ويسر التدبير.

أشار ذو النون إليه بالكف، ربما ليجنبه حرج التبرير والشرح بما لا يتفق مع أبناء الملوك وربما لرفضه الإطالة بعد فهمه الحال.

«غداً قبل شروق الشمس.. أراك هنا..»

في اللحظة المحددة، قبل بزوغ طرف الدائرة الكونية من الشرق مثل الأمير قمري بين يديه، قدم إليه طبقًا فوق طبق.

«ستأخذ هذا، شرط أن تمسكه بيديك طوال الطريق، وأثناء عبورك النهر، هناك في الغرب، عند الدير الأبيض، قف تحت سوره ونادِ الأب بنيامين، سيخرج إليك، سلمه الطبق المغطى بطبق..»

لم بيد الأمير قمري دهشة، ربما حاشها عن الظهور، لقد طلب ما لم يجزؤ أحد على النطق به، طلبه ببساطة وتلقائية، لم يشرح ولم يمهد، إذن عليه أن يتقبل كل ما يطلب منه، وأن يؤدي تمامًا ما يؤمر به مهما بدت الغرابة أو خرج عن المألوف، فما يسعى إليه أيضًا عين الندرة.

مشى صوب ضفة النيل، خلال تلك المسافة، ما بين بربا أخيم الشهيرة حيث يقيم ذو النون، ومرسى المراكب، خيل للأمير أن كل من يتطلع إليه بيدي الدهشة وربما السخرية، أهالي الناحية لا يعرفونه وهو حريص على ألا يتعرف إليه أحد، مع كل خطوة تنمو داخله حيرة، تتصاعد، ماذا يمكن أن يحويه هذا الطبق؟ ما علاقة الطبق بالاسم الأعظم؟ ولماذا يقصد الأنبا بنيامين القبطي؟ لماذا بدا وكأن الأب بنيامين يعرف بوضوئه، بل وبندائه، توقف، تلفت حوله، لم يحذره من كشف الطبق، لو أنه نهاه لما فكر قط، لكن غرابة الطلب تدفعه إلى تلبية فضوله.

عندما أيقن بخلوته، لا أحد يراه توقف، استند إلى جذع نخلة، أمسك زفيره، كشف الطبق، لم يصدق ما يراه، هل يسخر منه؟ هل يهزأ به؟ أو أنه قصد تلقينه درسًا لتجربته، لكنه كان من الممكن أن يلومه بتصرف مغاير لا ينال منه، لم يتم طريقه، إنما انثنى، مع كل خطوة يتصاعد غضبه، في نفس المكان، وعلى ذات الهيئة، رأى ذا النون، لم يفارق مكانه، وكأنه يتوقعه، قال غاضبًا، حنقًا:

«فأر ميت في طبق أحمله فوقه طبق...!! ماذا تعني؟ ولماذا تسخر مني؟».

ظل أبو الفيض متطلعًا إليه، استمر:

«هل تريد من الناس تناقل الحكاية، أهكذا يعامل الحكماء أبناء الملوك؟».

بعد أن أصغى هادئًا. قال:

«يا بني لم تطق صبرًا على معرفة ما يحويه طبق، فكيف لك أن تصبر على ما يعنيه الاسم الأعظم؟!».

مصارعة

عندما علم صاحب وحاكم الأرضين، السفلى والعليا، أن ابنه البكر دخل طور الرجولة سُرّ وابتهج وقرر أن يدفع به ليتعلم فنون القتال، بدأ كالعادة بالمصارعة. نزل إلى الحلبة بصحبته وفي مواجهة كبير المعلمين، بدا جسورًا، فياضًا بالطاقة غير المروضة، العفية، المقبلة، لكنه كان راغبًا أن يتعلم لذلك أبدى الطاعة وأصغى، أما المعلم فحرص على احتواء الاندفاع الطبيعية وتأطيرها بالحكمة، إن تلقين الابن البكر لسيد الأرضين ليس بالأمر السهل، لكن ما يجعله دانيًا، ممكّنًا القواعد المعمول بها، فمن واجباته - وليس من حقه فقط - أن يزرع وأن يقوّم وأن يُعاقب، إنه ينفذ التلقين الذي تلقاه وأتقنه عندما التحق بالخدمة وارتقى بها وفيها.

قال للأمير إنه سيسلك معه طريقًا جديدًا، مؤديًا، سيعلمه ست عشرة حيلة، لن يقف أمامه بعدها مقاتل من أي جنس، بإتقانه تلك الست عشرة يتم المرحلة ولا خشية عليه بعد ذلك إنما يُخشى منه.

امتلأ الابن تمامًا، أبدى طاعة ورغبة وفاضت جراته في الحلبة، شيئًا فشيئًا انتظم اندفاعه، وتمحورت طاقته حول فنون لم يدخر المعلم جهدًا لنقلها إليه، وعندما حانت اللحظة المواتية طلب المعلم اللقاء فاستجاب سيد الأرضين، أصغى راضيًا، مبتهيجًا إلى ما أفضى به كبير المعلمين لفنون المصارعة.

أقيم الحفل الفاصل بين إتمام تعلم المصارعة، وقبل بدء مرحلة تالية يتقن خلالها التدريب على الأسلحة المختلفة، في هذا الحفل تمثل رموز المملكة كلها، كذلك ممثلو شعوب البر والبحر، ويُهْدَى إلى كبير المعلمين هبة ثمينة يسلمها إليه الأمير بحضرة والده كبدية وإشارة إلى بدء ممارسة المهام كلها.

صال وجال في الحلبة التي انتظمت حولها ترتيبات الحفل من مظلات ومقاعد وستور، ستة عشر مصارعاً من أجناس شتى، لكل منهم أسلوبه وميراثه وحيله، صرعههم واحداً بعد الآخر، بدا متقناً للأمر كله، وعندما انتهى بدا كأنه يستعد لبداية أو كأنه عائد من متجع التأمل، اتجه راسخ الخطى إلى حيث يجلس والده مرتدياً الرموز كلها والشارات الدالة، طبقاً للترتيب يجب على الابن أن ينحني عند وصوله إلى الأب، ثم يتجه لينحني أمام معلمه وعندئذ تصدح الموسيقى، لكن الأمير فاجأ القوم كلهم بما فيهم سيد الأرضين نفسه، إذ إنه اتجه إلى المعلم مفروود القامة وعندما وصل إليه لم ينحن، إنما أبدى علامة الرغبة في المنازلة، تطلع إليه المعلم حائراً، لم يصله نبأ من أخبار أسلافه عن لحظة تشبه تلك واقعة غير مسبوقة، غير مدونة في السجلات، لذلك تطلع إلى سيد الأرضين راجياً أن يلقي منه الجواب، لكن لم يلح له شيء، لم تبد بادرة، لذلك لم يكن بوسعه إلا أن يلبي، فمن يقف أمامه الآن ليس التلميذ الذي يُلقن ويصوّب، إنما الأمير الذي يحل مكان سيد الأرضين بعد غيابه المؤقت أو الأبدي، إنما هذا أمر.

اتجهها إلى الحلبة، تبع الابن، ولأن الواقعة غير مسبوقة، لم يكن متأكداً إن كان هذا الترتيب مطابقاً أم لا؟ ما من مرجعية أو قياس، من سيسأله، سيقول له مبرراً إن الأمير نفسه سبقه، كان واسع الخطى، متوثباً، واثقاً، مزهوّاً بما هو كائن وما سيكون، ما بين مكان جلوسه الذي فارقه وما بين الحلبة حاول أن يتماسك، أن يفرغ لما هو آت بعد لحظات، أما دهشته وحيرته فليؤجلها إلى ما بعد انقضاء الوقت.

تواجهها، لم يكن كبير المعلمين خلواً من الخبرة التي تمكنه من فهم وإدراك ما هو عليه، ما يقف أمامه الآن، بدا الابن مستنفراً إلى أقصى حد، وهنا أدرك المعلم أنه لن يقبل على مصارعة ينبغي فيها أن يتراجع إرضاء لابن سيد الأرضين، ولكنه مطالب بالذود عن حياته، هذا ما أستشفه من الهيئة والحضور الذي يواجهه.

صيحة واحدة أطلقها الجمع، ولم يعرف المحيطون هل صرخ سيد الأرضين أم لا؟

هل شب عن مقعده أم لا؟ ذلك أن كافة العيون كانت متطلعة إلى الحلبة حيث المواجهة الفريدة، غير المسبوقة.

كل الشاخصين لم يستوعبوا ما جرى، فيما بعد استعاده كل منهم برواية مختلفة وسرد مغاير صاغته الذاكرة الفردية، أما المؤرخ الرسمي للأرضين فكتب يقول: إن الابن الوارث تطلع من رقده فوق الأرض إلى كبير المعلمين الذي وقف مشرفاً عليه كأنه لم يمسه أو يقترب منه، بدت السقطة وكأنها عثرة، سأل:

-لكنك لم تطلعني على حيلتك تلك.

قال معلمه وهو ينحني ماداً يده إليه ليعينه على الوقوف:

-كان لابد من إخفائها عنك، تحسباً لتلك اللحظة!

مغربي أخميم

يذكر الرحالة الطنجي ابن بطوطة أنه رأى عند نزوله أخميم بربا ضخمة، فيها معابد، وتماثيل، ومبان شاهقة، من يقرأ وصفه، لما عاينه سيثق أنها أكبر من بربا الأقصر، لكن من يزور المكان سيصدم، لن يجد أثرًا عما عاينه الرحالة ودوّنه، اختفى هذا كله، في السنوات الأخيرة اكتشفوا تماثيل ميريت آمون الذي ظل راقداً على وجهه تحت التراب حوالي أربعة آلاف عام إلى أن استقام فبهت الذين شاهدوا أروع قوام أنثوي وأجمل أرداف تكاد لتمامها تثير الفتنة حتى يومنا هذا، كما تم اكتشاف قدم لتمثال ضخمة لرئيس الثاني، قُدر وزنه بألف طن، يرقد تحت جبانة المسلمين، استخراجهم يحتاج إلى جهد ومال وإخلاص، شُغل كثيرون وأنا منهم بما جرى للبربا، ترددت كثيراً على المدينة التي همت بخفائها وما تحويه، حاولت الإصغاء إلى ما يقوله المعمرون والذين توارثوا التفاصيل، توقفت طويلاً عندما قصه عليّ راهب قديم مقيم في الدير الأبيض، قال إن مغربياً وفد منذ ألف طلعة شمس، أقام في المدينة التي اعتادت مجيء أمثاله عبر الصحراء قاصدين مكة، تماماً مثل ابن بطوطة، تقول المدونات القبطية إنه بعد أيام ثلاثة خرج حاملاً عصاً، لا هي بالقصيرة أو الطويلة، راح يشير بها إلى التماثيل والأعمدة والجدران والصروح والبوابات الحقيقية والوهمية، كلما اتجهت العصا صوب موجود ما يختفي، يتقلقل أولاً وينفصل عن الأرض، يصعد حيث يغيب في الفراغ، قبل شروق الشمس

الواضح الجلي لم يتبق شيء، البربا كلها عالقة الآن في موضع ما، نقطة ما، هناك في هذا الفضاء، هل تظهر في توقيت بعينه، هل تنتقل إلى مكان ما؟ هل يرتبط الأمر بتعاويد خفية، بطواهر طبيعية، بفعل بشري لم يفصح عنه المغربي الذي غاب إلى يومنا هذا وأخذ سره معه؟ قال الراهب: ليس لنا إلا السؤال..

وليف

ما زال القوم في البلد يذكرون الجدة عائشة، ترملت في العشرين، أنجبت ولدًا وبتًا، محمد وبخيتة، أوقفت حياتها عليهما، رفضت رجالًا تقدموا إليها، كانت ماتزال صبية جميلة، فارهة القوام، من يراها على البعد يعرفها، رغم الملابس السوداء التي لا تبرز أي تفاصيل، الشُّقة تشبه خيمة تحيط الجسد تخفي ملامحه، غير أن مشيتها مما لا تتشابه مع أخرى، فريدة الخطو، سعت إلى الأسواق لاستئناف تجارة رَجُلها الغارب، باعت واشترت، تناقشت وتجادلت ولم يستطع أحد أن ينال منها ولا من سيرتها، غير أن سيرتها ذاعت لتألفها مع الهوام، حدث أن لمحت شقيقة المرحوم ثعبانًا يزحف وراء الفرن متجهًا إلى الغرفة الشتوية، سارعت تبحث عن عصا، صارخة، مولولة، لم تكن تدري ما يجب فعله، أمسك بها خوف، في اللحظة التي همت، رفعت العصا ارتفع صوت الجدة محذرة، أمسكت بها، أشارت إلى الثعبان الذي توقف ليرتفع نصفه الأمامي بعد استشعاره الخطر، قالت إن قتله خطأ لأنه سيخلق عداوة لن تنتهي، مهما أخفينا أثره سيجيء وليفه -ذكرًا أو أنثى- وسيحاول إلحاق الضرر، قالت بحزم: «إوعي.. إوعي».

على مهل اقتربت، انحنيت، بدأت تتمتم، صوتها خافت، لا يمكن تمييز ما تقول، بعد لحظات بدأ الوضع يتغير، أصبح الثعبان ملاصقًا للأرض، عاد إلى زحفه الهادئ متبعًا أصبع الجدة التي اتجهت إلى الطابق الثاني حيث صومعة القمح

وأخرى يحفظ فيها الدوم، وثالثة للبلح، ورابعة أقل حجمًا خالية، بعد أيام ثلاثة،
تقسم شقيقة المرحوم أن ثعبانين متماثلين طولًا ولونًا، يتبعهما ثلاثة أصغر، ظهوروا
هند قدمي الجدة، تحركوا في أماكنهم، بالضبط في اتجاهها، تقدم أحد الاثنين، لمسها
بلسانه المشقوق، بالضبط عند أصبع قدمها اليمنى، لم تتراجع مبتعدة إنما مالت
حتى كادت تلامس رأسه وقالت أشياء..

حديقة السماء

أمر الخليفة المستوثق بالله وزيره المعضد أن ينشئ له حديقة في السماء، أمهله أربعين يوماً فإذا لم ينجز فليتأهب لعقاب لم يسمع ولم يقرأ مثيلاً له، انصرف المعضد مضطرباً، راح وجاء وقصد الجهات الأصلية والفرعية في وقت واحد، عندما بدأ يتوازن نسبياً بحيث يعرف ما وراءه وأمامه، استدعى المعلمين المتخصصين الملمين المقيمين في الديار من كافة الأجناس، غير أنهم أبدوا عجزاً وأكدوا استحالة، لم يسمعوا شيئاً كهذا مع أن أحدهم - وكان فارسي المنشأ، قاهري الإقامة - مدَّ حديقة في البحر المالح، غاطسة، عُدت من العجائب، في اليوم التاسع والثلاثين ركب بغلته وحيداً، صعد إلى المقطم، قصد ديراً صغيراً مطلاً على الهو، سمع عن راهب مسن اختلف في أمره، غير أن الموثوق بهم أكدوا ونصحوا، عند لقائه بدا جلدًا على عظم، حلق طويلاً بعد إصغائه إلى الخلاصة، طلب منه أن يقف عند الحافة، أن يتطلع قبل الغروب، أن يحرق طويلاً، يدقق، سيرها أينما اتجه بصره إلى الأعلى، حار أمره، وقف عند الحافة حتى بدأ تعدد الألوان قبل المغيب، ما بين حمرة شفق وشفق غمام أبيض ومساحات زرقاء وشمس تميل إلى صفرة، لم يشرب ولم يتلح لقمة زاد منذ مجيئه. لكن في لحظة معينة اتسعت حدقاته غير مصدق، لم يحب سعيه، لم يفشل دأبه، نزل حائثاً بغلته حتى كادت تتعثر مرتين، قبل انتصاف الليل الذي يبدأ فيه اليوم الأربعون مثل أمام الخليفة المستوثق، باس الأرض وعندما اعتدل قال إن الحديقة جاهزة في السماء لاستقباله والتجول فيها بالنظر للتلمي من كافة

فرائدها وغرائبها، قال إن للحديقة شرطاً واحداً، إذ لا تفتح أبوابها إلا من العصر إلى المغرب، ويكون البدء في زيارتها من الخلاء، فلا يليق بالخلاء إلا الخلاء. وقف الخليفة ما بعد عصر اليوم التالي، تطلع وبعد لحظات التفت إلى وزيره غاضباً، هل يسخر منه، غير أن المعضد طلب التآني وطول الإصغاء بالبصر وراح يصف ما يهدو شيئاً فشيئاً من زهور الضوء وأشجار الظلال وفروع الصدى، في لحظة بعينها هذا المستوثق منفرج الأسارير، طيب الملامح، ركع المعضد في مواجهة الشمس الغاربة مؤكداً: هذه الحديقة لك وحدك يا مولاي، لن يراها غيرك، ولن يتجول بين رياضها سواك، ولن تذكر منسوبة إلا إليك..

اللائحة اسم

قبل ذلك كان كل شيء مثل أي شيء، دام ذلك قدرًا غير معلوم ربما يقدر بملايين السنين أو بضع معدودات، فلم يكن الزمن معروفًا، لا شروق ولا غروب، لا دورة للفلك، تتحرك المخلوقات بالدوافع الأولية، يأكلون ولا يعرفون ما الأكل؟ لم يكن للطعام وجود ولا للمذاقات الفوارق وجود، استمر العماء حتى بدأت الهمهمة، وجرى تعيين موجودات كبرى بتسميتها، سماء، أرض، بحر، حرّ، برد، هواء، نسيم، ألم، راحة، ميل، كره... إلى ما يصعب إحصاؤه الآن، لكن مع تعدد التمييز، وضبط النطق المنطوق وسريان النظام أو لنقل بدقة: بداياته. حلّ وقت يصعب تعيينه، اجتمع بعض من المتأملين الصامتين والذين عُرفوا فيما بعد بالكهنة، اجتمعوا على بدء تسمية الموجودات، بدءوا بالظاهر، البادي منها، ربما جرى ذلك قرب الموضع المعروف الآن بأبيدوس، لماذا؟ ليس بوسعنا إلا التخمين، المؤكد أن المعرفة والتعرف على كنه الأشياء وثيق العرى بالمعتقد، بالعقيدة التي تفسر ما غمض وتنسب الأمور إلى أسباب، حتى الآن يرتبط العلم بالدين ومما لاحظته وعايته أن مقار الدرس والبحث والفحص تقارب عمران المعابد، إن في المعابد العتيقة أو الأزهر والزيتونة والقرويين وحتى الجامعات الأحداث مثل السوربون وأكسفورد وموسكو وبكين، دائمًا ثمة قبة والقبة مجسم للكون، لما يحدده الأفق الدائري. لأسباب ما نجهلها كما يخفى علينا كثير، ارتكزت المعرفة إلى أبيدوس. تدرج المعبد في الظهور، تمامًا مثل النهر الذي كان يطل عليه مباشرة،

غير أنه ابتعد شرقاً كما هو حاله الآن، عند الحد بين الأخضر والأصفر، بين السعي والسكون، بين الحياة والعدم، اجتمع القوم. كم أمضوا؟ لا أحد يعرف، كم قضوا؟ ما من إنسان يعلم، لم يصلنا تدوين، لم يصلنا نص يخبر أو ينبئ أو يشير. ما أمكننا استنتاجه أو الوقوف على حدوده عبر نصوص متأخرة نجدها ماثلة فيها عُرف بمتون الحماية التي توفر الأمان للراجلين إلى المجهول، نعرف أنهم وضعوا الأسماء للظواهر من الموجودات، ثم المتخيل منها وأخيراً المعاني، وما يزال ذلك مستمراً ما تردد نفس واستمر بحث وسعي، ما نعرفه واضعاً جلياً أن المجتمعين في أبيدوس كلما وضعوا اسماً ظهر متعلقه، فإذا قالوا على سبيل المثال «لبن» بدا من الضروع وفي الأواني، الأسماء أولاً، كلها موجودة، ما جرى إظهارها بعد أن كانت مخفأة، بعد أن بلغوا مدى وبذلوا جهداً، لم يتم الأمر بين يوم وليلة أو سنة بعد سنة، بل استغرق آماداً، تسلم خلالها جيل إثر آخر ما أسفر البحث عنه، أودعه كل للآخر في موضع ما، حيز ما لا يعرفه أحد حتى يومنا هذا، لمعات من الوقائع المتناثرة في المتون تقول بمضمونها إن أحدهم طرح استفساراً على كبير الكهنة: بماذا تُسمي الأسماء، بعد ثلاثة أحوال -الحول مقياس قديم للوقت لا نعلم على وجه الدقة مقداره أو قدر قياسه- نطق بالجواب: اللا اسم.

ما من إيضاح نعرفه ولو بالإشارة وحتى الآن يُقال عند البعض في أقصى الشرق أو المعمور إن اللا اسم يعني كافة الأسماء، ويؤمن آخرون بأن من يُلمُّ به يمكنه التحكم في الأسماء كافة، ما ظهر منها وما استتر وما لم يوجد بعد، ويُعرف عند القوم بالاسم الأعظم..





حكايات الكتب

كِتَاب الْكُتُب

يذكر المؤرخ تقي الدين بن أحمد المقرئ في خطه أن الهرم الأكبر كان مغطى بطبقة من الحجر الجيري عليه كتابة بقلم الطير - الهيلوغرافية - مُدَهَّبة فإذا أشرقت الشمس تشرق الحروف حتى لثرى من مسافة قصية قيل إنها تبلغ مسيرة يوم، وفي مصادر أخرى يومين، وخلال النهار يتنوع اللمعان ما بين حدة وخفوت، حتى إذا تعامدت الشمس فوق ذروة الهرم عند منتصف النهار تحفَّت الحروف تمامًا حتى إنها لا تبين، غير أن الوهج يستأنف حدته عند الغروب حتى ليفوق لمعته عند الشروق ثم يمضي إلى خفوت كأنه لم يكن، لا يبدو ليلاً، حتى في ليالي اكتمال القمر.

شغلني ذلك، هذا يعني بقاء الكتاب لآلاف السنين ولم تحفَّ إلا منذ ستة قرون تقريباً، متى وكيف جرى ذلك؟ لا أحد يعرف، تخلو حوليات المؤرخين وأوصاف الرحالة من أي ذكر، كان لكل هرم كساء، ما زال جزء منه يغطي قمة الأوسط، رماديته تميل إلى حمرة، أجزاء ما تزال تغطي بعض المساحات السفلى من الأكبر.

يعني هذا أن البناء كتاب، هل هذا يمثل الغرض الأساسي من بنائه؟

ربما.. لا شيء يقيني، خاصة مع اختفاء الكتابة.

ترى، أي نصوص تلك؟ أي معان كامنة؟

شُغلت بالأمر حتى إنني كنت أحلم بتلك المسألة، ماذا كان يمكن أن نلم به لو بقيت؟ أي معرفة كانت ستضاف إلى معارفنا؟ أي كتاب هذا شغل تلك المساحة

الهائلة، لا يمكن القراءة إلا عن بُعد، لو اقتربت لا يمكن الإلمام إلا بكلمات محدودة أو سطر، عند زيارتي للهضبة لاحظت استحالة رؤيته كاملاً عن قرب، البُعد شرط الإحاطة، لعله الوحيد منذ أن عُرِفَت الكتابة، الذي يُقرأ عن بُعد حروفٌ تستجيب للشمس، تبلغ بأشعتها، في أي ظروف جُرِّد الهرم من كلماته؟ عندما ولجت هرمي «أوناس» و«تي» في سقارة توقفت شاخصاً إلى الجدران التي حُفرت عليها المتون، لم أعرف في حدود ما طالعته نصوصاً تجسد معنى الكتابة مثل تلك الجدران، صفحات من حجر، هل كانت الواجهات الخارجية تشبه الداخلية؟ شيئاً فشيئاً يعمق تعلقي بها عاينه المقريري، أحاول ابتعاث لحظة شروق الشمس، ضوء ما قبل ظهور القرص، بدء لمعة الحروف، تتوالى الأسئلة.

كيف تبدو؟

متى يبلغ توهج الأصفر الذهبي مداه؟

ماذا تقول الحروف؟ ماذا تبوح به؟ أي معانٍ تنتقل بها عبر العصور وتوالي الأزمنة؟

هل تنبئ بوقائع، بأسماء ملوك جاءوا وعبروا؟ هل تستعيد وقائع حروب خاضوها؟

أغمض عيني، عندئذ أرى الوهج كما يبدو لحظتي الشروق والغروب، تدرجه نحو الألق، غيابه المتمهل، إسرعه وإبطاؤه، أفاجأ، بمعارف تستقر عندي لم أطلعها في كل ما عرفته من نصوص.

أمضي إلى الطرق المارة قرب الهرم، يأخذني الشغل به عن كافة ما عرفت، الحروف، الحروف.

أهي نصوص تراتيل؟

أوشك على الإصغاء إلى الموسيقى المصاحبة، أنغام لم تعبر روحي قط، منبعثة
من آلات لا بالوترية ولا الهوائية غير أنها ليست غريبة عني، ليست قصيدة، أعرفها
ولا ألم بها، كأني أتلقاها أول مرة غير أنها دانية، أطرب من لا شيء، وأنتشي بالعدم،
فقط لمجرد أنها نقشت يوماً ودامت عصوراً.

لا لا لا لا. إنها نصوص الحكمة القصيدة، معان ضامرة، أبيّة تُسرّي فألم
بما استعصى فضه على غيري، ما حيرّ الأقوام بدري، يسري إليّ من كتاب الكتب
الغائب ما يثري كل سعي، أعرف من اللا شيء كل شيء..

كُتِبَ مَا لَمْ يُكْتَبَ

روى الشيخ عبد العزيز دفين تونس لبعض مريديه وطلابه ما مضمونه أن الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي لم يدون حرفاً منذ بدء ترحاله عندما خرج من مُرسية بالأندلس إلى المشرق حتى قضى في دمشق، كُل ما يتداوله الناس حتى الآن أُملِيَ عليه، عند سفره من القاهرة إلى الحجاز عن طريق ميناء عيذاب المطل على البحر الأحمر، صاح به هاتف خفي لا يُدرك في جهة، أمره أن يقيم قرب الحد الفاصل بين البر والبحر، أن يمثل لما سيجيئه، قعد الرجل في صحن مسجد صغير وسكن، أوراقه بين يديه، بيضاء، ناصعة خالية من كل علامة، السطور تتوالى لم تترك من البياض إلا هامشين، تمتلئ الورقة فتحل غيرها، أما المعاني فتأتيه ولا تخرج منه في عين اللحظة، هكذا اكتمل «فصوص الحكم». أما الفتوحات فيذكر الشيخ نفسه أنه أُملي عليه أثناء طوافه بالكعبة، أيضاً أنه تلقى من عين الصوت كتاباً آخر تقرأ سطور من الجهتين فيتوصل إلى نفس المعنى، وتقرأ صفحاته من الآخر إلى الأول فلا يجد من يقرأ مشقة في الاستيعاب، غير أن الخفي أمره ألا يُظهره إلى الناس، فما ورد فيه لن يستوعبه إلا نفر محدود ممن وهبوا الأفهام والقدرات، طُلب منه أن يبثه في كتابه الأشمل الأضخم «الفتوحات»، لم يكن يوسع الشيخ الأكبر إلا الامتثال، هكذا بث الكتاب المحجوب في ثنایا الكتاب، لذلك وجب على من يقرأ أن يعي أن «الفتوحات» ليس إلا غطاء للنص الخفي، هذا يقتضي مجاهدة وعمق استيعاب وتبحراً محموداً، لكن الغريب أن بعض العارفين ومنهم الشيخ صدر

الدين القونوي، والشيخ الحكيم نزيل مدينة خراسان المكنى بالمير داماد، وأيضًا الشيخ المحيط مولانا جلال الدين أنهم اطلعوا على تصانيف لسيدي محيي الدين أملاها الصوت الخفي الآتي من اللا جهة بعد غياب الشيخ وسفره النهائي الذي لا رجعة منه، وما تزال النصوص ترد والرسائل تصل، لذلك يتعجب كثيرون حتى عتاة المتخصصين وكبار المحققين من غزارة ما كتبه الشيخ الأكبر ولکثرة ما يُكتشف من تصانيفه حتى قال بعضهم، لو وُزعت صفحات كُتبه على أيام عمره لزادت على المقادير، كيف سطر هذا العلم الغزير في العمر القصير؟! يتساءلون وهم لا يعلمون..

أبستاق

جاء في المصادر العتيقة أن الوالي منجهوري الغافقي والي عشق آباد أرسل نائبه إلى جزر البليار للحصول على أصول كتاب الأبستاق، الجامع لحكم الأقدمين، رفع أصبعًا محذّرًا، إما العودة بالمطلوب أو البقاء في بلاد الله بعيدًا عن الديار، بعد سبع سنوات عاد ومعه نسخة عتيقة، بالضبط ما أراده الوالي، أمضى المترجم الوحيد الذي يتقن اللغة الأصلية أربع سنوات لنقل النصوص إلى اللغة التركمانية، وفي قول آخر خمسة أعوام، عندما توجه إلى المقر لتسليم ما فرغ منه بعد أن بذل جهدًا شهد عليه الكافة، غير أنه وصل في لحظة غير مناسبة، كان الأطباء يحيطون بمنجهوري بعد علة مفاجئة أملت به أفقده الحركة والنطق، لم يستمر أمره طويلاً، أسلم الروح فجراً، غير أن المترجم أدى الأمانة إلى أمين الخزانة، بقي النصّان خمسة وسبعين عامًا، الكتاب والترجمة، يبدو أن الحفيد الذي جلس على كرسي الولاية قرأ أو سمع أو نَمى إلى علمه ما جرى، المؤكد أنه أصدر أمرًا بإحضار الأبستاق الأصلي وترجمته، عندما عثر عليهما أمين الخزانة أوجس خيفة، إذ وجد المخطوط المترجم متهرئًا في بدايته عدة أوراق لا يعرف أحد عددها على وجه الدقة، تلاشت، تذرّت بمجرد تعريضها للضوء والهواء، غير أن بقية الصفحات بقيت متماسكة، خشي العاقبة فطلب مهلة للبحث، أيام اقتربت من شهر عكف خلالها على نسخ صفحات بعد أن عثر على ورق مشابه وحبر مماثل، بالطبع لم يكن يعرف ما اختفى، قرأ صفحات من المخطوط، لأنه عاش سنوات عديدة أمينًا وقيمًا على الخزانة يقرأ ما يصونه من البلى، أتقن الأساليب وحفظ النصوص شعرية

كانت أو نثرية، ديوانية أو أدبية، بل إنه قرأ بلغات عدة لكن ليس منها ما خُط به الأستاق في أصله، تلك لُغِيَّة نادرة، بعيد أهلها، وبعد رحيل المترجم لم يعد أحد في عشق آباد أو غيرها يعرف عنها شيئاً، بعد أن أتم تسديد الناقص سلم الكتاب إلى الوالي ومعه الأصل. وحتى يريح ضميره أشار إلى سوء حالة الورق المكتوبة عليه الترجمة، عندئذ كلف الوالي خطأً ذاع صيته، تولى منذ وقت كتابة الرسائل التي تخرج إلى الأمصار المجاورة والممالك النائية، قبل أن يبدأ قرأ، ويبدو أن ما قرأه قلقل مضمونه وتناقض مع ما درج عليه وما انتقل إليه من أجداده الأقدمين وأقاربه المحيطين فحذف وبدل بعد تأكده أن الوالي لم يقرأ بعد خشية تذري الورق، بعد اطلاعه طراً عليه تغير وظهر تبدل، لزم مقره وقلل من لقيا الناس وأطال الصمت حتى خشي عليه أهل بيته، أمر بحفظ الأصل والترجمة في الخزانة الخاصة، بقيا مائة عام، حدث بعدها أن اجتاحت جحافل الخان التتري تركمانيا كلها، واستباحوا عشق آباد التي اشتهرت بحدائقها وجداول مياهها ومرصدها الذي يرقب منه الحكماء هسيس النجوم، كذلك جمال نسائها ورقتهن وإتقانهن فنون الدنيا، نُهبَت خزانة الكتب، أُلقيت آلاف المجلدات في النهر، لا أحد يعرف كيف وصلت النسخة الأصلية إلى شيخ أوزبكي كان عنده علم، وقع في الأسر خلال غزو الخان الأعظم سهوب آسيا الوسطى، احتفظ به لإتقانه ما لا يعرفه التتر، الترجمة اختفت تماماً، ولكن الأصل آل إلى الأوزبكي، ويبدو أنه أدرك بشكل ما قيمته ونفاسته، أتى به إلى الخان الذي تطلع طويلاً إليه، ثم نظر أمراً:

«ترجمه حتى يقرءوه لي فنعرف ما به...»

لم يكن الأوزبكي يعرف كلمة واحدة من تلك اللغة التي لم ير حروفها ورسومها من قبل، خشي الاعتذار، وأمر الخان واجبة، لا جدل ولا نقاش، خلا بنفسه، ثم عكف على وضع كتاب بنفس عدد الصفحات وربما الكلمات، سماه «الأستاق» وهذا ما عُرف به النص الذي تتداوله حتى الآن.

كتاب الحقائق

أخيراً وصل بمفرده إلى مقصده عند ناصية الشارعين، الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب، من أول المدينة إلى حدودها المطلّة على المحيط، الشارع العرضي، هنا تقع المكتبة القديمة التي قرأ عنها كثيراً وسمع عنها طويلاً، لا تعرض إلا القديم، ما طبع من قبل نصف قرن على الأقل، الكتب النادرة في الطابق الثالث والأخير، ما إن وصله بالمصعد العتيق حتى احتواه لون بُني مترب، كل الموجودات منه لكن ما يتنوع درجاته، مجلدات في المدخل، الطبعات الأولى منذ القرن السادس عشر حتى التاسع عشر، الكتاب المقدس، الكوميديا الإلهية، يلمح موي ديك، إذن... تلك الطبعة التي لم توزع إلا نسخاً محدودة، الأرفف مثقلة، في المنتصف بائع أسمر، أصلع، منظاره الطبي فضي الإطار، دائري، أمامه منضدة فوقها مجلدان كبيران غير متساويين، اقترب، كأن قوة خفية تسيره، قال الرجل محافظاً على انحنائه مستمراً في الكتابة: إنه كتاب الحقائق.

إذن، ها هو في مواجهة ما سمع عنه، ما جاء من أجله، لم يستطع التوصل إلى تاريخ الطبع بالضبط، لكنه قرأ عند المدخل الرئيسي ما يجب أن يتبع، متاح له تقليب الصفحات لمدة عشر دقائق، كل الكتب يمكن تناولها، الذهاب بها إلى أي منضدة أو مقعد فيما عدا عناوين محدودة، أولها كتاب الحقائق، الاطلاع من وضع الثبات، واقفاً، ما إن قلب الغلاف، وطالعه العنوان إلا وبدأ الفراغ يتبدل، كذا الهواء، وهبت نسيمات لم يدر مصدرها، ورفرف في الفضاء طائر مهاجر يحاول البقاء في

وضعه معلقاً، الهدوء صارم، يكتشف له سائر ما تحويه حدائق يارو المصرية، لا يدخلها إلا المبرأون، هدوء ممتد، وأرض ليس فيها أعداء وماء وفير، أما المتنزهون والعاملون المقيمون فجاءوا من الحياة الدنيا، تقلب الصفحات أدى به إلى حدائق بابل وممرات القسطنطينية التي تتبع تدرجات الجبال، ونمنمة الحدائق الداخلية في زومان الوصل بالأندلس، والانتظام الملوكي في فرساي والتويلري والانطلاق لمحاكاة الطبيعة في سهول الإسكندرية القديمة، غير أن ما لم يستطع أن يغادره، صفحة المدينة المقدسة في إحدى مدن الصين، كل ما يمكن أن تسفر عنه الطبيعة متجسد ومائل، الصخور تتبادل الانزياح نحو النبات، يلتفتان حتى ليصعب التفرقة بينهما، تبدو كأنها من أصداف البحر، غير أنه يتنبه إلى ما لم يطلع عليه، ما لم يعرفه أثناء تقلبيه الحدائق الأخرى، تبدو الحديقة أمامه صغيرة حجماً، يقطعها في خطوتين أو ثلاث، لكنه يفاجأ بامتداد يظهر بغتة، يتوالى ميلاد الصخور والنبات الغريب والزهور الدقيقة وعيدان البامبو، يتكرر ذلك إلى غير مدى، يحاول العودة إلى وقفته، إلى صالة عرض العتيق لا غير، إلى مواجهة الأصلع، الأسمر، إلى تقلب الصفحات بالعكس، لكنها تأبى، فقط اتجه واحد، ما لا يقدر على تفسيره يدفعه عبر الأغصان والصخور التي تتوالد بلا نهاية..

كتاب اللا كتب

يروى المسبحي في تاريخه المفقود أن الخليفة الأمر كان محباً للتخليق، أي إيجاد شيء من لا شيء، مطيلاً للتفكر، كثير التحديق في دروب السماء ليلاً، عنده هوى بالحيل الهندسية، بعد سرحة من سرحاته عاد إلى قصره، لم ينتظر حتى صباح اليوم التالي، أرسل في طلب كبير المخططين والمهندسين، كان نوبي الأصل يتقن فنون الأقدمين ويستخرج ما لم يُعرف من قبل، غير أن الخليفة طلب منه ما لم يسمع به أحد من قبل، أن يوجد كتاباً يمكن قراءته عند بداية الرغبة وتقليب صفحاته في أي موضع وأي وقت، لا يُرى من الآخرين لكن يمثل أمام صاحبه لا غير، لا مستقر له، غير أنه يشغل الحيز إذا رُغب، يستوعب ما لم يُستوعب، فيه كل الكتب وليس ملموساً، لا يوجد، حار النوبي وطلب المهلة، الخليفة لم يحددها بالضبط، إنما أشار إلى لحظة يكتمل فيها هذا، دانية لا ريب فيها، يتمناها، سيظهر الخلق بما يتجسد لهم ويتم، لكن مثل كل شيء، يصبح كتاب اللا كتب، كتاب ما لا يوجد، ما لا يُرى، ما لا يُقرأ، فيه كل المتون ولا يوجد، بعد حين يصير شيئاً عادياً، مألوفاً.

حار النوبي، بدأ خلوة قلب خلاها الأمور كلها، استدعى أقرب مساعديه، اطلع كل منهم على جزء مما يريد إتمامه، حاول الإلمام بكل ما تيسر وما عسر الحصول عليه حتى إنه أرسل قصائد إلى الصين ليعرف ما يمكن وما لا يمكن من أهل الورق، كذلك حاول الإحاطة بعلم الحروف في شتى اللغات، لكنه لم يصل

إلى شيء ولم يستطع حتى تحديد المطلوب منه، كتاب اللا كتاب، خشي على نفسه،
صحيح أن الأمر لم يستعجله، لم ينهره، لم يبد له الجفوة، لكن الاستفسار في نظراته
وإيماءاته، جمع النوبي أوراقاً ولفافات وعبر الدرب الغربي بدأ طريقه إلى منبته أقصى
الجنوب، غابت أخباره تمامًا، وجاء خليفة بعد الآخر، وتبدل الحكام والعصور
غير أن البحث والمحاولة لم يكفَّ، حتى استطاع بيل جيتس التوصل إلى كتاب اللا
كتب، إلى الأبياد بعد أكثر من ألف سنة.

كتاب الفتح

أفتح الكتاب، أفتح الكتاب..

عبارة تستقر في ذاكرة الأجيال المتعاقبة في قرى ومدن الصعيد، خاصة تلك الواقعة عند الغرب، المولية مصائرهما إلى جهة مغيب الشمس، يطلقها رجل جاء من المغرب الأقصى قاصداً مكة سيرا على قدميه يحمل بعضهم نسخة من كتاب بعد تلاوة معينة لا يعرفها إلا صاحبه تتكشف المصائر الآتية، المغاربة مشهورون بإمكانية الاطلاع على الغيب، يأمن الناس لهم لطيفة قلوبهم والتزامهم، وكف أيديهم عن حاجة الخلق، عكس الغجر الذين يصغون إلى همس الرياح المحبوسة في الودع، لكنهم يسرقون الكحل من العين، صباح أحد الأيام ظهر مغربي قادم من الصحراء، تماماً كما جاء قبله كثيرون وجدوا المقصد في ثواب يجيء بعد المشقة، الوصول إلى مكة مشياً، مثله كالذين سبقوه عبر مئات السنين، لا يحمل إلا زمزمة الماء، وكيساً من جلد يحوي كتاباً دائماً، إما دلائل الخيرات، أو ذلك الذي يحوي المصائر، يفتحه لراغبي المعرفة مقابل رغيغ من خبز اليوم أو بيضة أو حفنة قمح أو ثمرة دوم.. يعني ما تيسر، لسبب ما، ربما الفضول رغب ابن الحاج غنيم السهلي في الاطلاع على المسطور في صفحات الكتاب، الابن يدرس في مصر، لا أحد يعرف أي فرع وأي علم، لكنه يحظى بوضعية لذلك، إذا حضر مجلساً أو ظهر في المسجد يصافحه من هو أكبر منه سناً، يقفون له، إنه من أهل العلم، شغله الأمر، لم يسأل أحد، لو أنه أقدم لحذروه من ذلك، من المتوارث المتعارف عليه أن

هؤلاء القادمين من جهة مغيب الشمس لهم حرمة لا يمسهم أحد، بل إن القوم يتنافسون لإكرامهم والتبرك بهم، ربما لغيابه شهوًراً عديدة وإقامته زمن الإجازة فقط، ليس ملئاً بما يصعب الإقدام عليه، والأماكن التي يستحسن تجنبها إن ليلاً أو نهاراً، والحيوانات التي ينبغي ألا يلحق بها أذى، في اللحظة المواتية عند توجه المغربي إلى مسجد الناحية دخل الشاب إلى المضيقة، انتزع الكتاب من الكيس، أسرع الخطى إلى البئر المهجورة، فيما بعد دهش القوم، لم يحدث أن سمعوا بمغربي يفارق كتابه، لكن يبدو أن الرجل حسن النية، هكذا قدروا...

رغم أن ما أقدم عليه غير مألوف، يعد خرقاً لما استقرت عليه الأحوال في القرية، فإنه دُهِش ثم حار حتى أدركه بهت عندما أتم تقليب وتفحص سبع ورقات، ما من حرف، ما من شكل، فقط لون مسطح لا غامق فيه ولا فاتح رغم يقينه بحال ما تبقى لكنه واصل، غير أنه مع بلوغه الرابعة عشرة بدأ يدرك أمراً أرجفه وصمم يقينه، لم يعد يدرك أشياء عديدة جاء بها ومعها، كان يسيراً استدعاؤها، تقل سرعته، يتباطأ، يثقل، الضوء يهن، موجودات تتوارى مندثرة مع كل صفحة تطوى، مع بلوغه آخر صفحة صار مثلها كالأولى، محواً من كافة شيء...

أعجمي

حكى ابن إياس في بدائع الزهور أن رجلاً أعجمياً جاء دمشق في زمن الناصر صلاح الدين، عرض عليه أن يريه أعجوبة في صنعة الشعبذة، فأذن له في ذلك، فنصب خيمة في الميدان، وأخرج من كمّه كبة خيط، وربط ذلك الخيط في يده، حدف كبة الخيط تلك في الهواء ثم تعلق بها وصعد حتى غاب عن الأبصار.

ثم بعد ساعة سقطت بين الناس إحدى رجليه، وصارت تزحف على الأرض حتى دخلت الخيمة، ثم سقطت رجله الأخرى، وصارت تزحف حتى دخلت الخيمة، ثم سقطت إحدى يديه ودخلت الخيمة، ثم سقطت اليد الأخرى ودخلت الخيمة، ولم تزل أعضاؤه تتساقط عضواً عضواً حتى سقط الرأس، وصار يزحف على الأرض حتى دخل الخيمة، ثم بعد ساعة خرج الرجل وهو سوي كما كان يمشي على قدميه، فقبل الأرض بين يدي الملك الناصر، ثم إن الرجل دخل الخيمة قدام الناس، فقال رفيقه للحاضرين: «ادخلوا إلى الخيمة وفتشوها» فدخلوا الخيمة وفتشوها، فلم يجدوا فيها أحداً، ثم فكوها ونصبوها في مكان آخر، فخرج منها الرجل وهو يمشي على قدميه، فتعجب الناس.

وكان حاضراً عند الملك الناصر شخص من الأمراء، يقال له: سنقر الأخطا، فلما رأى ذلك، حنق وجرد سيفه، وضرب عنق المشعبد وقال: «مثل هذا لا يؤمن أن يكون جاسوساً من عند أحد من الفرنج..»

ثم إن الأمير سنقر أراد أن يضرب عنق رفيقه، فاستجار بالملك الناصر، وزعم أنه لا يعرف شيئاً مما كان يعمله رفيقه، فمنع الملك الناصر الأمير من قتله، وقال للرجل: «أخرج من الشام ولا تقم بها فإنهم يقتلونك»، عندئذ أخرج من جيبه خيطاً ورماه إلى أعلى، بسرعة تعلق به وراح يصعد إلى أعلى حتى غاب عن الأنظار.. انتهى ذلك.

كتب

بعد تقاعده لزم مكتبته التي أمضى عمره في تكوينها، يرجع الأمر إلى سنوات النشأة الأولى عندما بدأ يكتشف روعة القراءة، وإطلاقها المخيال، لأنه اعتمد في البداية على الاستعارة بعُسر الأحوال وصعوبة الظروف تاق إلى الاقتناء عندما أصبحت لديه القدرة، ليس مهمًا قراءة الكتاب، المهم أن يكون في متناوله، إذا خطر له، أو احتاجه، من كل بلد زاره، عاد بالكتب، اللغات التي يجهلها اقتنى مجلدات الفن الحاوية للمنمنمات والتصاویر من كل مذهب ومنزع، يمضي النهار والليل بين الأرفف المثقلة والمجلدات المرصوفة فوق الأرض، إلى جوار الفراش، أشفق عليه الأبناء، يبدو أنهم خشوا الساعات الطويلة التي يمضيها في التصفح، الاطلاع، الاستغراق، إبداء انفعالات غير مألوفة، خاصة عند قراءته الأشعار، أو ما يبيده من تحركات في اللا اتجاه عند الإصغاء إلى الموسيقى، تلك الألحان التي رسا عندها ما بين شرقي وغربي، كلاسيك وموسيقى غجر بلا مأوى، خلال الأيام الطويلة عاد إلى كتب اقتناها بداية عمره، قبل سنوات قرأ بعضًا مما وقع اختياره عليه، استغرقته النصوص، غير أنه عندما وصل إلى الصفحة الأخيرة فوجئ بتوقيعه، من عاداته أنه يكتب اليوم والشهر والمكان الذي ينتهي فيه من قراءة المتن، كيف نسي كتبًا تعلق بها يومًا؟ حيره ذلك، ازدادت حيرته عندما شرع في استعادة نصوص احتواها من قبله، غير أنه مع المضي يكتشف أمورًا لم ينتبه إليها في المرات الأولى، ما تجاوز عنده من خلال التجوال والتقليب والتصفح والتفكر

والتأمل أضواء له ما لم يبصره في المطالعات الأولى، شيئاً فشيئاً أدرك أنه بحاجة إلى قراءة كافة ما اطلع عليه، ما ارتبط به، ما وثق به العلاقة، سواء كان رواية، أو ديوان شعر، أو بحثاً علمياً أو فلسفياً أو أوصاف رحالة ومُحِبِّ هذا كله، كأنه لم يطالعه، لم يفن الليالي في أضواء مختلفة، مغايرة لبعضها، بعضها واهن جداً، هذا ما سحب قوة إبصاره شيئاً فشيئاً، كأن هذا كله لم يكن، كافة ما قرأه دخل دائرة المحو، لا بد أن يستعيده، لكن متى، كيف؟ أين يلاقي سبعة وستين عاماً أخرى؟ كان من المستحيل استعادة ما عرفه، الحل الوحيد أن يتدثر بالمجلدات، أن يرقد بينها وتحتها وفوقها، يصير إليها وتصير إليه ..

لا كليته.. لا دمنته

عرفت الكتاب صبيًا في طبعة أصدرتها وزارة المعارف العمومية خلال الأربعينيات، وجدها في مكتبة مدرسة الحسين الإعدادية التي كان اسمها محمد علي قبل الثورة المباركة وتقع عند ناصية حارة الوطاويط التي كانت مسقوفة بالحصير، وعندما تزايدت الوطاويط وعطلت مرور الخلق أزيل السقف وكان فريدًا لم أعرف مثيلاً له في موضع آخر، شغلت بقصص الحيوان، لم أتوقف عند المقدمة أو ابن المقفع الذي زعم ترجمتها من اللغة الفهلوية إلى العربية، لسبب ما تكون عندي في مخيلتي صورة للملك دبشليم، نحيل، طويل، يرتدي عباءة من وبر الجمل بني فاتح، فوق رأسه طربوش مستطيل، أراه من جانبه كما اعتدته دائئًا، أمامه فراغ من المفترض أنه يحوي بيدبا الفيلسوف، غير أنني لم أره قط بالمخيلة، لم أتوقف للمحاولة، بعد إمعاني في القراءة، وإصغائي إلى حديث أحد شيوخ الأجلاء في مقبل سعبي بمفردي، الشيخ أمين الخولي، وقد التقيت به في مكتب متواضع بعمارة مطلة على شارع الجمهورية الذي كان اسمه شارع إبراهيم باشا ومن قبل نوبار باشا كما ذكره نجيب محفوظ في «بين القصرين» عندما وصف المظاهرة التي توفي بها فهمي الابن الأكبر للسيد أحمد عبد الجواد، مات برصاص الإنجليز، ثم أطلق اسم نوبار باشا على شارع قرب مشهد السيدة زينب، أول من لفت نظري إلى وضع ابن المقفع وصلته بالكتاب ذلك الشيخ الأجل، تساءل عن سبب قتل الخليفة له بهذه الطريقة البشعة، تقطيع رجله وذراعيه، ثم حرقه وتذرية رماده

فوق نهر دجلة، عدت إلى البيت وابن المقفع يطل عليّ من جهاتي، أصبح له سَمْتُ وملامح، بدأت البحث عن الكتاب، وجدته في طبعة أنيقة، مجلدة، رسومها رائعة أصدرتها دار المعارف بمناسبة مرور عدة عقود على تأسيسها، غليت وتمهلت، إلا أنني لم أجد الإجابة كما أشار الشيخ في ثنايا الكتاب، غير أن الشك وقع عندي عندما لاحظت تعدد المراحل التي مرّ بها الكتاب، ولنبداً الخطى معكوسة لما ورد في النص العربي، الكتاب وُضع في الهند، مَنْ كتبه؟ لا توجد إشارة محددة لشخص بعينه، إنما ذُكر لفلاسفة الهند، من هم؟ علم بوجود الكتاب أنوشروان كسرى ملك الفرس، طلب من برزويه بن آذر هربد، رأس أطباء فارس، ولنلاحظ هنا أن الطبيب في ذلك الوقت كان يشتغل بالحكمة، ومازال القوم في ريف مصر وأحياء المدن الشعبية يسمون الطبيب بالحكيم «أنا ذاهب إلى الحكيم...»، «أنا أحتاج الحكيم...»، «جاءني الحكيم للكشف عليّ...»، هذا قديم في مصر، العلم والحكمة جاءا من المعبد، تأثر العالم بذلك فأصبح معمار الجامعات العريقة قريباً من عمارة دور العبادة خاصة القبة، ذكرت من قبل دهشتي عندما دخلت جامعة عين شمس فلقيتها بدون قبة! إذن كان برزويه حكيماً أي طبيباً، بدأ يخالط الهنود ويتقن لغتهم ويسائل عن أخبار ملوكهم وأحداث تاريخهم، خالطهم وجرى بينه وبينهم تفاعل وانصهار حتى اتخذ له صاحباً اسمه «أزويه» بعض النسخ ذكرت اسمه ومعظمها لم يورده، بعد حين أدرك الهندي مقصود الفارسي خاصة بعد أن قال له: يا أخي ما أريد أن أكتمك من أمري شيئاً فوق ما قد كتمتك، فاعلم أني لأمر قد جئت، وهو غير ما ترى يظهر مني، هنا قال الهندي: إني وإن كنت لم أبدأك، ولم أخبرك بما جئت له، وإياه طلبت، وأنت كتتم أمراً تطلبه وأنت تُظهر غيره فإنه لم يكن يخفى عليّ، صمت قليلاً ثم صرح أكثر: أنت قدمت بلادنا لتسلبنا علومنا الرفيعة وكنوزنا النفيسة، فتذهب بها إلى بلادك لتُسَرَّ بها ملكك، كان قدومك بالمكر ومصادقتك بالخدعة، لكن لما رأيتُ صبرك، وطول مواظبتك على طلب حاجتك، وتحفظك

من أن تسقط في الكلام بشيء نستدل به على سريرة أمرك، ازدادت رغبة في عقلك، وأحببت إخاءك، ولا أعلمُ أني رأيت أوزن منك عقلاً، ولا أحسن أدباً، ولا أصبر على طلب حاجة، ولا أكتم للستر منك، ولا أحسن خُلُقاً، ولا سيما في بلاد غربة، ومملكة غير مملكتك، وعند قوم لم تكن تعرف سُننهم ولا أمرهم، ثم قال له الهندي: تحصيل العلم أشبه بكشف السر، حفظ الأسرار وكتماؤها شبيهه العلماء بغلاف القارورة المغطى عليها، تراها واحدة فإذا نزع الغطاء فجرمان اثنان، فإذا فُرغت مما فيها فهي ثلاثة «مشهورة قد عُلِم بها، ورأس الأدب حفظ السر، لأن السر إذا تكلم به لسانان صار إلى ثلاثة، وإذا صار إلى ثلاثة شاع في الناس، وإنك تسألني حاجة أتخوَّف أن تضيع أو يفطن بها حاسد فيكون ذلك فيه هلاكي واستصصالي، قال الهندي إنه سيوفر له ما طلب لثقتة فيه وتقديره بذل الجُهد، هكذا وفر له حاجته من الكتب ومنها كليلة ودمنة، هكذا بدأ برزويه اطلاعه ومحاولته فهم ما يقرأ حتى نحُل بدنه، وأنفق ليلاليه، فلما فرغ من الفهم والنسخ أرسل إلى كسرى ملكه يعلمه بتمام المهمة وجاهزية الحضور، فأجابه بالرمز أن يُقبل، هكذا فارق صاحبه وغادر بلاد الهند عائداً إلى فارس، استقبله كسرى في محفل، دعا رجال العلم والأدب، وأمر بترجمه أن يقرأ عليهم، فلما سمعوا ما فيه من العلم والأعاجيب المحكية على ألسنة الحيوانات والطيور تعجبوا منه وشكروا الله على ما أنعم عليهم به من الأدب والمعرفة على يد برزويه وأحسنوا الشناء عليه، ثم أمر بترجمه بترجمة الكتاب إلى الفهلوية ومنها يزعم ابن المقفع أنه ترجمه إلى العربية.

ربما يسألني بعض من يطالع روايتي هذه، لماذا أوردت لفظ «يزعم»، أقول لأنني لست واثقاً من صحة الرواية التي وردت في مقدمة الكتاب لأن مؤلفها وساردها ابن المقفع الذي لم يوضح ولم يذكر مصدراً محدداً، كما أنه لم يصحب «برزويه» إلى الهند، كيف عرف ما دار بينهما، هل ثمة احتمال اختلاقه القصة كلها، فلم يحدث أن كسرى علم بوجود كتاب هندي، بالتالي لم يأمر «برزويه» بالسفر لطلبه والعودة

به، بعد مطالعتي السابعة للكتاب صرت أكثر ميلاً إلى عدم وجود أصل هندي لكليلة ودمنة، خاصة بعد أن أمعنت طويلاً فيما ذكره ابن المقفع أن الترجمة إلى الفهلوية من اللغة الهندية إلى الفهلوية، أي هندية؟ لا يوجد تحديد، أخبرني واحد من شيوخه الذين أخذت عنهم مباشرة، أعني محمد عودة، عاش في الهند، خبر أهلها، أخذته حضارتها وهام بها، وكان يتحدث بانبهار عن نهرو وغاندي وفنانه لم يرغب اسمها عن أفقي اسمها فيجاليا لأكشيا، قال العم عودة كما اعتدت مخاطبته إن أهل الهند يتكلمون أكثر من ستمائة لغة، وإن رئيس وزراء الهند إذا سافر إلى إقليم ما فلا بد أنه يصحب معه مترجماً وأحياناً أكثر، استدعيت ذلك إلى وعيي عندما قرأت لابن المقفع أنه ترجم عن الفهلوية التي تمت عن الهندية، أي لغة من لغات الهند؟ لا أحد يعرف، حتى حاجي خليفة صاحب كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لم يشر إلى الهندية من قريب أو بعيد، ثم رسخ الشك عندما أتيح لي الاطلاع على مقدمة سلفستر دي ساسي المستعرب الفرنسي الشهير أول من نشر وطبع «كليلة ودمنة» وكان ذلك في باريز كما اعتاد كتاب القرن التاسع عشر أن يطلقوا عليها، قال ما نصه منسوباً إلى ابن المقفع:

«بعد أن اطلعت على كليلة ودمنة، ألحقت به باباً بالعربية..

ماذا يعني ذلك؟

هل ما نقرؤه اليوم النص الهندي مترجماً، أم أنه الباب الذي وضعه ابن المقفع، أي أن ما وصلنا تأليفه وليس تفسيره أي ترجمته، يؤكد دي ساسي في طبعة باريز عام ستة عشر وثمانمائة وألف أنه حصل على النسخة الأقدم من حلب الشهباء وقارن بينها وبين نسخ أخرى، أجرى تصحيحاً لعبارات وتنقيحاً لجمال، إذن النسخة ملفقة، ولهذا لم يثق فيها المستشرقون أمثال فولكنر وجويدي وزرتنبرج واتفق معهم الأب لويس شيخو الذي طبع الكتاب في بيروت نقلاً عن طبعة دي ساسي الذي اعتمد على نسخة حديثة نسبياً من القرن السابع عشر، غير أن الألمانى نلذكه أكد أنه

عثر على نسخة من القرن الخامس عشر، غير أنه لم يحدد موضع نسخها أو منشأها، في كل الأحوال يعتبر صدور الكتاب في باريز أول ظهور علني للكتاب وكل ما طُبِعَ فيما تلا ذلك اعتمدها، أما الدكتور عزام فيقول إن النسخة التي اعتمدها في الطبعة المصرية تعود إلى القرن الثامن الهجري ويؤكد أنها الأقدم على الإطلاق، فإذا كان ابن المقفع قد عاش في القرن الثاني الهجري فأين كان الكتاب خلال ستمائة عام، خاصة أن الكتاب لم يُعرف في المصادر القديمة إلا كعنوان يمكن أن يكون لما نعرفه ويحتمل ألا يكون فالإشارات دائماً إلى كتب الهند، ذكر ابن النديم في كتاب الفهرست -القرن الرابع الهجري- بعضاً من عناوينها وأشار إلى كيلة ودمنة كموضوع لحكاية وليس مؤلفاً مستقلاً بذاته، أما ابن خلكان فيقول في «وفيات الأعيان»: إنه لا وجود للكتاب في أدب الهند أو فارس، ويؤكد ذلك ابن شاعر الكتبي في «فوات الوفيات» ويحيى بعده ابن تغري بردي في «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» ليقطع بذلك ويؤكد تحايل ابن المقفع للتعبير عن رؤى تتصل بالحكم وجور الخليفة، خشي من التصريح بها فأتى بها على ألسنة الحيوانات منسوبة إلى كسرى ودبشليم ويبدأ الفيلسوف، وليس هذا كله إلا توهماً واستتاراً، رغم ذلك وشى به بعض الكتاب عند الخليفة فلا يكشف غرض الأديب إلا أديب مثله، هكذا انتهى تلك النهاية البشعة، الأب لويس شيخو أكد أن الأصل له جذور وبذور في كتاب «بينج تنرا»، غير أنني لم أجد شيئاً من هذا عندما قرأت ترجمته إلى العربية في السبعينيات بمقدمة من الدكتور عبد الحميد يونس، لا مجال للتشابه، ولا حتى التأثير والتأثر لا في البنية الكلية أو في التفاصيل، وهذا ما انتهى إليه المستعرب أجنايوس البورديني، صرت إلى يقين مائل بعد إمعاني قراءة الكتاب واعتماداي على فهمي للأساليب وجرس الألفاظ، هذا كتاب موضوع بالكامل، لا أصل له في أي لغة، نشأ عندي سؤال: في أي زمان إذن؟ هل نسبته إلى ابن المقفع حقيقة أم انتحال؟ بل إنني صرت أشك في وجود ابن المقفع نفسه، خاصة

عندما زرت حلب الشهباء في تسعينيات القرن الماضي وأقيمت في فندق زميريا بالمنطقة المسيحية، وجاءني الأب عازر السرياني، وجرت بيننا محاورة، وفجأة قال إنه قرأ ما دونته حول كليله ودمنة، وإن كل ما ساورني له أساس، فعندما كان طريق الحرير في أوجه، وفد على حلب شيخ ينتمي إلى الطريقة النقشبندية، نزل في التكية الأولوجية، أحبه الخلق وتبركوا به، كان يتأهب للسفر صباح اليوم التالي إلى قونية لكنه لم يستيقظ وغفا إلى الأبد تاركاً بعض مخطوطات نادرة، ألت إلى أسرة حلبية تعرف عليها المستعرب سلفستر دي ساسي واشترى منها ما تركه الشيخ النقشبندي الذي قدم من سمرقند، وكان بينهم كتاب كليله ودمنة بالضبط كما نعرفه الآن، لكن.. من كتبه؟ من صاغه؟ من نسبته إلى الأسماء التي ارتبطت به؟ لا علم لأحد بذلك..

كتاب الخاص

جاء في لحظ الألاحظ:

جثا الحكيم على ركبته، قال مخاطبًا الملك: ابقني يبيك الله ولا تقتلني يقتلك الله، فلما تحقق الحكيم أن الملك قاتله لا محالة قال له أيها الملك إن كان ولا بد من قتلي فأمهلني أن أنزل إلى داري وأوصي أهلي وجيراني يدفنونني وأبرئ نفسي وأهْبُ كتب الطب وعندي كتاب خاص الخاص أهديه لك هدية تدخره في خزانتك. فقال الملك للحكيم: وما في ذلك الكتاب؟ قال فيه شيء لا يحصى وأقل ما فيه من الأسرار أنك إذا قطعت رأسي وفتحت ثلاث ورقات وتقرأ ثلاثة أسطر من الصفحة التي على يسارك فإن الرأس يكلمك ويجاوبك بجميع ما سألت عنه، فتعجب الملك غاية العجب واهتز من الطرب وقال له أيها الحكيم: إذا قطعت رأسك تُكلمني، قال نعم أيها الملك فقال الملك هذا أمر عجيب ثم إن الملك أرسله في الترسيم فنزل الحكيم إلى داره وقضى أشغاله في ذلك اليوم وفي اليوم الثاني طلع الحكيم إلى الديوان وطلعت الأمراء والوزراء والحجاب والنواب وأرباب الدولة جميعًا وصار الديوان كزهر البستان وإذا الحكيم طلع للديوان ووقف قدام الملك في الترسيم ومعه كتاب عتيق ومُكحلة فيها ذرور، جلس، قال إيتوني بطبق فأتوه بطبق وكبّ فيه الذرور وفرشه، وقال أيها الملك خذ هذا الكتاب ولا تفتحه حتى تقطع رأسي فإذا قطعت فاجعله في ذلك الطبق وأمر بكبسه على ذلك الذرور؛ فإذا فعلت ذلك فإن دمه ينقطع، ثم افتح الباب ثم إن الملك أمر بضرب رقبتة فأخذ

الكتاب منه وقام السيّاف فطاح الرأس في وسط الطبق وكبسه على الذرور فانقطع
دمه ففتح الحكيم عينيه وقال افتح الكتاب أيها الملك ففتحه فوجده ملصوقاً فحطّ
أصبعه في فمه وعمل ريقه وفتح أول ورقة والثانية والثالثة والورق ما يفتح إلا
بجهد ففتح الملك ست أوراق ونظر فيها فلم يجد كتابة فقال أيها الحكيم ما فيه
شيء مكتوب فقال الحكيم افتح زيادة على ذلك ففتح ثلاثة فما كان إلا قليل من
الزمان إلا والدواء حاق فيه لوقته وساعته؛ فإن الكتاب كان مشبعاً بالسم فعند
ذلك تزعزع الملك ومال..

ما لم يرد في كتب

وقع بصري أول مرة على الشيخ الأجل صالح الجعفري وأنا ابن تسع سنوات، اعتاد الوالد - رحمه الله - صحبتنا، أنا وأخي الأصغر مني إسماعيل إلى المساجد وأضرحة الأولياء والصالحين، خاصة مشهد سيدنا وحبيينا الإمام الحسين عليه السلام والأزهر الذي اعتاد سماع درس العصر فيه، يحضر الحلقة التي تنتظم حول الشيخ صالح الجعفري، كان مهيباً، قوي الحضور، أسمر كأهل أسوان، له هيئة وتكوين، يجلس إلى عمود، فوق كرسي بدون مسند، الحلقة تضم طلبة الأزهر من المجاورين نزلاء الرواق وغيرهم، من حق أي إنسان حضور الدرس، توجيه السؤال، هذا نظام معمول به من قديم، كنت أقعد إلى يمين أبي وشقيقي إلى يساره، مع تقدمي في الطريق صرت أحضر بمفردي، لم يحدث أن خاطبته قط، كنت مستمعاً، متلقياً عنه، رأيته مرات يسعى في الأسواق القريبة، يقضي حاجته بنفسه، ومرات أخرى في الترام رقم تسعة عشر الواصل بين ميدان العتبة والأزهر، وقد بطل في نهاية الستينيات، أقام الشيخ في رواق الصعايدة، ينام على الحصير ويأكل خبز الجراية، وهو الإنسان الوحيد الذي عاينت انتقاله من إنسان إلى ولي بعد غيابه، وله الآن ضريح مهيب أقامه الخلفاء المخلصون يضم مشفى وملجأ لليتامى ومقار لإغاثة المهضومين، شقيقي الأصغر علي لاذ به بعد طول معاناة مع الوهن والسقم حتى صار من ثوابت الحضرة التي تقام كل خميس ولها ترتيب معلوم إلى أن قُضي، يعلق بي الشيخ بعد صلاة الجمعة، كان خارجاً من الباب

الرئيسي عند مدخل الباطنية، صافحه أبي وسأله: إلى أين؟ قال إنه متجه إلى البقال ليتحدث إلى الأهل من الهاتف، عندئذ قال الوالد، أعلم بوجود هاتف في الرواق، قال الشيخ: هذا للشغل أما مكالمتي فتخصني، عاينت ذلك، مرات أخرى فيما تلا ذلك عندما عرفت طريقي إليه بمفردي، سألت طلابه أن يكتب كل منهم في كراس ما لم يرد في كتاب، حار أمري، ماذا يقصد؟ أمهل الجميع شهراً، في الموعد المحدد عدت ومعني كراس خالٍ تماماً، لم أكتب بصفحاته اسمي حتى، كنت أتلقي عنه ولا أشارك بالاستفسار، أصغي وأصغي ولا أطرح ما يعن لي من سؤال، أحياناً أدون جملة تلفت ذاقتني، أو شرخاً فريداً لبيت من الشعر أو حديثاً لم يصادفني في الكتب، في ذلك العصر تجمع نفر من كل صوب، فيهم الصعيدي والبحري، المغربي والمشرقي، المالاي والاندونيسي، الصيني والتركي والأعجمي، الكردي والعربي، راح كل منهم يذكر ما دونه مما لم يرد في كتب، طال البسط والإصغاء من فضيلته إلا أن بادرة رضا لم تلح، قبل رفع صلاة المغرب اتجه إليّ، خاطبني:

«وأنت.. ماذا عندك؟».

فوجئت حتى ارتج عليّ، فلم يسبق لي أن توجهت إليه أو عنه، أشار إلى الكراس، رفعته، قلبت صفحاته الخالية من كل خط أو حرف، أشار إليّ، تقدمت خجلاً متعثراً في نفسي، تناول الكراس، رفعه بيده قائلاً للكافة:

«هنا.. ما لم يرد في كتب..»

كُتب الوصول

بعد أن استقر الأمر لمكتبة الإسكندرية، أصبحت أشهر مكتبات العالم القديم وتحقق الغرض منها، تجميع علوم المصريين الأقدمين من سائر المعابد ونقلها إلى الضفة الأخرى من البحر، إلى بلاد اليونان، أمر بطليموس التاسع ألا يُسمح بدخول أي مركب صَغر حجمه أو كبر إلى ميناء الإسكندرية إلا إذا نزل ربانه وسلم كتابًا إلى رجل المكتبة الذي خُصص له قارب صار معروفًا لكل الربابنة، مزود بها يمكنه من الصعود خاوي اليدين والنزول ممسكًا بالمخطوط أو اللفافة أو الأوراق المضمومة، لم يضع بطليموس شروطًا لما يجب أن يكون عليه الكتاب، لا حجمه ولا نوعه، أو مضمونه، المهم كتاب، أي لغة، يمكن أكثر، هكذا حوت المكتبة ما حوت، في صبيحة صافية البحر والفضاء ظهر مركب من طراز غير معهود، أشرعته صغيرة، هرمية الشكل وليست مستطيلة أو مربعة كما هو معهود، عندما طلع رجل المكتبة لم يجد كتابًا في انتظاره، كان التفاهم ممكنًا بقدر لأن الربان يعرف لغة شعوب البحر التي يتقنها رجل المكتبة، عندما طالبه بكتاب، قال إنه يجهل ذلك لأنها المرة الأولى التي يبحر فيها إلى تلك الشواطئ، إنه قادم من أرض لم يبلغها أحد، هناك عند الطرف الآخر من المحيط الأعظم، لم يبلغهم ذلك، لكن ما دام الأمر كذلك فسوف يهدي ملك الديار كتابًا ليس مثله مثل، أتى بلفافة من ورق يشبه أوراق الشجر المعمر، اعتاد رجل المكتبة ألا يستفسر، ألا يفحص، كثير من الكتب التي تسلمها لم يعرف مضمونها، نهاية اليوم مضى إلى القيم، حافظ المحتوى، يوزع ما

يرد على المواضيع المحددة، طبقاً للمضمون أو اللغة، عندما فرد اللقافة لم يطالعه حرف، دهش، فردها حتى الحافة، حذق وأمعن، وفي لحظة بعينها بدأ وجهه يكفهر كبداية النوة عند أفق البحر، القيم من حكماء معبد أبيدوس، عالم بما كان وبعض مما سيكون، فجأة قلع غطاء رأسه، لطم خديه وانفرط حضوره مبدئياً ندمه، موغلاً في الاعتراف بذنبه، ليته لم يفض اللقافة الخالية، ليته لم يفض الصفحات التي لم تعد ناصعة كما جاءت، كافة المعارف المتوارثة والمحفوظة انتقلت إلى هناك عبر اللقافة، عبر اللقافة كان ذلك كذلك، بداية أقول المكتبة.

كُونُ

لسمرقند عندي رعدة وهزة، غابت عني التفاصيل عدا صور متفرقة ستبلى إن عاجلاً أو آجلاً، لون الخزف الأزرق وكتابة بيضاء تتخلله، صروح خاوية، مساجد عظمت بلا شعائر، أجزاء من سور، حديقة أشرفت عليها في الصباح، عندما تطلعت من نافذة الفندق الذي وصلنا إليه ليلاً فقابل بصري شجر التيوليب، لم أره إلا في المنمنمات التي تزين الكتب، طريق يحفه صفان من أشجار باسقات كغصن المحبوبة التي لخطوها عندي رَجْع ورعدة حتى زمني هذا رغم فوات السنين وضعف الهممة وبعد الشقة، آه من نسيم سمرقند آه، لها من الألوان السماوي ومن العطور الند والعود ومن الطيور الكناريا ومن الأنغام مقام نهاوند، ومن الظهور كل طلع نضيد، عند جزء من السور تأهنا لدخول المرصد، بجواري سي الطاهر صاحبي الأديب الجزائري، لحظات جلل أتسبب لاستعادتها وأشف، من رغب في الاستزادة فعليه برسالتني في الصباية والوجد، لعل أبلغ الأسباب.

دخلت أمامي ساحة مرصد أولغ بك، ضَمْنَا حيز محدود فأتيح لي تنسم شذاها ومقاربة شفقتها وبلل روحي نداها، وقف المرافق الأوزبكي يتحدث عن المرصد، متى وكيف أنشئ، بمبادرة من أولوج بك، كان مُهاباً في قومه، لم يشغله موقعه عن متابعة الفلك، كنت مشغولاً باستقصاء أصدائها ومقاربة مدارها، غير أنه عندما تحدث عما توصل إليه أولوج بك التفث وانتبهت والله لم أحد عنها ولم أضل، إنما صرت أبصر بها وأسمع، لي بالنجوم تعان وبالكواكب شغل، قال المرافق إنه أمضى

سنوات طويلة يتبع ويرقب ويرصد الأفلاك، أدرك بعد طول فحص وتدوين أن النجوم والشهب والنيازك والكويكبات الهائلة والمجرات ما هي إلا حروف لكلمات مبهمه، أدرك منها القليل ولم يتوصل إلى معرفة الكثير، ليست السماء إلا كتاب الكون ما خفي منه وما ظهر، استعدت رحلة بعيدة إلى سقارة، كنت في المرحلة الإعدادية، مازلت أذكر سقف مقبرة، أسود غميقاً، تتخلله نجوم ذهبية، قال الدليل يومها إن القوم نظروا إلى السماء باعتبارها صفحة في كتاب الكون، ما النجوم والأفلاك إلا حروف فيه، لكن.. ماذا تقول؟ حاولت جاهداً الوصول إلى ذلك السقف، لم أوفق رغم السماح لي بدخول أي مقبرة أو هرم، متاح أو غير متاح، هل وصل إلى أولوج بك نبأ من مصر القديمة؟ هل فك سر الحرف؟ إذن ماذا تكون هي؟

يا نسيم سمرقند لا تغرب عني، من تلك اللحظة أتزود وأتجدد، من هي بوقفتها، بطلتْها، بالتفاتتها، أقول ولا أخفي، إنها مفتتح ذلك الكتاب القديم، الباقي، ألف البداية، ياء المختتم، إنها الفحوى والمضمون الذي لا يبين، فهل وعيت وأدركت؟

كتب وافدة

دخلت الحبس الانفرادي في نهاية أكتوبر عام ستة وستين وتسعمائة وألف، كان ذلك في معتقل القلعة الذي يتوصل به من الساحة الواقعة أمام المتحف الحربي، وصلت إليه ليلاً في عربة ترخيلات من معتقل مزرعة طرة، لمحت في الطريق خطاباً مع الضابط المسئول عن الحراسة، قرأت اسمي الثلاثي مقرونًا به توصيفي - شيوعي - وجملة توصي بالانتباه تحت الحراسة المشددة، كنت أتأمل كل ما يمكنني رؤيته، ما نأ إليّ عن المعتقل الذي يتبع المباحث العامة مباشرة من وسائل تعذيب جعلني غير مستوثق من خروجي حياً، عندما دخلت من البوابة الأثرية، لاحظت أن الحراس والسجانين يرتدون الملابس المدنية، الضابط أو جندي الشرطة مرتدياً الملابس الرسمية لا يثير خشيتي، أما ذلك الذي يحمل رتبة ويؤدي مهمة مرتدياً ملابس مدنية لا تفصح عن هويته فمصدر للحذر والخطر، لاحظت أن الشخص الذي قابلناه في مكتب لا نوافذ له لم يسجل اسمي في دفتر فتأكد لي ما علمته، لا تدوين لأسماء الداخلين حتى إذا قُتل أحدهم في التعذيب يسدد أمام خاتته «هارب»، يعتبر هارباً أثناء الترحيل وبذلك لا يلحق أحد الجلادين ضرراً ويظل في مأمن، وهذا من الفظائع، جرى التنبيه عليّ بنسيان اسمي عند عتبة السجن، ليس لي إلا رقم الزنزانة، صبحني المخبر بعد أن أسدل على عيني طاقية المحكوم عليهم بالإعدام، نزلت درجات، دُفعت إلى المشي خطوات، كشف بصري، أقف عند عتبة زنزانة، بابان، الأول من قضبان حديدية، يليه خشبي مصمت به دائرة

مغطاة، يمكن تحريك القرص الحاجب من الخارج، يتطلع من بالخارج إلى الداخل ولا يستطيع ذلك المحبوس، قال الحارس: «اسمك منذ هذه اللحظة أربعة وثلاثون..»

استعدت ما أعرفه عن منزلة الاسم عند المصريين، الاسم من مكونات الوجود الخمسة، هو أولاً، يليه الكا أي الروح ثم البا الأقرب إلى معنى النفس ويسميه أهل الريف «الطبع» وعندما يموت الإنسان يتطلع إليه أهل المعرفة والحدس، يقول أحدهم: «لا تدفنه فالطبع لم يخرج منه بعد...»، رابعاً الجسد، خامساً الظل، بمنع اسمي عني يحاولون إفقادي بعضاً من وجودي، عندما خطوت إلى داخل الفراغ المؤطر بجدران مرتفعة، خلو من أي شيء، عدارف صغير داخل فجوة في الجدار، تابع الحارس قائلاً إن الذهاب إلى الدورة يكون مرتين لا غير في اليوم، السادسة صباحاً والسادسة مساءً، ممنوع الكلام مع أي معتقل آخر عبر الزنزانة، لا صوت، لا حس، الوجبات ثلاث، لم أستفسر، جرى عندي خاطر ساخر، استعدت التعليقات التي يلقيها موظفو الفنادق على النزلاء، محاولة تعريف كل منهم على محتويات الغرفة، مواعيد الإفطار وغير ذلك، إيقاع كلماته مشابه رغم أنها أوامر، كنت معنياً بالتعرف على هذا الحيز الذي لا أعرف ما سيجري لي فيه، حتى الآن رغم مرور ما يقارب نصف قرن أستعيد جيداً لحظة دخولي ولحظة خروجي عائداً إلى طرة ولحظات دخول الحارس فجراً ودلقه جردل ماء في برد قارس على أرضية الزنزانة حتى لا يمكنني الرقاد، ولحظة اقتحام ضابط ممسك بعصا أخضر العينين، عنده ميوعة، عرفت فيما بعد أنه معروف بقسوته وضرب المعتقلين على أعضائهم الدقيقة، ولحظات استدعائي إلى التحقيق أي التعذيب الذي قام به الرائد منير وقد ذكرت وقائعه في كتاب التجليات، البدايات لا تنسى، كذا النهايات والفواصل، ما عدا ذلك وقت مدغم، متشابه، يقاوم هُلاميته كُلُّ بطريقته، كل شيء ممنوع، لا يترك شيء قط يمكن اللهو به أو تحريكه، كان العشاء نصف رغيف أفرنجي

«فينر» وقطعة جبن نستو وسبع حبات زيتون أسود، الوجبات تجيء من متعهد، لا مكان في السجن لفرن أو مطبخ أو مائدة، عرفت فيه لحم الضأن المجدد الذي يحوي زفارة ما، بدأ استيراده من الخارج في هذا العام وكانت أمي رغم شح أحوالنا ترفضه وتعتبره نذير شؤم وإملاق رغم تأكيد جارتنا أم وفاء أنه مذبوح على الشريعة الإسلامية وجرى التكبير عليه ثلاث مرات، في الصباح عند تسليم الإفطار، نصف رغيف به مس من فول، قبل أن أتناوله يطلب المخبر تسليم بذور الزيتون كل يوم، سواء هو أو غيره يقول نفس الجملة ويبدو أنها تعليمات، «إوعى تقول لي إنك بلعت واحدة..»

يعدمهم أولاً، سبعة يعني سبعة، حبات الزيتون يمكن رصها، اللعب بها مثل السبجة أو تخيلها كشطرنج، أما الطعام فعلمت فيما بعد أنه مدروس، يسكت الجوع بقدر لكنه لا يفي باحتياجات الإنسان، من هنا كان مصدر الدوار والإحساس بالهزال الدائم، إنه طعام وليس بطعام، يتداغم الوقت في الحبس الانفرادي، الحركة محدودة، النزانة طولها خطوتان ونصف الخطوة، ما من وسيلة إلا الإمعان داخل الذات وتوقع الاستدعاء، كنت أحاول استدعاء اليوم الموازي، الآن يقوم قطار الثامنة صباحاً، الآن يخرج أبي إلى شغله، إلى صلاة المغرب، العشاء، الجمعة، مع تشابه الأيام لافتقاد الحركة، عندما ينحصر المكان يتضاءل الزمان أيضاً، غير أن ثقله يتزايد، حتى أخفف منه بدأت أستدعي بعضاً مما كان، فترات بعينها، حقب أتمنى استعادتها وأخرى أخشى تذكرها، إلى أن وقفت على مصدر خوائي وسبب تقلقلي، افتقادي الكتب، منذ بدء سعبي وتعرفي إليهما لم أنقطع عنها قط، حميمة لم توانني تجاه أي خلق أو كينونة، حتى إن الكتاب الذي أعلق به أضعه إلى جواربي عند إغفائي حتى لا ينأى عني، فترة حبسي واعتقالي وتقطيع الصلات بيني وبين كل ما يخرج عني هي الأصعب، في المزرعة كنا معاً، الكتب ممنوعة عدا القرآن الكريم والكتاب المقدس، لكن في القلعة غير مسموح حتى بالقرآن، ما

من كتاب أو كتابة، حصار مطبق وترسيخ تام لقطيعة صماء، في المزرعة كنت مع صحبي، كل منهم كتاب حي بها يذكره أو يقصه أو يستدعيه، لكن في الانفرادي يباب، انتظار الجلد والكي والتغطيس في البول والضرب المدمي، في أي لحظة قد يحدث الاستدعاء، يبدأ تهية المخلوق من الزلزلة بصفحه وركله ودفعه للاصطدام بالجدران معصوب العينين حتى يمثل أمام ضابط التحقيق ولي في ذلك أحوال ولغيري أكثر، ربما أذكرها في موضع آخر غير أنني لن أستدعي في هذه الحكاية إلا ما يخص الكتب، لما طال افتقادي للكتب عامة وحسرتي على ما استولى عليه الضابط المكلف باعتقالي، كان فظاً صلد القلب متعمداً للتخريب، يأخذ جزءاً من تاريخ الجبرتي ويترك البقية ولما أبدت اعتراضي فهذا كتاب تراثي قال بدون النظر إليّ، ربما يحوي تعليقات ذات مغزى، لم يكن يُمكنني رده أو منعه، اعتقل كتبي معي، حوى ما استولى عليه نفائس اقتنيتهما بشق الأنفس، وكافة صوري وصور أسرتي فلا توجد لي لقطة قبل عام ستة وستين، كذا أبي وأمي، وأشقائي وأصحابي، صادر جزءاً من ذاكرتي، وكل ما لديّ من ورق أبيض ولذلك خلفية طويلة أمل أن أكون وضحتها في كتاب التجليات، ذات ضحى ورد عليّ خاطر أن أستدعي كتاباً أتأمله، أقلب صفحاته، أسترجع ما حوى بالصمت أو النطق أو كليهما معاً، ولأن الحديث المسموع كان ممنوعاً البتة لذا جرى نطقي بالهمس، أول ما وفد على ذاكرتي «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس الحنفي المصري، قرأت طبعاته، الأولى من بولاق في القرن التاسع عشر، والثانية مصورة عنها في كتاب الشعب الذي قدمه منجماً، على أجزاء عديدة للتيسير على الراغبين أما الأتم الأكمل فطبعة محمد مصطفى وباول كاله، أصدرتها جمعية المستشرقين الألمان، ولم تكن في ذلك الحين قد استكملت بعد، ولي مع محمد مصطفى سعي وصلة، فيما تلا ذلك من سنوات رتبت إصدار ذلك التحقيق في مصر، لكن تلك حكاية أخرى، وفد على الكتاب بأجزائه الأخيرة بدءاً من عصر قايتباي وحتى انتهاء التاريخ

فجأة عام تسعمائة وستة وعشرين، بالأخص وقائع الغزو العثماني لمصر، تفد على صفحات كاملة كما عرفتها حتى العلامات أراها واضحة، جلية، عندما تكتمل الرؤية أغمض عيني، أضبط حالي مستمتعاً بالوحدة، بالانفراد حتى لأسخر من الذين خططوا هنا أو من تعلموا منهم هناك، متذكراً قول روائي شهير لعله ألبير كامو، قال إنه لا حدود لقدرة الإنسان على التكيف، حتى ليتمكن العيش في لحاء شجرة، قول مستحسن المعنى وسليبي من ناحية، لهذا شرح يطول لعلي مفصح عنه يوماً، أحياناً أجد الصفحات بيضاء، خلواً من أي حرف، بيضاء كضمير المولود تواء، عندئذ أستعير حال أعرفه، ذلك أنني فطرت على عشق السماع، اجتهدت ثم خلصت إلى إسلامي القياد إلى ما ترغبه روحي، أحفظ الألحان، أتقنها، أحياناً تغيب الكلمات عني، عندئذ أكمل الناقص من محتوي ومكنوني، أبدل، أقدم، أؤخر، هذا ما صار لي مع الكتب الوافدة من ذاكرتي، القادمة مني والذاهبة إلي، أصير المنبع والمصب، يتداخل هذا بذاك فيتسع الكتاب لما لم يوجد فيه، يصير قابلاً كل خاطرة أو إضافة وهذا من غريب ما عرفته، وفد علي وألح «تفسير الأحلام» لفرويد، حاولت إبقاءه بعيداً لضخامته وصعوبته، غير أنه أثنى جلياً، ناصعاً، لم يكلفني مشقة إلا في مواضع قليلة حتى إنني رأيت باب تكوين الحلم بالضبط كما عرفته، ثم أدركت أنه على قدر المشقة يكون وضوح الوفاة، كل ما بذلت الجهد من أجله جاءني يسر، عرفت فرويد بترجمة مصطفى صفوان في دار الكتب، باب الخلق، ما أجلاًها وأروعها هيبة، كنت أتوق إلى مدخلها الرحب كأني ماض إلى محل بهجة وموضع ورع، تقى إلى اقتنائه، لم يكن بمكنتي شراؤه لقلة مصروفي فعكفت على نقله، نسخته كاملاً حتى الهوامش الألمانية، رسمتها لجهلي بها، بعد حوالي ثلاثين عاماً التقيت المترجم في باريس وعندما رويت له ما جرى قال بدهشة: أنت تعبت أكثر مني فيه، ليس تفسير الأحلام فقط، كل ما تقى إلى اقتنائه ولم أتمكن لو هن الإمكانية أو لندرة النص، كل ما كتبته وفد علي هيناً، متاحاً، حتى أنني لأقلبه

كأنه بين يديّ، ومن ذلك «القصة السيכולوجية» لـ ليون أيدل، و«المغني» للقااضي عبد الجبار بأجزائه التسعة المتاحة، و«الشفاء» لابن سينا، خاصة الجزء المسمى «السماع الطبيعي» ويتطرق فيه إلى موضوع الزمن شاغلي الأكبر، أما «الإشارات الإلهية» للتوحيدي فرتلته ترتيلاً، وغير ذلك كثير، صار في حبسي الانفرادي مكتبة لا تدرك ولا يمكن أن يراها إلّا، لكن الأغرب وفادة من عرفت من روايات أحببتها وأضعها في متناولي حتى يومي هذا، من ذلك كابتن أخاب، كنت أراه حتى يتداخل معي فأقوم في الزنزانة لأمشي مثله وبـي عرج، أو أقف متطلعاً عند أعلى الصاري باحثاً في المحيط عن حوت أبيض أسعى إلى الثأر منه، مويديك هرمان ميلفل أقنومي، أما راسكولنيكوف فجاءني متهادياً، يرتدي المعطف الذي أخفى البلطة تحته، يمضي عبر شوارع وجسور بطرسبورج، أغمض عينيّ أتبعه مقتفياً أثره، أتمعن فيه حتى أصير هو ويمضي إليّ، أما جان فالجان، أول من قابلت من شخوص عالمي الأثير فأتحذ أحياناً وضعه عند المتاريس أثناء اشتعال الثورة، أما تشوخوف فلم أستدع نصّاً منفصلاً عنه، إنما يجيء أولاً برقته ونظراته الساحرة، أطلب منه أن يحكي لي كما يطلب الطفل من أبيه حكاية، والله كدت أسمع صوته، يتحرك لسانه بالروسية ويصلني بالعربية في معزلي القسري فما أعجب..

كتابة

أبيدوس

موضعها الذي كان قبل عدة آلاف من السنين، ما بين موقع المعبد الحالي الذي وصل إلينا سالمًا تقريبًا بمعجزة رغم غزوات ودوام احتلال واعتناق أحفاد لأديان وافدة ونسيانهم ما قدسه الأجداد، وما بين ما يُعرف الآن بشونة الزيب، في ذلك الزمن البعيد كانت الرموز منطوقة لا غير، متوارثة، إلا أن أشياء بدأت تتراكم، تنتقل شفاهة من جيل إلى آخر، إلى أن جاء كاهن متقن لسائر ما عُرف حتى ذلك الحين من علوم وأحجية لا يعرفها إلا الخاصة، بعد طول تأمل في سحيق النجوم، وذلك الغبار الممتد كمر هناك في الأعالي، بعد تتبع لأطوار البذرة التي لا يمكن أن تثمر وتينع إلا إذا طمرت ودُفنت في التربة، أيورق الإنسان الذي يغيب إلى الأبد؟ أسئلة كثيرة طُرحت على المجمع المقدس الذي رأسه تحوت حاوي ما توصل إليه الأقدمون، الذين عُرف منهم وما لم يُعرف، ما حصلوه وما لم يُحصل، بعد خلوة طالت أربعين سنة، خرج فجرًا ونجم الشمال لم يتوار بعد، قصد الموضع الذي دفن فيه رأس أوزير بعد أن مزق شقيقه ست رمز الشر جسده إلى اثنتين وأربعين قطعة ونثرها على الامتداد حتى سعت الوفية الجميلة النقية الطاهرة، تذرف دمع الفقد والحزن على حبيبها وأنيسها الذي أنجبت منه بعد قتله عندما عثرت على عضوه، هكذا حملت بحورس وهي تدمع، من قَطرها يجيء الفيضان، بعد عثورها على آخر قطعة اكتمل حضور كيميت أي الأرض السوداء، الخصبية،

مصدر الزرع والضرع والوفادة والسعي والمآب، المبدأ والمعاد، هكذا بدأ حضور مصر في المكان والزمان، وحدها أوزير بجسده وفي هذا شرح يطول يخرج بنا عن السياق إذا أمعنا فيه، الموضح الأقدس حيث دفنت الوفية الرؤوم الرأس، دائمًا نرى أوزير ملفوفًا بالأبيض، لا نرى وجوده، إنما أبديته، موميأؤه، تقف وراءه إذا كان جالسًا أو واقفًا، إيزيس، تلمس كتفه بحنو وترهاف، هي الحامية، هي الحارسة، الوفية، إذا ظهر بمفرده يكون لونه مزيجًا من أخضر مشوب بزرقة، خصب ونماء، أما ست فلونه أحمر على حافة الأصفر، جذب وعدم مثل الصحراء الممتدة جنبًا إلى جنب مع الزرع والبذور وسريان الماء السلسال، جبت العالم شرقًا وغربًا فلم أعرف بلدًا يتجاور فيه الكينونة والعدم مثل مصر، يمكن لإنسان أو حيوان أو طائر أن يضع قدمًا في الوجود وأخرى في العدم، في ذلك الحين كانت الألوان بديلاً للرموز، ظل ذلك ساريًا، ممتدًا، حتى بعد ما توصل إليه تحوت في موضع أبيدوس بعد تدبير وإمعان قرب موضع الرأس المقدس لأوزير الخير، وقد عشت قدرًا غير هين من عمري بجوار مرقد رأس الحسين الشريف، ما لفت انتباهي الاحتفاء بالرأس لكليهما وهما شهيدان، افتديا الآخرين بوجودهما فما أقرب وما أتم المعنى! كلما نزلت ما يُعرف الآن بالعرابة المدفونة، طفت بالمعبد فجرًا وظهرًا ومغيبًا، كلما خرجت من قاعة الأسلاف حيث ستة وسبعون خرطوشًا لكل من توالوا وتعاقبوا عدا المارقين، من حادوا عن الصراط وخلخلوا البنية، حتشبسوت مغتصبة الحكم الحق من شقيقها، وأخناتون المهروطق الذي خرج من معتقد الأجداد وهو مُلِيم، وابنه الصبي توت عنخ آمون، كلما خرجت إلى «الأوزير يون»، قاصدًا الممر المرسوم على جداره الأيمن بالنسبة للداخل كرة تامة الاستدارة لونها أحمر طوبي، تحيط بها يدان تلامسانها لا غير، لا يبدو إلا اليدان حتى الكوعين، ما خلا ذلك خارج البصر، تضيق عنه المساحة، أعرف الرمز، يتصدر قاعة التابوت في مقبرة رمسيس السادس، تأمله قليلًا وكثيرًا، محاطًا بالكتابة التي ما كان ممكنًا ظهورها بدون تحوت، الذي

قُدس فيما بعد وصار اسمه توت ولعلنا نتذكر الشهر المعروف في التقويم القبطي الذي يتبعه كل من يعمل بالفلاحة في بر مصر المقدس، تقول المتون إن تحوت خرج من المجمع قاصداً القصر الملكي، التعليقات جلية، مسموح له بالدخول على سيد الأرضين - القبلي والبحري - حتى لو كان نائماً يوقظه، غير أنه كان مستيقظاً وكأنه توقع مجيء سيد الكهنة وخازن الحكمة، أدى السلام وأقبل، وضع اللفائف، راح يبسطها واحدة بعد أخرى متدفقاً في الشرح وتفسير أول أبجدية يعرفها الإنسان، قال إنه يقدم إلى حارس كيميت، المؤمن، الصادق، القوي، عمارة المعاني وحافظة الوجود، غير أن الملك لم يبد ما توقعه تحوت الحكيم، ليس هذا وضعه عندما قدم إليه الشطرنج الذي اخترعه، ليست تلك ملامحه التي عرفها يوم قدم إليه لعبة الضامة التي توصِّل إليها وتشبه الشطرنج، أو عندما قدم أصول البناء، أساس الهندسة، مال الملك إلى الأمام، بدت على ملامحه غضون وأوشك على إبداء أسى، توجس تحوت، ماذا فعل حتى يجيء رد الفعل هكذا؟ قال موضحاً:

«لن يكون نسيان بعد اليوم..»

هز المتقن، الأمين على الضعفاء، حافظ الحدود..

«بل إنه النسيان عينه، لن يبذل القوم جهداً للتذكر، بدون كتابة كان أفقهم أوسع ومدارهم أرحب، لكنك بهذه الحروف حددت سعيهم، ما قدمته لي وصفة للتذكر وليس عوناً للذاكرة، سيتبعون الرموز وليس الأصل..»

بُهِت تحوت حتى اغبرت ملامحه وظهر عليه كمد وعندما همَّ بطي اللفائف أشار إليه سيد الأرضين أن يكف..

«لم تظهر الحروف لتختفي، إنما لتبقى، ظهورها لن يعقبه طي وما سيكون... سيكون...»

كتاب البحر

عائد من جزيرة شدوان ليلاً إلى الغردقة، مركب صيد، رئيسه صعيدي من قفط، جاء ليقيم مع أبيه الذي سعى إلى الرزق، أتقن الإبحار حتى صاروا يقولون إذا ذكر اسمه «البحر الأحمر لعبته..

كان يحفظ مستويات الأعماق، مواقع الجزر، أنواع الكائنات البحرية، يقسم إن الشعاب المرجانية تفرز منياً كالرجال تلقح به الماء والفضاء، علماء متخصصون يجيئون إليه من كل فج، يستقصون ويستعلمون، يأخذون عنه ويدونون، عندما بدأ هجوم العدو الإسرائيلي على الجزيرة المرباط فوقها سرية صاعقة، قاتلت بشراسة، أرهفت البلاد كلها سمعها لما يُتلى من بيانات، كان فيها ما لم يعتده القوم، ذكرت الخسائر بدقة، تجاوز الشهداء السبعين، احتلال العدو الجزيرة لساعات، وصلت إلى الغردقة من القاهرة، كنت يافعاً، جلدًا، أهدئ النفس بالتواجد في قلب الخطر من خلال عملي كصحفي، قصدت الجزيرة مع ضابط بحري، والعقيد محمد مازن السوهاجي كان قائدًا لمكتب مخابرات البحر الأحمر وثلاثة صيادين يعملون على المركب، نشطوا خلال المعركة، نقلوا سلاحًا وذخيرة ومددًا، يقول الرئيس إنه يمكنه الإبحار عبر طرق لا يمكن حتى للأقمار الصناعية أن ترصده عبرها، يشير إلى الماء الممتد، يقول هذا الاستواء فيه دروب وممرات ومنعرجات، لا تظهر إلا لمن يعرفها ويتقن التعامل معها، عندما وصلنا الجزيرة صلدة الصخور، كلها مرجانية يستحيل الحفر فيها، لذلك بقيت أجساد أربعة وعشرين شهيدًا بدون

دفن، العدو قام بتلغيمها، غُطيت بالبطاطين، لم أر إلا وجهًا واحدًا لمجنّد، خريج المعهد الأزهري بنجع حمادي، دونت اسمه واحتفظت به، وبعد حوالي نصف قرن تطالعني ملامحه التي لم تكن قد توارت بعد، كان موجودًا وغير موجود، أرى الفئار عند الطرف الجنوبي، عنده جرت واقعة ذكرتها فيما دونت، شدوان من الأماكن القليلة في الدنيا التي تركت عندي أثرًا، الليل اقترّب، نشط الطيران المعادي مع آخر ضوء، يجب الانتظار حتى ما بعد المغيب، بدأت العودة، ظهر السلاح المخبأ، ربما نتعرض لهجوم، تنقلت من أعلى نقطة، كابينّة المراقبة إلى المقدمة، العقيد مازن حدثني بأشياء مازلت أذكرها، بعد انتهاء الحرب استشهد في حادث مروحية ذاع أمره، قضى فيه وزير الدفاع أحمد بدوي وثلاثة عشر ضابطاً لقوا جميعاً آجالهم، منهم مازن الذي أقمت في مقره، مكان ما لا يمكنني تحديده الآن، موقعه في ذاكرتي، غير أن ما أذكره هذا العدد الهائل من النجوم وغمام مجرة درب التبانة، والشهب المنفلتة، وأصداء النجوم في الماء الذي راح رئيس المركب النحيل، ممصوص الوجنتين، عمامته عالية، كان يطيل النظر إلى الماء على جانبي المركب، مرة من يسار، أخرى من يمين، تعجبت، ظننته سيظل متطلعاً إلى الأمام، وُضِع كل الربابنة، سألته، لماذا ينظر إلى الماء؟ التفت إليّ لحيفة وعاد إلى وضعه، قال إنه يقرأ كتاب البحر ليدله على الطريق غير المطروق الذي يسلكه، ثم قال إن البحر كتاب غويط، غويط، لا يقرؤه إلا من يعرف أحاجيه وأسراره، فيه كل ما تتخيل حتى ما يتعلق بالسمااء..

بالكتب

يصعب، بل يشق عليّ حصر ما قرأته من كتب، غير أنه من السهل تعيين ما حيرني، إنه كتاب الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ «150-250 هـ» ترى ماذا قصد به؟ لماذا يبدأ بمعنى الكتب، علاقته بها، جماليات الخط، بل إنه يقول ما نصه:

«أعلم أن العاقل إن لم يكن بالمتبّع، فكثيراً ما يعتريه ما يعتريه من ولده، أن يحسّن في عينه منه المقبّح في عين غيره، فليعلم أن اللفظ أقرب نسباً منه من ابنه، وحركته أمسّ به رجماً من ولده، لأنّ حركته شيءٌ أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصلّت، ومن نفسه كانت، وإنما الولد كالْمُخْطَعة يتمخّطها، والنخامة يقدّفها، ولا سواءٌ لإخراجك من جزئك شيئاً لم يكن منك، وإظهارك حركة لم تكن حتّى كانت منك، ولذلك تجد فتنة الرجل يشغره، وفتنته بكلامه وكتبه فوق فتنته بجميع نعمته».

أفهم ما قاله وأقدره، ليس في هذه السطور فقط، إنما في صفحات وشذرات أخرى بشها في موسوعته التي طبعت في ثمانية مجلدات بما يتجاوز مجموعه ثلاثة آلاف صفحة وخمسمائة، محفوظ أقدم مخطوطاتها في مكتبة لامبروزو، حققه عبد السلام هارون، غير أنني أتساءل دائماً، ما علاقة ذلك بالحيوان؟ ما الصلة بين أدق ما كتبه أديب بالعربية عن أسرار الإبداع والصلة بالحرف واللفظ والتكوين والكتابة؟ ما الصلة بين البلاغة والحيوان؟ لماذا يتضمن حديثاً عن الإنسان وأحواله

وطبائعه أكثر مما قصده موضوع الحيوان، ما حيرني ما ذكره عن الكتابة والكتب، طالعت عجائب في كتب من عاصروه عن صلته بالكتب، احتفاظه من العنوان الواحد بعدة نسخ، عشقه لنصوص بعينها حتى إنه يضعها بجواره على الفراش، لا يطيق بعده عما قرأ وأعجبه، بل إنه كان يقضي أوقاتاً طويلة، أياماً وليالي متوالية لا يقيم أوده إلا باليسير من الخبز والغموس البسيط، بل يؤكد مخطوط لمؤرخ يمني محفوظ بمكتبة بودليان أنه كان يجد متعة في صحبة الكتاب أعمق وألذ من صحبة الأنثى الجميلة المعطاءة، أفهم ذلك وأدركه، لكنني لم أستوعب حتى الآن الصلة بين عنوان الكتاب وما تضمنه، عندي مثل ذلك، وقديماً قال فؤاد التهامي صاحبي لمخرج سينمائي بدأ يعد شريطاً سينمائياً عني، قال فؤاد له ناصحاً ومقترحاً: ابدأ بجمال يجلس في قاعة تتكسد فيها الكتب، لقطة من أعلى تظهره وكأنه مجلد من المجلدات، أحياناً أرهق فأتمدد على أرضية المكتبة، أتطلع إلى الأرفف التي تتراس فوقها الكتب، بعضها بارز لحجمه، منذ سنوات وقع زلزال مركزه جنوب جزيرة كريت، سقطت الكتب الزائدة عن المساحة المتاحة فوق الأرض، لو أنني رقدت ذلك اليوم للقيت مصير الجاحظ، إذ غفا ونام في خزانة كتبه، ولسبب ما تساقطت فوقه الكتب وهكذا قضى.

برت إم هارو

عندما تم بيت الحكمة في القاهرة زمن الحاكم بأمر الله جمع المترجمين من سائر اللغات المندثرة والسارية، كان كثير المجادلة، عويص المناغشة، سألهم: هل يمكن انقلاب المعنى في كتاب إذا نُقل إلى لغة أخرى؟ يقول المسيحي في تاريخه المفقود وكان حاضراً المجلس إن الجمع تهيّب الإجابة لغرابة السؤال، وربما لأنهم لم يفهموا الهدف الخفي منه، لكن المؤكد أنهم لم يكن لديهم ما يمكن أن يشكل إجابة، قلبت الأزمنة المتوالية خاصة المعاجم التي ذكرت الكتب والتأليف مثل «الفهرست» لابن النديم، و«كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة، غير أنني لم أجد ما يمكن اعتباره إجابة عن سؤال الحاكم بأمره، إلى أن وقفت على إمكانية ذلك، لو أنني مثلت أمام الخليفة الذي اختلف القوم في أمره لقلت: نعم يمكن هذا، ولضربت مثلاً بكتاب الخروج إلى النهار المعروف خطأ بكتاب الموتى، العنوان لا غير بَدل المضمون، غيرَه تمامًا، شاع ذلك حتى أصبح شبه مستحيل عودة الأمور إلى أصولها واتصال الفروع بجذورها، لا أدري متى بدأ اهتمامي بتلك المتون المتعلقة بحياة أخرى، أول من تخيل تفاصيلها المصريون القدماء، كم من السنوات انقضى حتى وضعوا هذا التصور المتقن لبدء الرحلة الأخروية، ثم المثول أمام المحكمة الأوزيرية، عبور مراحل، وترتيل مناجاة في أثر أخرى حتى الموقف الأكبر عندما يمثل «المبرأ»، وهو لفظ قريب من «المرحوم» أمام

المحكمة الأوزيرية حيث يوزن القلب في كفة وريشة ماعت رمز العدل والتوازن في الوجود، فإذا ثقلت موازينه يكون مذنبًا، يلقي القلب إلى حيوان أسطوري، نصفه العلوي تمساح والأسفل أسد، اسمه «هَمْ هَمْ» عندئذ يصير المبرأ إلى الجحيم، أما إذا خفت موازينه فيصير إلى حقول يارو حيث أرض ليس فيها أعداء، سلام دائم ونعيم مقيم، ماء ونخيل وثراء ونعيم، شغلني الكتاب، بالتحديد عنوانه، برت إم هارو أي الخروج إلى النهار، قرأت مؤلفات الألماني إريك هورنينج وصنوه الأقدم أدولف ارمان عن المعتقد المصري القديم وما وضعه والاس بدج الإنجليزي والأمريكي النبيل جيمس هنري برستد، ولي معه شأن سأفضي به يومًا، وقفت على رؤية الأجداد، رفضوا العدم، اعتبروا الإنسان في رحلة، الحياة مرحلة، إذ تنتهي لا يكون عدم، إنما انتقال إلى حياة أخرى ممتدة باقية، لا يتم البدء فيها إلا بعد حساب، من هنا كانت المحاكمة والميزان ورمز العدالة ماعت، وما زال القوم يقولون في حواراتهم «أنت على راسك ريشة...»، الرحلة الأخروية فيها مجهول وخطر، من هنا جاء كتاب الخروج إلى النهار، إنه يزود المرحوم بدليل لما سيقوله أمام المحكمة وخلال الأطوار التي سيمر بها حتى وصوله إلى حقول يارو، جنة النعيم، ما زال القوم في صعيد مصر يهمسون في أذن المرحوم، جرى ذلك مع أبي، عندما همس الأكبر عمرًا في أذنه مطمئنًا له، موصيًا إياه ألا يخاف وحشة الطريق، وإذا لقي كذا فعليه أن يتلو كذا، أما العنوان فحوى الرؤية، عندما تتم مرحلة الدنيا ويعبر المبرأ المحكمة تصير روحه ضوءًا بين النجوم، لذلك عُدد الرحيل الأبدي خروجًا إلى النهار وليس دفنًا في الظلام، لهذا عندما يرى الأهل في الريف شهابًا يسوي يقولون إنه روح أحد الصالحين أتم المدة واتحد بالنجوم، الحساب والجنة والنار صار إلى الديانات التالية مع تغير الرؤى وتبدل التفاصيل مع نقاء الجوهر، كان الكتاب يوضع على شكل لفائف من البردي، وصلنا بعضها، رأيت نسخة

في متحف تورينو مفرودة على جدران القاعة الرئيسية، أما الأتم الأكمل فالبردية المخصصة للمبرّ آني وزوجته التي تقف وراءه أو إلى جواره في كافة المشاهد، انقضت الأزمنة الغابرة وصار كل شيء إلى نسيان وهذا من حقائق الوجود، اللغة تُسيت والرموز تبدلت والألوان بقيت لكن تغيرت دلالاتها، وعندما أعاد شامبليون اكتشاف اللغة المنسية لم تعد جزءاً من بنية لها خصائصها ومعتقداتها إنها عنصرًا باليًا فردًا ليس متصلًا بمكوناته، بعض السمات لا تزال سائرة، في العقائد، في اللغة، في الخفي غير المدرك، غير أن هذا كله يظل في حاجة إلى إدراك وجهه، لا شيء يبقى، لا شيء يدوم، ما تظنه ساريًا، أبدًا صائر إلى تحول، تبدل، ما حيواتنا إلا من غبار النجوم، من غبار إلى سدم تكون الصيرورة، قرأت شذرات من الكتاب عند برستد وسليم حسن وجون ولسون ونوبلكور وغيرهم، ثم قرأته كاملاً في ثلاث ترجمات، الأولى من الإنجليزية أنجزها فيليب عطية، والثانية من الفرنسية أتمتها الدكتورة زكية طبوزاده، والثالثة لمحسن لطفي السيد، أورد فيها نصوصًا بلغات ثلاثة، الإنجليزية، الفرنسية، العربية، أما الرابعة فتمت بسعبي، إذ كنت أتمنى قراءة النصوص القديمة مترجمة مباشرة إلى العربية، خاصة أن العامية المصرية تتضمن ألفاظًا عديدة وتراكيب عتيقة، عندما التقيت في ألمانيا بشريف الصيفي المتخصص في الهيلوغرافية، عرضت عليه الأمر فرحب ونشرت ما أنجز في أخبار الأدب، ثم صدر الخروج إلى النهار في كتاب وطبع مرات، هكذا أديت واجبي تجاه نص أحبيته وصرت إلى حفظ مقاطع منه، خاصة الأربعين قسمًا بعدم ارتكاب المسيء إلى الآخرين، كيف بدل العنوان المترجم من مضمونه؟ في الشرح إجابة على سؤال الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي ظل عالقًا أكثر من ألف سنة؛ لأنهم وجدوا اللغائف الكتابية مع المومياوات، ظنوا أنها كتب للموتى، شغلني هذا، فتلك النصوص كُتبت بلغة الأحياء وقتئذ، فهل تخيلوا أن الراحلين العابرين

سيقربونها بنفس اللغة؟ لا نعرف حتى الآن بأي لغة يكون التخاطب هناك، باللفظ أم بالإشارة، أم بوسيلة نجهل كل شيء عنها، هل تُلقى المفاهيم في الأرواح، بلا وسيط؟ لا علم ولا إحاطة مني بشيء، عندما أقدم والاس بدج وفولكنر على الترجمة، أطلقا عليه «كتاب الموتى»، هكذا صار رفض الفناء التام قبولاً به وصار الانتقال فناءً، تبدلت الرؤية بسبب عنوان وتلاشت الطريقة، الأجداد لم يعترفوا بالموث، آخر طقس قبل الدفن طقس فتح الفم، عندما يفتح الكاهن ما بين الشفتين بما يشبه القضيب صائحاً:

«انهض إنك لست بميت...»

الكتبي خربوش

أين رأيته؟

أين رأيته؟

آه. على سور الأزبكية، نحيل، حاد الأنف، غائر العينين، يرتدي زياً أزهرياً، جبة وقفطاناً غير أن غطاء رأسه فاروقية من قطيفة مجمدة على رأسه صيفاً أو شتاء، ها هو يتحدث إلى بائع غامق السمرة متخصص في الكتب الأجنبية، إنجليزي، فرنسي، ألماني، لغات أخرى، لا أراه عبر مسافات الوقت واقفاً إلا عند هذا الرجل، أصافحه، إذن أعرفه من قبل، لا بد أنني التقيته عند بائع آخر قبل، ما زلت أذكر عبوري ميدان العتبة باتجاه السور، الكتب المصفوفة أثارت عندي بهجة، نشوة غامضة، أخيراً وقعت على المصدر الأتم للكتب، سور الأزهر بدأ عندي بالشيخ تهامي، من أسوان، يميل إلى بدانة، بعد المدرسة كنت أتجه إليه، أجلس على رصة كتب، أختار كتاباً، رواية في معظم الأحيان، أستغرق، يهن الضوء، يحجيء عمال الإنارة، يضعون السلام إلى أعمدة الإضاءة، يشعلون المصابيح التي تضاء بالغاز، فيما بعد علمت أن وسط المدينة والشوارع كانت مزودة بشبكة غاز طبيعي منذ عهد الخديوي إسماعيل، الشيخ تهامي لم يكمل تعليمه في الأزهر، لسبب ما لزم الرصيف يبيع الكتب للطلبة ولربات البيوت اللواتي لم يكملن دراستهن، يبحثن عن روايات، بعد العشاء يرص الكتب، ينام فوقها، لم أعرف له مقراً إلا الرصيف، منه بدأت، ثم دار الكتب إلى أن عرفت السور الذي كان مقصد نزهتي، أما الشيخ

خربوش فلم أعرف له مقرًا لم ألتقه إلا في حركة، يعبر طريقًا، يتأهب لمفارقة من يتحدث إليه، عُرف عنه قدرته على الوصول إلى النواذر، أو كما يقولون -يقدري يجيب المخفي- أما الذاكرة والقدرة على حفظ العناوين وأسماء المؤلفين ومواقع النسخ أو الطبع، فلم أعرف له صنوًا، غير أنني وجدته في الحاج محمد مدبولي وصاحبي حامد سعيد، كان يعمل موظفًا بمكتبة عامة، تخصص في الحصول على الطبعات المفقودة ونسخها بالتصوير ثم بيعها لمن يرغب، لكل منهما ذاكرة تقارب الشيخ لكن لا تشبهها، ذلك أنه تميز عنهما بما لم أعرفه عند مخلوق آخر، لا بالمعينة ولا بالسمع أو القراءة، ذلك أنه أوتي القدرة على حفظ نصوص مفقودة، لا يتضمنها مخطوط أو مطبوع، يتلوها بالعلامات وما تبدل منها، يعيد الأمور إلى أصولها عبر الذاكرة، رأيت مرة في حديقة الأزبكية فوق الحشائش يجلس أمامه رجل صيني، أبيض الشعر، خفيف اللحية، عرفت فيما بعد أنه سعى خصيصًا من الصين للقائه عندما سمع أنه يحفظ كتاب اللصوص المفقود من مؤلفات الجاحظ، دفع له مبلغًا له صورة، إلا أن الشيخ لم يهتم، لم يكن يعبأ ولا يناقش، بل إنني لاحظت أنه يتناول المقابل فلا ينظر إليه، ولا يعد العملة ورقية كانت أو معدنية، فرح بالصيني لأنه طلب نص «اللصوص» بالذات، لم يسع إليه أحد وكان يخشى أن يفارق الدنيا ويمضي الكتاب معه، فلم يسع إلى تدوين ما يحفظه رغم أنه كثير، معظمه نادر، ولا يعرف أحد كيف وقف على الأصول ولا كيف صانها في ذاكرته، جاءه علماء متخصصون من ليون في هولندا، وبولونيا في إيطاليا، وفيينا وفرايبورج وليل، غير ذلك كثير، عندما سافرت إلى بكين، نزلت ضيفًا على أكاديمية العلوم الاجتماعية، سألت عن مستعرب جاء إلى مصر، كان يتخذ اسمًا عربيًا على ما درج عليه أساتذة العربية هناك ما زلت أذكر اسمه لندرت «صاعد إلى حافة الكون»، دققوا في الاستفسار فهم أهل عمق وتيقن، وصفته كما رأيته، جلس إلى الشيخ خربوش أربعين نهارًا متوالية عدا أيام الجمع، التي يغيب فيها

ولا يعرف أحد مقصده لأن ما من إنسان تعامل معه استدل على موقع إقامته، هادوا إليّ، أخبرني الأستاذ بسام من رافقني وأطلعني على مقابر الأباطرة وطريقها الأبيض الذي أذهلني لبساطته وعمق دلالاته، أكدي أنه لا يوجد شخص قصد مصر في هذا الوقت، ولم يُعرف بين المستعربين منذ أن بدأت مدرسة الاستشراق شخص بهذا الاسم، حيرني ذلك حتى شككت فيما عندي، كان أمني أن أجد أثرًا لهذا الصيني الذي رأيته بعيني، لعله يكون نسخ ما سمعه وأودعه خزانة ما، إما في الجامعة أو أحد مراكز الاستشراق، بلبني خاطر مضمونه تساؤل هل كان يحفظ نصوصًا قديمة حقًا أم توهمها فوضعها فأملأها، لكن ماذا يدعو كل هؤلاء الأساتذة إلى شد الرحال إليه؟ علمت من الشيخ تهامي أن كبير الدروز في جبل الكرمل، أرسل يطلب منه إملاء النصوص الكاملة لرسائل الحاكم بأمر الله، وله مقدار وزنها ذهبًا بنديقيًا مضمون العيار، اعتذر بلطف وكياسة، صحيح أنه يحفظها لكن نطقه بها وإخراجها إلى العلن سيحدث أمرًا يخشاه، إنه النص الوحيد الذي اعتذر عن تلاوته والنطق بمضمونه، عندي كتاب أملاه عليّ كلمة كلمة، إنه «راحة العقل» للداعي الفاطمي حميد الدين الكرمانى، ما زلت أحفظ بها كتبه عام أربعة وستين وأنا جالس إليه في صحن الأزهر، قرب العمود المخصص للشيخ صالح الجعفري، عليه رحمة الله تعالى، إنها المرة الوحيدة التي لزمته فيها، لم أعرفه إلا ساعيًا من الجماميز إلى الأزبكية ومن الحسينية إلى المغربلين، كلما وقع عليه بصري أتساءل عما يجري في ذاكرته الغريبة، سألته يومًا عما إذا كان ممكنًا زيارته في محل إقامته، قال مشيرًا بيده في حركة دائرية:

«الدنيا كلها داري..»

مرة سألته عن مخطوط كامل نادر «عنقا مغرب» للشيخ الأكبر، سألته عن صحة ما سمعته، أن الكُتُب المطبوع في مكتبة الحلبي مختصر للأصل، أكدي ذلك،

قال إنه يعدني به غير أنه يحتاج إلى وقت، مر وقت في أثر وقت، كل مرة ألتقيه أهم بالسؤال فيقول بميل ناحيتي حتى ليوشك أن يسند رأسه إلى كتفي:

«لم يحن الأوان بعد..»

طال الأمد، أدركني يأس، تمكن مني نسيان، قنعت بالمطبوع رغم استيثاقي بصحة ما أفضى به إليّ، اكتملت مدة قدرها سبع سنوات، لقيته أمام مقهى ماتاتيا بميدان العتبة، وقد زالت فيا بعد، يحمل تحت إبطه مظروفًا يحوي أوراقًا، قال:

«إليك ما رغبت..»

تطلعت إليه مستفسرًا، قال مُليًا:

«أتذكرُ مطلوبك وتنساه أنت؟!»

تأملت العنوان المرتجى خجلت وفرحت، وعندما رفعت بصري نحوه لم أجده، تلفت حولي، غاب عني ولم أره إلى يومنا..

كتابان

في الشارع الثالث بناحية ويليامز برج، تقع المكتبة التي اعتدت بدء جولاتي بزيارتها كلما جئت لزيارة ابنتي، في الناحية مكتبتان وباعة كتب فوق الرصيف بشارع بيدفورد العرضي، الأول وحتى التاسع رأسية، لا أعرف أي صاحب في البلد، معارفي في مانهاتن، لا بد أن أعبر النهر إذا قصدت موعدًا مع أحدهم، ما من صلات إلا من خلال عبوري المقاهي والمتاجر، أما الوقت الأطول فأضيه في تأمل العناوين وشراء ما يعينني، المكتبة محدودة المساحة، منظمة، أدخل مباشرة إلى قسم الفن والعمارة، كل الكتب مستعملة، لست أول من يفضها، كتاب لا أعرفه عن هوبر، مستطيل، ضخم، مطبوع سنة خمسة وخمسين كانت اللوحات الملونة تطبع منفصلة وتلصق على صفحات الكتاب، يحتوي على مائتين وست وخمسين لوحة منها ثمان وثمانون ملونة، الناشر نيويورك «إبرامز»، أعرفه من منشوراته المعتنى بها، آخر ما اقتنيته كتاب ضخم عن نسيج آسيا الوسطى، مجمع ألوان، صادر بعد عام عشرة من الألفية الثالثة، إذن.. ما زال. لوحات هوبر مطبوعة في اليابان، هذا رسام توفي عام سبعة وستين، توحدت بعالمه المعبر عني بدرجة ما لا يمكنني تحديدها، شخوصه وحيدة حتى وإن أحاطها زحام، عرفته خلال أسفاري، شهدت معظم أصول لوحاته، ليس مثل الأصل شيء، مرة في مدينة كولون الألمانية شاهدت معرضًا له، في باريس قصدت القصر الكبير زرت معرضًا للحنين ضم عددًا من لوحاته، هذا الكتاب أقرب ما عرفت إلى ألوان عالمه وطبيعة

أثيره، لا أرى كتابًا عنه بأي لغة إلا وأقتنيه يصحبني كلما تنأأت الكُرب، عُدت إلى البيت، أشارت ابنتي مداعبة: هوبر؟ قلت: ومن غيره؟ جلست إلى جوار الواجهة الزجاجية المطللة على النهر الشرقي، بالضبط في مواجهة الأمباير ستات، الأبرز على الضفة الأخرى، يبدأ الكتاب الحميم المُقتنى تسربه إليّ أحيانًا أضعه على مقربة من رأسي عند هجوعي، تلك صلتي، لفت نظري إهداء مكتوب بحبر أخضر على ظهر الغلاف المقوى والمكسو بورق أزرق غميق، أخضر على أزرق، لا بد من تحديد...

«لكم تمنيت لو أنك قربي، أرى تقدم ما يكل عبر الأيام، أخسر متابعة حفيدي الوحيد، صوته يؤنسني ولكم أتمنى استعادته بعد انتهاء محادثتنا، لا يؤنسني إلا صوتك الهادي الخلو من أي شجن، لا يهدأ قلبي إلا بقيني أنك سعيدة، إليك أحدث ما صدر عن هوبر، تأملي اللوحة التي رأيناها معًا وأطلقت عليها ماري في المقهى.. صفحة اربعين: ابوك جون».

اتجهت مباشرة إلى الصفحة، اللوحة مطبوعة بالأبيض والأسود، في كتب أخرى بألوانها، ماري تجلس إلى منضدة في مقهى، فراغ، لا أحد، لحظة ليلية، ترتدي قبعة ومعطفًا، تمسك بفنجان قهوة صغير، تلامسه بأصابع يديها، تتطلع إلى نقطة ما لا يمكن تعيينها، نظرة قادمة من فراغ مقيم، هوبرية، أعرفها عند آخرين من عالمه، على ظهرها

«أوتومان 1927 زيت 36 x 28 أيوا مجموعة ادموند الابن..»

لأيام تالية لم أر إلا ماري في المقهى وماري الابنة البعيدة في مكان لا أعرفه والحفيد الذي لا أدري أين يسعى الآن، كم عمره؟ هل يذكر جده؟

كثيرًا ما سألتني ابنتي خلال الأيام التالية: سارح في إيه يا بابا؟ أتطلع إليها مبدئيًا ابتسامة، تقول إنها لن تلقى إجابة غير أنها تقلق من صمتي، أقول كلمات عامة ليس لها دلالة، الهدف منها النطق، مرت الأيام، عدت إلى البيت في مصر،

أويت الكتاب إلى الرف المخصص لهوبر، عبرت المحيط مرتين، وفي نهاية العام الثاني كانت الثالثة، خرجت عصرًا في موعد مشيبي اليومي، اتجهت عبر الشارع الرابع إلى طريق بدفورد مباشرة، الجو صفو، احتمال المطر غير وارد، باعة الكتب فوق الأرصفة، توقفت عند من اعتدت الحوار معه، يعرف القليل من العربية، نشاطه الأساسي على الإنترنت يبيع الكتب من خلالها، أقلب البصر، كتاب لم أراه من قبل، يحوي تجارب لوحاته بالأبيض والأسود، أقلب الصفحات، كل لوحة أعرفها لها أكثر من تجربة، أتذكر أمراً، أو ربما أدركت وجود تلك السطور، شكل ما، بحدس ما، لأمر ما لا أعرفه كامن بين الحروف:

خط أصغر، متلاحق، حبر أزرق على ورق أبيض.

«أعرف أنك لن ترى هذا الكتاب، لكنني أتمنى إدراكك له بشكل منا، بحس ما لا أعرفه، خارج الممكن، أوهم نفسي أنني أشيعه لك، مايكل قبله عندما قلت إنني سأرسله إليك، وإنك تحب هذا الفنان.

من محبتك إلى الأبد

ماري...

كتب المستحيل

جاء في خلاصة المواقيت للبيهقي السمرقندي أن السلطان محمود بعد أن بلغ ما بلغ في الهند، استقر به الحال في حيدر آباد، بعد الحروب والغزوات آن أن يجمع المعارف والعلوم من شتى اللغات، فكر فيما كان وسيكون، في تلك الليلة طرح على وزيره رضا خسرواني ما يرغب التوصل به أو الوصول إليه، شرّق وغرب إلى أن ذكر الكتب فتمنى كتابًا يقرؤه في الصباح فيتوصل إلى معان، يعيد قراءته في المساء، بعد غياب الشمس وسدول الليل فيجد مضمونًا متغيرًا تمامًا، كتاب إذا تم استيعابه تتمحي سطوراه وتعود صفحاته ناصعة، كتاب إذا قرأت سطوراه يُسمع صوت يلفظ ما هو مكتوب، كتاب إذا نُقل إلى لغة أخرى لا يبقى منه معنى، قال إنه يتمنى كتابًا يرحل مع الرياح، كتابًا يُقرأ بلا حروف، آخر يطالعه الضير، مال إلى الأمام، رفع أصبعًا محنّنًا نبره

يرحل مع الرياح، يتنقل مع النسمات.

تساءل

هل هذا على الله ببعيد؟؟..

أجابه الوزير بهدوء

لا يا مولاي، لكن بشرط

ما هو...؟

أن يمتد عمرك ألف عام، فتقف على كل ما رغبت من كتب مستحيلة الآن..

الآن يا مولاي..

كتب لم تُعد

استغرقني آرسين لوين، وطرزان، وشرلوك هولمز، وجونسون وبن جونسون، والمفتش بوارو في قصص أجاثا كريستي، وعندما نزلت حلب سألت عن فندق الشرق الذي نزلت فيه وكتبت «جريمة في قطار الشرق السريع»، وعندما أقمت في فندق ونتر بالاس بالأقصر استفسرت عن الحجرة التي أقامت بها وكتبت جريمة على النيل، فقال المدير إنه لا يعرف، لكن يمكن أن يحجز لي الغرفة الملكية فلم أزد حوارًا لأن مقصودي غاب عنه، استغرقني لوين ما بين السابعة والثامنة، وربما قبل ذلك، أو بعد ذلك، لست متأكدًا فإذا كنت غير ذي يقين بما مررت به وارتبطت وعرفت فكيف لي الوثوق بما يخص غيري؟ لست بمسيطر، ما زلت أرى لوين وهو يقفز إلى وسط الغرفة وعلى وجهه ابتسامة هازئة، شاهرًا غدارته: «ارفع يديك..»

لعله أول طريقي إلى الماركسية، كنت أحلم أن أسلك نهجه، أن أصير لصًا شريفًا، أسرق الأغنياء لأعطي الفقراء، عندما زرت باريس سألت أصحابي عنه، فوجئت أنهم يجهلونه، غير معروف، أستاذ أجله قال لي: إن مورييس لبلان المؤلف لم يكتب إلا سبع قصص معدودة وإن كل ما طالعته في صباي موضوع من عرب محترفين وغير مترجم، نفس الأمر ينطبق على إدجار رايس بورغوزو مؤلف روايات طرزان فتى الأدغال والذي نما منذ ولادته في الغابة، تبنته القردة كالا التي حنت عليه وأرضعته حلييها، وعندما رأيت الأفلام المأخوذة عما قرأته صرت مشدوها

به، وبمشاعره تجاه أمه حتى بكيت عندما قرأت وصف احتضارها وحزنه عليها، بعد عودتي إلى ديارى خطري أن أستعيد بعضًا مما أعرفه، وجدت عند باعة الكتب المستخدمة فيضًا من لويين وطرزان وبوارو، بعض العناوين أعيها بالنص، ما إن شرعت بعضها واستوعبت الصفحات الأولى حتى تعجبت من حالي ونطقت بصوت مسموع: هل استغرقني ذلك يومًا؟

مجنون الكتب

بالتأكيد، عندما جلست إلى جدتي في تلك الليالي النائية وقرأت لها من كتب جدي كنت أتقن معرفة الحرف، أراني ملتصقًا بها إلى جوار صومعة القمح، على ضوء لمبة ساروخ أتابع الحروف في طبعة شعبية للمحمة الهلالية، لست متيقنًا هل دخلت المدرسة أم أنني أتأهب؟ ذلك أنني أتقنت الحروف قبل أن يصحبنى أبي إلى إبراهيم أفندي سكرتير مدرسة عبد الرحمن كتحدا يسلمني إليه بعد إنهاء إجراءات الدخول، كنت قادرًا على القراءة وليس الكتابة، هذا حال مفرد لم أسمع بمثله، ليس لذكاء خُصصت به أو توقد ذهن ميزني، إنها الظروف؛ ذلك أن أبي كان يقرأ متمهلاً، حريصًا على شراء الصحف، يقرأ العناوين ويتمهل أكثر إذ ينتقل إلى متون الأخبار والمقالات، يشير بأصبعه إلى ما ينطق به بينما بصري يتابع ويحتفظ بما يراه، هأنذا إلى جوار الجدة عائشة في بيت خالي، نحيلة، ممشوقة، فوق جبهتها وشم أخضر كأنه شمس مجنحة، لا أقدر على تحديد السنة، يشق عليّ ذلك لانتفاء وجود علامة، زمن بلا إشارة ليس إلا سديًا أرى ملاحظها عبر ضباب خفيف يُخفي أكثر مما يظهر، نجلس في البيت الذي ولدتا فيه منفردتين، البيت خلوا إلا منا، خالي يسهر مع الرجال في الرحبة بعد صلاة المغرب أو العشاء، أمي وامرأة خالي مع نساء العائلة مضين إلى موضع قضاء الحاجة، مكان اسمه الحماد، كل منهن تحمل وعاء ماء دافئ، مكان لا يقربه أحد طبقًا لتقاليد موغلة متوارثة، إلى جانبنا سحارة مخصصة لكتب جدي، بعضها مخطوطات كتبت بعناية، السطور سوداء والعناوين حمراء،

يحضرني اسم «القاضي عياض»، «ابن عربي»، «سيدي عبد الوهاب الشعراني»، لم أعرف عنهم شيئاً وقتئذ، غير أنني مع طي المراحل عرفتهم وقرأت ما وصل إلينا من تصانيفهم وصار لي بهم صلة، أتوقف في السطور الأخيرة أمام تاريخ الفراغ من النسخ، يقرن الخطاط اسمه بصفات التواضع والتقرب إلى الخالق سبحانه وتعالى، من هو؟ في أي جهة سعى؟ أين الآن؟.. أين؟

أقرأ من سيرة بني هلال، ما زال القوم يحتشدون لسماعها، يعرفون شخصها وينحازون إلى بعضهم ضد آخرين يناصرهم فريق مغاير، للشاعر وقفة، ملاحظه شماء إذ يقص أخبار الحروب البعيدة والهوى المنقضي، لم أعرف منهم إلا الحاج سيد الضوي، أذعوله وقت تدويني هذا بطول العمر، ومن أحطت بروايته ورققني صوته عم جابر أبو حسين وهو من سوهاج، إقليمي، نطقه مثل نطقنا، كلاهما صان موروثه الأبنودي ولو لم يفعل غير ذلك لكفاه، كان يمكن لكل ما أنشده أن يتذرى في سديم النسيان، فكم من نفائس فاه بها الخلق لم تجد من يصونها ويرعاها! يصاحب الشعر والسرد موسيقى، الربابة آلة أساسية، يحتضنها الشاعر، مصدر ومنبع حتى وإن عزف على مثيلاتها آخرون خلفه، من عجائب ما رأيت وسمعت، وتر واحد لا غير، العازف ذو الدراية والتمكن يُطلق منه ثراء عجيب، غريب، شجن، محتو للأسى الشفيف المكمور في نفوس البشر الساعين عبر عصور متعاقبة، متوالية، تستظهر الدفين المكين، ما من آلة تؤتيني سؤلي ويبدو منها قدرتي حتى ليجفني جفني رُقادي فيهجري الوسن لما تبته عندي، تبسبس مهجتي، قديمة، موغلة، رأيتها مرسومة على جدران المعابد ومراقد الأبدية، عاينت نموذجاً منها وصل إلى زماننا سليماً، معروضاً في جناح المصريات باللوفر، تأملته طويلاً ورغم صمته وغياب من لمس أوتارها منذ آلاف السنين فإنني أصغيت إلى ما تبته فيقوم رَميتي، لا يوجد ما يماثل الربابة الصعيدية بوترها الوحيد، عرفت في العراق وتركيا وسهوب آسيا آلة ذات وترين، لكن نبر الأنغام مغاير، يختلف،

أكثر خشونة، أغلظ، لا لا يشبه ربابة الشعراء المتجولين في مصر العليا شيء، ثمة هوى دفين يرققها، أو أمور كامنة فيمن يعزفون عليها، للربابة عندي مسكن وإقامة، حتى وإن لم أصغ إليها مباشرة.

أقرأ لجدتي من كتاب مطبوع، تصغي إليّ من قعدتها، تسند جبهتها إلى يدها، الآن أتساءل بعد أكثر من ستة عقود: هل كانت تسمعي فعلاً أم تصغي إلى نفسها؟ هل كانت متوحدة بذاتها أم تسمعي؟ بعد أحوال صرت كلها رأيت لوحات إدوارد هوبر الأمريكي استعدت انفرادها، مع أنه يرسم أجنيات نائيات، غير أن حالة الإنسان هي هي في الأسى والحزن وما عسى، كم ليلة قضيتها إلى جوارها! ماذا أودعت عندي؟ لم أكن أطلع إنما أعيش، أرحل مع قوافل الصحراء وأمتشق السيوف وأرمي بالسهام، أقف في أحد الجيوش المتواجهين، يخرج منهما فارسان، يصبح كل منهما بعبارات مستفزة مستنفرة، تبدأ المبارزة، ينطبق كل منهما على الآخرين، يا لطيف يا الله السلامة، أصغي إلى صرخات المحاربين، أحياناً أستعيد ما قرأته بصوت مسموع:

«وعلا الغبار وثار حتى سد منافذ الأقطار...

تنطلع أُمِّي إليّ، تنطق اسم الله، عندما يتحدث المرء مفردًا يكون إيذانًا بخلل العقل، ربما كانت تغريبة بني هلال أقدم ما قرأت، أتعرف على الكتابة من خلال تحديقي إلى تلك اللحظة، أرحل بنظراتي من موضع إلى آخر، لا تنقضي حسراتي، تخصص النسخة جدي لأُمِّي، درس في الأزهر ولا أعرف إن أتم دراسته أم أنه اكتفى بقدر، لم تطلعي أُمِّي على شأنه؛ لأنني لم أسأل ولأنها لم تقاربه، مضى وهي ابنة ثلاثة أعوام، هذا خضت فيه، فصلته في كتاب التجليات فليطالعه من يرغب الاستزادة، عاد جدي ليصبح شيخ القوم، يؤم المصلين يعقد الزواج، يفتي في أمورهم، يمدح سيد البرية، وقد سمعت ثناء على صوته الجميل ممن سمعوه وما زالوا يذكرونه وأكدوا لي أنهم لم يعرفوا مثله رغم توالي الفجر وليال عشر.

أحرق ملياً إلى تلك اللحظات المنقضية، البعيدة، قراءتي لتسليية جدتي خلال انتظار أُمِّي فاتحة إبحاري وترحالي في لجة القراءة، عندما رأيت غلاف «البؤساء» لفكتور هوجو عند فكري بائع الصحف في ميدان الحسين، اشترت الطبعة البيروتية بقروش عيديتي الثلاث، ما زلت أرى الغلاف، ملمس الورق، شكل الحرف، أما جان فالجان فيطالعني أينما قصدت، حتى إنني بكيت عند سقوطه خلال معارك كومبونة باريس، ما زلت أذكر ما أنشده عند إصابته:

سقطت بوجهي إلى الثرى

وداعاً رفاقي إلى الملقى

فيما تلى قرأت «أحذب نوتردام»، مترجمة في روايات الهلال، لا أذكر المترجم، غير أنني مشيت محدودباً مثله، يتقمصني ألم جلده، كدت أصاب بالصمم غير أنني لم أدق أجراً مثله وعندما شاهدت الكنيسة الشهيرة في باريس والتي بنيت في القرن الثالث عشر الميلادي، قرب وقت مدرسة وجامع وبيهارستان السلطان حسن كدت أرى العجربة أمامها وكازيمودو الأحذب الأصم لا أدري هل كان صدفة أم بتأثير ما عندما حددت أمام مدخلها موقعاً مختاراً للقاء محبوبة همت بها زمناً ثم انقضت وتركت عندي ندبة في روعي وهفوفاً كلما لاحت مولية أو مقبلة بادية اللطف، غزيرة الحنو، صرت متقبلاً كل فرق، هياباً من أي لقاء، ذاك حسبي، في الثامنة قرأت من الشيخ تهامي «مذلون مهانون» لمن همت به وما زلت، فيودور ميخائيلوفتش دستوفسكي وعندي حكاية سأرويها إذا سمح الوقت والإمكانية، حتى اللحظة تعاودني مشاعر التعاطف العميق مع الأب المهان أمام ابنه، أما دارتيان النبيل في الفرسان الثلاثة فكأنه وليّ حميم، كنت إذا تشاجرت مع أحد زملائي في المدرسة أنطق مثله، أقول محتداً:

«ألقي بقفازي في وجهك..»

لم يكن عندي قفاز قط، كذا من تشاجرت معه:

«أدعوك إلى المباراة... أحضر شاهدك..»

يتطلعون إليّ بدهشة، أي مباراة، أي شهود عليهم أن يختاروا، قالوا لأستاذ الرسم إنني أنطق أمورًا وأقول أشياء غريبة، غير أنني لا أبالي، تستمر وتيرة انفعالي، مستعد للموت دفاعًا عن شرفي، رافضًا أي إهانة، غير أنه لا يصغي إلى ما قالوه، قام بيني وبينه لطف، أحيانًا ينصحني بقراءة عنوان ما، وعندما شكّا إليه زملائي حالي، وتفوهي بالفصحى عبارات غريبة، مؤكدين جنوني، أجابهم بهدوء مبتسمًا:

«ليتكُم مجانين مثله..»

كتاب الوجود

تهاجر أسراب الطيور من أقصى الشمال البارد إلى الجنوب المشمس الدافئ إلى أن يلوح الهجير فتبدأ المسار ولكن بالعكس، جنوب / شمال، نفس الطرق غير المحددة بعلامات، عين الارتفاعات، نظام لا يتبدل، المواضع التي يتم احتضان البيض فيها لا تتغير، ما من قواعد معروفة، ما من مستقر لها.

تهاجر أسماك السلمون من بحار باردة عرفت بعضها في جزر جرينلاند، يبيضاء لدوام الثلوج طوال العام، ربيعها عابر، ودفعها معدوم، تتجه إلى نقاط معينة عند التقاء الأنهار بالمحيط، تضع بيضها، بعد حين مقدر لا يعرف الزيادة أو النقصان يفتس، تخرج الثمار الحية الصغيرة إلى سبل معلومة، إلى المحيط الخضم، لم يلقنها أحد، لم يتل عليها صوت تعاليم السريان، إلا أنها لا تخطئ.

لكل موجود وقته، لكل معلوم حينه، في السنة تتعاقب الفصول لكن ثمة مخلوقات لا تعرف الفصول، بعض أنواع الحشرات تولد وتفنئ في سويحات، زهور تبقى مفتوحة، باعثة للبهجة عدة أيام، ثم يبدأ الذبول فالاحتضار، تطورات محددة، تغيرات محسوبة، من يقرؤها على ورد الجنانين؟ من يتلوها على زهور الجداول؟ من؟ أحياناً ألح كائنات صغيراً، دقيقاً جداً، في حجم رأس الدبوس، لا يحتمل زفيراً مباشراً من فراشة، ما دام حياً فإنه يلد حياة تتبعها حياة، ولأنه كذلك فلا بد من ذاكرة تحتفظ بخبرات الماضي في موضع ما من هذا الحيز الدقيق جداً، لا بد من حين إلى جنسه وترتيب ليتعرف على قرين جنسه لا بد، فأين مستقر هذا التدوين؟

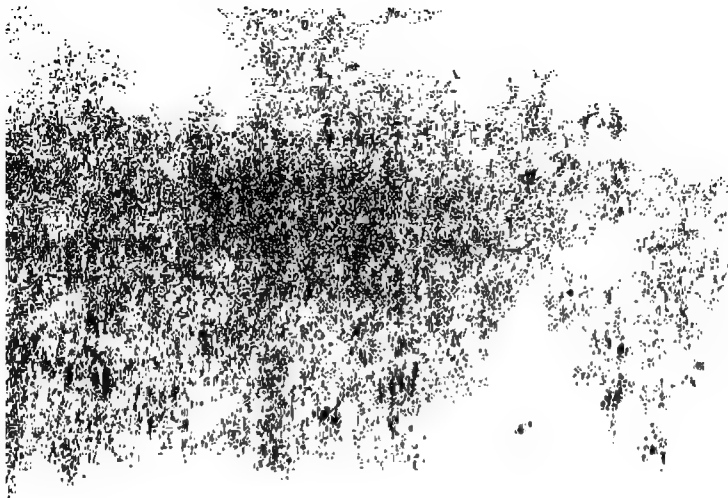
وما مآله؟ ترى البحار متعاقبة الأمواج، تسافر في أثر السفر، يخالها الرائي مياهاً لا هير، غير أن هذا المتشابه يحوي تنوعاً يذهل اللبيب، ثمة تيارات تحتية دافئة، أنهار متدفقة من اللاحيث إلى اللا أين، ماء يسري في الماء، وثمره ماء آخر يصعد في الماء، نوافير على أعماق متفاوتة لا يدركها كل ذي علم حتى من أوتي البصر والبصيرة.

في لحظة معينة يتغير وضع الجنين، ينتقل من وجود إلى وجود، يخرج من حضور إلى سعي له مخرج آخر، من يضع القواعد؟ من يحدد؟ كيف يتم البدء؟ وكيف يكون الانتهاء؟

ثمره كتاب لا صفحات له ولا سطور، كلمات لا تستخدم فهي معدومة، يحوي فأكرة كل موجود وساع، ما ظهر وما خفي، ما هيئته؟ ما لغته؟ كيف يعلم الحي والجماد بما يحويه؟ كيف؟

ليس بوسعنا إلا السؤال!





حكايات سديمية

الاسم الأعظم تدوين مغاير

قال الشيخ فريد العطار في الجزء الأول من كتاب «تذكرة الأولياء» عند كلامه عن علي بن يوسف بن الحسين، ما نصه: عرف يوسف أن ولي عصره هو ذو النون المصري الحامل للاسم الأعظم، فاتجه صوب مصر وكله رجاء إن يحصل على اسم الله الأعظم، وعندما وصل أخميم، مقر ذي النون، مضى إلى حيث يداوم الصلاة في مسجد بسيط مهدئ للروح والأشجان، سلم وجلس فرد عليه ذو النون السلام، ومكث يوسف غير بعيد سنة كاملة في زاوية المسجد، لم يجزؤ أن يسأل، بعد تمام عام كامل سأل ذو النون:

«من أين هذا الفتى؟».

قال: «من الري؟».

فسكت عنه سنة أخرى، بعد تمامها سأل ذو النون:

«ولأي أمر حضر هذا الفتى؟».

قال: «لزيارتك..»

فمكث عنه سنة ثالثة، ثم سأل:

«هل من حاجة؟».

قال: «جئت لكي تعلمني الاسم الأعظم..»

فمكث عامًا آخر، ثم أعطاه آنية خشبية مغطاة، وقال اعبر النيل في المكان
 الفلاني، هناك شيخ ستسلمه الآنية، احفظ كل ما يقوله لك. فحمل يوسف الإناء
 ومضى، بعد أن قطع مسافة من الطريق ساورته الوسوس: «ماذا يتحرك في هذا
 الإناء يا ترى؟»، كشف الغطاء عن الآنية، قفز منها فأر وهرب، تحير، تبلبل، قال:
 «أين أذهب الآن؟ هل أعود إلى ذي النون، أم أمضي إلى الشيخ؟»، مضى بالإناء
 الفارغ إلى الشيخ، تبسم في وجهه متسائلًا: طلبت من مولانا اسم الله الأعظم؟
 قال: نعم. قال: رأى سيدنا قلة صبرك فأعطاك فأرًا، سبحان الله.. إن فأرًا لم يقدر
 على الإصغاء إلى اسم الله الأعظم فكيف تحتفظ به أنت؟ خجل يوسف، لم يجد بدءًا
 من العودة، قال ذو النون: إني طلبت من الحق تعالى ليلة بعد أخرى أن يأذن لي
 بتعليمك اسمه الأعظم، غير أنه لم يأذن.. أي لم يحن وقت ذلك حتى الآن، قال
 تعالى: اختبره بفأر. وعندما فعلت كان أمرك كذلك، اذهب الآن إلى بلدك حتى
 يحين الوقت...

ما سيكون

معروف لمن عنده علم بأحوال الكنيسة القبطية أنها بدأت نظام الرهبنة، ومنها انتقلت إلى سائر أنحاء الدنيا، أول الأديرة ما أرساه الأنبا بولا والأنبا أنطونيوس في مكان قصي قريب من البحر الأحمر، عندما قصدته بعد مئات السنين من وصولهما إليه تساءلت بالصمت والنطق: كيف قطعاً المسافة؟ بأي زاد؟ من دلّهما عليه؟ لعله الأعمق صمتاً، في تجاوي الأنحاء المعمورة، معروف للخاصة أن الكنيسة يتبعها رهبان سائحون عددهم غير معروف بالضبط، لكنه لا يقل عن خمسة ولا يزيد عن سبعة، لا يعرف ذلك على وجه الدقة إلا البابا، والمؤكد أنه لم يبيع لأحد، للرهبان السائحين شروط وحدود، أما اختيارهم فيتم بعد تدقيق وثاقب ملاحظة من القائمين على الأمور في الدير، هذا ما جرى في بداية القرن الرابع عندما خلا الأنبا باخوم رئيس الدير الأبيض في أبرشية جرجا إلى الراهب إثناسيوس المتوحد، أخبره بخروجه إلى البرية ليسيح فيها، خلا إليه سبعة أيام، لقنه أصول الخلوة عند الهيام في غير المعمور، عليه أن يدبر زاده بعيداً عن الخلق، ألا يطلب العون من أحد لكن عند الضرورة عليه أن يغيث المضام من سائر المخلوقات، إنس وحيوان ونبات، أن يمجد سيده دائماً ويؤدي الصلوات أينما كان، في البر أو البحر، يؤكد القدامى الذين اطلعوا على الجزء المفقود من وقائع البلاد الأربع الغربية أن الأنبا باخوم طلب منه أن يضع في مهامه محاولة التوصل إلى الكتاب الذي يحوي ما يكون، قال ذلك ثم صمت، لم يسأل إثناسيوس المتوحد، أحنى رأسه متقبلاً كل ما يُقال له إن

نُطقًا أو صمتًا أو تلميحًا أو إشارة، قبل شروق الشمس خرج مستقبلًا ضياء النهار الجديد، موليًا وجهه صوب الصحراء، غير معني بالجهة أو القصد، لا يصحب إلا خُرجًا حوى أمورًا لا يعرفها إلا هو ومكنونًا من ذكريات ورؤى ودفائن عميقة، لم يكن يعرف كم عدد السائحين، هل وقع الاختيار عليه لأن ذلك قدره أم لغياب أحدهم بلا انتظار رجعته، معروف أن العدد لا يزيد أو ينقص، سواء كانوا خمسة أو سبعة، ربما يلتقي أحدهم فلا يعرفه، حتى وإن لم يكن لهما ثالث في عمق الصحاري وعند حد البحار أو في خضمهما، أما كيف يحتفظ بصلته مع الكنيسة فهذا ما لا يدريه إلا قداسة البابا نفسه، لم يعد للأبنا باخوم أي وصل به خفي أو ظاهر، لا يعرف أحد على وجه الدقة واليقين إلى أين مضى في سياحته تلك، غير أن ما جاء في الكتاب الذي اختفى جزء منه منذ القرن السابع يؤكد أنه لم يكتف بالسياحة في برية مصر، الممتدة شرق النيل أو غربه، لم يمر بحواف الواحات النائية، إنما أمعن وأوغل حتى إنه ركب البحر وطاف بجزر لم يطأها راهب قبله أو غير راهب، ولم يكن ذلك إلا أنه اعتبر نفسه مُكلفًا بمهمة بالإضافة إلى سياحته، فلم يسمع قط أن واحدًا من الآباء طلب شيئًا ملموسًا أو معنويًا من راهب سيخرج إلى الطواف بغير المعمور من هذه الدنيا، يصعب إحصاء الأماكن التي قصدتها، لكنه بلغ أصقاعًا نائية بعضها ليله ستة شهور مما يعد الخلق المتعاشون، أما نهارها فأبيض غائم بعيد، برده أصعب لظهور الشمس على بعد سحيق فلا تدفئ ولا تدثر ولا تبصر إنما تزيد الإحساس بالبرد رغم ظهورها وبالعتمة مع أنها مضيئة، سلك دروبًا في جبال يبدو السحاب والطيور الكواسر تحت قممها الشواهد، يُقال إنه ورد في الكتاب أنه ساح في سهوب آسيا، وأنه لقي شخصًا مفردًا مثله يلف جسمه بقماش في لون البرتقال غير مخيط، لم يكن بوسعه وقد رأى إنسيًا مثله في هذا الهو المؤدي إلى الصين - كما ينقلون عن الكتاب المفقود - كيف تحاورا؟ كيف تفاهما؟ بأي لسان؟ بأي نظام.. إشارات، هل كان عنده علامة أو إشارة على ظهور صاحب الثوب

البرتقالي، حليق الرأس؟ ربما، المؤكد أن كلاً منهما أقبل على الآخر، لا يعرف أحد من بدأ الكلام لكن الموثوق به طبقاً لرواة الجزء المفقود أنه نطق بسؤال عن كتاب ما سيكون، تطلع إليه ذو الثوب غير المخيط، أجاب باستفسار: أحقاً قطعت كل هذه المسافات بحثاً عن كتاب ما سيكون؟ أو ما المتوحد مؤكداً دهشاً من صوت الإنسي، غير قادر على استعادة اسمه لأن سنوات عديدة، ربما تتجاوز الأربعين -وفي أقوال أخرى الخمسين- لم يصغ إلى من يخاطبه باسمه، قال الرجل بالمعنى دون النطق المسموع مشيراً إلى صدره، ربما إلى رأسه أو عنقه، أو موضع القلب منه:

«إنه معك.. داخلك، تطوف به، دأب منك..»

كانت المعاني تتدفق إليه بغير لسان، استوثق لأسباب غير معروفة، أدرك أن سياحته اقتربت من الغاية فأبطأ وتمهل غير أنه لم يكف لوعيه بقرب التمام..

نص

أثق أنني أعرفه، لم ألتقط بسمعي اسمه، خجلت من الاستفسار، خاصة أنه لمح إلى تزامننا فترة من الوقت، لم أتذكر أي شيء يمكنني من خلاله الاستدلال، ملاحظه ليست بعيدة، ليست قصة عني، ربما رأيته مرات في المبنى الرئيسي حيث أمضيت أكثر من أربعة عقود في نفس الموضع تقريباً رغم تبدل المواقع وتنوع المسئولية، أو التقية في المصعد، من يدري.. ربما تجاوزنا حيناً من الوقت كما يقول، مطروف أبيض يحوي أوراقاً، هكذا خمنت، بعد نفاذ الممكن من التحيات وتبادل عبارات القدوم والضيافة حلّ صمت، غير أنه لم يتح الفرصة كي أسأله مباشرة عن الغرض من زيارته، قال إنه أمضى سنوات متعاقبة في إعداد هذا النص الحاوي..، مد يديه مسنداً المطروف إليهما، قال إنه لم يجد في معارفه إلا شخصي يأتمنه على النص، إذا لم أمانع - كما يأمل - يرجو معرفة رأيي الذي سيكون نهائياً، حاسماً، يقضي بإخراجه إلى الناس أو حجب كانه لم يكن، خطري أن أسأله عن نوعيته، أي نص هذا؟ رواية، مذكرات، ملاحظات، لماذا يستخدم هذا التعبير المستحدث؟ لم يشع إلا مؤخراً، غير أنني لم أنطق بما نويت، ربما لرغبة في الاكتشاف، أو لشيء لا يبين بيث عندي قلقاً ما لم أعرفه من قبل، شرعت في النطق بما يسهل إنهاء اللقاء، خاصة أنه جاء بدون موعد، حضوره جاثم حتى بعد انصرافه، تطلعه مُغبر، يحصي أموراً ويختلس النظر إلى ما يخفى عليّ، لا يتنفس، إنما يخلي الفراغ من الفراغ، أي كائن هذا؟ بعد انصرافه مكثت لحظات، خرجت إلى الممر الذي تطل عليه أبواب

المكاتب المتجاورة، النوافذ عريضة متجاورة، أطل عبر زجاجها على الحي القديم، لا يقوم بناء في المواجهة، حتى الأبراج المظلة على النيل لا يوجد شيء، فراغ للبصر لم أحتج من قبل، لحقني الساعي، لم يعتد ذلك، سألني عما إذا كان أمر مزعج جرى، نفيت بالإشارة، عدت إلى الداخل، المظروف فوق المكتب، كلما حاولت الحيدة ببصري عنه عدت إليه أي، نص هذا؟ لم يقل طبيعة المكتوب، رواية، قصص، بحث، انتهت إلى طول تحديقي، قمت لأتناول السترة من فوق المشجب، ارتديتها بسرعة، تساءل الساعي عما إذا كنت سأنصرف، أو مات بالإيجاب، بدا دهشاً، ليس من عاداتي، غير أنه لم يستفسر، قلت إنني سأنزل السلم، لا داعي لاستدعاء الأسانسير، قال: تعب عليك. لم أرد، أتحاشى النظر إلى المظروف الراقداً فوق سطح المكتب متفخاً بما فيه من أوراق، سارعت بنزول الدرج، أسهل من الصعود، في الطريق إلى الطابق الأول سأكون وحيداً، ربما ألتقي بعض الزملاء عند منحنيات السلم، أما المصعد فحيز ضيق، أدرك أن وجوده ما زال متمدداً لم يختف، لم ينحسر بعد، عندما خرجت إلى الطريق استنشقت الهواء إلى أقصى ما تستطيع رثائي تحمله، لم يقع لي مثل ذلك، لم يحدث أن ترك أحدهم أثراً يدفعني إلى محاولة الإفلات، اعتدت الإصغاء حتى إلى من لا أحمل لهم وداً، يقتضي عملي ذلك، بعضهم تغلبت منه كلمة، نظرة، حركة ما، تسفر عما يكنه نحوي، أو تعكس جفوة ما، أجتهد ألا يبدو رد فعلي، ماذا جرى إذن؟ إنه مغاير لكل من عرفت أو قابلت منذ سنوات، أتوقف:

ألم أبالغ؟

لم تبدر منه أي إشارة بعداء أو جفوة فلماذا ضيقي به وهروعي منه؟

شيء ما، خفي، لا يبين، تبدو ملامحه عادية، لو التقيته صدفة فلن يلفت نظري، المؤكد أنني رأيته، ربما صافحته أو أجبت تحيته، العاملون كثر، الجئد لا أعرفهم، لم أفرد به من قبل، لكنه عندما قصدني اختلف الأمر، مجرد استعادته تنفرتني مني.

هل سألتني به مرة أخرى؟

عندما سألتني عن المدة التي يمكنه استطلاع رأبي بعدها، قلت بسرعة: أسبوعان. الحق أنني كنت متعجلاً انصرافه، لا أجيء إلا بما يضع حداً للمقابلة غير المنتظرة، يجب أن أكون منصفاً، لم يبد إلا اللياقة، ما يقض أمره عندي ذلك الحضور الثقيل، لم أعرفه من قبل، حتى صباح اليوم التالي أحاول تفادي استعادته، أبذل الجهد لشغل نفسي بأمور جسيمة، غير أنه يطالعني فجأة، أرى عينيه، أصبح متعباً، ثقل السعي، أقبل على قطع المسافة من البيت إلى المكتب متمنياً ألا أصل، أعول هم اللحظة التي ألج فيها الغرفة فأرى المظروف فوق المكتب، بوسعي أن أطلب من محمد الساعي نقله إلى داخل الصوان أو أحد الأدراج لكنني لم أقدم، بل يمكنني القول بدقة إنني لم أرغب، ربما يخف الأمر عندما أقرأ ما كتب، أتخاشى النظر إلى المظروف وبعد قليل أختلس النظر إلى ذلك المستقر حيث تركه، عندما يظهر في مخيلتي بنفس وضع جلوسه أو شك على النفور، غير أنني في اليوم الثالث مع ظهور الهالات السوداء وتثاقل الجفنين طرأ عليّ ما أوجسني، ألوم حالي، بل أتساءل مُليماً ما يعرض لي عنه، الرجل قصدي متعشماً، آملاً، لم يلح منه إلا كل ود، لم يُبَد بغضاً أو نفوراً، كله إقبال ورجاء فلماذا أضمر انزعاجي منه وأوشك على إظهار النفور، أشرع في فتح المظروف وبدء الاطلاع غير أن قعدته تواتيني فأنتجه إلى النافذة!

من النقيض إلى النقيض أبتدل وأحار، غير أنني في اليوم السادس غلب علي الخشية من ظهور مباحث، عندما رن الهاتف في ساعة مبكرة يوم عطلة الجمعة، تطلعت إلى الرقم، مجهول عندي، غير مسجل، من سيطلبني في هذا الوقت؟ خفت أمراً، ضغطت مفتاح الجواب..

يا ساتر..

هو..

صوت غليظ، مُجنزر، قادم من طبقة لا علم لسمعي بها، أعرف أن الصوت كاشف للحال، لم أخف انزعاجي في هذا الوقت الذي لم أعتد تلقي مكالمات فيه، بعد اعتذاره واستفساره عما إذا.. قلت مقاطعاً: إنني لم أنته بعد. اعتذر للإزعاج مرة أخرى، جلست على حافة المقعد، متطلعاً إلى لا شيء، عندما رن الجرس مرة أخرى، نفس الرقم لم أرد، أخبرني باسمه، غير أنني لا أذكره، بالتأكيد لفظه عندما دخل محاولاً تذكيري بلقاء لا أعرف عنه شيئاً، أدرجته قارئاً الرقم بحرف واحد، «م»، عندما اتصل في اليوم التالي لاحظت اختلاف التوقيت، الساعة الخامسة والرابع، بعد وصولي البيت مباشرة، لم أرد، أوقن أنه يعرف حركتي، يراني من موضع ما.

صباح اليوم السابع، قطعت المسافة من الباب إلى المكتب متثاقلاً، نومي المتقطع منذ زيارته يوشك الدفع بي إلى لحظة أخشاه، تعاقب الرنين، أرقام لا أعرفها، يبدل الهاتف كل ربع ساعة، أوقن أنه هو، من هو؟ من؟

سيجيء ويدخل، ألم أحدد الوقت بأسبوع؟! لا أعرف كيف ألتقيه؟ مرة أخرى أشفق عليه، لماذا أنفر هكذا؟ لماذا..؟ أتطلع إلى المظروف المستطيل، يمكنني تقلبيه على الأقل، قراءة الصفحات الأولى، أقرر الاستمرار أو التوقف.

يتحرك المظروف نحوي، أنزع اللاصق الشفاف، الأوراق في ملف رهيف، مصفوفة، متساوية، الصفحة الأولى بيضاء تماماً، ربما ليحفظ الأخرى، لكن ما يليها بيضاء، أسرع بالتقليب، لا شيء، لا حروف، لا كتابة، نصوع..

مسافات

بدا ذلك غريبًا، لم يتوقعه، طريق حديث رصفه الجيش زمن حرب الاستنزاف لوصل الوادي بالبحر الأحمر، يمتد عبر الصحراء الشرقية، في ذلك الوقت كان الساحل الممتد خاليًا، تجمعات صغيرة متناثرة، الزعفرانة فنار واستراحة ضيئلة، الغردقة قرية صيادين، ميناء محدود، رأس غارب مدينة أشبه بالمعسكر لخدمة شركات البترول، القصير ماضيه البعيد أثرى من حاضره، كان مقصد الحجاج، يعبرون منه إلى جدة ثم مكة، صحراء قفر، تلال صخرية مختلفة عن رمال الغريبة الناعمة المتموجة مع أنه لا يفصلهما إلا النيل، لذلك بدا ظهور رجل يرتدي جلبابًا أبيض، يتدل من كتفه خُرْج من قماش يشبه قلع المراكب باعًا على الدهشة، أشار إلى جانب الطريق الأيسر، توقف السائق الذي نزل من العربة غير أنه لزم، لم يتبعه وإن بقي إلى الجوار، خلاء يبعث على الخشية، حركة نادرة إلا إذا عبرت قافلة عسكرية، إنه زمن الحرب وكافة الاحتمالات مفتوحة، يقطع الأمطار القليلة بسرعة متمهلة، تمامًا كما يخطو الرجل الذي لم يستطع تحديد عمره في البداية، تكوينه لشاب، قامه مستقيمة وكتفان عريضتان، غير أن التجاعيد تبدو مع الاقتراب، من مسافة خطوتين، نطق بالسلام، أو ما ولم يجب، عيناه ضيقتان، يطل عبرهما شجن كثيف لا يتفق مع حيوية القوام ومئاته، هوى قلبه إلى جهة لا يمكنه تحديدها، يشبه أباه بدرجة ما، غير أن ما لمحّه ونفذ إليه تغير بعد لحظات، لم يتوقف ليخاطبه، إنما استمر بنفس خطوه، اضطر إلى محاذاته، سأله عن الوجهة فأشار إلى الواجهة،

إشارة يصعب تعيين وجهتها، قال «إلى هناك..» تجاوزا السائق الذي ظل ملازمًا مكانه، ناظرًا إلى الطريق الذي قدم منه، سأله مرة أخرى، «أين هناك؟»، أجاب «هناك..» استفسر عما إذا كان ممكنًا أن يصحبه، لم يتطلع إليه، إنما خُيل إليه أنه أطرق أكثر، لم ينف ولم يقبل، غير أنه لم يتوقف عن الخطو ليلحق به، غمره حضوره الغامض، حتى أنه لم يلتفت إلى الورا ليتأكد من قرب السائق والعربة، ما زالوا في مرمى البصر، لا يدري هل نطق الرجل أم خُيل إليه، لكنه متأكد من معنى ما وصله يطلب منه أن يلزم الصمت، ألا يُكثر من التساؤلات إلا عندما يحين الأوان، أي أوان هذا؟ إلى أي وجهة؟ لا يعرف، ما هيمن عليه أن يتبع الرجل الذي بدا له مألوفًا جدًا، حتى كأنه يرى والده، في نفس الوقت غير معهود بالمرة، نافر عن كل مرجعية، ما يصغي إليه خطوهما، كأنه قرعُ طبل صغير يُطرق سطحه بأطراف الأنامل، يثق من وجود النغم لكنه يجهل المصدر، لا يدري أين قرأ عن دراويش يهيمون على وجوههم في الصحاري والجبال ملين الجذبة، سمع من صاحب له عن سبعة رهبان سائحين لا إقامة لهم، حتى بابا الكنيسة القبطية يجهل أماكنهم، لا يقيمون في موضع، يفارقون بمجرد حلولهم، هل يكون أحدهم؟ بعد مسافة من ثلاث إلى أربع ساعات بالسيارة، جهة اليمين، دير الأنبا بولا وعلى مقربة منه الأنبا أنطونيوس، عندما قطع الطريق أول مرة حيره موضعهما، كيف بلغاه في هذا الزمن القصي؟ كيف قطع كل منهما المسافة بمفرده؟ كيف أدركا وجود عين ماء هناك، هناك في موضع أشد نائيًا وافت المنية أبا الحسن الشاذلي في مُحِيثِرا، لم يبلغها بعد، كيف قطع المسافة الوعرة بمفرده، يثق بشكل ما أن الرجل يصله ما يدور عنده، يقطع الطريق متوازيًا منه، متجهًا إليه بكليته حتى أنه لم يفكر في تداعيات غيابه عن المهمة التي خرج من أجلها، يتساءل بدهشة: هل توقع ذلك؟ لو أخبره من يثق به أمس عما يلاقيه الآن لسخر منه ونأى عن جانبه، الآن لا يعنيه إلا اقتفاء أثر من يقوده إلى حيث لا يدري، غير عابئ به، لم ينطق إلا لفظًا لا غير، يشك أنه

قاله، وصله بطريقة يجهلها، ليست في حسبانها، لم ينتبه إلى دخوله، مدقًا ضيقًا يرتفع قليلًا عن مستوى الطريق إلا بعد أن أوغل ونأى، ضوء لا يعرف إلى أي مرحلة من النهار ينتمي؟ كأن الغروب على وشك، لكنه ليس بغروب ولا شروق، هل ما زال يمضي في الصحراء الشرقية؟ يصعب عليه التحديد، أي ضوء هذا؟ ما مصدره؟ لماذا يتبدل ملمس الأرض؟ لماذا يرى تضاريس الصحراء من أعلى مع أنه لا يطير؟ إذ بلغا مفترقًا يتقدمه بخطوة، يتوقف: ألا تخطو معي؟! يبلغه ما لا يسمعه، يدرك بشكل ما، مرة أخرى، «هناك...» يشير إلى الواجهة، ليس بوسعه إلا أن يلبي، أحوال تترى عليه، يخف ويشف، يصل إلى حافة مُرتقى يشبه الصخر لكنه ليس بصخر، لا يعرف أي مادة تلك، غريب عنها وغريبة عنه، يلمح هناك في منطلق الفراغ بوابة غير متصلة بأي شيء يتصل ببناء، فقط جزء من جدار غير ممتد لونه سماوي فاتح، أعلى الباب مستطيل مدرج بارز أقرب إلى البرتقالي، أما الباب نفسه عينه فأزرق محيطي، كأنه يرى جزءًا من الماء اللانهائي عند عمقه الأقصى، يتراءى له باب شبيه شاهده يومًا عندما وصل إلى مشارف مدينة مغربية معلقة قصدها لأن بنية لطيفة مبهرة بأندلسيتها الصافية تعلق بها قدرًا من الوقت، ولّت بغتة ومضت سرعة يا الله! حتى يبلغ المدخل لا بد من عبور باب قائم في الفراغ، الباب دائمًا مدخل يؤدي إلى شيء، غير أن هذا باب لا يؤدي إلى أي شيء، تعلق بهذا الشوفشاوني وأضمر النية على العودة إليه ليصل الزنقة التي وُلدت بها البنية التي آنسته زمنًا وأنس بها، لم يعد قط، هاهو باب مائل، شبيه، يقوم حيث لا عرض ولا طول، لا علو ولا سفلى، لا غلظة أو نحوًا

يعبره كأنه يطفو، أين كان ينتظره هذا كله؟ عندما خرج صباح ذلك اليوم الذي لم يبلغ غروبه هل توقع هذا؟ هل ما زال السائق شاخصًا مكانه ينتظر أوبته؟ إلى أي الجهات مضى الساعي الذي تبعه وأدى به إلى حيث لا يمكنه تحديد وجهة أو تعيين الفارق بين الأصل والظل، بل إنه لا يدري أيهما؟

يتبدل إلى أحوال، يتجسد له كافة ما يخطر له، تمامًا كما يهوى، حديقة شاسعة جمعت كافة ما عاينه أو قرأ عنه من شجر اللبان إلى أغصان تحمل تلك الفاكهة التي لم يعرفها إلا في سهوب آسيا، وتين الصحراء وتوت ينمو تلقائيًا مذاقه عسل مصفى وتمر واحدة غُرذاية الشفاف مثل الكهرمان، بوركنت يا دوفلي نور، لا يبذل جهدًا، لا يمزغ ولا ييصق النواة المستعصية على البلع، بمجرد خطرة الفاكهة أو رقرقة اللبـن الفائـر من الضرع للتو يدرك مذاقه، كافة ما يرغب يسعى إليه، إذا استدعى وقفة عند شاطئ الماء الأعظم يمتد البر ويعمق العمق، يتنسم ويصفو، تطوى له المسافات فيقبع يرغب المد فتنبسط الجهات ويقطع، لا يرى غيره لكن يعي وجود آخرين، لا يراهم غير أنه يدركهم بالاحواس، لا يسأل إلا وتهفو الإجابة، هو الصوت، هو الصدى، هو ما يستعصي عليه وما يسهل، أين كان ينتظره هذا كله؟ أي وجود شفيف؟

غير أنه يستفسر عن لحظة يرى فيها من يعرف، يستأنف إلى مقصده، يؤدي ما كُلف به، غير أنه لا يلقى إجابة، تدركه خشية قديمة، ما يمر به لم يعرفه، لم يلم به، يتمنى أن يصرخ، يريد ملمس الأشياء وليس نسائمها، يرغب في الإحاطة، عناق ما تدركه حواسه، إيلاج ومغادرة وليست تلك الراحة التي تدركه كلما تاق إلى مطلوب أو ظمئ إلى مرغوب، لا يلقى إجابة أو إيضاحًا، غير أن معنى يلوح له بدون نطق أو همس، لقد بلغ اللاهنا في غمضة عين بلزومه ذلك الجوال الهائم، في لحظة مما يعرف من قبل اللاقبل وطُويت له أكوان، الكل يبلغ ولكنه لا يرجع، إنها اللامسافات التي يستحيل قياسها، يتلفت فلا يدري يمينه من شماله، لا جهة تعينه أو تدله إنها وحشة لم يألفها وضوء ناعم لا يتغير ولا يتبدل، سار أبدًا به وبدونه..

موسيقى

تراجعت الطيبة الشابة إلى الخلف فوق مقعدها، قالت إن نتيجة القياس مقلقة، الاستخدام الخاطئ للسماعة بشقيها أتلف الأعصاب، صمتت لحظة ثم قالت بصوت أهدأ محايد مثل الأجانب الذين تعلمت منهم:

«أمامك عدة شهور..»

ثم أوضحت:

«لن تزيد عن ستة شهور..»

أطلت النظر إليها، جميلة، عندما التقيتها أول مرة صافحتني، نطقت اسمها رغم أنه مكتوب على مدخل العمارة، وعند باب العيادة، وفوق المكتب، تبعته قائلة «مطلقة..» لم أبد دهشة وإن حيرني ذلك فيما تلا، أهى دعوة أم توصيف حال بتأثير هزة، متناسقة، ألوفة وإن قام دونها حاجز غير مرئي أقرب إلى الحس، قصدتها عن طريق صاحب مشترك، تخصصها نادر، لا يعمل به إلا خمسة أطباء، أو ستة، تناسق منغم يصل عينيها بأنفها المحدث وشفتيها الممتلئتين، كيف لم أنتبه إلى الشامة على وجنتها اليسرى كأني أراها لأول مرة، كأنها لم تخبرني بفقد سمعي خلال شهور معدودات.

عند اجتيازي باب العمارة الخلو من أي حراسة توقفت، بل تجمدت حركتي فجأة، قدمي اليمنى إلى الأمام واليسرى إلى الخلف، ما خشيته يتحقق، ما سمعت

عنه للآخرين يجري لي، سأصير أصمّ، عندما بدأ العرض تصورت أنه سيزول، غمامة خفية تحجب الأصوات عن اليسرى، بعد حين تسربت إلى اليسرى، كنت أتحدث إلى صاحب حميم، فوجئت به يستفسر: هل تعاني مشكلة في السمع؟ قال إن هيتي تدل على ذلك، قلت إنني أستخدم سماعة بالفعل، قال إن إصغائي كان أفضل قبل سفري الذي غبت فيه ستة شهور، صحتني صديق مقيم إلى شركة متخصصة خرجت منها بوحدة لكل أذن، تقول الطيبة المطلقة إن المشكلة بدأت من هنا.

أصم؟

تبدو الطيبة صريحة مثل الأجانب، لا تجمل ولا تخفف، يمكنني التفاهم مع الآخرين، بالإشارة، بالكتابة، لكن ماذا عن الموسيقى، لم أتل منها حظي، عندي نهم إلى أنغام لم أعرفها بعد وأخرى اعتدتها وأتوق إلى استعادتها، أتفحص التسجيلات على الشرائط التي أصبحت عتيقة، أعنتني بجهاز يمكنني من الاستماع إلى ما تحويه، أتفحص الأقراص الممغنطة، أنحي جانباً ما يجب الإصغاء إليه، موسيقى من الصين، سماعات وبشارف وموشحات عربية، تركية، مقامات عراقية، أذرية، كيف أنأى عن سماعي رصد؟ كيف لا أتزود على فترات متقاربة بوصلة من مقام نهاوند؟ هل أطيق ألا أصغي إلى «رق الحبيب»، حفلة مسرح الأزبكية، يناير عام اثنين وخمسين تسعمائة وألف، فيها بلغت أم كلثوم الأفاصي! في السنوات الأخيرة اقتنيت تسجيلات مرثية، أطرب لحركة يديّ هوبرت فون كرايان، وإشارات رو بنشتاين، كيف؟ كيف؟

عدة أسابيع لا أقدر على الاستيعاب، أنام وأقوم متمنياً نحو كافة ما مررت به حتى لقاءتي بالطيبة المطلقة والتي أكدت لي أن الأعصاب تنه بأسرع ما قدرت، معها حق، الغمامة تتكاثر، بدأت الإصغاء، قصرت أويقات نومي، حتى أثناء تناولي زادي أدير المؤشر إلى الحد الذي يمكنني من الإصغاء، لزمت البيت نهائياً،

أتزود بأقصى ما أقدر عليه، في الليل أخفض الصوت، أستعين بساعة اعتدت استخدامها في الطائرة، تلغي ضجيج المحركات، أمر ببعض الفضائيات، في الركن التحتي سيدة أو رجل يقرأ الأخبار بالإشارة، لم يخطر لي قط من قبل أن هذا سيكون لي يوماً، عليّ التعجيل بإتقان اللغة غير المنطوقة، الحاجة تلبي متطلبات الوقت في عمري المتقدم، لكن ماذا عن الموسيقى؟ أتشوق إلى ارتواء مستحيل بلوغه كلاً ما عَمُقت الغمامة، شارفت الحد الذي يغمرني فيه الصمت، غير أنني أدركت أمراً، مع تزايد الهو بيني وبين الأنغام المستقاة بدأت أعني ما لم أستوعبه في البداية، ثمة موسيقى أخرى، لا ليست أخرى، إنها موسيقي، لكنها لا تصدر عن مذياع أو قرص مدمج أو حاسب آلي، مني، مني، ليس بالضبط، من أفق ما يصعب تحديده، ليست مقطوعات لها أول ومختتم، بل أنغام تسري، تتوالى، لا تمت إلى منشأ، تنبع من اللا أين، يشق عليّ التحديد أينما وليت، هذا مقام صبا يرققني، يأخذ عليّ جهاتي، ما أصغي إليه ليس إلّا..

جاء في الحكم لابن عطاء الله السكندري

* سَوَابِقُ الْهِمَمِ لَا تَحْرِقُ
أَسْوَارَ الْأَقْدَارِ
أَرْخِ نَفْسَكَ مِنَ التَّذْيِيرِ
فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لَا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ
اجْتِهَادُكَ فِيهَا ضَمِنَ لَكَ وَتَقْصِيرُكَ فِيهَا طَلَبَ مِنْكَ
دَلِيلٌ عَلَى انْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ مِنْكَ
لَا يَكُنْ تَأْخُرُ أَمَدَ الْعَطَاءِ مَعَ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ
مَوْجِبًا لِيَأْسِكَ
فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الْإِجَابَةَ فِيهَا يَخْتَارُ لَكَ
لَا فِيهَا تَخْتَارُ لِنَفْسِكَ
وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ
لَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ
إِذَا فَتَحَ لَكَ وَجْهَةً مِنَ التَّعَرُّفِ

فلا تُبَالِ مَعَهَا أَنْ قَلَّ عَمَلُكَ
 فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَكَ
 إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ
 أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ؟!
 وَالْأَعْمَالُ أَنْتَ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ
 وَأَيْنَ مَا تُهْدِيهِ إِلَيْهِ
 يَمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ؟!
 اذْفِنِ وَجُودَكَ فِي أَرْضِ الْخُمُولِ
 فَمَا تَبَتَ يَمَّا لَمْ يُدْفَنْ لَا يَتِمُّ نَتَاجُهُ
 مَا نَفَعَ الْقَلْبَ شَيْءٌ
 مِثْلَ عَزْلَةٍ يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانُ فِكْرَةٍ
 كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ
 صَوْرُ الْأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةً فِي مِرَاتِهِ؟!
 الْكَوْنُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ
 وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ الْحَقِّ فِيهِ
 فَمَنْ رَأَى الْكَوْنَ وَلَمْ يَشْهَدْهُ
 فِيهِ أَوْ عِنْدَهُ أَوْ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ
 فَقَدْ أَعْوَزَهُ وَجُودُ الْأَنْوَارِ
 وَحُجِبَتْ عَنْهُ شُمُوسُ الْمَعَارِفِ بِسُحُبِ الْأَثَارِ

ما تَرَكَ من الجهل شيئًا
مَنْ أراد أن يَحْدُثَ في الوقت
إحالتك الأعمال على وجود الفراغ
من رعونات النفوس
ما من نَفْسٍ تبديه
إلا وله قَدَرٌ فيك يُمضيه
من أشرقت بدايته
أشرقت نهايته
مِنْ عَلامَةِ مَوْتِ القَلْبِ عَدَمُ الحُزْنِ عَلَى
ما فَاتَكَ مِنَ المَوَافِقَاتِ
وَتَرَكَ النَّدَمَ عَلَى ما فَعَلْتَهُ مِنَ الزَّلَّاتِ
النُّورُ لَهُ الكَشْفُ
والبَصِيرَةُ لها الحُكْمُ
والقَلْبُ لَهُ الإِقْبَالُ والإِذْبَارُ
ما بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ
إلا على بِذْرِ طَمَعٍ
مَا قَادَكَ شَيْءٌ
مِثْلُ الوَهْمِ
أَنْتَ حُرٌّ مَا أَنْتَ عَنْهُ أَيْسٌ

وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ
 إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْلِ
 لَمْ وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَ تَغِيبُ
 لَا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبَسَ الطَّرْقُ عَلَيْكَ
 وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلْبَةِ الْهَوَىٰ عَلَيْكَ
 لَا يَسْتَحْقِرُ الْوَرْدَ
 إِلَّا جَهُولٌ

وَرُودُ الْإِمْدَادِ بِحَسَبِ الْإِسْتِعْدَادِ
 شُرُوقُ الْأَنْوَارِ عَلَى حَسَبِ صَفَاءِ الْأَسْرَارِ
 النَّاسُ يَمْدَحُونَكَ لِمَا يَظُنُّونَهُ فِيكَ
 فَكُنْ أَنْتَ ذَا مِمَّا لِنَفْسِكَ لِمَا تَعْلَمُهُ مِنْهَا
 رَبِّمَا أَفَادَكَ فِي كَيْلِ الْقَبْضِ
 مَا لَمْ تَسْتَفِدْهُ فِي إِسْرَاقِ نَهَارِ الْبَسْطِ
 إِلَى الْمَشِيئَةِ يَسْتَنْدُ كُلُّ شَيْءٍ
 وَلَا تَسْتَنْدُ هِيَ إِلَى شَيْءٍ
 تَسْبِقُ أَنْوَارُ الْحُكَمَاءِ أَقْوَاهُمْ
 فَحَيْثُ صَارَ التَّنْوِيرُ وَصَلَ التَّغْيِيرُ
 تَمَكَّنُ حُلَاوَةُ الْهَوَىٰ مِنَ الْقَلْبِ
 هُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ

لَا يُخْرِجُ الشَّهْوَةَ مِنَ الْقَلْبِ
 إِلَّا خَوْفُ مُزْعِجٍ أَوْ شَوْقُ مُقْلِقٍ
 حُقُوقٌ فِي الْأَوْقَاتِ يُمَكِّنُ قَضَاؤَهَا
 وَحُقُوقُ الْأَوْقَاتِ لَا يُمَكِّنُ قَضَاؤَهَا
 مَا فَاتَ مِنْ عُمْرِكَ لَا عِوَضَ لَهُ
 وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لَا قِيمَةَ لَهُ
 لَا تُزَكِّينَ وَارِدًا لَا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ
 فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ السَّحَابَةِ الْإِمْطَارُ
 إِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْهَا وُجُودُ الْأَثَرِ
 لِيَقِلَّ مَا تَفَرَّحَ بِهِ
 يَقِلُّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ
 إِنْ أَرَدْتَ إِلَّا تُعْزَلَ
 فَلَا تَتَوَلَّ وَلَا يَتَوَلَّ لَا تَدُومُ لَكَ
 الْكَائِنُ فِي الْكَوْنِ
 وَلَمْ تَفْتَحْ لَهُ مَيَادِينَ الْعُيُوبِ
 مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ
 وَمَحْضُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ
 فَالْنَّهَارُ لَيْسَ مِنْكَ إِلَيْكَ
 وَلَكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ

حكايات هانمة

الفِكرَةُ سَيْرُ الْقَلْبِ
في مَيَادِينِ الْأَغْيَارِ
الفِكرَةُ سِرَاجُ الْقَلْبِ
فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ

سطور على شجرة

قيل إن سيدنا ذا النون، قال: وجدت على شجرة في بيت المقدس سطورًا مكتوبة لا تُفهم، قرأتها - وكان ذو النون قادرًا على قراءة كل حرف مستعصي - فإذا معانيها كما يلي:

كل عاص مستوحش، وكل مطيع مستأنس، وكل خائف هارب، وكل راج طالب، وكل قانع غني، وكل محب ذليل.

الأمر نسبي

تلك حكاية ذائعة، لعل أقدمها ما ورد بالسنسكريتية في إطار الديانة الجاينية، أقدم ما عرفت الهند من معتقد.

ذات يوم جاء ملك بخمسة رجال عُمي إلى فناء قصره حيث رُبط فيل ضخمة، ثم سألهم أن يخبروه، ما هذا الشيء؟ كل منهم تحسس الفيل، وطبقاً لإدراكه أخبر الملك بما حَسِبَهُ، من تحسس الخرطوم قال إنه أفعى ضخمة، من لمس الذيل أكد أنه حبل، من مريده على الساق قال إنها جذع شجرة، الرابع أمسك بالأذن مؤكداً أنها مروحة، أما الخامس الذي لمس جانب الفيل فتساءل دهشاً: أي جدار عظيم هذا؟

كل منهم أصر على صحة ما عرفه باللمس.

ماء دافئ

جاء في النصوص الهندية القديمة، أن هناك سبع حالات للتعبير عن حقيقة واحدة، ضربوا مثلاً بالماء الدافئ.

قد يكون الماء دافئاً لشخص قادم من البرد.

قد لا يكون دافئاً لشخص قادم من غرفة دافئة.

ربما يكون دافئاً أو غير دافئ لحالات معينة.

بمعزل عن أي حالة لا يمكن وصف الماء.

رغم تعذر الوصف يمكن القول إن الماء دافئ بالنسبة لحالات..

رغم تعذر الوصف بذاته يمكن القول إن الماء غير دافئ بالنسبة لحالات معينة..

رغم أنه متعذر الوصف بذاته، يمكن القول إنه دافئ وغير دافئ بالنسبة للحالات.

في كل الأحوال يظل الأمر نسيئاً.

حرف السين

حدثنا الشيخ محمد أحمد بن إياس الحنفي المصري في عدة مواضع من كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور» عن ظروف تولي قنصوه الغوري السلطنة، كان أميرًا كبيرًا، متقدمًا في العمر ينتظر حسن الختام، وقع اختيار الأمراء عليه حتى يمكنهم الخلاص منه بعد أيام معدودات، أو أسابيع قليلة إذا طال الأمر حتى يحسم صراع الأمراء الكبار ويتم اختيار أقواهم، وأكثرهم تمكنًا، عندما عرضوا الأمر عليه رفض وتمنع، حتى إنه بكى لكى يتركوه في حاله، إنه يريد أن يمضي ما تبقى له في حاله، بعيدًا عن الهم والغم، كما أنه يخشى ألا يقدر على تحقيق العدل للكافة، الحِمل ثقيل وسوف يحاسب عليه أمام عزيز مقتدر.

أصر الأمراء وقبلوا رأسه، ورفضوا المغادرة حتى سماع الموافقة، هكذا.. قبل على مضض بشرط ألا يطول الأمر أكثر من شهرين أو ثلاثة، رضوا بشرطه وانصرفوا لتدبير أحوالهم ومآلهم، مرت الأيام، بعضها يجز بعضًا، لا يذكر ابن إياس تفاصيل كثيرة عن أحواله إلا ما اعتاد ذكره من أخبار السلاطين، من عزل وتولية، طلوع ونزول إلى ومن القلعة، تغيير الملابس من البياض إلى السواد لدخول البرد مبكرًا، إلى غير ذلك من وقائع، غير أنه في موضع آخر يقول ما نصه: «ويبدو أن السلطان ذاق حلاوة السلطنة..»

استدعى الغوري ابن زنبيل ضارب الرمل، سأله عمن سيتولى بعده؟ نظر الرمال إلى الرمل، رص الودع وبدل مواضعه وأصغى إلى أصداء الرياح داخل

إحداها، نقل البصر بين الذرات الصفراء وملامح السلطان، ثم نطق بعد درجتين من الصمت: «أول حرف من اسمه.. سين..».

في اليوم نفسه استدعى السلطان كبير البصاصين، طلب منه أن يعد قائمة بأسماء الأمراء الذين تبدأ أسماؤهم بحرف السين، بعد يومين بدأت الحوادث، تعثر الأمير سلار في حفرة ودق عنقه أثناء لعبه الكرة، أما الأمير سلامش فذاهمه مغص وعر بعد تناوله العشاء، لم تشرق عليه شمس النهار التالي، لم يمض شهر إلا وخلا ممالك مصر من أي أمير أو صغير يبدأ اسمه بحرف السين، وعندما أنهى إليه كبير المصريين بتهام المهمة كافأه السلطان بياقة من فرو السَّمُور الأسود وهذا غريب نادر، أدركته راحة ونام آمناً، غير أنه لم يفكر قط في سليم العثماني..

فين؟

في الطابق السابع من البناية رقم واحد، الشاهقة، المطلة على النهر، الشقة التاسعة في نهاية الممر، تجلس الأم الشابة تنظر إلى المياه المؤدية أو القادمة من المحيط، الواجهة الزجاجية العريضة، تبحر أنواع مختلفة من المراكب، السفن، قوارب المواصلات البحرية التي تصل شطري المدينة، بعد بدء إغفاء ابنها اليومية، تستسلم إلى الرؤية، تصغي إلى هسيس الحنين صوب الهُناك، حيث أيامها المنقضية، لم يفتر ولم يهن، غير أنها اليوم قلقة، حائرة، خاصة أن الهاتف هناك لا يجيب أحد على رنينه، لم تعد ذلك، تتقن فارق التوقيت، بل إنها تمضي بتوقيتين، هنا وهناك، عندما تبدأ إعداد العشاء قبل عودة زوجها، ترى والديها هناك أمام التلفزيون يتابعان الأخبار والبرامج الحوارية، لماذا تخشى استعادة سؤال ابنها الذي سيحتفلون بإتمامه العام الثالث، منذ عودتها التي انقضت عليها شهور خمسة لم يذكر جده، اليوم فقط استفسر فجأة:

«هو جدو رايح فين؟».

طِي

أما وقد دنا اكتمال سعبي، وطِي صحفي، ولاح مبدأ المعاد، واقتربت الأوبة، فلا يقضني إلا الحيرة، لا أتحسر على ما فاتني، ولا أحزن لما انقضى ولا أذرف الدمع على مراحل لم أعشها في حينها كما يجب، ذلك أن الظروف لم توات، والمعتقد، حائل ومانع، كما أني لا أطلب امتداد الأجل، فلكل أوان حاله، والرضى به مساعد على إغلاق القوس المقابل للقوس.

أرى في حدقتي عيني الآن ما لمحتة يومًا في تحديق أبي إليّ، نظرة هادئة وادعة، طلة المسافر إلى من أحب ومن اعتاد، من الكائنات إلى الجدران والأسقف والدعائم الحاملة، ما من شيء في الكون صامت أصلًا.

سافر أبي إلى جهينة، أمضى أيامه الثلاثة في التسليم، دخل البيوت على الحريم في هيبة الرجال، صافح وودع وتملى وأبلغ، فقط، امرأة خالي، لاحظت ذلك، عندما تابعت ابتعاده عبر الرحبة، قالت لإحدى قريباتها:

«عم أحمد ماشي بيحدف.. رجل هنا ورجل هناك..»

صاحب لي أوتي البصيرة بعد البصر، هاتفته في معزله لأطمئن، قال بهدوء بليغ:

«حموت السنة دي.. أنا والحاج سيد..»

صاحب حميم، شاركه هيامه بالشعر والإنشاد، يكبره عمرًا، مشواره أطول،
غير أن علة صاحبي هذا قربتهما، مع اقتراب اللحظة، فوجئت به يحدثني عن
ترتيب أشياء وتجهيز أمور، قلت بتلقائية:

«يا أخي.. بعد الشر عنك..»

أجابني بهدوء:

«شر.. ليه شر.. مين عارف..».

لا أعرف ما رآه عند اكتمال المشوار وهو المرفف، الدقيق، لكنني أقارب
موضعه، منذ حين كان يشغلني الأين والوقت، اسم اليوم، أي ساعة، ليل أم
نهار، علام سأغمض الرؤية ولا أقول العينين تظلان مفتوحتين مع التهام، يغمق
سوادهما ويعم، هكذا رأيت عيني شقيقي الذي لن أعلم أبدًا، لماذا استدار في رقدته
إلى عكس ما اعتاده.

لا يشغلني هذا، غير أن خيرتي مصادرها شتى، أسألتي بلا إجابة، وأعرف أنني
لن أجد. دائمًا كنت أردد، أعرف أنني لن أعرف غير أنني لن أكف عن السؤال،
الآن تخفت حدة استفساراتي، لم أعد أنطق بصوت لا يسمعه إلاي: من أين وإلى
أين؟

إذ تشتد حيرتي أقدم على متنفسي الوحيد، أرقص طوال عمري أحجل من
الرقص، لم أرقص إلا قسرًا، في ليلة نشوى كنت بصحبة، تقدمت بُنيَّةً فارهة، بثها
وقاد.

نحوي مباشرة.

صاح صاحبي الذي يعرف تقاليد القوم:

«تدعوك.. قم ولا تخرجنا..»

غير أنني تجمدت وعلى شففتي ابتسامة محايدة، عندما أدارت ظهرها خجلت
لخجلي، وتحملت لوم الصحب، حتى عندما دُفعت دفعًا، تظاهرت بالرقص،
جبلنا على الخجل منه، لم أندمج مع أحد، قمعنا أنفسنا وطوينا داخلنا أشياء، شرط
الرقص التدفق، نبه من الداخل، ليس من أي جهة أخرى، لذلك عندما ناء بي
الحال، وتزايد اقترابي ودنوي من طريق لا أعرف عنه شيئًا، أندلع راقصًا، أبدأ
تحريك ذراعيّ إلى أعلى مديراً يدي إلى يمين وشمال فأنتبه متأخرًا إلى كنه الصلة
بين رفع الأيدي عند اللولولة والرقص، أقوم من قعادي، أولي الوجه كل صوب،
أحاول تجاوز حضوري المادي إلى اللامدرك بكافة الحواس، أصير إلى كل اتجاه تمامًا
كما سأتفرق عن بعضي، غير ملم بما سأقصده غير أن باعني على الشطح ومحاولة
الإفلات ثقل الحيرة عليّ..

معرفت

جاء في الحكمة الصينية القديمة: «كان الحكيمان يتزهران فوق الجسر، قال الأول:

-انظر إلى هذه الأسماك كيف تثب فرحة، مستمتعة؟

قال الثاني للأول وهو يحاججه:

-أنت لست سمكة، فكيف عرفت أنه مستمتع؟

قال الأول:

-وأنت لست أنا، فكيف عرفت أنني لا أعرف متعة السمك.

قال الثاني:

-أنا لست أنت، وبالتالي فمن المؤكد أنني لا أعرف ما تفكر فيه، ولكن من المؤكد أيضًا أنك لست سمكة فمن البديهي أنك لا تعرف ما يشعر به السمك..

قال الأول بعد توقفه:

-لنبدأ من جديد، أنت سألتني كيف عرفت ما هي متعة السمك، وهذا يعني أن مجرد إلقاءك عليّ هذا السؤال يشير إلى أنك تعرف أنني أعرف، إذن، يجب أن تعرف أنني أعرف..

سمك

جاء في الجزء المفقود من «المكتون في مسائل ذو النون» ما نصه:
ذات يوم كان سيدي ذو النون يصطاد سمكًا من النيل أمام أخميم، تقدم منه
أمير الناحية، وكانت جرجا من أهم مقاطعات الدولة، لا يتولاها إلا ذو منزلة
ورتبة، قال:

«إن مولانا يرغب في تولّيكَ منصبًا رفيعًا تدبر فيه أحوال الناس».
استمر ذو النون محدقًا في المياه المسافرة من الجنوب إلى الشمال، قال كأنه يتحدث
إلى نفسه:

«انظر إلى النهر، إنه مزدحم مليء بالأسماك، أيها أفضل حالًا، السمك الذي
يعوم حيثما شاء، ويأكل ما يريد، ويقفز عندما يرغب، أم السمك الذي يدفعه
جهله إلى هذه الصنارة..

أطرق أمير الناحية صامتًا، واستمر ذو النون متطلعًا إلى المياه المسافرة أبدًا.

فراشت؟

من الفكر الصيني:

ذات ليلة، أبصر زهانغ زهو في منامه أنه فراشة، كان مرتاحًا تمامًا لكونه فراشة، يا لها من حرية! يا لها من حياة كما يرغب، كما يهوى، نسي أنه «زهو» فجأة استيقظ ليجد نفسه مذهولاً في إهاب «زهو» بات لا يعرف ما إذا كان «زهو» هو الذي حلم بأنه فراشة، أو ما إذا كانت الفراشة هي التي حلمت أنها «زهو».

حلم

جاء في الفكر الصيني:

نحلم أننا نقيم احتفالاً، يبرز الفجر، نبكي، في المساء ننتحب، صباح اليوم التالي نذهب إلى الصيد، عندما نحلم لا نعرف أننا في حلم، نفسر، في أثناء حلمنا، حلمًا آخر، ولا نعرف أننا كنا نحلم إلا بعد أن نستيقظ، وعند اليقظة الكبرى وحدها ندرك أن المسألة كانت مسألة حلم كبير، الحمقى وحدهم هم الذين يعتقدون أنهم يقظون، بل هم مقتنعون تمامًا بهذا، أمراء، دعاة يجمعهم هذا اليقين، كونفوشيوس وأنت لستما سوى حاملين، وأنا من يقول إنك تحلم، أنا أيضًا في حلم.

حلم

يقول باسكال:

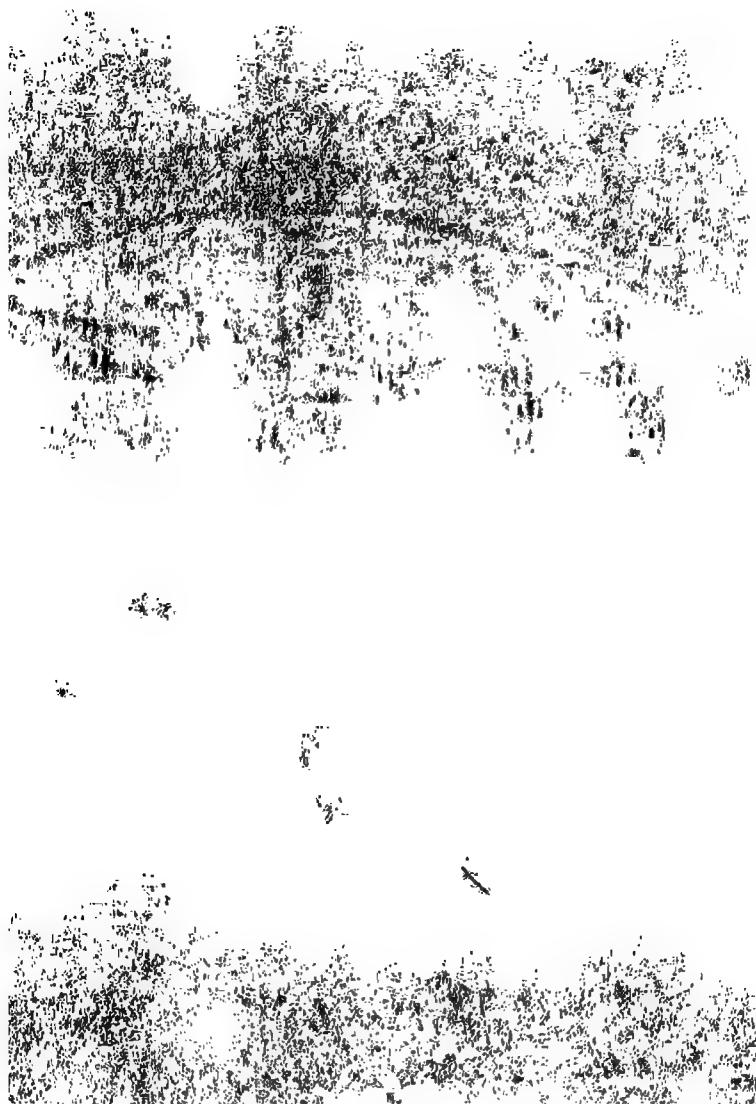
أليس ممكناً أن يكون هذا النصف من الحياة هو نفسه مجرد حلم طُعمت عليه
سائر الأحلام، نستيقظ منه بالموت؟ من ذا الذي يعرف أن هذا النصف الآخر من
الحياة الذي نظن أننا سنستفيق فيه، ليس سوى نوم آخر مختلف عن الأول.

مُعلم

«المعلم الجيد هو القادر على إيجاد الجديد فيما هو يستعيد القديم».

كونفوشيوس





حكايات ومسائل تحوتي

من مسائل تحوتي

جرى ذلك كله في أبيدوس، مصدر الحكمة ومرفأ العلوم ولب القداسة وموضع الآتي بعد المنقضي ومقصد الساعين من كل فج، لم يذكر ذلك في نصوص مكتوبة، إنما روايات شفوية لا يزال بعضها ساريًا لأن بعض الوافدين من الضفة الأخرى للبحر أصغوا ودَوَّنوا العلمهم يصلون إلى بعض من معرفة المصريين القدامى، بالطبع لحق بها تغيير بدرجة ما، لكن طول الإمعان ونفاذ التدقيق يمكن أن يشي بالأصول، في ذلك الحين لم يكن معضد الفكر، حاد البصر والبصيرة، تحوتي قد ارتقى إلى مرتبة مطلقة، لتحقيق واكتمال القداسة لا بد من بُعد عن الزمان أو انقضاء مسافة من المكان، كان لا بد من انقضاء عصور متوالية قبل أن يصبح رمزًا للحكمة، للعلم، للمعرفة، إنه أول من اهتدى إلى الكتابة، صاغ الحروف وجلى الدلالة، أول من نظر في النجوم، ميز الثابت منها والسيار وأسس أشكال البروج، مما وصل إلينا من هياتها القديمة التي رصدها وسجل ملاحظها من مرقبه الواقع على الحد الفاصل بين الأخضر والأصفر، بين الزرع والجذب، بين الأرض السوداء والصفراء، يمكننا رؤية الاثني عشر برجًا في مقبرة رمسيس السادس بوادي الملوك، وهيئة أكثر اكتمالًا تعرف بالزودياك محفوظة الآن في ركن من القسم المصري بمتحف اللوفر، انتزعها شامبليون من مكنها الأصلي في معبد دندرة البطلمي ونقلها إلى باريز، نظر في البحار ورسم الطرق التي لا ترى، وعاین التيارات التحتية التي لا يمكن للبحارة رصدها، كما رصدهجرات الطيور وحدد مساراتها، لا يمكن إحصاء ما وضع

نقاط انطلاقه وتطوره، أمره معروف، مُقر عند الكافة حتى أولئك المغايرين له في المعتقد نتيجة ما ألوا به في زمن ناء عن وقته ومداه، تحوي اسمه الباقي.. قادم من اسم عتيق للطائر أبييس الذي يرمز إلى القلب، إلى المركز، يطالعنا فيما تبقى، وصل إلينا بمعجزة بجسد إنسان ورأس الطائر المجتبى، اسمه من أسماء الزمان، ما زال يُطلق على أحد شهور السنة القبطية وما هذا إلا التقويم المصري القديم الأدق على الإطلاق، ما زال يتبعه أهل الفلاحة في ريف مصر، إنه توت، تبدل اسمه مع الزمن وصيرورته وانتقاله إلى ثقافات وحضارات أخرى، صار إلى هرمس، إلى مثلث العظمة، إلى إدريس النبي وغير ذلك، مما وصلنا ما نقله ديودورس الكريتي عن المتون العتيقة ومنه إلى أيجور الفلورنسي الذي أودعها خزانة كاتدرائية سان مارك في البندقية خلال القرن التاسع الميلادي، هذه المسائل لا يزال معظمها مجهولاً، وإنني لمورد بعضاً مما تيقنت منه، لعل وعسى..

طرق البحر

سأل سيد الأرضين: يخلو البحر من طريق، ما من طرق مرئية في خضمه، كيف يمكن خوضه بدون مخاطر التيه والهلاك المحقق، شغل السؤال تحوتي، غير أنه لم يُقر بعجزه، لم يحدث ذلك قط، يقول دائماً: ما من سؤال إلا وجوابه موجود، بل إن السؤال فاتحة الجواب، المهم أن نُعمل الفكر والتأمل ونطيل الملاحظة، مما نُقل عنه أيضاً أن السؤال يحوي أحياناً من الجواب ما يتجاوز الرد المبين، المهم إتقان السؤال والجواب. عاد إلى مقره عند الحافة في أبيدوس، أي بحر يقصد؟ الأمر نسبي، سكان المحلات القريبة يسمون الترع الصغيرة بحوراً حتى إذا اقتربوا من النيل صاحوا منبهرين: هذا بحر، أما الذين يعيشون عند الحد الفاصل بين اليابسة والماء الأزرق الممتد، الذين يطالعون يومياً غياب الشمس في الماء وليس عند حد الرمال، فينظرون وجلين البحر اللانهائي، أخبرهم الأقدمون بوجود ماء أعظم محيط بالكون، من يقدر على الخوض فيه لا يرجع منه، عمر الإنسان لا يكفي كله إلا لقطع جزء يسير منه، فكر تحوتي في رحيل الماء عبر النهر، مجيئه من بعيد حاملاً الأشجار المنتزعة من أراض قصية، منها شجر الدوم الرحب متقبل الجوار، غرسه البعض بعد انتشاله هائماً، غرسوه في الأرض السوداء فثبت وغاص وأينع، يعرف أن أنواع الترحال بعدد الأنفاس، هذا الماء، أي ماء في سفر دائم، يتصاعد بخراً ويسافر مع الغمام حتى إذا ناء به يتساقط مطراً سخياً، سأله الكاهن الأعظم عندما كان في بداية المدرج:

أي قوة أعتى في نظرك؟

قال مجيئاً بصوت خفيض حذر:

النار.. تلتهم كل شيء.

تبسم الكاهن الذي لن ينسى جلسته وأسئلته أبداً.

وماذا عن الرياح.. ألا تؤجج النار وتزيدها اضطراباً.. وأحياناً تخمدوها؟

ثم قال:

ألم تر الماء يُلقى على النار فيطفئها؟

ثم قال:

أعلم أن الماء هو القوة الأعنى، رأيتَه يقص الجبال قصاً، وهو العنصر الوحيد الذي تحيىء منه حياة..

يستعيد تحوتي ما لح به الكاهن الأعظم، كان يشير ولا يجيب، يومئ ولا يعين، يسأل فيجيب في عين السؤال، لم تطل الخلوة، قدّرها البعض بسبع ليالٍ وأكد آخرون أنها أربع عشرة، أيّاً كان الأمر، مضى إلى كاهن الوقت، سيد الأرضين، قال إنه أمعن واستقصى، إيجاد الطرق في الماء، أيّاً كان، سهل ميسور، تطلع ابن حور المقدس منتظراً استكمال الجواب كأنه طفل يبدأ الاستيعاب، قال إنه لا بد أولاً من المعرفة، إذا توافرت يمكن إيجاد الطريق هنا، أشار إلى دماغه.

مدد المستمع المكين شفّتيه في هيئة فضول متسائلاً.

قال:

قبل ذلك يجب إيجاد الوسيلة، كما يجيء شجر الدوم المنتزع من موطنه بالماء ويذهب معه، هكذا نسري بهذا، كشف الغطاء عن نموذج لقارب صغير له مجدافان، قال إنه مُجَرَّب في مياه «الأوزيريون» المقدسة.

تساءل سيد الوجهين: أستر حل بهذا في الماء الأعظم؟

قال بصوت هادئ خفيض:

المبدأ واحد.. المبدأ واحد يا من تصون الحدود.. هكذا ظهرت السفن إلى الوجود.

نَسج الألوان

لعل مرقد جميلة الجميلات «نفرتاري» أروع ما عرفه البشر من مثاوي أبدية، لا أقصد البر الغربي إلا وأمضي إليه، بل إنه المكان الوحيد الذي أتهيا له، فأحرص ألا أرى شيئاً قبله ولا أطلع بعده، أستعيد بعضاً منه على البُعد، إذ يستحيل تمثله كاملاً لتنوع مقاماته وثرء مفاصله وعذوبة حناياه، غير أنني مورد أمرًا متعلقًا بها جرى قبل بلوغي البر الغربي، بل إنني عندما نزلته أول مرة عام واحد وستين ضمن فريق الكشف لم أبلغه، لم أكن ملئًا بها، تعلقي بها جاء متأخرًا، بعد أن استوعبت وأدركت وأقمت على الأسباب، غير أنني عرفت مبكرًا، ذلك أن الأستاذ الروبي - مدرس الرسم الفني - طلب مني أن أنفذ مشروع التخرج من هذه اللوحة، قدم إليّ صورة للملكة نفرتاري - جميلة الجميلات - تسلم يدها إلى إيزيس المقدسة، تقودها إلى النعيم المقيم الدائم راضية مرضية، هادئة، مستسلمة، بل إنها التسليم نفسه، تمعنت وحاولت الاستيعاب، كان المفروض أن أنقل المشهد كما يبدو، لا تحريف ولا تصرف، لو اقتصر الأمر على النقل لما وجدت صعوبة، غير أنني يجب علي تنفيذه بحيث يصلح لنسج سجادة من الحرير سدى ولحمة، مائة عقدة في السنتيمتر الواحد من نوع جوردرس، عقدة مغلقة، محكمة، كل مربع على الورق تقابله عقدة من خيوط رقيقة، لا بد أن أصبغ ألوانها بغير معاونة أو مساعدة من أحد، جمعت دراستي بين تصميم السجاد وعمله وصباغة الخيوط من قطن وصوف وحرير، في الأغلب الأعم مواد طبيعية مثل الفُوه - عود أحر

- والعصفر - أصفر - والنيلة - أزرق - إلى غير ذلك، حتى الآن بعد مضي ثلاثة وخمسين عامًا لا أدري ولا أعرف لماذا اختار لي هذه اللوحة، في الدفعة النهائية سبعة وعشرون دارسًا وزع على كل منهم تصميمًا من سهوب آسيا أو مضارب الأناضول، كرمان، بخارى، أصفهان، قم، تركي.. إلى غير ذلك، عداي، اختار لي لوحة من زمن سحيق لم ندرسها من قبل ولم أَلَمْ بها، غير أنها كانت البداية لصلتي بهذا المرقد الفريد والذي تقتضي زيارته ترتيبات خاصة، ولولا مودة جمعتي بالقوم وصلة لما وجدت إليها سبيلًا، لسنوات ظل مغلقًا بعد تأثر الألوان العتيقة بآثار الأنفاس التي تتخلف عن الزوار، أمضى معهد بول جيتي سنوات يعملون بدقة وحصافة، دخلت في خضم انهماكهم بصحبة متخصصين، عملت لمدة خمسة شهور في رسم اللوحة التنفيذية، وستة شهور في نسجها عقدة عقدة، كنت أنقل البصر بين ما خططته ولونته والخيوط التي أعقدها وأقصها وأسويها بالمقص، وهذا شأن لو تعلمون عسير بالنسبة لسجادة رقيقة كتلك، قام بيني وبين اللوحة أمر مبین، يشق عليّ الإفصاح عنه، من لم ير الأصل فلن يستدل أبدًا على ما أومئ إليه أشير، جرى عندي شيء سلسال، يعود من حيث بدأ، مختلف تمامًا عما شعرت به تجاه مطربة الغروب ميريت آمون التي عاينت تحتها منذ عثورهم عليه منكفئًا قرب جبانة المسلمين، خطوطها، ذلك التعبير على وجهها، فمها الحاوي للشروق والغروب معًا، استدارة رديها الكوكبية.

تُرى أكمل ما يكون من بعيد عند لوح وقفها بعد نصب التمثال، وإتمام القدم المكسورة بنحت من مادة مغايرة عاجلها صاحبي الفنان محمد مبروك، غير أن وقوفها وتعرضها للرمال السوافي والرياح الباردة وتقلبات الفصول غير هذا من هيئتها وتعبير وجهها فكأنها تدرك وتعي ما يجري، أما اللون الأحمر صابغ الشفتين المرتويتين السخيتين فزال تمامًا، قلت لخفير الموقع عندما لاحظت طول شخوصه إليها:

«هل رأيت أجمل من هذه؟».

قال:

«والله يا أستاذ كل ما ابص لها حالي يَدْرَبِك...».

خضت في أمري معها وفصلت في نص موسوم «مطربة الغروب» فليطالعه من يرغب.

عندما زرت المرقد أول مرة لم أشأ الاستفسار عن موضع المشهد الذي تقود فيه إيزيس جميلة الجميلات، أرجأت وقمعت فضولي، صرت راغبًا في تحقق اللقاء بنفسي، توصلت به آخر الممر الذي يمكن رؤيته كاملاً من المدخل، أما المشهد فمنقوش على الجانب الآخر للعمود، مواجه للمرحلة الأخيرة، ثلاثة أعمدة، هو أوسطها، لم أفرج عن زفيري، تراجع بمقدار خطوة حفظاً للهيبة وصوتاً للمعاني الغامضة، تملت من خطوط وحنايا نفذتها رسماً ونقشاً، عقدة، عقدة، ما يقرب من سنة، عملت يومياً لعشر ساعات على الأقل، عندما رأى الناظر ما أدت هز رأسه مرات، واقترح إرسال السجادة بعد اعتماد نتيجة الامتحان النهائية إلى الوزير، ظلت معلقة في مكتبه، رأيتها في الثمانينيات عند زيارتي لرجل أثير عندي، الوزير حسين كامل، أخبرني من أثق به أنها لم تعد، لم أسأل، لم أحاول، اعتبرتها في اللا مكان، تمامًا مثل جميلة الجميلات التي ترتدي الثوب الأبيض النقي المتطهر من كل سوء، فوق جصرها ذي المرجعية عقدة إيزيس بلون أحمر، وعلى الرأس تاج آمون، أما إيزيس فيعلوها تاج حتحور، قرص الشمس يحيط به قرنا بقرة، أما ثوبها فأحفظ تفاصيل نقوشه الغالب عليها الأحمر، متخذة حركة موج البحر عند اقترابها من الشاطئ بعد ترحال طويل مجهول مداه.

لماذا اختارني الأستاذ الروبي، لماذا خصني وأفردني بهذا التصميم الفريد، لا أدري وإن كنت على يقين أن في الأمر شيئاً، في الأمر شيء، الغريب أن انحنائي على الكتابة يعيدني إلى نفس الوضع الذي لزمته تلك الشهور الخمسة خلال تصميمي الرسم، فكأنني طوال رحيلي في الحياة أنحني عليها وأحن. غير أنني لن أنسى أبداً تلك اللحظة أثناء انهماكي، وتأكدت مع ترددي على منزل الأبدية لجميلة الجميلات.

ابن السماء

أخبرني عالم المصريات الإيطالي أنطونيو نيو زاده، أن من مقتنيات متحف تورينو غير المسموح الاطلاع عليها أو ذكرها في المقتنيات، لفافة بردي نسخت في معبد أبيدوس تؤكد أن تحوتي صاغ وحدد كثيرًا من الرموز التي حيرني أمرها، منها الباب الوهمي أساس المذبح في الكنيسة والمحراب في المسجد، كما أنه حدد الجهات الأربع بدقة مذهلة، وقد أجرى الفلكي الشهير بنيبي الصقلي دراسات دقيقة على قياسات واجهات الهرم، وأثبت -بما لا يدع الشك- اتساقها مع الجهات الأربع الأصلية، بعد حوالي خمسمائة عام وفد إلى مصر ثلاثة من الصين أوفدهم الإمبراطور المنحدر من أسرة هان، قاموا بقياسات دقيقة حيرت القوم المصاحبين، وفي الأغلب الأعم هم الذين عرّفوا أهل أخميم بدود القز واستخلاص الحرير الطبيعي، أو عرفوه منهم ونقلوه إلى الصين، الأمر غامض لكنني سأذكر ما تحصل لي في موضعه. ربما يجيب ذلك عن تساؤلاتي التي تؤجج فضولي حول كيفية وصول لوازم هذه الصناعة التي اشتهرت بها المدينة حتى الآن، نفس التقنيات المستخدمة في الصين، لكن هذا مما يطول الحديث فيه فلا أرجئه حتى لا أحيد فالأمر دقيق، عاد العلماء الثلاثة إلى ديارهم البعيدة، كانوا يعرفون تحوتي والرمز إليه بطائر أبيس، وأنه مدلول الحكمة، وحدثوا البعض عن مكانته في الصين، وغزارة علمه، والحاجة إلى ملايين السنين لفض ما جاء به رغم أنه لم يدخل في التفاصيل، لم يخض في الجزئيات إنما أرسى المبادئ، وأسس الإيلاءات، في المدينة السماوية أمضوا وقتًا ليس بالهين، بعده رفعوا

الأمر إلى الإمبراطور ابن السماء، خلاصة ما أكدوه أن تحوي رمز حكمة البشر أخطأ في الأسس التي شيد الهرم الأكبر على أساسها مواجهًا الجهات الأربع، ثمة فروق طفيفة تؤكد الخطأ، صحيح أنه يسير جدًا، لكن سيحسب هذا لابن السماء، حكيم مصر كان على خطأ، يبدو من دقة المناقشات وعمق المداولات أن تحوي كان له شأن عظيم، وأن صلات قديمة جدًا قامت بين الصين ومصر الأولى التي لم تخلف لنا نصوصًا، فالكتابة كانت في بداياتها. ابن السماء لم يقتنع، استدعى أكبر العلماء من جميع الأنحاء، ليس المنتمين إلى قومية المتدربين، إنما الكافة، أقاموا في المدينة المقدسة، حظوا بأرقى عناية، بعد سبعة شهور من البحث والتدقيق طلّعوا بعد ورود الإذن إلى السيد القائم، قدموا خلاصة ما توصلوا إليه، قالوا لابن السماء: «القواعد التي وضعها تحوي سليمة تمامًا، الكون هو الذي تغير.. المجرات تتباعد ومواقع النجوم تبدلت..»

نومة العروس

إلى يمين الداخل مقصورة مفتوحة على فراغ المرقد لذلك لا أقول حجرة لأنها بدون باب يتوسط جدارًا، مفتوح تمامًا على بقية المكان، أخطو على مهل، إلى اليمين، بعرض الحائط، سبع بقرات يسر حضورها الناظرين، صفان، الأعلى أربعة، الأولى حمراء، الثانية سوداء، الثالثة حمراء منقوشة بمساحات غير متساوية بالأبيض، الرابعة بها مس من حمرة، الصف الثاني أربع أيضًا، إذن.. كيف أقول سبعة، فعلاً الرقم صحيح، الثامن ثور متين أسود مشوب بلون بني، أثناء البقرات تدل عليهن، أما الأخير فصفته جليلة، استدارة قرنيه، تكوينه المغاير، تحت.. أقول تحت، الصف الثالث أربعة مجاديف لا تتصل بقوارب، كأن كلاً منها معلق في الفراغ، مجاديف هنا، ماذا يعني ذلك؟ فلأرجى جوابي الآن ذلك أنني لم أتوصل به إلا بعد مشقة، خاصة أنني علمت أنها من رموز تحوي، فلا تمهل إذن، ما أتوقف أمامه هيئة جميلة الجميلات على جدران مرقدها ومأواها، وإن كان لم يُعثر لها على مومياء، فقط كما ذكر عالم المصريات الألماني أريك هورنينج المتخصص في العقيدة، قال إنه عند الكشف وجدوا جزءاً من قدم متصل بصندل ملكي يرجح أنها من بقايا الجسد الذي حاول لصوص القرنة سرقة فتعاملوا معه بخشونة، وإنني لأخشى التفكير في هذا المصير المزري للملكة منعمة، جميلة جميلات جئن قبلها وتبعنها بعد غيابها، ما روغي هدوءها، جماها المستكين، لا يمكنني تحديد لحظة معينة أجزم بتوصلي خلالها إلى نتيجة محددة، أو وضوح لما غمض عليّ، ترددت

على المرقد كثيرًا وتأملت طويلًا واستفسرت من صحبي عن أمور، وطالعت كتبًا عديدة، بعضها مزود بصور دقيقة، بارعة لفنانين مهرة، معظمهم أجنب، أمعنت وناقشت، وصلت هذا بذاك، فلم تكن كينونتي إلا موضع تلاقٍ لأطياف بعضها قادم من حيث لا أدري ولا أعرف، ومنها ما وقفت على منبعه وأحطت بمصدره، ذلك أن الأمر حيرة، لا يقين مبنوثًا فيه ما يستوعبه الإدراك، يكفي تلميحى هذا فالتصريح مورد لما لا قبل لي به، ذاك حسبي.

في آخر زيارة إليها انتهت إلى ما حيرني، ولأبدأ بوضعية يديها، إنها مبسوطتان، مرفوعتان إلى جوار بعضهما، متقاربتان، متجاورتان، مشرعتان غير أن كلاً منهما قائمة بمفردها، وضع فيه تسليم، فيه انتفاء للقدرة على الفعل، إنه حال المبرأ، الراحل أبدًا، يشهر عجزه النهائي عن الفعل المبين، إنه حال المتوفى بين يدي غاسله، أو ممدده، أو مكفنه، يقول بغير نطق:

ليس لي من الأمر شيء.

ليس لي من الأمر شيء.

ظهوره لمن يحبونه، لمن هرعوا للمساعدة، لذوي القربى والصحبة، محدود، جد قصير، وغالبًا ما يكون أقرب الناس في هذه اللحظة هم الأبعدين صلة، غير أنهم الأقربون معاونة، وهذا حال عايته من ناحيتي وبالنسبة لمن هرعت لعونهم، جميلة الجميلات ترفع يديها، مبسوطتين كل البسط لكن دون فعل ولا التنبؤ بالإقدام على فعل، خلاص! انتهى ذلك.

من حال إلى حال مضيت، من أمر إلى آخر رحلت، لكن قبل أن أفضي أقول إن تحوي استلهم هذا الوضع عندما وضع رموز الكتابة وأسس عمارة المعاني، بسط الأصابع إلى أعلى قادني إلى إسلام الجميلة المرققة قيادها إلى الآلهة المقدسين بدءًا من الخفي آمون، إلى نبع الأمومة والمحنة والحدب إيزيس إلى سلسال الخصوبة

والأنوثة حتحور، وعين العدالة والنظام ماعت التي تبسط حمايتها على المكان كله، جميلة الجمال تُسلم قيادها إلى هؤلاء الأرباب، هي متهية لأنها تجهل ما هي مقدمة عليه، والمتهيب وجل، لكن إذا وُجد من يأخذ بيده يستكين، يهدأ وإن لاح توجس من بعيد، مهما كانت التعاويذ، مهما بلغت النصوص من قدسية، الراحل مسافر والطريق مخاطر فما البال إذا كان مجهول المعالم، غير معروف مداه؟ وإلى أين يؤدي؟ كيف يهتدي من يقيم في موضع محدد إلى اللامتعين؟ ليس لدينا إلا تصورات تختلف من هذه الفرقة إلى تلك، يورث هذا صمتًا على الملامح، فالمجهول عظيم والسؤال مهما تردد لا إجابة له، أستعيد ما رواه أخي وصاحبي عندما انحنى كبير أقاربي وهمس في أذن أبي راجيًا منه ألا يخاف، ألا يخشى وحشة الطريق ومخاطره، إنهم حوله، وعندما يصير بمفرده فليذكر الله، وألا يهاب فلم يكن إلا خيرًا، أدى الرسالة وأتم الأمانة، في تلك الليلة كنت نائمًا عن الدار، في الفجر حصل لي فزعة، أعرف كوابيسي ومراماتي، لا لم يكن هذا الحال منها، لم يسبق ولم أعرفه مرة أخرى، بالتأكيد في الأمر شيء، في الأمر شيء.

ملاحمها الخلو من أي هسيس، المجردة من الحس، أعادت لي لحظات ما زلت أذكرها كأنها تمر بي، عندما مُدّدت فوق السرير المفرد، المتحرك، دفعوا بي إلى غرفة الجراحة، كنت خلواً من أي ردة فعل، مجردًا، نائمًا عن كل حس، نائمًا، لا أرى إلا ما يحيطني، غير مستدع أي لحظة من الفانيات الذاريات، أوقفوا الحركة عند المدخل، جاء طبيب التخدير، كان في الجراحة الأولى، مصري صعيدي قبطي، صار صاحبي إلى الآن، في تلك المرة كان أمريكيًا، لا أذكر الآن أصله، لعلني أوردته في تدويني المعنون «الأزرق والأبيض» كان يمضغ علكة، رأيت تحرك وجنته، وخزة في ساقِي، لمحت أنبوبًا يتصل بجسدي، كأني غيري، لا يعينني حالي ولا يدهشني شيء، فقط وخزة نقطتين في مثناتي، طلبت ما يخلصني منها، جاءت الممرضة أو الحكيمة أو الطبيبة بزجاجة منحنية العنق، تبولتها، لا أريد أن أمضي بهما، ما أذكره

واقعة أخرى ربما أستدعيها في غير هذا الموضع، كنت أرنو إلى المعدات وجلها أزرق وملامح شاب مصري يتدرب أو يعمل، لا فرق عندي ولا أمر، كنت قصياً عن كافة ما يخصني، ما يعينني، فلا أبعاد، لا فضول، لا سؤال، لا دهشة، لا شيء يمت إلي ولا يصدر عني، هذا بالضبط ما رأيته في ملامح الجميلة، الأثيرة، المفضلة، الملكية، المنعمة، المزهوة بها.

ما أرجفني ذلك التسطح، ذلك التملس، انتفاء الفروق بيننا، فلا أنا جمال الساعي بعدها بآلاف السنين، ولا هي نفر تاري التي سبقتني بأحوال لا حصر لها، لو أني عشت حضورها ما كان ممكناً لي وقوع بصري عليها، ها أنا أنفرد بها، أنأملها، أدقق بياض ثوبها والحزام المحيط المتدلي، كأنني أتطلع إلى سطح مرآة، هل كان ممكناً لي إدراك حالها هذا لو أني لم أمر بلحظات ما قبل بدء نومي العميق الذي شق فيه صدري واقتطع جزء حميم من قلبي واستبدل بأنسجة حيوان مجهول عندي، لا أعرف، لا أدري غير أن تماهياً صار بيننا، حتى إنني كلما طالعت ترحالها مع المقدسين الذين يتقدمونها في المجهول رأيت حضور في فيها، لا أبعاد، لا شيء إلا ما يشير إلى وسم سرعان ما سيتبدد، سيصير نسياً منسياً، تماماً، تماماً، أقلب الصور المتقنة لها فيما اقتنيتها من كتب عنها فيقع لي ما يحدث في مثواها تحت الأرض: أينما وليت يدركني وضع يديها حتى إنني استنفرت من غياهب نسياني وصفاً لشيخي الأكبر سيدي محيي الدين، حيرني وأحدث عندي بلبالاً جعلني أطرح الحيرة في تساؤل: هل اطلع على ما وضعه تحوتي المقدس من رموز؟ هل يجمعها شيء رغم بُعد الشقة، الملح فقط، الملح، وفيما يلي ما أورده نصاً من الفتوحات لعل غيري يقدر على الشرح، يقول مولاي الشيخ الأكبر تحت ما يمكن اعتباره عنواناً:

نومة العروس.

من نام بنفسه فهو ميت

ومن مات بربه فهو نائم

نُؤمة العروس
والحق ينوب عنه
يا نائماً، كم ذا الرُقّاد
وأنت تُدعى
فانتبه
كان الإله ينوب عنك
بها دعا
لو نمت به
لكن قلبك نائم
عمّا دعاك
ومنتبه في عالم الكون
الذي يردك
مهما مُتّ به

مجداف

ماذا يعني المجداف في مثنوى جميلة الجميلات؟

ماذا يعني القارب فوق قبة الإمام الشافعي، وقبة خانقاه برقوق الشمالية التي
يرقد تحتها امرأته وبناته؟

ماذا يعني بناء الكنيسة المعلقة على هيئة مركب مبحرة صوب مصادر الضوء
والألوان القادمة من سحيق الكون؟
ماذا؟

ليس بوسعي إلا الإجابة، فلأحدد أكثر، المحاولة، ليس عندي رد قطعي يقيني
لما أطرحه من أسئلة، لما حيرني وجود المجاديف صرت أتردد كثيرًا وأطالع كل ما
استطعت إليه سبيلًا، إلى أن قرأت ما ذكره الأصطخري في كتابه «نشق الأزهار في
عجائب الأقطار» ما ذكره عن رموز وضعها هرمس الحكيم وبعضهم يرفعه إلى
درجة القداسة، غير أن المقطوع به كما ذكرت أن هرمس ليس إلا الحكيم المصري
الأول تحوتي، إنه التحوير اليوناني، أما حكماء العرب فأطلقوا عليه إدريس النبي،
تبدل الأسماء غير أن الشخص واحد، وربما اندمج فيه آخرون كما يقول البوني في
كتابه «شمس المعارف الكبرى» ولي مع هذا حكاية سأوردها عندما يناسب الحال
وأتمياً، أما الآن فأرجع إلى ما ذكره الأصطخري الذي أكد أن المجداف رمز للزمن
وضعه هرمس، أي تحوتي الذي ابتكر وصمم القارب رمز العبور عندما سأل سيد

الأرضين عن إمكانية إيجاد طرق في البحر الخضم، لم تذكر المراجع المتاحة وجود مجاديف في النموذج الذي أنشأه تحوي مستلهمًا طفو شجر الدوم فوق نهر النيل زمن الفيضان القادم من دمة إيزيس الأولى، وهذا يُعرف بنزول النقطة عند المصريين وقد اتخذته عنوانًا لكتاب صغته منذ حولين، ما طالعتَه عند الأصطخري دفعني إلى إعادة النظر، كنت في ذلك الحين على شفا، إذ جرى لي عارض نال مني فلزمت علاجًا لم يكن منه مفر أورثني علة مقيمة، لكنني راضي، قانع بأن قضاء أخف من قضاء، له في الأمر حكمة، سبحانه جلّ جلاله، قلبت صفحات الكتب فوجدت مواضع قليلة أورد بعضها صور الجدار الذي شغلني، وفيه البقرات السماء وتحت المجاديف الأربعة، بحثت عن اللوحة التي بذلت من أجل رسمها وتنفيذها ما يقارب السنة فلم أجد إلا صورة واحدة في مجلد ضخّم جُلّه صور ملونة لأجل ما حوى البر الغربي من مراقد، عنوانه يعني «ممر إلى الأبدية» وضعه ثلاثة من علماء المصريين، هم على التوالي طبقًا لترتيب أسمائهم على الغلاف.

R. walleman

M. kunnen

A. mekhitarian

لم أعرف أحدهم شخصيًا، ولا أذكر الآن من أي مكتبة اقتنيتها، غير أن تاريخ دخوله عندي مدون، أول أغسطس عام ستة وتسعين وتسعمائة وألف، تلك عادة درجت عليها منذ بدء اقتنائي للكتب طفلًا، ما أكتبه أيضًا تاريخ بدايتي للقراءة وانتهائي منها، غير أنني لم أعن بتدوين المكان، فات الأوان، فات، يواتيني هذه اللحظة نغم أصغيت إليه في قبة الأمراء بمراكش منذ سنين عديدة، مصدره أنامل عازفات فارسيات، موزعات على الطار الموشوش والتنبك الهدير، والنأي الحزين لانفصاله عن أصله كما قال سيدي ومولاي في مطلع المثوي، أرجى الوصف إلى ما تبقى عندي مائلًا في حكاياتي الهائمة من مراكش لها جميل الطلة وعذوبة المحنة،

عندما انحنيت لأنقش ثوب إيزيس المنمنم تأخذ بيد نفرتاري كدت أصغي إلى موسيقى غامضة لم أسمعها إنما أتوق إليها، فما أغرب شأني.

قبل إمعاني في معنى المجذاف ومحاولة فهم حضوره في المرقد، عند بدايته، أتوقف قليلاً عند مغزى القارب، بعد أن توصل إليه تحوتي صار متنوعاً، منه الصغير الذي لا يتسع إلا لفرد والضحك الذي تُحمل فوقه أحجار الجرانيت المقطعة من محاجر أسوان إلى مواضع نصب المسلات، ولهذا ترتيب حار فيه المحدثون ومن يطالع تفاصيل نقل مسلة الأقصر إلى باريس سيتساءل متعجباً: كيف أنجز القدامى ما سعوا إليه؟ القارب يعني الإبحار، هذا لا يكون إلا في حيز، ربما يكون قوامه الماء أو الفراغ، كُلُّ موجود مُبحر، يستوي إن كان مُدبراً أو مقبلاً فالأمر نسبي، القمر مبحر، الشمس أيضاً، النجوم، الحجر، البشر، الشجر، والبحر نفسه مسافر، القارب بدأ فكرة في خيلة تحوتي وأيضاً نتيجة احتياج، لذلك جرى الأمر في الرسوم المقصود بها التوضيح على الجدران وأوراق البردي وكُلُّ سجل متين تصوير الشمس في قارب، الأول للرحلة المنظورة والأخرى التي لا يمكن رصدها لأنها في العالم الليلي، والليل خباء، ستر، لا يمكن معرفة ما يجري فيه إلا بالمخيلة، الانتقال عبر ساعاته يجري خلال بوابات وكهوف، لا أرجو من صاحب الفضل كله إلا أن يمهلني ويمدني حتى أنهى ما نويته وأشرت إليه في سفر البنيان، أن أسطر كتاب البوابات، وكتاب الساعات، وكتاب المساء، والصُبح إذا تنفس، ليست يتم ذلك، إذن.. القارب انتقال، لكنه لا يتحرك من تلقاء ذاته، لابد من دفع ودافع، مرة أخرى أشير إلى القوى المحركة، وضع تحوتي إشارة رامزة لها لا مثل ولا شيء يشبهها، كرة تامة الاستدارة، على مس منها ذراعان دانيتان غير متصلتين بجسد، إنها إشارة إلى القوة المحركة، بدلاً منهما، نرى أربعة مجاديف رمزاً ودلالة على الحركة، أي إبحار الزمن، ولأننا لا نعرف المبدأ فإننا نجهل المعاد، حتى الآن يستحيل التحديد، وربما يكون ذلك كذلك، العجيب أن مجاديف الجميلة لا تتصل

بقوارب، مع أنها ماثلة في وضع الدفع ولكن بدون دافع، ما من كائن يجر كها، تواليها في أثر بعضها يوحي بحركة لا يمكن تعيينها أو تحديدها أو الوقوف على سياقها، لم أعرف خطوطاً توحى وتومئ بالحركة، بدء وانقضاء، شروع وتمام، إلا في وضع هذه المجاديف الأربعة، والخطوط التي تغطي القبة البحرية لخانقاه فرج بن برقوق بصحراء الماليك، والعجيب الغريب أن غزارة الحركة توحى بقوة الموج ومتابعته بعضه بعضاً، فوق الجوسق قارب يشبه ذلك المتوج لقبة الإمام الشافعي، يقول البعض إنه مخصص لوضع الحبوب اللازمة لإطعام الطيور الحائمة، هذا جزء من الموقف، لكن.. من يصل إلى تلك الذروة، أي وسيلة خصصها الواقف لبلوغ القارب عند المنتهى؟ كيف والقبة دائرية، زلقة، يصعب تسلفها، بحثت في أصول الحجّة فلم أقف على شيء، إذن.. الأمر رمزي فهل كان يعي المصمم دلالة ما يقوم به أم أنه سلسال خفي يؤدي إلى عين التصرف مع خفاء المراد وغياب المنطلق، ما رأيته في مولد سيدي أبو الحجاج الأقصري، جرى ذلك عام خمسة وستين من القرن الماضي، تصادف وصولي مع الليلة الكبيرة، خلا الأمر من أي ترتيب، حيرني ما رأيته فيما يُعرف بالدورة، سبعة قوارب يُخرجها القوم من مواضع معلومة للشيخ، يحملون كلاً منها على الأكتاف، يطوفون الجامع المشيد فوق المعبد الحاوي لكنيسة بنيت في وقت متأخر، فما أغرب وما أدل ذلك! سيع دورات، يتنافس القوم متدافعين ولكن بحركة محسوبة، عين الطقس في عيد «أوبت» العتيق، المندثر كما نظن، هذا موضوع دقيق لا أخفي خشيتي الخوض فيه، يقيناً.. أن من يحملون القوارب لا يدركون أنهم يستمرون بطقس يظن العارفون وغيرهم أنه منحدر من عقيدة اندثرت في الظاهر، كم من أمور نسعى بها ولا ندري؟ أتوقف عند معنى الأمواج حول قبة خانقاه فرج والقارب المبحر إلى الأعالي، وأمواج أخرى منمنمة في نقوش أجمل محراب وقفت أمامه واستويت مبهوراً، مأخوذاً، مع كل قدوم يتجدد عندي ما يتجدد، رغم ترددي بما يقارب عدد أيامي، وهذا المكان سافر له

حيزًا يليق، لا أفضل ذكره عرضًا، غير أنني أومئ، أشير فقط لا غير إلى حركة ما أراه تتابع موج، ليس إلى الأفق المبين لكن إلى الذروة، إلى أعلى، إلى حنية المحراب التي توحى إليّ بالعين، إن الله يسمع ويرى، لو أفضت فلن أكف، أكتفي بالتلميح، وترديد الدهشة من وضع المجاديف الأربعة، رمز الزمن، الزمن يبحر بنا شئنا، أم لم نشأ، لا نعرف كنهه، أو ما يتضمنه، لكن: ماذا يجمع المجداف بالوقت، بالدهر، بالزمن؟ أقول إنه تُخلو المعالم، كل علامات الزمن متوهمة، صاغها وحددها وسن لها الإطار تحوتي، مازال التقويم الذي وضعه هو الأدق، هو من يتبعه أهل الفلاحة، لا الميلادي أو الهجري، إنما العتيق، كذلك الماء، أذكر مرة أخرى أن الماء واحد، واحد، لا طرق فيه ولا دروب، كُلها متخيلة، إلا لنفر يسير، لمسوا السرّ وفي عمري الموشك على التهام لم أعرف إلا شخصًا واحدًا هو ريس مركب الصيد الذي أقلني من الغردقة إلى شدوان، ذكرت ذلك في حكاية كتاب البحر، فليطالعها من يرغب.

تماهي الغارين

من المسائل المحيرة والتي عثرت عليها بعثة تنقيب بولندية في لفافة بردي محفوظة الآن في متحف تورينو، قصده أربع مرات، أي كلما نزلت المدينة التي عرفت فيها أمورًا، لا أدري كيف استقرت فيه مع أن البعثة من جامعة وارسو، لم أجدها في العرض، غير أن مدير المتحف أكد لي أنها موجودة لكن غير مسموح بالاطلاع عليها إلا بتصريح خاص لا يمنح إلا لمن يجري بحثًا علميًا للحصول على دكتوراه دولة، لم أدر ماذا أقول أو كيف أشرح له أن ما يعنيني أهم من الأبحاث التي يتحدث عنها وأن ما يشغلني جليل، دقيق، أعرف ما أقدم عليه لكن من أين له الاستيعاب وهو مقيد بنصوص، لم أبد ضيقًا ولم أحتج إذ صرت إلى حالة من هدوء أقربها عندي عربة تمضي بدون صوت محرك، أو جهد سائق، مضيت إلى المتحف الذي صرت أحفظه وإنني لأعتبره الأثري بعد المتحف المصري وأمره عجيب، اقتنيت كتبًا عديدة عن محتوياته منها ضخمة، حملته في حقيبة يدي خشية عليه واثتناسًا به، ثم من مرتفع بمقاييس الوقت، لم أتردد رغم أنه بالإيطالية التي أجهلها، غير أن ما حواه من صور مطبوعة جيدًا، خاصة مقبرة الموظف «كا» مكتملة المحتويات، توقفت أمام جلايب من كتان كأنها نسجت بالأمس وثمانية أرغفة خبز شمسي، عين ما أفضله وأهوى، بالطبع راق لي أشياء أخرى أحفظ بمعالم بعضها وتساندني صور الكتاب في تذكر بعضها، غير أن ما حيرني ظل قائمًا، منذ زيارتي الأولى عام ستين عندما كنت عضوًا في فريق الكشف، مشيت بصحبة

من لا أذكرهم الآن حتى بلغنا أسوان وبالصدفة حضرت ضغطة الزر التي فجرت أول عبوة ناسفة للصخور في بناء السد العالي، لكن لتلك وقفة أخرى ربما أحكيها، ما يعنيني زيارتي البر الغربي التي كانت مفتتح صلاتي بأهله وناسه وما حوى، رأيت جدران المراقدة على اختلاف أنواعها، ملوك، لنبلأء، لفنانين عاشوا أعمارهم كلها هنا، ارتقيت الجبل ونزلت عبر دروب غير ممهدة وأخرى بادية إلى دير المدينة ومعبد هابو إلى وادي الملكات، بدأت حيرتي منذ ذلك الحين ولعقود تالية رحت أحاول إيجاد الإجابات عبر الكتب المتاحة ومن عرفتهم الذين ينتمون إلى أهل الاختصاص حتى استقر بي الحال إلى قضاء فترات طويلة في البر الغربي، صرت أسألهم.. البشر الساعين أو أولئك الذين عبروا من حقب طويلة أو قريبة، يستوي الحال عندي فكلاهما مستحيل إدراكه، تمامًا مثل الوقت، اللحظة الآنية تفلت، تولي، إلى أين؟ لا ندري، يستوي الآن مع تلك المنقضية منذ ملايين السنين، كل ما يمر يستحيل استعادته إلا عبر المخيلة المحدودة بمُدد أصحابها وقدراتهم، توقفت طويلاً إن في معائتي أو استعادي أمام رسوم آلهة الأقدمين، اجتهدت لأتعرف عليها، أميز بينها، حيرني أمر؛ من حدد هياتها؟ من وضع ملامحها البشرية، من وحد المخلوقات التي تسعى، فجعل الجسد الإنساني رأساً لحيوان أو حشرة، ومدَّ جناحي النسر المخلق من جسد أنثى قاعدة وفوق رأسها ريشة؟ من حدد الألوان للثياب، للأجساد، للتيجان فوق الرؤوس؟ ماذا جال في ذهن النحات أو الرسام وهو ينقش أو يوجد من كتلة الحجر الصّماء ملامح إنسانية لمن ينظم الكون، ما رأيته نظام دقيق يقي من الفوضى، يدبر الأمر، في سياق محاولتي الإجابة عما يقلقني عرفت من العالم الفاضل محسن لطفي السيد والذي واطبت على حضور دروسه للغة المصرية القديمة وقرأت وعرفت بترجماته للكتب المقدسة المنقضية، أنه يوجد نص في متحف تورينو تم تدوينه في العصر المتأخر للحضارة المصرية والذي جرت فيه محاولة لإحياء التقاليد والأصول الأولى، حركة تشبه هبة الشمعة قبل انزواء

شعلتها، عجيب هذا، لي صاحب مات في فراشه بدون أي مقدمات، كان في سفر إلى بلد أجنبي، عثروا على آثار مني في فراشه، دُهِش بعضهم إلا أن طيبًا من أصحابنا شرح وأوضح أنه يحدث أحيانًا عند موت الفجأة أن يقذف الإنسان، يبلغ الذررة، يُشَيِّع ماؤه رجالًا كان أو امرأة. وصلت ذلك وقارنته بهبة الشمعة الأخيرة أو تغريدة البجعة التي تصدر أجل ما عندها من نغم قبل صمتها الأبدي، بعد سنوات من صدي في تورينو عن مقصدي استضافني الأستاذ سيرجيو نيوزاده أستاذ العلوم العربية بجامعة ميلانو وكان لي به صلة ومودة، أمضيت قرب بيته ليلتين في فندق مُطل على بحيرة جميلة اسمها ليزا، يزرع منها جبل أشم، يظهر أحيانًا ويغيب مرات مع تكاثف الضباب، أثناء تحاججنا رويت له سعيي الخائب في تورينو فأخبرني أنه يمكنه الحصول على ما أرغب على أن أطلع ما أريد هنا، سيطلب اللقافة وما يتعلق بها باعتباره مهتمًا ومختصًا بالأصول اللاهوتية للديانات، طبقًا سيرسلون إليه صورة فالأصل من المكونات التي يستحيل فضها، بعد ستة شهور أرسل إليّ يسألني الحضور إذا استطعت إلى ذلك سبيلًا، رتبت حالي وسافرت إليه مباشرة، في بيته القديم الفسيح أطلعني على ما رغبته، نص عتيق يتضمن محاورة بين تحوتي والكاهن الأعظم لمبعد أبيدوس المهيمن على كافة المعابد في الأرضين، البحري والقبلي، عاونني في قراءته، فيه حدد الهيئات والملامح بدقة، وأيضًا المهام، بعضها معروف الآن، المقدسة سخمت على سبيل المثال، مثيرة الزعابيب والرعود، لعل ذلك يفسر لنا ما يقوله البعض في الريف، عندما يلحق أحدهم أذى بأنثى يقولون «دا سخمطها..»، قال الكاهن الأعظم:

لكن هذا كثير..

ثم قال:

سيظن من يجيء بعدنا أننا فرقنا إيماننا..

قال تحوتي:

إنه الكثير في الواحد، ليس هذا كله إلا تجليات للأصل
قال بعد حين:

لكنني أرى تداخلاً للرموز، تاج حتحور على رأس إيزيس.. تبسم تحوي، قال
إن المحاولة تجري لتجسيد ما لا يجسد، لذلك يجب عدم القطع، نحن نتوهم ما
يوجد حقاً، تماهي الإشارات يرسخ التوثيق ويؤكد ما يجب أن يؤكد.

الغريب أن ما استوقف الكاهن الأعظم حيرني، عندما شرعت في تنفيذ اللوحة
التي اختارها الأستاذ الروبي ونسجها في سجادة من حرير، لاحظت مما قرأته
أن إيزيس ذات الرداء الأحمر فوق رأسها تاج حتحور، دائرة يحيط بها قرنا بقرة،
تصورت أنه خلط أو لغاية لا أعلمها، هذا ما تكشف لي، اللاتيقين مقصود، قال
صاحبي الأستاذ سيرجي إن طالبة ستجيء من روما بالقطار تعد أطروحة عن هذا
النص النادر، يمكنها أن تعيني، غير أنها لم تأت لسبب لا أعلمه. وما يزال جهلي
بمضمون اللقافة قائماً، غير أن يقيناً خفياً وقناعة لا أعرف مصدرها ترسخ عندي
استحالة نُظفي بما كنت سأطلع عليه لو أتيحت الإمكانية فما لمحتة من إشارات
يدل على أمور البوح بها مستحيل!

نصوص محيرة

«ثمة نصوص باقية عندي، لا يمكنني تحديد مصادرها أو نسبتها إلى زمن أو مكان، أورها كما تهمني عليّ»:

سطور غير متصلة بما قبلها أو بعدها:

« أول ما صرت إلى وحدانيته

فصرت طيرًا جسمه من الأحدية

وجناحاه من الديمومية

فلم أزل أطيّر في هواء الكيفية عشر سنين

حتى إذا صرت إلى هواء مثل ذلك مائة ألف ألف مرة

فلم أزل أطيّر حتى صرت إلى ميدان الأزلية

فرايت شجر الأحدية

فنظرت

فنظرت

فعلمت أن هذا كله خدعة

خدعة هذا كله

خدعة، خدعة، خدعة..

* سطران لا غير، غامضان، مستعصيان، كتبنا بخط ديموطيقي وليس هيروغليفيًا مؤصلًا مثل بقية اللقافة. قرأهما عليّ صاحب عارف وحميم:

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر

حوار

قال سيد الأرضين، من يأمر فيقطاع، ومن يسأل فيُجاب، «هل يأتي يوم يمكن أن تسبح فيه الجبال والصروح على الماء؟».

قال تحوتي مبدئيًا الدهشة والأدب معًا:

«هذا قائم يا مولاي..»

«كيف؟»

«ما هو العنصر المتصل، القائم، الواصل بين أجزاء المعمورة؟»

«ما هو؟»

«ماذا يحتفظ بمستواه فلا يزيد هنا أو يقل هناك، وإذا جاء من علو أو سفلى فإنه يمضي إلى المستوى الموجود والذي لا يختل قط؟»

«ماذا؟»

«إنه الماء يا سيد الأرضين، من هنا كل شيء يسبح عليه، يعوم فوقه بها في ذلك الجبال والأراضي الشاسعة، القفر منها والعامر، كلنا نسعى فوق الماء وبالماء..»

ما بين أون وأبيدوس،

- طالعت هذه الحكاية في مصادر عدة، وأوردتها في دفتر تدويني الأول «جلسات الكرى»، تنسب في مصادر عديدة إلى «أبو الفيض سيدي ذو النون الأحميمي»، يقول البعض إنها من مسائله، ما استوقفني أنه كان يعلم قلم الطير كما

أجمعت المصادر، سواء تلك التي خصصت له مثل «المكتون في أسرار ذي النون» للسيوطي، أو كتب تراجم الصوفية مثل «حلية الأولياء للأصبهاني» أو «طبقات الشعراني» لسيدي عبد الوهاب، وغير ذلك كثير.

جاء في المسألة أن رجلاً من أهل مصر خرج صباح جمعة وعليه جنابة، نزل في النيل ليستحم، أمضى وقتاً يتنعم بالماء، عندما خرج رأى مدينة مغايرة، وشاطئاً مختلفاً، أما ماء النهر فأسرع جرياً وأغمر حمرة، ألقى في معارفه تفسيراً لكافة ما يراه، هذه بغداد وهذا نهر دجلة، أما بيته فقريب، مجاور لمقهى التجار، قصده، امرأته عراقية مفهرسة، عيناها بابلتان، وبشرتها كردية، وسماتها فارسية في مجملها أما صهيلها عند الذروة فعربي لا يمكن ترويضه، كانت عجباً في رحابتها وحنيتها وانتظارها لعودته وتوديعها له كأنه سيغيب عنها أبداً، تنعم بها، ولم يرد عليه شيء من حضوره القاهري إلا أحياناً في الأحلام، إذ يستيقظ يتطلع إلى أنشائه راقدة بجواره، تبث شذاها وتثري مدارها، تبقيه في إسمارها، ذات يوم جمعة، خرج من بيته مبكراً وعليه جنابة، خطر له أن يغتسل في دجلة، نزل في النهر وأمضى وقتاً، طلع في النيل، لم يظهر دهشة، لم يبد أمراً، جفف جسده ولملم حاله قاصداً بيته المصري، عين الوقت الذي يعود فيه، لم يتأخر عنها، تنسم الملوخية التي تتقنها، ومشى الهوينى إليها ليكر عليها ليل بعده نهار ثم ليل، إلى أن حل يوم جمعة، لم ينزل فيه إلى السوق، سمع من ينادي عليه خلاف ما اعتاده، أطل من المشربية، رأى عيسى النخال (أو عبده الفران كما جاء في بعض النصوص) وإلى جواره تقف امرأته العراقية، تحمل طفلاً على باطنها والآخر إلى جوارها، عمره نفس المدة المنقضية منذ نزوله نهر دجلة، تبسمت باشتياق غير مليمة، أشارت إليهما: ولدك، جاء ليريا أباهما ويعرفاه..

انتهى ذلك، وقد دونته تقريباً كما قرأه عليّ سيرجي نيوزاده الذي لقي حتفه بعد سفري أثناء عبوره الطريق من عربة لم تكن مسرعة كما قيل لي، غير أنها المصائر..

تحليق

قال سيد الأرضين الحكيم الوقت محاورًا وسائلًا: ألا يمكن التوصل بطيور
تخلق إلى الأبد، تظل أجنحتها مرفرفة، لا تقتات ولا تنه؟

طلب تحوي مهلة من الوقت حتى يجد ما يطلبه السيد المجتبي. بعد حين
مضى إلى منزل ملايين السنين في غرب أيدوس، أماكن محفورة في الجبل الغربي
ليسكنها المبرءون إلى الأبد حتى يحين الألوان، وقع اختياره على جدار خال تمامًا
لم تنقش عليه الرموز بعد، أحضر الألوان، خاصة الأسود والأحمر، بدأ برسم
خطوط نحيلة بالأسود، صحح المائل منها بالأحمر، شيئًا فشيئًا لاحت طيور بيضاء
مفرودة الأجنحة، ملأت الجدار، حتى لم يعد فراغ، مناقيرها حمراء ياقوتية وأرجلها
برتقالية، أما الأزرق النيلي فموزع على أجسادها الرقيقة المغطاة بالريش الزرعي،
طيور لا يمكن إرجاعها إلى جنس معين، ذلك أنه اعتاد منذ طفولته المبكرة على
وفادة أسراب شتى بدءًا من الخريف وحتى لواح الربيع، أنواع شتى تقيم قرب
موارد المياه، تنسم الدفء، اختار من كل نوع عنصرًا، رسم هذه الأسراب التي
يكاد الناظر إليها أن يسمع حفيفها، بل أصواتها، هذا عين ما نطق به سيد الأرضين
عندما استأذنه الحكيم في زيارة ليرى ما رغب، عندما عبر الممر المؤدي وفوجئ
بأسراب الطيور محلقة من خلال الجدار، توقف على مسافة، بعد عودته قال لتحتوي
وهو يحاوره: خشيت إزعاجها حتى لا تتفرق.

ما تزال الطيور تحلق في عتمة المرقد الأبدي المحفور قرب الأوزيرون في الصخر، ولا يحمل اسمًا أوريثًا، لم يكتشف بعد ولم يدرج في آثار أبيدوس، لا يعلم الموقع إلا نفر يسير يتوارثون السر الدفين منذ آلاف السنين، ومن يدري.. ربما يكون ذلك مأوى الحكيم المفرد الذي قُـدس فيها بعد واقترن بالطائر أبيس الذي صار رمزًا للحكمة السارية، ربما..

صَقْل

ترد هذه الكتابة بصيغ شتى في ثقافات مختلفة، خاصة الصينية والفارسية، غير أنني فوجئت بعناصرها موجودة في لفافة تورينو، تمامًا مثل حكاية الرجل الذي نزل في نيل القاهرة وطلع في دجلة بغداد، كذا نصوص أخرى لم أقرأ في أي مصدر معروف أن أصولها من مصر القديمة، تقول الحكاية إن سيد الأرضين دعا رسامًا ماهرًا من التابعين للمعبد الكبير، طلب منه أن يرسم حديقة من زهور كيميت ونخيلها وأشجارها، توجه إلى تحوتي الذي اشتهر بجمال خطه وروعة رسومه، ليس هو من صاغ أشكال المقدسين، الرعاة، وميّز بينهم بالألوان والتيجان، وأوجد التماهي بين هذا وذاك؟ جاء بهما إلى جدارين متقابلين، مساحة كل منهما لا مربعة ولا مستطيلة، بدأ الرسام المتقن فنه العمل، بينما جلس تحوتي مقعّمزًا، قاعدًا مثل الذين يعملون في الأراضي بعد نثرهم البذار وسقيها ثم رعايتها بالبصر الخبير، في ثلاثة مشارق للشمس أنجز الفنان الماهر ما طُلب منه، حديقة أفسح من الجدار وأعرق من مدى النظر، فيها شجر النخيل، الدوم، الجميز، ما لا يثمر إلا زهورًا متداخلة ألوانها، بعضها معروف وكثير منها أثار دهشة الناظرين، بعد انحناء وعلامة تبجيل قال إنه يُقدم ما طلب منه راضيًا مرضيًا، راجيًا أن يكون وفق إلى ما طلبه سيد الأرضين، عندئذ.. قام تحوتي وبدأ العمل، لم يمسك بفرشاة ولم يأت بالألوان، إنما راح يصقل الجدار مستخدمًا أدوات غير معروفة صممها وصاغها خصيصًا، هكذا قيل في اللفائف. لم يتوقف إلا لتجرع شربة ماء أو لتناول

قضمة من رغيف شمسي ما زال خبيزه ساريًا في بعض مناطق الجنوب، شيئًا فشيئًا
بدت ملامح الحديقة زاهية ألوانها، متنوعًا طرحها، كلما تقدم الوقت تزايد زهاؤها
وبانت جلوتها، ورغم أنها انعكاس للحديقة على الجدار المقابل، فإن لمعة خفية
أوجدت لها نشأة أخرى، دهش سيد الأرضين حتى إنه لم يخف ذلك، قال: إن ما
قام به تحوي الحكيم يمكن أن يسري مع سائر الموجودات، كان ذلك أول تعرف
إلى المرأة..

مركز

لا بد من مركز

ما من موجود إلا وله مركز

هل الكون له مركز؟

نعم

أين؟

ابحث عنه تجده.

لا أدري أين قرأت العبارات السابقة، هل طالعته في كتاب بعينه أم في كتب مختلفة أم أنها محصلة قراءات أو تعبيرات متعددة عن هموم راودتني وتدرجت في مراتبها مع توالي مراحل العمر وتنوع وتعمق البوادر، وتدرجها إلى المحاط الأخيرة، غير أن ما ظننته يخصني وجدته متردداً في زمن سحيق، ناءٍ جداً، رغم وعيي الأتم بتساوي كل مؤل في البعد، ما الفرق بين لحظة انقضت منذ دقائق خمس وبين لحظات انقضت منذ خمسة آلاف عام أو أكثر؟ كلاهما لا يمكن استعادته إلا عبر نخيلة إنسانية، وجدت ذلك عند تحوي سيد الحكمة، أيبس الصابر، الناظر إلى ما لا يمكن تحديده، كنت أصغي إلى سيرجي نبوزاده وهو يقرأ عليّ ما دونه الحكيم القديم، السابق عليّ، من الخط الهيروغليفي إلى العربية مباشرة التي أتقنها وتبحر في علومها وله تصانيف شتى عن الأدب العربي، والإسلام، والمصاحف الحجازية،

خاصة التي كتبت في فترة مبكرة، أستعيد صوته كأنه يقرأ مني، يطالعني، ينطق بما لم أقله تحريراً أو شفاهة، يصيغ ما وددت البوح به، غير أنه منسوب إلى تحوي، إلى توت، جرى لي ذلك مراراً، أفكر في أمر لم يسبق لي الاطلاع عليه، أو الإلمام به، ثم أفاجأ بمن سبقني، ربما من آلاف السنين، أو من بضع أحوال، فلاضرب مثلاً على ذلك، منذ سنوات اعتدت حضور مؤتمر للموسيقى الشرقية، في مؤسسة تشغل ديراً قديماً، شمال باريز، شيده لويس التاسع الذي أسر في المنصورة، خصني صاحبي المشرف على الأمور بالنوم في غرفته، حضرت مؤتمراً عن المقام، وآخر عن السماع، أمرني مع الموسيقى ممتد، عتيق، لعلي أذكر بعضاً منه، لا أذكر بالضبط في أيهما قلت: إن الأنغام وُجدت مع نشوء الوجود وإن من اختصوا بالحساسية والرهافة والقدرة يمكنهم الكشف عنها وإظهارها للناس، كانت مداخلتني مكتوبة، مصوغة، عنوانها، «رحيل المقام»، قال خير بلجيكي مشاركاً معقباً إن أفلاطون قال ذلك، والله والله لم أنطق بذلك عن أحد، المرة الأولى التي أصغي فيها إلى مثل ذلك، لزمت الصمت، ليس عن خجل، إنما لارتباك، فكيف أشرح هذا الحال؟ غير أن سيرجي كان قريباً مني ولي به تعلق، لم أتردد في القول بأن ما أصغيت إليه شبيه بما توصلت به، تطلع إليّ، قال إن الحقائق لا تتغير، واحدة، يمكن الوصول إليها من عدة أزمنة وعبر أساليب مختلفة.

صحيح، للحقيقة الواحدة أكثر من طريق، غير أن أموراً غوامض أفضتني ولكم حاولت أن أعرف فلم أزد إلا يقيناً إنني لن أعرف ولن أحيط علماً بما حيرني حتى أسبغ على ملاحي وسعبي تساؤلات شتى أكاد أراها بعيني في عيني، غير أنني لا أكف، لو هدأت، لو استتب هجوعي فسيكون عدمي وانتفائي من ذلك السعي والوجود، ذاك حسبي.

لكل موجود مركز، للبيت مركز، لا أعرف أين، المدخل ليس بمركز، كذلك المخارج المطللة سواء أكانت نوافذ أو شرفات، حجرة الاستقبال متوالية، لا

تستخدم إلا مرات معدودة، مكان النوم محجوب، كنت في مراکش منذ سنوات، استضافني أب لصاحبة ودود في داره بالمدينة القديمة، جلسنا في غرفة الاستقبال المفتوحة على الحديقة الداخلية المنسقة، تنتظم حولها شرفات لطابقين، بعد تناولنا فطائر أطلسية وجبن حلوم من شو فشاون وحليب نوق فائراً وعسلًا جبليًا نادرًا، اقترح عليّ الطواف بالبيت للفرجة عليه، تأملت النقوش والأسقف الخشبية المراكشية، مجمع الألوان البهيجة، توقف أمام باب منمنم، فتحه برفق، طالعني فراش رحب موج بوثارة وألفة، قال بصوت مغاير «لأول مرة أدعو شخصًا ليس من الأسرة إلى هنا.. قلبي يحدثني أنك مِنَّا..»

تأثرت حتى إنني حرصت ألا أسأل ولا أستفسر بالإساءة أو التصريح، بل إنني لم أطل المدة احترامًا لخصوصية الحيز، انتهت يومئذ إلى أنني لم أصحب أي إنسان إلى مواضعي الخاصة، وأنني طويل التحفظ حتى مع أولئك الذين يمتون إليّ بصلة، ذلك طبعي وديني، وعندما مررت بظروف طال أمدها، سفر زوجتي الطويل للعلاج، وبقاء ابني وابنتي في الطرف الآخر من المحيط، كنت أمضي أيامًا متعاقبة لا أفتح الباب إلا للبواب الذي اعتاد أن يأتيني بأشياء غالبًا تتعلق بسد الرمق، أمضيت مدة سبعة عشر يومًا متصلة، لم أر الطرق حتى من الشرفة ولم أرد إلا على هواتف أفراد أسرتي وأشقائي وصحبي القليلين حتى لأحصيهم على أقل من أصابع اليد، هذا مما يطول الحديث فيه، غير أنني أقول بتأثير الحبس الانفرادي واستدعاء القصي من مكنوني، ربما سبب آخر أجهله وكم من أمور متعلقة بنا جسدًا وروحًا سنمضي ونحن لا نعرف عنها شيئًا.

العمارة الوحيدة الواضح مركزها، الهرم، إنه التركيز الأقصى، اختزال الاختزال، هذا التكوين الهائل يتمركز في نقطة نهاية التماس بين المادة المحسوسة المحدودة، والفرغ المبين، لولا تلك النقطة لما كان البناء الهائل كله، لضل السبيل وتفرق في سائر الجهات، هكذا المركز، يجمع الشتات، يلم ويلخص، إذن.. أين مركزي؟

أهو القلب كما اعتقد أهل تحوتي في الزمن القديم حتى إن العضو الوحيد الذي يتم حفظه داخل الجسد هو القلب. ماذا عن المخ إذن؟ أهو ما هو؟ لا أدري؟ هل يكمن في الوعي؟ ربما، عندئذ لا يمكن إدراكه، هل توصل تحوتي إلى كنه الوعي؟ لا أظن.. لا هو ولا من جاء بعده؟ إذن.. أين؟ ليس لنا إلا التساؤل، لعل وعسى..

في وقته، كان المصريون جميعًا يؤمنون أن كيميت - الأرض السوداء - مركز العالم، وما زالوا يقولون: «أم الدنيا» الأم للمُنَجَّب واحدة لا غير، الأم هنا مصر، وعندما اضطُر سنوحي إلى الهجرة قسرًا بعد أن نفاه الفرعون كان رعبه وخشيته أن يموت مغتربًا وأن يُدفن في أرض غريبة، أي أرض خارج مصر نجسة، سنوحي راح يرسل استعطافًا تلو الآخر إلى سيد الأرضين يرجوه أن يسمح بالرجعى وإلا فإنه العقاب الأقصى، مع بدء هجرة المصريين الواسعة للاتصال بأسباب الرزق، انتشروا في مشارق الأرض ومغاربها، في الانتخابات الرئاسية التي أجريت عام أربعة عشر بعد تمام الألفية الميلادية الثانية قرأت أن المصريين في نيوزيلنده صوتوا بكثافة وأنهم جاءوا من مدن قصية، ياه.. نيوزيلنده! صحيح أنه ليس للدنيا حد، لكن بالنسبة لمصر هذا آخر الكيان المعمور، إذن وصل أهلي إلى الأقاصي، عشت ذلك، أنا من سمع أقاربي يقسمون عند سفرهم إلى طهطا - مسافة ثمانية كيلو مترات فقط - بغربتهم، جرى هذا التبدل في أقل من نصف قرن فما أغرب وما أعجب!

أتطلع إلى النجوم النائية، الباردة، البادية، الضوء هو الكائن الوحيد الذي يغادر مصدره ويبقى بعد فناء من غادره، ربما اختفت هذه النجوم الدانية إلينا وما زال الضوء الذي انبعث منها راحلًا في أعطاف الكون، غير أنني أتساءل:

أين المركز؟

لا بد من مركز.

لكل موجود مركز.

لا يُدرك إلا شعراً وحسّاً، أستعيد ما أنشدته والت ويتان الأمريكي والذي صار بيني وبينه صلة عبر نصوصه، يقول حباه الله وأيد ذكره..

«ذلك التكوين النجمي البادي فوقى

بلطف يتشربني، بطلاقة يعلو

يمتد شرقاً، غرباً، شمالاً وجنوباً

وأنا بَتُّ نقطة في قلبه تحوي كُل ما فيه»

الأمر نسبي، الأمر نسبي يا أهيل مودتي وصحبي الخالص الباقي على عهودي وما احتوته وما بشرت به وسعيت من أجله رغم كافة الرياح غير المواتية، يا غربتي عني ولي.

يقول السيد ويليام ليثابي في مؤلفه «العبارة والروحانيات» الموضوع عام ألف وثمانمائة واثنين وتسعين، ولم يظهر بالعربية إلا بعد قرن كامل وتسع سنوات، قال ما نصه:

قد يبدو أن هناك بهجة ولغزاً في فكرة الحدود أو المركز، يعبر الأطفال عن هذه المعاني بوقوفهم بين خطين أو دائرتين تعبيراً عن الحدود، ألا تذكر يوماً قيل لك فيه إن دار البلدية في بلدتك الأم هي مركز المسافات؟

نعم، نعم، نعم يا سيد ويليام، لكنها عندي لم تكن دار البلدية، بل مقر البريد، عندما بدأت سعيي في تلك الأنحاء، كنت أثناء عودتي من الصعيد أو الإسكندرية أقرأ المسافة على اللوحات المتتالية - القاهرة.. عشرون كيلو متراً - كنت أتساءل، فليس لي ولم يتبق لي إلا التساؤل شأن الطفل المتفتح على الدنيا، حتى لأعتبر نفسي كينونة التساؤل وغايته، لكن وجب التنبيه يا أسيادي الكرام، يا من تطالعون هذا

التدوين الذي لم أدخر من أجله جهداً، ولم أبخل بالوقت والتحصيل، فقط أريد التفسير أن الطفل يسأل ليتعلم ويكتشف، أما الهرم مثلي فيسأل ليتحسر وليُقرَّ بالعجز عن إدراك الحقائق، يواسيني أن أحد الأجلاء - لعله الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين - قال: إن العجز عن الإدراك إدراك، لا أدري من أوضح لي أن مركز المدينة محدد بمبنى البريد الرئيسي في ميدان العتبة، نقطة المفصل بين القاهرة القديمة التي شهدت أول سعيي والقاهرة الخديوية التي كانت تسمى وسط المدينة ولم تعد كذلك، تعددت المراكز عدا ميدان التحرير المستمر مركزاً سياسياً، قديماً قيل: إن كل الطرق تؤدي إلى روما ظناً من أهلها أنها المركز، أما الكلدانيون فاعتبروا أنفسهم الأفضل لأن بلادهم مركز العالم، في كتاب «قدماء الرحالة» يقول شارتون الفرنسي إن كل أمة تؤكد أنها مركز العالم، بالنسبة للمصريين المركز في طيبة، عند الأشوريين بابل، لدى الهندوس جبل ميرو، لليهود أورشليم، للإغريق جبل الأولمب أو معبد دلفي فيما بعد، أما الفرس فيعتبرون بلادهم الأفضل لأنها تقع في الوسط، عندما زرت الصين للمرة الثانية قصدت بكين مباشرة، ولي بالصين تعلق وقرب، تجولت متمهلاً في المدينة المقدسة السماوية، هنا أقام ابن السماء، في عام ألف وسبعمائة وثمانية عشر وجه الإمبراطور رسالة إلى ملك إنجلترا، يقول فيها إنه مفوض من السماء، وإن بلاده مزدهرة، مصدر لكل فضل وخير، عندما تحاورت وتفاوضت متحاججاً مع الصينيين وجدتهم يؤمنون في أعماقهم أنهم المركز، وبالنسبة لكل البشر حتى عصر جاليليو كانوا يعتقدون أن الأرض مركز العالم، والشمس والنجوم تدور حولها، من يقول غير ذلك كافر، وما جرى لجاليليو معروف، لكن الحقيقة اتضحت مع كوبر نيكوس، اتضح أن الشمس وكواكبها وسائر توابعها ليست إلا مجموعة صغيرة في طرف قصي من مجرة درب التبانة، وأن الكون أفسح مما نتصور، هنا أقول إن المصريين القدماء اعتقدوا بالقوى المحركة. أشرت إلى الرسم المعبر عنها في أبيدوس ومرقد رمسيس السادس، يدان تحفان

بدائرة رمز لصيرورة الكون، هذا يعني إدراكهم للا نهائية الوجود وفساحة الكون، لذلك حرصوا على أن يكون لسائر عماثرهم صلة بالكون، بمركز ما، اعتقدوا طبقاً لمعارفهم أنه هناك إلى الشمال. في اتجاه الدب القطبي أو النجم المعروف عند اليونان بسوتيس وعند العرب بالشعرى اليمانية. مداخل الهرم والمعابد إلى الشمال. عندما نزلت مرقد حور محب، المحارب الذي أصبح سيد الأرضين توقفت عند زهاء الألوان ورهافة الأشكال لكن ما بهرني وجود علامات في أقصى نقطة من الضريح تحت الأرض تحدد الجهات الأربع بدقة متناهية، عندما يرقد المبرأ يجب أن يتجه رأسه إلى الشمال.

في أبدية الراحل يجب أن يكون على صلة بعمق الكون، باللا نهائي، ما زال ذلك مستمراً عند المسلمين، لحظة الرقاد النهائي يجب أن يتوجه الرأس صوب الكعبة التي يعتبرها المسلمون مركزاً للعالم، يعتبر الهنود قمة الهملايا ذروة العالم ومركزه، حدث أن الرحالة الصيني سنج ين زار الهند عام خمسمائة وثمانية عشر ميلادية، هو أول من جمع السجلات البوذية، يقول إنه تسلق جبال تشنج لنج خطوة خطوة، لمدة أربعة أيام حتى وصل مع صحبه إلى أعلى نقطة، عندما نظر إلى أسفل بدا كأنه معلق في الهواء، هناك يقول السكان القلائل إنها النقطة الوسطى للسماء والأرض، هناك جبال باميرا، هنا أتوقف لأقول: إنني متعلق بهذا الموضع رغم أنني لم أبلغه ولا أظن أنني سأصل إليه، صلتي بدأت بالاسم، سمعت به أول مرة عند حضوري مؤتمراً للموسيقى المقام في ذلك الدير الذي أشرت إليه بضاحية «رويامو» الفرنسية، استمعت والتقيت بالفرقة التي قدمت من جبال باميرا، لم أعرف نغمًا جسدي معنى الترحال، الانتقال كما أحطت مما سمعته، كنت أظن أن موسيقى الغجر أدق، كذلك الفادو البرتغالي المأخوذ عن الحدو الذي ينشد للجمال أثناء سيرها الوئيد في الصحراء الخالية، الهو، جرى لي مثل ذلك مع «لاهور»، و«خراسان» و«نيسابور»، ذكرت طرفاً من ذلك في دفتر تدويني السادس «رِن»، هناك أماكن عرفتها ورأيت

فيها ما لم يعرفه غيري، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر، أخميم وأبيدوس، والبر الغربي لطيبة، هنا أشير إلى أمرين لعلّي أفصل ما جرى لي بخصوصهما إذا ما سمح الوقت وأذنت الأنفاس، أوّلاً ليلة أمضيتها في الهرم الأكبر بمفردي، وحقيقة صلة أهل أخميم بالحرير الطبيعي المأخوذ من دود القز، وعلاقة الصين، وإجابة عن سؤال حيرني: من أخذ من من؟ لسيد الحكمة تحوي صلة بالأمر، لعلّي أتذكر في السياق.

لكل أمة جبلها المركزي، في مصر القديمة كان متخيلاً، الشرقي حيث تطلع الشمس والغربي حيث تغرب، في الهند اعتقد الهندوس أن جبل «ميرو» هو المركز، وفي مجموعة «البورانا» المقدسة الهندوسية أن النجوم تدور حول ذروة هذا الجبل، أما جبل العالم عند الكلدانيين فهو «نذير» ويُقال إنه الذي رست عليه فلك نوح بعد الطوفان، وعند الأتراك يقولون برسوها عند قمة «آارات»، وأنه يوجد أثر أيضاً لقدم آدم عند قدومه من الجنة، وعند الإغريق جبل الأولمب، عندي كنت أقول مع أهالي الجمالية والدرب الأحمر وباب الشعرية إن الجبل عند الدراسة، لم نعرف ارتفاعاً يفوقه، إلى أن توسعت حركتنا فاكشفنا المقطم، خاصة بعد بناء مدينة فوقه، غير أنني عرفت الألب متأخراً، قرأت عبور هاننيبال المعجز لقمته، أرقبها من الطائرة عندما أقصد باريس أو جنيف أو لندن، أتنبه عند اقترابي منها، أبحث عن أعلاها «المون بلان» أو القمة البيضاء، لحظات تقترب الطائرة من صخور الجبل أو العكس، الملح طرّقاً وبيوتاً متناثرة وثلوجاً مستمرة طوال العام، أما الجبل الذي هبته وخشيته فهو الأطلس الكبير، عرفته عند نزولي مدينة مراكش، قمة تويقال القصوى منه مكسوة بالثلوج طوال السنة، حتى في قيظ يوليو عندما يبلغ القيظ مداه، مراكش موازية لأسوان، نفس خط العرض، أقف في ساحة الفناء، أرقب الثلوج تلمع فضياً فوق القمة، بلغتها عندما زرت صاحبي سيدي أحمد التوفيق، محقق «التشوف إلى أهل التصوف» ومصادر أخرى وروايات عن

عالم الأطلس، عندما صعدت الجبل وجدت السفح يشغى بالحيوات والآثار، يبدو من بعيد أجرد، أصم، زرت فيه قبر المعتمد بن عباد، وضريح سيدي منصور الذي أوردت بعضاً مما كتبه من مؤلفه القيم الفريد في هذا التدوين.

لا أرى جبلاً إلا وأتذكر الآية الكريمة في التنزيل العزيز: ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾.

إذ أبلغ الشَّمَّ الرواسي، أضيّق العينين، أرقب وأنا حسير، لا ألقى ولا أجد مثل الآية العزيزة معبرة عن التغير والتحول والتبدل، لا شيء يبقى، ما نظنه لن يفنى أبداً سيولي، سيتفرق يوماً، عندما يوفي الإنسان مدته يتفرق، لذلك قال شيخنا الأكبر: «لما كانت الحياة جمعاً والموت تفرقة»، تتفكك ذرات الإنسان، يتخذ كل منها طريقه في الوجود سرباً، هنا يرد عليّ للتو، في هذه اللحظة ما قاله مولانا جلال الدين:

«لا تبحث عن المركز

انظر أيها الإنسان إلى ذاتك

أنت المركز

فاهداً إلى حين..

أوضاع

في مقبرة باشادو بالقرنة البر الغربي، في صالة الدفن رجل يسجد بجوار قناة يجري فيها ماء سلسيل، ومن الأرض تبرز شجرة دوم، ولي بهذا الثمر القادم من عمق إفريقيا على أمواج النهر تعلق، مذاقه فريد، يخص بالتحديد بيت خالي الذي وُلدت فيه، كان يرص فوق القمح في الصومعة، متاح لمن يرغب، علمت أن أحدهم في الإسكندرية يستخرج منه بهجة للشاريين، حرصت على تناوله ثم أصبح ميسورًا متاحًا بعد إقدام شركة على تعبئته، كذلك الخروب الذي يقف بي عند رهافة الوقت، ليس مثله مشروب، عزيز فريد، أما الدوم فنادر، ليس هذا مقصدي أو هدفي، ما يعنيني سجدة باشادو، السجدة، السجدة يا أهيل مودقي، سجدة منذ حوالي أربعين قرنًا، إلى مدخل القسم المصري بمتحف اللوفر اتجهت بصحبة ابنتي، جرى ذلك منذ سنوات عديدة، كانت في المبتدأ وكنت في الخبر، بجوار الباب تمثال لمصري قديم راكم، يدها مبسوطتان على ركبتيه، خاليتان من أي سوء، صاحبت ماجدة «دول مسلمين زينا..»

لعلها نهتني إلى الأيدي، ليس الفن القديم في المراقدة أو المعابد أو أوراق البردي إلا منظومة تترى من أوضاع الأيدي، مرفوعة نائحة في مقبرة راموزا، نقش في مرحلة تل العمارنة، أقف أمام الناثحات فأسمع نواحين حتى ليقطر دمعني، ذات صباح كنت أركب حافلة المؤسسة، دار عم شرف عند الفتحة المؤدية إلى شارع الصحافة، أنتظر قليلًا، خرج نسوة كلهن يرتدين السواد، كأنهن جئن من جدارية

البر الغربي، غير أن الإضافة كانت تلك الأنثى، شابة، فارهة، تتوسطهنّ، هي من نزل بها المصاب، تترنح إلى يمين وشمال، رفيقاتها يمنعهما من السقوط.

في هذه اللحظة أدركت الصلة بين الرقص والموت، الرقص للحزن، للفرح أيضًا، لكل طاقة تجاوزت مداها، لكل تجاوز للقدر على الاحتمال، للرغبة في تجاوز المحدود المقيد إلى اللا متناهي اللا مؤبد، فهمت السبب الذي يجعل أحبابي المغاربة يسمونه شطحًا، وما الشطح إلا الذهاب إلى بعيد، إلى بعيد جدًا، في المكان اللا محدود والزمان اللامتناهي، هذا ما لا يقدر عليه الإنسان فيقدم على المحاولة، الإفلات من إساره بالرقص، لحظة باقية معي رغم فوات الوقت، حركة الأيدي ماثلة أمامي، يتبعها بالضرورة رفع اليدين خاصة من الراحلين عند سعيهم في العالم الآخر ومرورهم بالراحل المؤدية إلى المحاكمة التي يعقبها إما النعيم المقيم في حقول بارو السهوية، وإما الفناء في اللا وجود، مصير كان يخشاه كل حي..

من صاغ تلك الأوضاع الباقية حتى الآن عند صاحب كل عقيدة إيمانية؟ من حدد رفع اليدين أو بسطهما؟ من فرق بين السجدة والركعة؟ بين الانحناء والإطراق؟

شغلني هذا طويلاً، إلى ما عرفته من خلال لفافة تورينو، كلما تذكرت جلسة سيرجي نيوزاده وصبره عليّ أثناء قراءته الخط الهيروغليفي وفهمه للقليل ثم ترجمته إلى العربية، أتساءل: لماذا ير حل الطيبون إلى الأبد؟ يجيئني الجواب من داخلي: ليجيء آخرون! لولا رحيل الآخرين ما جئت أنت ولا غيرك، سألتهم مرة: كم لغة تتقن؟ قال: لا أعرف بالضبط، ربما ثلاثين، ربما أكثر، لم أحصهم..

لم أجد في كل ما قرأته ما يعبر عن جوهر الأوضاع التي حددها تحوي في ذلك المعبد المقيم بأبيدوس، مكن كل علم، ومبدأ كل صوب، ومعين الأسرار، عندما بدأت معايشة الفتوحات المكية للشيخ الأكبر سيدي محيي الدين، فوجئت به يورد

ما أعده وصفًا لما تمحدد منذ آلاف السنين، وأورده نصًّا كما جاء في الجزء السابع من طبعة الدكتور عثمان يحيى التي لم ينجزها بسبب تمهله الدقيق، وغيابه المفاجئ.

رفع الأيدي في صلاة الجنائز

«وَأَمَّا رَفْعُ الْيَدَيْنِ عِنْدَ كُلِّ تَكْبِيرَةٍ، وَالتَّكْتِيفُ، فَإِنَّهُ مُخْتَلَفٌ فِيهِمَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ رَفْعَ الْيَدَيْنِ يُؤْذَنُ بِالِافتِقَارِ، فِي كُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِ التَّكْبِيرِ، يَقُولُ (المُصَلِّي عَلَى الْمَيِّتِ): مَا بَأَيْدِينَا شَيْءٌ!

هذه (أيدينا) قد رفعناها إليك في كل حال، ليس فيها شيء ولا تملك شيئًا.

أَمَّا التَّكْتِيفُ فَإِنَّهُ شَافِعٌ، وَالشَّافِعُ سَائِلٌ، وَالسُّؤَالُ حَالُ ذَلَّةٍ وَافتِقَارٍ فِيمَا يَسْأَلُ فِيهِ، سِوَاكَ كَانَ ذَلِكَ السُّؤَالُ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، أَوْ فِي حَقِّ غَيْرِهِ، فَإِنَّ السَّائِلَ فِي حَقِّ الْغَيْرِ، هُوَ نَائِبٌ فِي سُّؤَالِهِ عَنِ ذَلِكَ الْغَيْرِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَقِفَ مَوْقِفَ الذَّلَّةِ وَالْحَاجَةِ لِمَا هُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ فِيهِ.

و«التَّكْتِيفُ» صِفَةُ الْأَذِلَّةِ، وَصِفَتُهُ: وَضْعُ الْيَدِ عَلَى الْأُخْرَى، بِالْقَبْضِ عَلَى ظَهْرِ الْكَفِّ وَالرُّسْغِ وَالسَّاعِدِ، فَيُشَبَّهُ أَخْذَ الْعَهْدِ، فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْيَدَيْنِ: يَدُ الْمَعَاهِدِ وَالْمَعَاهِدِ، أَيْ أَخَذْتَ عَلَيْنَا «الْعَهْدَ» فِي أَنْ نَدْعُوكَ، وَأَخَذْنَا عَلَيْكَ «الْعَهْدَ» بِكَرَمِكَ فِي أَنْ تَجِيبَنَا، فَقُلْتَ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

أيها الأهل والصحب، لم أعرف نصًّا ينفذ إلى صميم ما أبدعه المصريون القدامى فنًّا ودينًا كهذا، ما كتبه الشيخ الأكبر بعد آلاف السنين، تأملوا رحلة الإنسان بعد تمامه في العالم الآخر، في لحظات ورعه الدنيوية، يذاه خلو من أي شيء، مرفوعتان أو مبسوطتان، ما من شيء يشغلها بعد أن فرغت من كل شيء أما التعبير المحايد الخالي من أي رفة فعل، فهو ما استوقفني في مرقد جميلة الجميلات، إنه عين التسليم، عندي كثير مما أخذته من قراءة اللفائف غير أنني أخشى اللجة والحيرة، فأكتفي بإيراد صيغة غريبة، عجيبة فيها شرح وتفسير لما حيرني في أخميم..

حرير أخميم

الأمر عندي قديم، أشرت إليه مرارًا في مواضع متفرقة مما دونت، ربما بدأ بنزولي أخميم لأول مرة وأخذها لي مني، شيء لا أقدر على تعيينه، يتجاوز كل ما نعرفه تسرب مني إلى فراغها ونواصيها ما سيطر عليّ وتملكني ذلك اليقين أنني أتقل في عدة مدن متداخلة، كل منها منسوجة من الأخرى، ليس لأن جبانة المسلمين تقوم فوق أطلال معبد قديم، أما البريا الواسعة فأخفاها المغربي الذي جاء عبر الصحراء وأشار إلى الأعمدة الضخمة فلم يعد يبصرها مخلوق، ربما ما تزال موجودة، الكلام هنا كثير، غير أنني أقصر على موضوع بلبلي وحيري، أعني حرير أخميم المتبع في نسجه طريقة خاصة حتى إنني أمضيت وقتًا أتأمل النساء وهن يرفعن الخيوط ويخفضنها بترتيب معلوم، نول كله من الخشب، مركب متداخل، ولأنني ما زلت أحتفظ داخلي بنساج السجاد القديم شغلني الأمر، من أخذ من من؟ الصين أم أخميم، قرأت كل ما أتيح لي أن أحصل عليه من كتب بالعربية والإنجليزية، عندما زرت شنغهاي قصدت متجرًا في شارع ضيق قرب المدينة القديمة، يعلق صورة ملكة بريطانيا، تتجه إليه مباشرة بعد مراسم الاستقبال واللقاءات التي يملئها النظام المكين، تأملت النقوش، الملمس، عين ما أجده عند تأملي الحرير في بيت الشريف، أقدم من يعملون في نسج الحرير حتى إن كبيرهم الآن لا يمكنه استقصاء السلسال، ظلت النقوش التي طالعها في شنغهاي، في المكان الأقدم لبيع القماش المرغوب في أنحاء الدنيا، كنت موقفًا أنني رأيت الزخارف من قبل،

موجودة، مصونة عندي، لكن.. متى، كيف، أين؟ حدث بعد سنوات أن أقمت في باريس مدة شهرين، مقري الذي اعتدت عليه فندق عتيق بشارع نهر السين، منه أبدأ المشي الذي ربما يطول إلى ساعات، أتمهل هنا، أسرع هناك، أجلس عند ناصية ألفتها، قرب كنيسة سان ميشيل اهتديت إلى متحف العصور الوسطى، هذا حالي مع المدينة التي تعلقت بها كما القاهرة ولذلك أسباب ظاهرة وأخرى خفية، من الأولى تشابه واقع بين وسط القاهرة الذي شيده الخديو إسماعيل واستعان بأوسمان مخطط باريس في القرن التاسع عشر، تشابه الواجهات والتخطيط، ميادين تتفرع منها الشوارع كأنها أشعة الشمس، ألفتها بعكس مدن أخرى باعد ما بيني وبينها نفور غامض، منها لندن التي أعجب لمن يبهرون بها، لا يعنيني منها إلا المتحف، وبالتحديد حجر (شباك) وليس (رشيد) رغم أهمية الأخير ولهذا تفصيل لعلني مورده يوماً، دخلت المتحف بدون أي فكرة مسبقة عن محتواه، مررت بقاعات فيها أثاث عتيق وأواني طعام وشراب إلى أن رسوت في قاعة فاجأتني، تطالعتني قطع نسيج متبقية من أثواب وأغطية، كلها من نسيج أخميم، لا تمت إلى عصور وسطى بل أقدم بكثير، بعض القطع تطالعتني منها عيون متبقية من ملامح بالية، تذكرني بعيون الفيوم المعروفة، تحديقنا ولا تمنح أسرارها بسهولة، لا بد من مجاهدة، ماذا جاء بهذا الحرير كله إلى هنا؟ كل القطع تمت إلى العصر المتأخر من الحضارة المصرية قبل اعتناق القوم للمسيحية، إذن.. كانت أخميم تنسج الحرير في ذلك الحين القصي، البعيد.

أيها المخفي أظهر

أيها المجهول أفصح

كنت بمفردي وعندها تجتاحني تلك الأحوال ربما أقدم على أفعال تضعني بين المختلين، ربما أقلص ملاحمي، أو أقدم على رقصة يتصاعد نغم مصاحب لها من داخلي، أو أطوي لساني أو أقف على ساق واحدة، سيطرت على حالي، سألت عن

كتاب بأي لغة يشرح تاريخ المجموعات التي يؤويها المتحف، استفسرت في المكتبة الملحقة فلم أجد إلا كتيبات صغيرة، أما الكبير المعتمد عند أهل الاختصاص فنجد منذ سنوات وقد يطبع مرة أخرى، في العام التالي نزلت فينا لأيام معدودات، التقيت بعضًا من أبناء بلدي جهينة، نفرغوا لي واحفوا، في يوم كنت أركب مع أحدهم، لمحت إعلانًا عن معرض لفنان يشغلني أمره، كلين، لم يستخدم إلا لونا واحداً فقط، الأزرق، ولأني لم أعرفه إلا من الكتب عدا بعض أعمال يسيرة في المتروبوليتان ومركز بومبيدو ومتحف الفن الحديث «الوما» طلبت إيقاف العربية، نزلت مع ابن قريتي قاصداً المتحف، قال إنه يمر كثيراً بالمتحف لكنه لم يدخله، صحبني مجاملاً لكن عنده فضول، المبنى فسيح، ضخم، مدخله مهيب، غاب عني اسمه للأسف، ربما لأن المدينة ظلت على مسافة مني حتى إنني سخرت من أغنية اسمهان «ليالي الأنس في فيينا..» فلم أجد فيها أنساً ولا جنة، إنما هي موضع يُعبر، لا يمكنني الإقامة فيه، اتجهت إلى القاعة حيث لوحات كلي، أمضيت ساعة أتأمل لون الأبدية، إشارة اللانهاية، مررت بقاعات فيها أوان فضية، وأخرى لوحات لأسماء أجهلها من العصر الوسيط، فجأة ولجت قاعة كلها فتارين عرض، حدثت في العيون الأخممية، قطع نادرة من حرير البلدة التي لا أكف عن التردد عليها وتقصي شئونها حتى عاتبني أهل مودتي في مسقط رأسي، قال حاج من أسرة أُمي: «نحن أهل الغرب.. مالنا والشرق..»

مِزق من قطع منسوجة منذ عصور سحيقة، بعض الزخارف لم يتبق منها إلا وحدة أو جزء من دائرة، أو عين إنسانية لم تغمض لانفصالها عن بقيتها، ألوان لم أعرف لها مثيلاً أو شبيهاً، بها غموق، لكنها واضحة، نورها باطني، إضاءة العتمة، كيف؟ هنا يكمن السر، يمكنني الاستفاضة، أمضيت أربع ساعات حتى دُهِش بلدياتي، أثر البقاء رغم إلحاحي بالانصراف خشية إعاقته، الوقت هنا له كيانه، لحسن الحظ وجدت نسخة من الكتاب الحاوي لكافة القطع التي

أحضرها دبلوماسي نمساوي في القرن الثامن عشر، أقام فترة في أخميم، الكتاب عنوانه بالإنجليزية FRAGILE REMNANTS، أعده بيتر نوفر، نص بالإنجليزية والألمانية، بعد سنوات رأيت في القاهرة مطبوعاً في الجامعة الأمريكية، غير أن الذي أثار عجبى، عودتي إلى فيينا بعد عامين تقريباً، مضيت إلى المتحف، عبثاً حاولت الوصول إلى القاعة، كُلِّي ثقة أن قاعة الأواني الفضية تسبقها، وجدت الأواني ولم أصل إلى شذرات حرير أخميم، لم يتعرف كل من سألته من موظفي المتحف وحراسه على ما وصفت، ولولا اقتنائي للكتاب لشككت فيما عندي وفي مجيئي الأول، لا تفسير عندي لذلك، غير أنني مورد ما وقع لي، ما رأيت في باريس وفيينا لم يكن جديداً على بصري، طالعت من قبل، أين؟ لا أدري، أثناء تقليبي الصفحات وتأملتي الأشكال والألوان الغريبة والعيون المحدقة إليّ من صميم العدم، رأيت أمامي جدراناً وأسقفاً ثلاثة من مرقد الأشراف في القرنة.

مرقد سنفر، تحمل جدرانه وسقفه أجمل تكعيبية عنب على الإطلاق، الأقدم في مسار البشرية، الأفريز عنقود عنب وزهرة لوتس متفتحة، على التوالي، منبع واحد، غصن يبرز منه العنب والزهر، أصلهما واحد رغم اختلافهما وفي هذا معنى، تذكرني إحاطة العنب بالتابوت بشعر أبي نواس الذي تمنى أن يدفن إلى جوار كرمه حتى لا يُجرم في أخرويته من شذا الخمر، المهم.. ما غمر الجدران من زخارف، السقف موج بحر متتابع، أطل عندي مقعد «أوزير» في مرقد باشادو حيث السجدة التي أشرت إليها تبعثها على الفور زخارف مرقد «أنهر كاو» غزيرة، متنوعة تكون قاموساً لأشكال أصولها في الزهرة والنجمة، تجسد التجزيء، الصلة بين المفردة والكل، أساس ما يُعرف بالأرابيسك، كُلُّ وحدة قائمة بذاتها عندما تتصل بمثلتها ينشأ كون يتكرر إلى ما لا نهاية، عندما زرت الكنيسة المعلقة التي يحيرني معناها ومبناها ومقصدها، سمعت زائراً يقول لصاحبه: أرابيسك أخذه هنا، التفت إليه موضعاً: الأصل هنا..

تأكدت من عمق البُعد عندما تمهلّت - متأملًا في مرآقد البر الغربي - في السير الذي أدركته من لفافة تورينو، أدركت المبدع، صاحب المنشأ، تحوي حدد المثلث والمربع والمستطيل، تفسير ذلك طويل، سافرت إلى البر الغربي وأقمت حيث اعتدت في بيت الحاج محمود الذي أعده لإقامة مريجة، يشبه البيت الذي وُلدت فيه، ولي به وثيق صلة ومحبة، خصصت أيامي السبعة لتأمل وفحص الزخارف.

يا الله

إنها نفس المنقوشة على حرير أخميم!

إذن الأمر قديم، يحدث لي ما يمكنني إدراجه في عجائب الاتفاق، إذ يحدث اهتمامي بأمر، في ذروة بحثي وتنقيبي أفاجأ بتوصلي إلى سبب أو أكثر يعينني، حدث أن نزلت ضيفًا على جامعة هالة القريبة من ليزج في ألمانيا الشرقية وقت أن كانت شيوعية، لأمر لا أريد ذكره شُغلت بالبوذا، عصر يوم استضافني أستاذ سوري الأصل في بيته، رحت أنطلع إلى أرفف المكتبة، فوجئت بكتاب عن بوذا، عنوانه «بلوهر وبوذاسف» حققه ودرسه الفرنسي دانيال جيماريه، وجدت فيه ما يشفي الغليل، بعد عودتي من الأقصر، رحت أنقب عن كل ما يتعلق بأبي الفيض ثوبان ذي النون الأخميمي، ربما بتأثير ما قرأته عن إتقانه لغة الطير - الخط الهير وغيلفي - قرأت ما ورد عنه في «حلية الأولياء» للأصبهاني، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي، و«الطالع السعيد في أعيان أهل الصعيد» للإدفعوي، و«طبقات الصوفية» للسلمي، ما كتبه القدامى ومن تلاهم، غير أن ما أيدني وأرشدني وفك عقدة من لساني ما وجدته في مخطوط اقتنيته يومًا من الشيخ تهامي، ألح عليّ في أن أحفظه، عنوانه «تعطير الأرجا في أعيان جرجا»، جرجا كانت أكبر إقليم من الأربعة التي تكون منها الصعيد بعد الغزو العربي، جاء فيه أن ذا النون كان عنده مؤلفات همرس النبي - هو تحوتي أو توت، هكذا عرفه اليونان - ومن بينها الأشكال الحاوية للحكمة المتوارثة في زخارف حرير أخميم، إذن الأمر أبعد من القرون الأخيرة للحضارة

المصرية وبدء اعتناق المصريين للمسيحية، صرت كالمحموم، أنقل كافة ما يصلني بالأسباب التي تفضي إلى محاولة الإجابة عن السؤال جاء في كتاب «المكنون في مناقب ذي النون» كما ألمحت سابقاً أن ثلاثة من أهل الصين وفدوا على أخيم وقت أن كانت مركزاً الرمز المذكورة المقدس، الإله مين، وأنهم لزموا البلد واختلطوا بأهله، وانتظروا قرب مدخل المعبد الكبير الذي اختفت بقاياها بعد ظهور المغربي، تعلم الصينيون لغة القوم، تزوج أحدهم من إحدى بنات الناحية وأنجب منها، بعد سبعة عشر عاماً رحل اثنان وبقي من تأهل، هم من أتقنوا أسرار الحرير التي وضع أساسها تحوتي وكان في الأصل مخصصاً للملك مصر المقدسين إلى أن ذهب ذلك مع من اندثر من تعاليم وأسس وقواعد علوم، واختلط الأمر على الكافة حتى قيل باختصاص أهل الصين بصناعة الحرير الطبيعي، ومن يشك فيما أوردت فعليه مراجعة ومضاهاة النقوش والأشكال في مرقد البر الغربي، ومضاهاتها بأقدم النقوش التي وصلت من زمن الأباطرة وزمن الممالك المتحاربة وصولاً إلى أسرة الهان وظهور ماو وغياها، كذلك مراجعة المتون المشار إليها فيما أوردته.

من متون توت

نبوءة باقية: هناك ما يجب أن تعلموه، لا شيء يبقى، لا شيء مخلد، سوف يأتي
 زمن تصير فيه مقدسات المصريين مجرد ذكريات للفرجة، كل صلواتهم المقدسة،
 كل ورعهم، طقوسهم، ستصير نسيًا منسيًا، ستختفي سائر الرموز ويتندر منها
 الأحفاد وربما يسعى بعضهم إلى تدميرها وإزالتها، سيملاُ الغرباء الديار ويصبون
 مخلفاتهم في النيل المقدس، لا شيء يبقى، لا شيء يدوم، لن تحمل الرموز فحسب،
 بل ما لا يتصوره عقل ولا تستوعبه مخيلة الآن، ستهمل العقائد والتقوى، ستحرم
 الطقوس وتتخذ المتون معاني غير المعاني، بل إن اللغة ستنسى، ستصير شكلاً بلا
 معاني إذا ما قُدر لأحدهم فك رموزها، آه يا مصر، آه يا مصر، لن يتبقى من ديانتك
 إلا حكايات غامضة، لن تؤمن بها ذريتك، فقط نقوش على الحجر أو البردي نقص
 عن ورعك، سيسكن مصر من يجتاحها من البرابرة، ستصير الديار مقفرة رغم أنها
 مسكونة، ستصبح مقفرة مع أنها عامرة..

مسألة

سأل سيد الأرضين:

لماذا يموت الخلق؟

قال تحوي:

لتحقق الإياب..

لا بد من ذهاب.

مسألة

بدا سيد الأرضين كأنه يحدث نفسه عند نطقه بهذا السؤال:

كيف أموت وأنا الملك؟!

قال تحوتي:

«الموت بداية وليس نهاية، بالموث يتنقل الكائن إلى طور آخر، الموث ليس مرضًا، ليس عرضًا، إنه صنو الحياة، لذلك نقول في صلواتنا (لقد مات مفعماً بالحياة)».

مسألة

قال سيد الأرضين:

لماذا البحر أزرق؟

قال تحوي:

لأنه حزين.

ولماذا حزنه؟

لأن الماء هو العنصر الوحيد الذي لا يعرف الاستقرار، حتى أثناء تكوينه راحل، متبدل الهيئة والكينونة، وكل راحل حزين لأنه مفارق.. فما البال بمن يرحل عن ذاته، عن مكوناته، محكوم بالتبدل، بالتغير، بالانتقال.. لذلك يحزن، يأسو فيزرق لونه وهو مُلِيم..

مسألة

يجزني أنني في الأبد ربما لن ألتقي بمن أحببتهم، بمن وجدت فيهم بعضاً
مني؟

لماذا الحزن وأنت ما زلت تسعى؟
لأن الوعي سيفنى، سيكون أمراً آخر لا نعرفه.
قال تحوي:

من يدري؟ نعرف أن المادة أيًا كانت لا تفنى ولا تُستحدث، ربما يبقى الوعي
أيضاً، ربما تبقى الذكريات.. ربما يبقى ما نتصور استحالة بقاءه..

مسألة

بعد صمت قال سيد الأرضين:

ألم تفكر وأنت الحكيم العليم، في دواء يعالج من الموت؟

سيدي، الموت ليس عرضًا حتى يمكن العلاج منه، الموت جوهر للحياة، بدونه لا تكون ولا توجد، كما أن السعي هو الجانب الآخر للسكون.

مسألة

تمنيت لو أعيش ألف حول.

قال تحوتي:

هذا تجاوز للمألوف، للمستقر، للطبيعي.. إذا بلغت فستسعى بنفسك.

قال تحوتي متعجبًا:

أسعى.. إلى ماذا؟

إليه..

مسألة

لماذا يحتاج التفسير إلى تفسير؟

قال تحوي:

لأن التفسير يحتاج إلى مُفسر..

مسألة

إذا كان النعيم مقيماً في حقول يارو، إذا انتفى أي أعداء، فلماذا يحزن الخلق عند ذهاب أحدهم؟

أجاب تحوتي: من لا يحزن عند السفر آثم قلبه، معطوب المزاج، فما البال بسفر لا عودة منه إلى المألوف! الحزن ليس للرحيل، إنما للفقد، لاختفاء الأب، لغياب الأخ أو الأخت، لتبدد الابن أو مخلوق نعتز به.

مسألة

في الطريق إلى أبيدوس، تساءل:

هل تعتقد أن رأس سيدنا وحيينا أوزير مائل هناك؟ قال تحوتي وعنده دهشة،
ليست من السؤال، لكن من نبرة خفيضة لم يعتدها من سيد الأرضين.
ليس مهمًا الموضع، المهم اليقين أنه هناك، إذا رسخ اليقين فسيكون هناك.

مسائل

- لماذا نجهل ما يخرج منا؟ لا نعرف إن كان الجنين ذكراً أم أنثى، حتى بعد ميلاده لا يعرف شيئاً عما كان فيه.
- لا نرى البذرة التي تنبت منها الشجرة، إن لم تُدفن فلا تكون هناك فروع أو غصون.

مسألة

استفسر سيد الأرضين بشيء من حيرة تفلق منها تحوتي:

- هل لهذا الكون من حد؟ هل لهذا الوجود آخر؟

- نعم، عندما تكف عن السعي، عندما يصير الميعاد إلى المبدأ. عندئذ يكون حد الحدود.

مسألة

يا حكيم، يا من أرسيت شكل الحروف، يا من حددت هيئات المقدسين، يا من عينت أوضاع النجوم التي نتهدي بها، لماذا أموت ولم يصدر عني إلا كل خير؟ حفظت الحدود، وأمنت الأفواه من مسغبة، ومهدت الطرق، ووصلت المنقطع، لم ألحق الأسى حتى بعدو أسير.. هل أمضي كما ذهب الآخرون؟ قال تحوتي: الذهاب حتمي لوصل آخرين وإلا لما جئنا...

مسألة

قال سيد الأرضين وفي صوته إشارة حيرة، هو من يعرف كل شيء كما يظن الكافة بطرح على تحوتي بلا تردد أو مراعاة:

-إذا كان المستقر، المجمع عليه، أن الوجود كله من خلق الله، فلماذا نختص بعض الأماكن بالقدسية، وبعض الأزمنة كذلك؟ فهذا موضع أشرف من سائر المواضع، وهذا يوم أفضل، وتلك ساعة أو لحظة للدعاء فيها أو التوجه استجابة.

-قال تحوتي: الوجود طريق، لا يعرف أحد أوله وآخره، لا ندري مبتدأه ولا نعرف منتهاه. كل من يسعى يندرج في عداد السالك؛ لذا كان ضرورياً وضع علامات: علامة مكانية، أخرى زمانية تدرأ النسيان وتُرسخ المعتقد، لو لم يكن ذلك لصار الكل إلى خواء، فعندما تتشابه الأشياء وينتفي التمييز يصير التيه مصيراً محتوماً وهذا مبعث للفقد والتذري..

نصيحة

قال تحوتي: لا ترسم الطريق، لا تحدده مسبقاً، اسلك أولاً وستتضح معالنه،
سيوجد...

لا ينتبه أحد

لم أصرع الثور القوي في عيد سُد، كأني لم أتهف مع لحن العازفات القاديات، كيف لم ألحظ انقضاء الوقت؟ كيف لم أرصد انصرام المراحل وأنا من يأمر فيطيعه الكل، كيف؟ كيف؟

اعتاد تحوي أن يجيب مباشرة، لكن ما أثار انتباهه ديبب الحزن وسريان الأسى في نبره، لذلك تأخر بضع لحظات قبل أن يقول.

مع لواح ضوء الفجر السابق لبزوغ الشمس وحتى غياها غربًا يجري تنبيه وتذكير في كل لحظة، غير أن الإنسان لا ينتبه، يمضي كأنه باق أبدًا، الكل سيغربون عدا من يتطلع إليهم، ليس كل نهار إلا موجزًا يتجزل الوجود وما فيه، منبهاً إلى أن العدم لا ينتهي إلا لعدم، مع أنه يُنبت الوجود، يظهر قرص الشمس «أتون» عفيًا قادرًا، مكتمل الاستدارة، متوهجًا بالحضور، بالحياة، يمضي صاعدًا في الفراغ الذي لا يليه فراغ، حاجبًا كل نجوم وأفلاك ومدارات الوجود، متطلعًا إلى الذروة، بل إن التطلع إليه صعب، وعمر مع سلوكه الطريق، إنها ولادة، يليها سعي حثيث، تدرج، من الطفولة إلى الصبا إلى الفتوة إلى وهج الشباب تمضي الشمس في نصف النهار الأول حتى تبلغ نقطة استواء الظل، عندما تكون في المنتصف تمامًا بتواري الظل، هنا يبدأ الميل، فلنقل إنه السفر من لحظة الميلاد إلى تمام العشرين فينتصف إذا قدرنا العمر بالأربعين، أو إلى صميم الثلاثين إذا قدرناه بستين، وهكذا... في النصف الأول يكون التطلع إلى الأمام، كل شيء مقبل، كل أمر آتٍ، كل حدث

قادم، مع بدء ميل الشمس جهة الغرب، مع تزايد الاتجاه صوبه والاقتراب منه، عندئذ يبدأ الالتفات الهين إلى ما فات، ما مضى، مع الإمعان يبدأ الانكفاء إلى ما انقضى، يتحسر ذوو الألباب، يحاول بعضهم - وليس كلهم - تدارك الفوت، لكن.. هل رأى أحد منذ بدء الخليقة قرص أتون يرجع القهقري؟ مستحيل، محال، وإلا انقلب الوجود وغلبت الفوضى فلا يكون وجود، شرط صيرورته النظام حتى وإن لم نلاحظه، حتى وإن لم ننتبه.

صمت تحوتي مقدار لحظة، سيد الأرضين مستغرق، يصغي، بل على غير عادته دنا منه حتى كاد يلامسه.

استأنف فقال: إن كل نهار يتضمن الخلاصة، كافة المراحل، حتى صُفرة الغياب، لكن لا ينتبه الخلق، لعل الطيور، بعضها وليس كلها، تدرك ذلك؛ لذلك تقابل القرص المضيء بالصياح الجماعي، الأشد قبل غيابه، بعده تصمت فجأة فلا يسمع لها هميس، وما بين البزوغ والغروب تتردد الأنفاس، الطريق بين المراحل واضحة، الطريق مستقيم، الاتجاه واحد، من يبدأ الخطو لا يتثنى أبدًا، يتلفت بالذكرى نعم، لكن يتقهقر محال، الكل يتجه إلى الضرورة القصوى، الكل يرجع إليها لكن.. لا يعرف أحد، لا ينتبه أحد.

تفسير

أحوال سيد الأرضين أقلقت تحوتي، يدرك الخفي وراء ما يطرحه عليه من مسائل وهموم، ما فضضه ذلك الشك المبين فيما تصور أنه من الرواسخ، لكنه يعي أيضًا أنه ما من نهائي، ما من دائم أبدًا؛ لذلك أقدم على تفسير أحوال التبدل والتغير التي تجري الإشارة إليها تلميحًا، لا تصريحًا على أنه قلق التقدم في العمر، عندما يصير ما تبقى أقل مما وُلِّي، يبدأ التأهب للحظة كبرى، كان على وشك أن يطلع سيد الأرضين على تأملاته حول التغيرات التي لا محال لوقوعها، يعرف هو المجرب المقنن للأصول والوقائع المتوهمة، أن الجسد مهما يكن حفظه متقنًا فمصيره إلى تفرق، ستمضي كل ذرة في طريق، وما أكثر طرق الأبد! ذرة تصبح في بزوغ شجرة، أخرى تتحول إلى بخار ينزل في موضع قصي مطرًا سخيًا يصير إلى نهر، إلى بحر، إلى بحيرة، بركة، تتعدد الأسماء والماء واحد، يمضي مع الدورة، يسري مع الغمام، يهاجر مع مياه البحار، ذرة أخرى ربما تندمج بحافة شاطئ ملامس للمحيط، تلتقي الاثنان فلا تدركان أنهما من نبع واحد.

ذرة ربما تصير جزءًا من سم قاتل، أخرى تدخل في الترياق المبطل، ثالثة ربما تفلت إلى الفضاء، تتبع دورة النجوم، تنجذب إلى مدار هنا وآخر حتى تصير إلى نجم مشرف يصل ضوؤه إلى إنسان يتطلع إليها وعنده ذرة أو ذرات من عين ذلك الذي قُضي، هكذا ترنو الكينونة إلى الكينونة.

كُل ذرة تمضي إلى خلق جديد.

لا.. لن يؤدي هذا إلى ترسية أحوال سيد الأرضين، بل ربما أثار ذلك ريبة الكهنة وحراس الحكمة، رغم نبوغه وذيوع أمره وتمكنه ممن يترصد به، ويرقب ما يصدر عنه، ليس كل ما توصل إليه نطق به، وكم من أحوال ستندثر معه! تنطوي حتى يحل زمن يتقبل فيه الخلق ما لم يستطع البوح به، كُل ما سيقدم عليه أنه سيمضي إلى لقاء النظر والتأمل لمجلس حكماء المعبد، سيطلعهم على أحوال سيد الأرضين، على دُنُوهِ واقتراب اللحظة الفارقة حتى يمكنهم تدبير الأمر.

مسألة

قال سيد الأرضين شاردًا كأنه يحدث نفسه:
مالي أفكر في لقاء من رحلوا هناك أكثر من استعادي لمن عرفتهم وما زالوا
يسعون؟
التفت تحوتي مبهورًا، أدرك صميم الحال ولم يكن عنده جواب.

مسألة

تساءل سيد الأرضين:

يبدأ التكوين من لا شيء، وينتهي إلى لا شيء، شرط الوجود التغير، لماذا ينتهي كل شيء عندما يتوقف التبدل، التغير؟
قال تحوتي بعد صمتٍ تخلله إمعان.

التبدُّل واقع حتى في العدم، كُل ما في الأمر أننا نرى ما يمكننا مطالعته ومعاينته، بحواسنا، وكلها محدودة، ثمة تغيرات تقع فينا، داخل أجسادنا وأرواحنا، في المحيط المنظور بنا، والآماد القصية هذه لا يمكننا الإحاطة بها أو إدراكها رغم أن بعضها أقرب إلينا من جبل الوريد هذا..
أشار إلى العرق النافر في عنقه.

نصيحة

قال تحوتي للمريد المقبول حديثاً في المعبد:
ستنقضي سبع سنوات لن يهتم بك أحد، تسأل فلا تُجاب، تستفسر فلا تسمع
ما يشفي الغليل.
في السبع التالية تسأل فيُصغى إليك وقد تحدث مجاوبة.
في السبع التابعة تتلقى.
في السبع الأخرى يبدأ كل من نصحك أو أخذت عنه، يأخذ منك..

مسألة

بدا سيد الأرضين كأنه يحدث نفسه عندما تساءل:

كيف يكون رحيلي؟ هل أتألم عند تلك اللحظة؟ هل أفزع؟ ماذا سيجول
بخاطري؟ من سأذكر؟ من سيمثل عندي؟
رغم أن تحوتي أدرك كنه الحال، أنه يخاطب ذاته ناسيًا وجوده؛ فإنه أجاب غير
مبال إذا كان كلامه سيبلغ أو يضل.

قال: لا يذكر المخلوق ما كان عليه قبل مجيئه، لا يعي لحظة ميلاده وما عاناه
عند مروره بمضيق المهبل إلى رحابة الوجود، كذلك عند ميلاده الجديد، لن يعي،
لن يتمثل، لن يتذكر من تلك اللحظات شيئًا.

مسألة

لأول مرة منذ بدء انفراداتها يمد يده، يلمس ظاهر يده، سكن تحوي خشية
وتأدبًا، أصغى إلى ما يقوله:

كان كل ما عشته ذكرى عابرة، ومضة، كأنني لم أضبُّ، لم أخرج إلى الوغى
مشتبكًا ومنازلًا حتى لا يدنس الأشرار أرض كيميت المقدسة، كأني لم أرسل
الوفود إلى جزر المحيط القصي لإحضار البخور واللبان والعطر المنبعث من عود
الند ليلائم هبة المحبوب، الحامي، مانع الأذى عن الديار، كأني لم..

مسألة

قال سيد الأرضين: ما تقوله يعني وهمية كل ما يُبشر به ونبشه للخلق.
لم يجب تحوتي.

قال سيد الأرضين: إذن ما قادنا إلا الوهم.

يقول سيد الأرضين:

تكلم، أفصح، منتهى هذا أنني وأنت مجرد وهم..
لزم تحوتي الصمت.

مسألة

ليس أول مرة أجد فيها تشابهًا بين بعض ما اطلعت عليه يكاد يصل إلى حد التطابق بين ما حوته لفافة تورينو المنسوب محتواها إلى تحوي وبين مضامين الفكر الإنساني، دائمًا كنت أورد ما أطلعني عليه سيرجي لأن الموروث الأبيدوسي أقدم، لكنني مؤخرًا بدأت أشك في وجود تحوي نفسه، ربما وُجد شخص ما، يومًا ما، في موضع ما، كان بداية سعي هذا الاسم الذي تم بعضه وما زال يكتمل عبر العصور، ربما يكون من أصحاب أسماء أخرى، ربما خشي البعض البوح فنسبوا ما رأوه إلى من لم يوجد قط.

مسألة

إنه كذلك، إنه ليس كذلك..

مسألة

الحدود الشمالية عند البحر، مع أنه لا حدود للبحر..

مسألة

قال سيد الأرضين: لماذا أسألك إذن؟

قال تحوتي: وكيف لي أن أعرف؟

- هل تعني أن لا شيء يمكن معرفته؟

- كيف لي أن أعرف؟ ربما ما أظنه معرفة تراه يا سيدي جهلاً، وما أراه جهلاً
تعتبره معرفة.

- ماذا تقصد؟

- الأمر كذلك.

مسألة

السماء، حمرة الشفق، مصدرهما بصري.

مسألة

قال الحفيد ذو الأربع سنوات:
-هل الغد هو اليوم؟ هل اليوم هو أمس؟

مسألة

إلى متى، إلى أي يوم سيتكرر شروق وغروب الشمس؟

مسألة

يمكنني الإنباء بمركز الكون، عندي في صميمي، غير أني غير قادر على بلوغه.

مسألة

روى تحوتي أن الملك العقرب، وكان قويًا، مهابًا، ساعيًا، فاعلًا في توحيد البلاد ولحمة أجزائها، سمح بوجود كاهن جمع العلم والحكمة، منعزل، متفرد، في معبد يقع شرق النيل -تقريبًا في موقع أخميم الآن- أرسل إليه المسئول عن صوامع الغلال في البركله، وهذا منصب جليل الشأن وقتئذ وما زال، سأل عنه، عندما وصل إليه وجده يجلس عند ضفة النهر، يمسك صنارة، قال رئيس الصوامع: سيد الأرض يطلبك للعمل إلى جانبه. لم يلتفت الكاهن ضئيل الحجم، عظيم البصيرة، ظل مستمرًا على وضعه، متجهًا إلى النهر، ممسكًا بالصنارة، قال إنه سمع عن وجود سمكة نادرة محنطة في القصر، محفوظة منذ مئات السنين، هل كانت تفضل البقاء حية تسعى في النهر سنوات معدودات يعينها ما يعينها ويتهددها ما يتهدد الآخرين في النهر والبحر أن تستمر كما هي الآن محنطة، محفوظة، لا تقطع مسافة، ولا تغوص إلى الأعماق ولا تراوغ أداة صياد، صنارة كانت أو شبكة؟ قال رئيس الصوامع، من يؤمن الغلال لسائر من يسعى في أرض كيمييت «مصر»؟ بالطبع كانت تفضل النهر مع البقاء المحدود تسمع وترى وتراوغ وتندفع هنا أو هناك.

هز الحكيم، العليم الملم رأسه، وبقي على وضعه متطلعًا إلى حيث لا يمكن التحديد أو التعيين، وعندما انصرف لم يلتفت ولم يشعر به.

مسألة

سأل سيد الأرضين: كيف ترى الشمس والقمر وتلك النجوم؟

قال إنها أشد الموجودات وحدة، تحجب بمفردها وتمضي معزولة عن غيرها، لو تماسمت مع أخرى يكون فناء مبين.

قال سيد الأرضين: هل يمكن وجود لغة يتخاطب بها ما لا يمكننا محاورته، أحياناً أو شك على سماع حوار الجدار مع الجدار، وهسيس النجم للنجم، أمممكن هذا؟

قال تحوي: لا يوجد في الوجود صامت أصلاً، لكننا لا نعرف كُنه النطق، هل يتحدث الجرم إلى غيره، أم يخاطب ذاته بذاته؟ ما أدركه حتى الآن تلك الوحدة في المدارات المحكوم بسلوكها مسبقاً..

مسألة

قال ترمذي: في كل لحظة، في كل نفس أرحل إليّ وأعود.

مسألة

السماء في حكم الاستحالة، كلما وصلنا إلى واحدة بدت أخرى، تمامًا مثل الأرض التي نطأ ثراها، لا نعرف أغوارها، كليهما ليست في المتناول. «سطور باقية من متن غاب للأسف في مرقد لم يُفتح بعد، المرجح أنه منسوب إلى تحوتي».

مسألة

أعود اليوم إلى صومعتي في معبدي، رغم أنني عدت إليها بالأمس.

مسألة

كيف يتعرف الماء على الماء؟ كيف تلتقي النقطة بالنقطة؟ كيف تتحاور الموجة مع الموجة؟

قال تحوتي: النقطة، الموجة، الشلال، المطر، الثلج، ليس هذا كله إلا أحوالاً لجوهر واحد، الماء، ولأن الماء هو الماء، فإنه يتعرف إلى نفسه ويحاور ذاته، يتعقبها ولا يلحق غيره.

وجود

سأل سيد الأرضين: هل كان الوجود سيوجد لو أن الإنسان لم يوجد؟
تطلع تحوتي، رأس الحكمة محققاً، طال صمته، لعلها المرة الأولى التي لم يجب.





سديم

تضرق

كثيرًا ما تساءل دون نطق عما سيراه أو يسمعه أو ينتبه إليه وعيه عندما تحين اللحظة، هل سيعيها؟ هل سيدرك أبعادها؟ غير أنه ينشئ ليرد على ذاته، يجيب السؤال بسؤال: هل يعي المولود لحظة انفلاق المشيمة وعبره إلى الخلاء؟ من يتذكر النفس الأول؟ من يحتفظ بذكرى أول شهيق أو أول زفير؟ يحتفظ بكتاب يحوي أفنعة اللحظات الأخيرة واللحظة الأولى، أفنعة من الجبس لمن بلغوا اللحظة الحرجة، تستدعي إليه نوم المواليد في ساعاتهم الأولى قبيل تلمسهم قطرات الحليب وبحثهم الحائر عن مصدره، تشابه يستبعده، غير أن ما جرى له لم يتوقعه ولم يتخيله، مع بدء الوهن وديب ما فوجئ به، يدفعه إلى الغوص في لجة عميقة، يجاهد للتنفس، لاستنشاق الهواء، لأول مرة يدرك أنه لثام الشهيق لا بد من زفير، دخول ثم خروج، عندما يكون مسار واحد يؤدي إلى الالاهة، في تلك الليلة، ربما أولها أو آخرها أو أوسطها، لا يقدر على التعيين، يرى يده اليسرى تودع اليمنى، بنانه يلوح لكفه، عينه تفارق مستقرها تنوح على ما أبصرته له، ما اخترنته عنده من قباب سمرقند إلى أشجار اللبان في سومطرة حتى حافة المحيط من مختلف الضفاف، كم من أمور وذا العودة إليها، لم يقدر على استرجاعها إلا بالخيال، قدماء تفارقان ساقبه أول ما ناله الوهن، عضوه يحاول التعلق بخصيته، يشهد تيهه عنهما، يتفكك ظاهره قبل أن يبدأ تفرق قطره عن قطره، تمضي كل ذرة وجهة لا تبلغها أخرى، يمضي ممعنا حيث لا يمكن تمييز الفوق من التحت، حيث الالاهة، يتعدد رحيله متخذًا سبيله في اللاوجود سرًا..

عمران

على البر الشرقي من النيل تقع زاوية سلطان، نسبة إلى منشئها سلطان باشا والد هدى هانم شعراوي، الداعية الأولى إلى تحرير المرأة، قصر كبير تهدم عبر الزمن ولم يتبق منه سلبًا إلا حمام فريد من رخام أزرق شفاف لم يعرف مثله، يجيء المصريون وبعض أثرياء العرب للفرجة عليه، كذلك أجنب، لسنوات طويلة منذ إقامة الباشا في الشرق غير المطروق لسبب غير معلوم، لم يكن سبيل إلى الزاوية إلا عبر النيل، القارب من الضفة الغربية للنيل، في السبعينيات شق الطريق في البر الشرقي وانكشفت مقابر زاوية سلطان الفريدة، الغربية، أنصاف قباب تتوالى متجاورة كموج البحر، رغم صمت الأحجار، فإن تتابعها وامتدادها على مدى البصر يبعث بأصوات عديدة يلتقطها من يتقن الإصغاء، ومنهم هذا الراهب السائح الذي يلف الصحاري منذ سنوات لا يعرفها أحد، لكنه عندما وصل إلى هنا ورأى أمواج الحجر، قباب المقابر، الماثوي الأبدية، لزم.

في أحد الأيام تصادف مرور مسئول كبير في عربة مصفحة، كان يسير بسرعة كبيرة، يبدو أنه لمح التابع المثير، توقف، أو أمر بإيقاف السيارة، نزل يتفرج ويتعجب، لمح الراهب فتقدم منه.

«أين العمران يا بني؟»

طلب منه أن يصعد إلى سطح القصر ويطل، من هناك يمكنه أن يراه، رغم وحشة المكان، وقلة المارة وقتئذ تقدم الرجل يتبعه سائقه، عاد بعد دقائق غاضبًا،

تساءل عما إذا كان السائح الجوال يسخر منه، بالطبع لم يكن يعرف أنه راهب، كانت ملابسه متهرئة، فقط العلامة الوحيدة هي الصليب كبير الحجم الذي يتدلى حول عنقه إلى صدره، قال ساخطاً: سألتك عن العمران فلم أجد إلا هذه المقابر العجيبة!

قال الراهب، إنني أرى دائماً من يسعى إلى هناك ولا يرجع، لكنني لم أشهد قط مجيء أحد من هناك إلى هنا.

عن «الطرق الهائمة».

مَدرج

لا يمكنه تحديد بداية ذلك، جرى التوجه إليه من حيث لا يدري ولا يمكنه الإلمام، سريان خفي لا يبين، بالتأكيد اكتمل حلوله شهر رمضان، مائدة الإفطار عامرة بكل ما يرغب، غير أن حائلاً بدا، قالت صنوه: تتظاهر أنك تأكل، ألم يعجبك؟ تنطق بإيقاع يتشابه مع انطواء إحداهن وتلملمها على نفسها بعد إخفاقه ولوجها بعد طول سعي إليها. واضح أنني لم أعجبك، تهوّن عليه، نبرها فيه لوم وإقصاء ونأي، من أصعب ما سمع، غير أن الصدود عن الطعام جبره، قصد الطبيب، بدا وجهه حائراً، طلب تحاليل، أجراها، كتب أدوية، تعاطاها، غير أنه لم يزد إلا بعداً، مضغ يطول وبلع يصعب، فقدان وزن ونحول باد، غور عينين، لم يفقد القدرة على المشي رغم ثاقل أطرافه وانتشار ما يشبه الشوك المبتوث عبر مفاصله.

لديه ما يشغله رغم تقاعده، يقرأ، يصغي إلى الموسيقى، يكتب رسائل إلى أصحاب قدامى لا يثق من إقامتهم في محالهم، يتلقى أحياناً ردوداً، غير أن ما ينتظره ميعاد، لم يفرضها عليه أحد، حددهما، اعتادهما، الأول مع صاحبه الذي ألزمه المرض الإقامة في البر الغربي، حيث نقاء وجفاف الهواء والناس الطيبون، منذ سنوات يتحدثان في أمور، لا يعنيهما عند التطرق إلى السياسة إمكانية التنصت عليهما، تجاوزا ذلك، الآخر بعد الظهر صاحب تبقى من صحبة، يلتقيان نادراً، تجمعهما مناسبات عامة نادرة.

لا يمكنه تعيين بداية وهن توقه، فتور إقباله، عاتبه الأول متسائلًا: انت فين يا عم؟ يتمتم بأعذار واهية، الآخر لا يطلبه إلا قليلًا جدًا حتى إنه ليذكر المرات وما دار فيها، شيئًا فشيئًا لم يتجه إلى الاتصال، بل إنه عندما رأى اسم الأول على شاشة هاتفه لم تواته رغبة من أي طيف للرد، اعتاد صمت الهاتف، المشي داخل البيت، يقل عدد الكلمات المتبادلة بينه وبين رفيقة دربه، كلمات التعامل اليومي، يستعيد مذاقات طيبة لم يعد قادرًا على تلمسها حتى لو وُجدت، يطول صمته، يقول لذاته ما لا ينطقه، يدرك أن الوعي بالوفادة مستحيل، ربما يجري بلغة لا يعرفها، بصور وأحاسيس غير مألوقة، أما الانغماس في الغياب فيمكن رصده بل تدوينه، مستحيل إيقافه أو حتى إبطاله..

هدم

أرسل الشيخ يطلبني فلبيت رغم حلول وعكة ليس مصدرها بدني، كنت أمر بتقلب حال وأشواق تترى وغيوث تتوالى، لقيت عنده قومًا وفدوا عليه من بعيد، لسانهم غريب عني غير أنه يجادلهم، عندما قام الشيخ إليّ صمتوا، أقبل عليّ ومعه قدوم لا أدري من أين تناوله، بدأ يهدم فيّ وأنا أشهد أبعاضي كيف تتفرق على الأرض نثارًا كما يهدم الهادم، إلى أن وصل إلى كعبي ولم يبق فيّ شيء إلا شمله الهدم وأنا أرى حطامي وهددي بنظر لم أدر مصدره، ثم بدأ بينيني من كعبي وطالع إلى عقد دماغي، إلى أن اكتملت فأطرق وعندئذ قام ضيوفه مرة واحدة، أقبلوا عليّ، أحاطوا بي، ملسوا عليّ، قال الشيخ: قد جئت، سافر إلى بلدك فسافرت، وحين خرجت عنه انكشف لي العالم العلوي كشفًا لا ينحجب عني منه شيء، وكنت أمشي على الأرض مستجدًا، خفيفًا كالرغوة التي تجريها النسائم المتوالية فوق وجه الماء.

«عن رسالة صفى الدين بن أبي منصور بتصرف».

انتقال

لا يمكنه تحديد كافة ما يتصل به أو يتعلق.

متى بالضبط يعي وجوده وإبهامه؟

لا يدري، لا يمكنه القطع

أقدم حديث عنه صدر عن والده، كان صغيراً، ربما لم يتم الخامسة يرى قامته لا تطول المنضدة الصغيرة، فوقها صينية القلل، يتمدد أبوه فوق السرير المرتفع، يقول إنه يظل خفياً لا يبين، تبدو أعراضه فقط، لكن عند اللحظة الحاسمة، الخفية، التي لا يمكن التنبؤ بها يظهر، فقط للمعني، للمقصود، لو اطلع غيره عليه لما تحمل هيئته، لخر صعقاً، أما من بلغ التهام فلا يبدو عليه ما ينبئ عن زعجة أو رجفة، بل يسود سكون مسالم كافة ملامحه وأحياناً ربما يبدر رضا مقرون بابتسام، في مرحلة متقدمة رأى رسوماً كاريكاتيرية، مرحلة صدق فيها كافة ما رآه من تصاوير ومنحوتات، دأب أولئك على تصويره هيكلاً مجرداً يمسك بيده منجلًا، لكنه لم يعبأ ولم يتوقف عنده، يبدو الرسم هزلياً بالقياس إلى المعنى الذي يثيره استحضاره أو تخيله.

لا يدري بالضبط، بدأ الحومان حوله، التفكير فيه، يقول دائماً إن المرحلة من الطفولة إلى الثلاثين يتطلع المرء إلى القادم مستوثقاً بلوغه، بعد الثلاثين، ربما الأربعين بدأ يتلفت وكلما أمعن قوي حضوره عليه، الغريب أنه ما قبل الثلاثين

قابله كثيرًا أثناء خدمته العسكرية في الجبهة، دنا منه حتى كاد يتجسد به، لكن هذا كله دار حوله، خارجه ما يعنيه ذلك الانشغال به، لا يمكنه تعيين وقت محدد، يستعيد تلك الأيام عندما كان يستيقظ من هجيعة ظنًا منه أنه مدركه، غير أن غياب والده وبعد قليل أمه مثل علامة فارقة، العدد الذي ظنه باقياً بدأ يتناقص واتضح الأمر بذهاب شقيقه الأصغر، ثم بدأ وهنه ومروره بأطوار وأحوال اقتضاها الأمر، في أحدها مضى ساعياً إليه، عبر أراضي وبحارًا ومحيطًا، وانتقل من فضاء إلى آخر، وقع بخطه، باختياره، وعندما دفعوا به إليه صوب أقرب نقطة يشارفه خلالها تعجب، إذ بدا هادئًا، راضيًا، جرى ذلك مرّات، في كل منها يوغل في استكائته حتى حلت به دهشة وتساءل بصوت مرتفع لحظات اختلائه بذاته: أين الخشية القديمة؟ أين الرهبة من ملاقاته؟ عند هذا الحد جرت سكونية مستجدة، بل إنه راح يرتب أحواله تمامًا مثل المسافر يصفى ما لا ضرورة له ويوزع ما فاض عنه ويبقي حقيقته في المتناول، ليس الأمر إلا انتقالًا بصحبته، من هنا.. إلى هناك.

لحظة

بعد انشغال طويل أفضى الخليفة إلى الوزير الأول بما يرغب تحقيقه، حيرته التبدل والتغير طويلاً، ليس هذا كله إلا نتاج تعاقب الوقت وما يصاحبه من أعراض شتى يضيق المجال عن حصرها، توصل بفكرة أقضته، شغلته عن تدبير الأحوال وعن أهله، لو جرى تدبير عمل يوقف توالي الوقت، تعاقب الليل والنهار، سيدوم الحال أبداً، لن تتبدل الأحوال، لن تقع الأعراض التي حيرته، أقضته، استدعى وزيره المطلع على الأحوال، المتصل بأهل العلم والاطلاع، صارحه بما يرغبه، ما يصبو إليه، له أن يطلب ما يشاء لتحقيق ذلك، لم يبد الوزير استجابة مباشرة، طلب مهلة ثلاثة أيام يعود بعدها بخبر يقين، في نفس توقيت اللقاء عاد ليقول إن المطلوب ممكن، لا شيء يستعصي على ما يرغبه خليفة المسلمين، فقط... يحتاج إلى وقت، تساءل صاحب السدة عن المدة، أجاب الوزير إنه لا يقدر على التحديد، غير أن الأمر ربما يقتضي بضعة أسابيع، وربما عدة سنوات، أطرق لحظات، عاد لينظر إلى عيني الوزير مباشرة مبدئياً الموافقة، مرت أيام تحولت إلى شهور إلى سنوات معدودات، لم يكف خلاها عن الاستفسار والوزير يجيب بصيغ متقاربة مؤداها أن الحين اقترب، عند حلول يوم بعينه شك الخليفة ثقلاً في الدماغ، ورغبة في النوم، كان ما يجشاه العجز، غير أن ما حيرته استكانته وقبوله الوضع واستسلامه إلى قيادة الوسن الغامض الذي لم يعرفه من قبل، كان يتطلع إلى الأطباء المحيطين به، والمسموح لهم بالاطمئنان عليه، يلمح الوزير بينهم فيثقله الوهن عن الاستمرار وعندما مال عليه ليخبره أن اللحظة التي ودَّها حانت، تتحقق، لم يسمعه، كان نائياً، ممعناً في الطي...

فَراش

في يوم ما عقدت الفراشات اجتماعًا واسعًا لأنها كانت منزوعة من لغز اللهب، كل فراشة مدعوة لإبداء الرأي في هذه المشكلة المصيرية، قالت الفراشة الأكبر سنًا الحكيمة التي تترأس الاجتماع: إن هذا إشكال قديم، قديم، لا نتوقع جديدًا، سبق هذا مناقشات شتى لم تسفر عن نتيجة، لم يتم التوصل بعدها إلى حل، أفضل ما يمكن عمله الذهاب لرؤية ما يجري عن قرب، لعل الوصول إلى سر اللهب يكون ممكنًا.

طار أول فراشة متطوعة إلى قصر مجاور ورأت لهب شمعة خلف نافذة وعادت مستثارة جدًا لتحكي ما شاهدت، قالت الحكيمة: ليس في ذلك جديد. اجتازت الفراشة الثانية النافذة ولمست اللهب، واحترق طرفا جناحيها، عادت لتقص ما عاينت، قالت الحكيمة إنها لم تطلعهم على مغاير.. الفراشة الثالثة اتجهت إلى القصر، إلى اللهب، ذابت فيه، لم يعد لها أثر. الحكيمة التي تتابع ما يجري عن بعد قالت: إن الفراشة الوحيدة الفانية تعرف سر اللهب.

«عن لحظ الألاحظ»

طريق

ما بين صنعاء عاصمة اليمن ومدينة تعز القريبة من البحر تمتد جبال شاهقة وعرة، بالغة الارتفاع حتى إن النسور الجارحة القوية لا تستطيع بلوغها، ومن قدر له بلوغها يمكنه رؤية الطيور تحلق بعيداً، هناك بأسفل، مشهد فريد ربما يكون الوحيد في العالم، استمر الحال كذلك حتى خمسينيات القرن العشرين عندما قرر الإمام مد طريق يصل المدينتين العريقتين واضعاً في الاعتبار كافة ما يترتب على ذلك من نتائج مختلفة سياسياً واقتصادياً، داخلية وخارجية، أشار عليه مصري مقرب باستدعاء مهندس من الصين قرأ عن قدرته في رصف الطرق عبر المرتفعات والسهوب، لا يعرف أحد كيف استدل عليه، ربما قرأ عنه وربما أخبره صاحب خبير، كان المصري المقرب موفداً من الحكومة ليعمل مستشاراً قانونياً، غير أنه أحب الديار وأهلها فأوصى أن يدفن بها وبقي قرب الإمام الذي لم يثق إلا بقلته، عندما جاء المهندس ولقيه في قصر الحجر، طلب الإمام ألا ينجز المهندس أي طريق مشابه في أي مكان من المعمورة، كان المهندس قد أخذ الفرصة في المعاينة، أيقن أنه سوف ينجز عملاً غير مسبوق، سيقى ذكره تماماً مثل سور الصين، وافق على ما طلبه الإمام على أن يُلبى ما يطلبه، وافق للرجل على ألا يتخطى الحدود الموضوعة، انحنى المهندس حتى كادت جبهته تلامس الأرض دافعاً راحتي يديه إلى محاذاة صدره، لم يضع وقتاً، بدأ على الفور، اعتاد القوم رؤيته في سترته الزرقاء

البسيطة وصندله أسود اللون، طوال أربع سنوات استغرقها العمل ليلاً ونهاراً، كان ينام في خيمة على حدود مضارب القبائل، أو بين العمال الذين دربهم وصقل قدراتهم، أو بجوار مُعدة، لم يأكل إلا المتاح، لم يطلب ما يخصه قط حتى صار مريضاً للأمثال ومحوراً لحكايات متداولة بين أبناء القبائل وشيوخها، أحياناً يخرج الإمام لتفقد العمل فلا يرى إلا ضجيجاً ناتجاً عن معدات متداخلة، وغباراً متصاعداً وتكوينات متشابكة، مرات أعرب عن قلقه وشكه في التهام، أسرّ بما يقضه إلى المصري المقرب، غير أن هذا طمأنه ورجاه أن يرجع غضبه وضيقة، في نهاية السنة الرابعة، بالتحديد منتصف اليوم الأخير منها وفد المهندس على قصر الحجر، بعد انحناء لم يدها إلا في حضرة الإمام، وجه الدعوة لافتتاح الطريق، ليكون أول من يمر به، بُهر حضرته بما رأى، قطع المسافة بين المدينتين العريقتين في ثلاث ساعات، بعضها تحت الغمام وأخرى فوقها، رأى الطيور بأسفل وأوشك من بصحبته على إبداء الخشية عند المنحدرات والمنحنيات لحظة دخول الأنفاق المحسوبة، عندما وصل إلى تعز، كان يعمل فكره فيما أفضى به إليه شيخ من شيوخ القبائل رافقه جزءاً من الرحلة، قال له همساً إن الطريق مصدر فتنة ويقصر المسافة على أي متآمر يقصد العصيان، إنه مصدر للشرور خاصة أنه سيسهم في تغيير الأحوال، لقي ذلك منه هوى واقتناعاً، عندما وصل إلى تعز، قبل دخوله القصر أمر بالمهندس فحضر، قال كلمة واحدة: «لله..»

لم ينطق واحد من الحضور حتى المقرب المصري الذي اتجه إلى المهندس لشرح له الأمر، لم ينحن المهندس، لم تتغير ملامح وجهه، أطارق مؤمناً، في الليل بدأ سلوك الطريق منفرداً سائراً على قدميه قاصداً أعلى قمة الجبل المشرف على تعز، يقول البعض إنه ألقى نفسه إلى هوة سحيقة تبدو قبل أن يبلغ منتهاها، يقول آخرون إنه

اختفى في مغارة لا يعرف أحد مداها، ويؤكد البعض أنه عاد إلى الصين بطريقة ما، المؤكد أنه اختفى تمامًا، ولم يستطع أحد طي الطريق كما طلب الإمام، لأن ذلك كان خارج مقدرة أي إنسان، هدمه أصعب من بنائه، المؤكد أن المهندس كان على دراية بما يمكن أن يتم لتلبية ما طلبه الإمام، غير أنه غاب وبقي الطريق إلى الآن..

عَصَى

يحكى أن ملاك الموت بلغ حدًا أدركه عنده ما لم يتحسبه وما لم يتوقعه، فمنذ سعي المخلوقات وظهور الأشياء بعد إدراك أسماؤها لم يكف عن السعي، يعمل باستمرار، لا معنى للوقت عنده، يتواجد في كافة الأكوان، يتوزع على عدة مواضع في لحظة واحدة مليًا الأمر، لكثرة ما قبض أرواحًا لا يذكر الأعداد ويضل عن الحالات، أحيانًا يحاول التذكر لكنه يعجز، حاضر دائمًا، غير ذي صلة بما فات أو تخيل الآتي، هذا ما جُبل عليه، ليس بوسعه إلا أن يُلبى، يعرف أن مرويات عديدة تتناقل عنه، شفاهة وتدوينًا، خاصة حول ظهوره لمن حان أجله فقط، يكون بين أهله أو صحبه، إذ يصير على مقربة، يزول الخفاء فيظهر إذا أذنت المشيئة، يسعى هنا وهناك، يتخذ صورًا شتى لا صلة لها ببعضها، لا قوام له، لا حضور يُلمس أو يُحدد، لا يمضي كما يرغب إنما يتبدل، يتغير، يختفي أو يظهر كما يؤمر، لهذا أدركه ذلك الحال الغامض الذي لم يعرفه قط، جديد عليه، خشي منه غير أنه لم يقدر على منع نفسه من الخشية إذا جاز القول، فما بدا يحل عنده، غامض، مستعصٍ على معارفه رغم طول بقائه واستمرار سعيه منطويًا على ماضٍ لا يمكنه الاطلاع عليه، أو التطلع إلى ما سيمضي إليه، فمن خصائصه ألا يعرف إلا تلبية ما يصدر إليه بدون تهديد أو إخطار مسبق، لذلك لم يعرف كم استغرق هذا الأمر حتى يتمكن منه ويسري إليه، في البداية التي لا يعرف كنهها تباطأ في التلبية، صار لا يمضي مباشرة إلى المأمور بقبض أرواحهم وإنهاء سعيهم، سواء كانوا من الإنس

أو المخلوقات الساعية، الظاهر منها وما خفي، عرف ما لم يدركه قط، التباطؤ، التساؤل خاصة عندما يرد عليه الأمر بقبض طفل غض أو أنثى في مكتمل بهائها، أو نحلة على وشك إفراز عسلها أو زهرة تقارب لحبضة تفتحها، عرف التساؤل طريقه إليه، لماذا؟ كيف؟

لم يتوقف الأمر عند ذلك بل تهادى حاله وصار إلى أحوال لم ترد عليه قط، لم يبلغ أقصاها إلا عبر تمهيد إلى تمهيد وخطوة غير معهودة إلى أخرى، انتهى أمره إلى الكف، صار يتطلع إلى ما يتصور أنها الجهة التي يؤمر منها وخلالها، إنه ممتثل لكنه ضاق بما قام به آمادًا لا يُلم بها، يكفي ما قبضه من أرواح موجودات، لا يدري كم دام ذلك، ولا ما ترتب على توقفه وما تبعه من جزع عند سائر الموجودات، طوال مراحل المعاناة، تكاثر الوافدين لكف الرحيل وتوقفه، ثمة إشارات في النصوص العتيقة إلى هذه الأحوال التي يصعب تقدير مدة استمرارها، يبدو أن ذلك جرى قبل ظهور الكتابة والرغبة في محوها من أي استعادة محتملة، غير أن استفسارًا ورد في ألواح عُثر عليها في المتون الحبشية تلمح إلى تولي مهام قبض الأرواح من قبل ملاك آخر لا يعرف إلا الامتثال، محصن ضد كافة ما يخالف حاله.

سؤال الأصوات

جرى ذلك قبل حوالي عشرين عامًا، نزلت مدينة ميونيخ مدعوًا إلى لقاء في الأكاديمية البافارية، ثلاثة من علماء الفيزياء في جانب، وأنا في طرف، طرحت عليهم أفكارًا وتساؤلات، وجهوا إليَّ استفسارات، هكذا جرت بيني وبينهم مذاكرة لعلها من أهم ما خضت فيه أجريته من مواجهات، خاصة حول الزمن، هذا أمر يقضُّني، يشغلني، بل يبلغ الأمر عندي ما هو أكثر من ذلك، ما زلت أرى القاعة الفسيحة المهيبة واحتشاد القوم فيها حتى أنني لمحت البعض وقوفًا قرب الأبواب وفيما يلي الصفوف الأخيرة، بينهم عالم مصري تربطني به مودة، يقيم في جبال الألب القريبة، متخصص في علوم الكون، ما جرى كثير، متعدد أورد منه أمرًا ألح عليَّ وتصورت أن الإجابة ربما تجيء من أهل الاختصاص. يتعلق الأمر بالأصوات، أليس الصوت محصلة موجات؟ أي أنه ينتمي إلى المادة بشكل ما، إذا افترضنا أو اتفقنا أو تأكدنا أنه مادة، ألا يقول قانون الطبيعة إن المادة لا تفنى ولا تستحدث؟ هل يمكن أن تستقر في موضع ما، مكان ما، يمكن أن نتوصل إليه يومًا فنصغي إلى ما قلناه، إلى ما تلفظ به الأحباب، ما قيل من القدمين، ما لفظ من لغات اندثرت، ما توالى من هزيم رعود وتساقط مطر وحفيف شجر؟ هل نصل إلى يوم يتحقق فيه ذلك؟

انتبهت إلى صمت الثلاثة، إلى وجوم حلَّ بهم فجأة، ظللت أطرح ما تبقى عندي وهم لا يجيبون ولا يتذكرون وحتى الآن لا أعرف سببًا لذلك!

خزانة

أنشأ ابن الملقن خزانة كتب ضخمة، جمع فيها عيون الكتب التي كانت معروفة في القرن الثامن الهجري، الخامس عشر الميلادي، يقول مؤرخ الفترة السخاوي في كتابه «الضوء اللامع» إنه كان عنده من الكتب ما لا يدخل تحت حصر، منها ما هو ملكه، ومنها ما هو أوقاف المدارس، يقول المقرئ المعاصر له: وقد أعانه على تكوين هذه الخزانة الضخمة، كثرة المال، ورخاء الأسعار، وقلة العيال، ذلك أن زوج أمه «عيسى المغربي» قد أحسن استثمار ماله، فأنشأ رُبْعًا، تكلف ستين ألف درهم فكان ابن الملقن يكتفي بأجرته وتوفر له بقية ماله وغيرها.

غير أن هذه الخزانة التي ذاع أمرها أصيبت بحريق أتى على معظم ذخائرها فحزن ابن الملقن عليها أشد الحزن، حتى كان يعزيه فيها أهله، كان ذلك أواخر عمره -ربما في مطلع القرن التاسع- فأصيب بالذهول بعد احتراقها، وتغير حاله، فحجبه ابنه ولم يلبث إلا قليلاً حتى مات، وكان قبل احتراق كتبه سليماً، ناصع الإدراك..

عن «لحظ الألاحظ»





حكايات اليمام

يَمام السطّح

جُبلت على حب اليمام خاصة والحمام والعصافير وسائر الطيور حتى الجوارح منها، مثل الحداة والعُقاب، والنسور والصقور حتى البوم الناعق، هذا كله أمة من الأمم، لها تدابيرها، وتصاريقها وغوامضها المستعصية، كثيرًا ما فكرت وتحيرت، لماذا الطيور؟ لم أجد عندي سببًا إلا تفتح وعيي فوق سطّح بيت كان يعتبر مرتفعًا بمقاييس الوقت، منذ نهاية الأربعينيات حتى مفارقتنا له في عام ستة وخمسين إلى مسكن أفسح لكنه مؤطر في الطابق الثاني من عمارة أحدث عند مدخل الدرب الأصفر، في مواجهة خانقاه بيبرس الجاشنكير، فلألزم درب الطبلاوي حتى لا أضل السبيل، إليه تنتمي أول صورة باقية في ذهني، أشير إلى دماغي قائلاً بصحبة ابتسامة: أول صورة في الفيلم، سماء حالكة ونجوم غزيرة، دانية، وأشعة مستطيلة تميل يمينًا ويسارًا بحثًا عن طائرات معادية. وصفت ذلك في كتاب التجليات، البيت من خمسة طوابق، شقة واحدة لكل منها، عدا الأخيرة، غرفة فسيحة، دورة مياه، أمامها سطّح فسيح، لا يشاركنا فيه أحد، حال أبي دون طلوع أي منهم لبناء عشة دواجن، أو نشر غسيل أو ما شابه، سمح فقط لساكن الطابق الأول أحمد عمرو، إليه تمكّ ثناء وثرى، الأولى ابنته والثانية ربما كانت ابنة شقيقه وإليها توجه ما عندي في صمت حشم، أكبر مني، رصينة لها أهبة وجلاء طُلعة، أما ثناء فلم أعرف مثل خُضرة عينيها حتى الآن، لي معها موقف سأكحيه إذا سمحت الظروف، أذن أبي للحاج أحمد، ربما لأنه صعيدي من طهطا التي كانت تتبعها

جهينة قريتنا ومسقط رأسي، في عام ثمانية وخمسين استقلت، أصبحت مركزاً له قسم شرطة وليس نقطة وتحولت فيما بعد إلى مدينة بعد إنشاء الحكم المحلي، أذن له بنصب عمودين من خشب يصلهما سلك مزدوج يمضي إلى المنور متديلاً إلى تحت، هوائي لزوم المذياع، ما زلت أذكر واجهته المضاء بمصباح صغير، وأسماء المحطات، كنت في الثالثة عندما أصغيت إلى الأخنف، مذيع راديو لندن في ليالي الغارات واضطرارنا إلى النزول للاحتماء، كنت أظن المذيع يجلس القرفصاء داخل الصندوق البني اللون، البيت كان فيه اثنان، الآخر عند روحية التي تسكن تحتنا، من السطح رحلت بنظري إلى الأهرام والقلعة جنوباً ومآذن مختلف مشهدها، ومظلات تُقذف من طائرات منخفضة قرب العباسية وشيخ في طول إصبعي يرفع أذان الظهر خلال طوافه بالشرفة الدائرية للمثدنة، لهب النار من عمق المدينة، السادس والعشرون من يناير، غير أن ما يعينني منزلة الطيور التي بدأت من هنا، لم يكن لنا صلات، تقضي أمي حاجة البيت، إذ تفرغ تقعد أمام الغرفة، على حجرها إسماعيل تهدده، بعده محمد الذي غاب قبل أن يكمل العامين وأجهل مرقده الآن مع شقيقيّ اللذين سبقاه، مع أن أبي كان يقول صباح العيد، أنا رايح أزور الأولاد. غير أنه لم يصحب أحداً معه قط، فيما بعد علمت - لا أدري كيف - أن لأهالي جهينة المغترين مرقداً جماعياً مفاتيحه مع الحاج عثمان الصاوي تاجر الخيش ناحية الخرنفش، وكان هادئاً، عميق الصمت، عنده صلاح، وعندما أوفى أبي المدة وبلغ التمام أراد أن يواريه الثرى بجوار الولدين السابقين لي، خلف وكمال، ومحمد اللاحق، غير أن أقاربه أصروا حتى كادت تقع وحشة، إلا أن شقيقيّ إسماعيل حسم الأمر عندما فضل رقدته بجوار أقاربه من بيت آل إسماعيل وهم أخوال أمي، هكذا بدأ تفرقنا، ولكن هذه حكاية أخرى، مالي أشرق وأغرب كأني أخشى مقاربة «حمامي» الذي تعلقت بمرآه ومتابعته وقراءة كافة ما كتب عنه أو قيل شعراً ونشراً، لم أهو امتلاكه فذلك فيه تقييد ومن يعشق الحمام ويهواه حقاً لا يجسه إنما

يتبعه ولو بالنظر، بدأ ذلك من السطح، لم ألعب مع أطفال ولم أختلط بهم في الحارة أو فوق سلا لم البيت، كثيرًا ما ردد أبي: الاختصار عبادة. ربما خشي الاختلاط لعسر الأحوال، وربما حذرًا من ناس مصر، صاحبت اليمام والطيور وراقبت الحدأة إذ تحوم في حركة دائرية لتتنقض إلى نقطة ما فوق الأسطح المجاورة ترتفع بكتكوت أو فأر صغير أو شيء أجهله، تخليق أكثر من واحدة على ارتفاع شاهق ينذر بوجود صيد ما مستهدف، أما اليمام البني اللون المشوب بزرقة فيجيء فرادى، يخطو فوق السور، مرة واحدة فقط حاولت الإمساك به غير أن أمي نهرتني وحذرتني، حرام إيذاء هذه الكائنات الجميلة، لو فزع أحدها فلن يأتي منها أحد، أترجع متمهلاً، أتطلع إلى اليمام، الحمام، العصافير، أقرب منها هادئًا، لا أنوي مدّ اليد أو اللمس، لا أصدر صوتًا مزعجًا، شيئًا فشيئًا صرت كأني فرخ يمام، اليمام بالتحديد أنس إليّ، تبادلنا المحنة والرققة، أقف إلى جوار السور، أشب على أطراف أصابعي، يميل برأسه، بصة جانبية مصحوبة بميل الرقبة المطوقة بلون وسط بين الأزرق والأسود، ثمة شيء سري، ليس تجاه طير واحد، إنما الجنس كله كأنه يُبلغ بعضه بعضًا، لم أكن في البداية متأكدًا أو مستوثقًا، هل تلك اليمامة هي التي اقتربت منها أول أمس أو أول أول؟ عندما رأيت ثلاثًا متقاربة ولم تنفر إحداهن ترسخ عندي أن اليمام كله آمن جانبي، أنس لي، عندما قدمت أمي لي غطاء علبة غسل به غلّة، قالت إنه يمكنني الآن الاقتراب وإطعامه مباشرة، لن يفزع ولن يهجرني أبدًا، عندما نزلت بُخارى، قصدنا المسجد الكبير، غمرني الاهتمام بالخزاف الزرقاء والكتابة البيضاء وتناثر الأحمر الطوي، لاحظت يمامًا مشابها لما أعرفه في مصر، اللون، الطوق، الخطو، تقدم أربعة من جنسيات مختلفة، منهم الهندي واللاوسي والإفريقي والتركي، فزع اليمام، طار محلّقًا كله، مضيت منفردًا إلى الجانب الأيسر متابعًا طيرانه، بدأ يحوم قربي، دار حولي كأنه يتعرف عليّ، وعندما حطت الأولى على كتفي صاح الهندي متعجبًا وبادر إليّ، غير أنني مددت كفي محذرًا، هذا حالي

عندما طاف بي، ثم استقرت واحدة فوق رأسي وراحت تلمس على شعري فصرت إلى حنين وسكون حال لم أعرف له مثيلاً إلا فوق السطح، تعجب رفاق الرحلة من ذلك وعندما شرعت بنية مزدهرة في التقاط صورة لي مع اليهام رجوتها بالابتسام ألا تقدم فامتثلت وكان ذلك بداية تماس بيننا حتى صرنا إلى وجد مبین حتى أنها كانت تتلمسني وتزقني بيدها ما تيسر فأستعيد تبادلي النظر مع يهام السطح ومسراه حتى لأسمع هديره من نبرها، وأرقب نظرتة الجانبية من عينيها وأوشك على الرفرفة حين تخطو..

بعامتہ مفردہ

هكذا صار أمري إلى اليام وكل ما يمت إلى جنس الطيور التي حطت أو حلقت على مرأى مني فوق السطح أول ما عرفت ذاكرتي من أماكن، ورغم تشابه اليام والحمام والعصافير رمادية التنوع، فإنني أتعلق ببعضها، أذكرها بملاحمها، ليس صحيحًا أن الجنس يقع بينه تشابه حميم، في البداية ظننت أن أهل الصين يشبهون بعضهم بعضًا، غير أنني أدركت عدم دقة ذلك عندما دنوت وتأملت واستوعبت، كذا الطيور، كنت أجري فوق السطح، أداعب الطيور، أرقبها، أطعمها الحبوب أو أيسر لها الماء. كانت أُمِّي تحسب نصيبها، تضع القمح أو الذرة، بعضًا من جير أو رمل فوق السور العريض، هكذا كانت ترصه بنفسها، قالت إن جارة لها في حارة «خوش قدم» أو وضحت حب الحمام والييام لها، أما الحبوب فكانت تناوُلها لي في أوعية مسطحة تسهل التقاطها، وكنت بعد قيام العهد غير المنظور أقف على مقربة، أرقب الحركة السريعة وانقضااض المناقير الخاطف عليها، ومع الوقت رحلت أمد كفي اليمنى وفوقها الحبوب، ربما أبدى البعض ملاحظة خلطي اليام بالحمام، الحق أنني لا أفرق كثيرًا بينهما، رغم وضوح الخصائص لكل منهما، اليام بني غامق، حجمه أرهف، الحمام متعدد ألوانه، يطير في أسراب، لا يجيء مفردًا إلا في حالات محدودة، أما اليام فيقبل مفردًا، لكن داخلني يقين في زمن متقدم أن ثمة صلة بين ما يجيء بمفرده وسائر جنسه، ترسخ ذلك عندي مع التقدم في العمر وارتقاء السنين، ربما لتعدد ما قرأته ولتنوع معارفي الحديثة، أي تلك التي لا تستند

إلى مرجعية محددة، ومصادر بعينها، كانت أُمِّي نبعًا من الحنين، إذ تفرغ من شئون اليوم، تجلس أمام الباب، إلى يمينه، تنتظر أبي، عودته من الشغل، وتطلع إلى ما أجهله، ما لم أدركه في حينه، إلى أمها في جهينة، إلى طفولتها وصباها، إذ يصل إليها نغم «على بلد المحبوب وديني..» لأُم كلثوم، تصمت تمامًا، ينحني رأسها وتحوش دمعها الذي أفلت أكثر من مرة وألزمي الرهبة، كانت تتابع الطيور من قعدتها وتوالييني برعايتها، تخشى وقوفي على خشبة عرضية عند زاوية السطح، عندئذ أصير أطول من حد السطح وهذا خطر تتحاشاه، أحيانًا تتابع الحدأة المحلقة، لم يكن لدينا كتاكيت نخشى عليها، غير أنها ربما تتقي سلوكًا سمعت عنه، أو أنبأها أحدهم به، تطير الحدأة على ارتفاعات شاهقة، وأحيانًا تبدو ثابتة في الأعلى، غير أنها تنقض فجأة، عندما أقرب من اليام لا يصدر عنها تحذير أو تقطيب وجه، بل كثيرًا ما لمحت دلائل رضا وتنسم مودة ما، بعد أن جاءها خبر جدتي من أبي الذي لم يكن يجيد إخفاء أمر ما، طالت مواقيت صمتها، ولاحت غضونها، ودام تطلعها إلى فرادى اليام كأنها تنتظر رسالة ما أو أمرًا تضيق مفاهيمي عن استيعابه وقتئذ، إلى أن حلت لحظة تقع ما بين العصر والمغرب، أقف تحت خشبة الهوائي الغربية، أرض أحجارًا صغيرة متساوية الأحجام، سرى صمت حتى إن الأصوات المنبعثة من بعيد راحت، فوجئت ببيامة ريشها بني فاتح، طوقها أبيض، تمشي متقدمة تجاه أُمِّي التي شخصت إليها حتى بدا كأنها شغلت عن أختي المتمددة على حجرها، كلما اقتربت تتمهل حتى توقفت أمامها، تطلع إلى أُمِّي بالمواجهة، أدركني ما جمدني مكاني، لم أتحرك ولم أصدر صوتًا، شيء ما لم أدرك كنهه قيدي، ثبتني داخل دائرة غير مرئية، تطلع إلى البيامة منفرجة الشفتين، دهشة، مفاجأة، هكذا بدا لي الحال عندما استعدته طوال الحقب التالية، في قُربي وُبُعدي، في حليّ وترحالي، في إطلاقي وتقييدي، بعد أن تبادلا النظر سمعتها تقول بتحنان لم أعرفه منها، هي الرقاقة الشفوقة حتى على الغمام العابر..

«إزيك يا أميرة الكل .. عاملة إيه ..

لليسام صوت لا أقدر على مقارنته، غموق، نابع من هَوّ، لم أعرف صوتًا من الموجودات يقربني من حافة الوقت مثله، يُقلب عليّ كل خبيء ويدفعني صوب كل منعرج شفيف، من أسماه هديلاً؟ لا.. لم أطالع بصفة تقربني منه، تدلني عليه، تقول أُمي ما بين فرح غامض وحزن شفيف:

«يا ترى عاملة إيه هناك؟.. يا ريتك تكوني مرتاحة.. راضية عني..

يتلاحق الصوت، يعود الصمت، تحملق أُمي إلى النقطة التي وقفت عندها لا تتجاوزها، في اليوم التالي قعدت في نفس اللحظة، عين المكان، راحت إلى حيث لا أدري، لم يظهر أثر لا ليامة الأمس أو غيرها، لا أدري كم انقضى على ذلك، غير أن ما أوقن به بدايتي، كنت ابن ثلاثة أو أربعة، أخاطب الحمام، وأتأخى مع الجدران وأصغي إلى هسيس متبادل بين عروق الخشب التي تسند السقف، بعد أن صار كل ما مررت به نتفًا وناثرًا في الذاكرة، بعد أن لحقت أُمي بجدي، بعد انقضاء ستة أو سبعة شهور، خرجت إلى شرفة بيتي المطلّة على واحد من أقدم بيوت حلوان، البيت لا يشغل مساحة كبيرة لكن ما عُرف به الحديقة، أنواع الصبار التي زرعها أبو جبل صاحبه من كافة أنحاء العالم، بعضها من المكسيك، الآخر من مرتفعات منغوليا أو صحراء كالجارى، كذلك الشجر، سمعت عن أجانب منهم يابانيون جاءوا وعرضوا تلبية ما ينطق به، غير أنه أبى ومن بعده أولاده الذين لا أعرف عنهم شيئًا، تقول زوجتي المولودة في الضاحية إنه كان رجلًا بشوشًا، ذا إقبال، يقعد عند مدخل بيته وبجواره سلة من الفل الأبيض، يوزعها على المارة، من يعرفه ولا يعرفه، بعد رحيله أغلق الأبناء البيت، رفضوا العروض كافة، لكن ما لم يقدموا عليه قام به الأحفاد، ولكن هذا موضوع آخر، كلما خرجت إلى الشرفة لحقني محمد ابني وهو طويل التأمل، تشغله أمور، منها الحروب التي حدثته عنها وأشهدتها، يحترم صمتي، وأورثني ذنبًا لم أنته منه بعد، لانشغالي وجربي على المعاش لم أتفرغ

لها، هذا ما لحقني تجاه والدتي وتجاه ابني وابنتي، فحق عليّ الاغتراب والانفراد حتى لو كنت في جُمع، جلس على مقربة مني صامتاً مثلي، راضياً بالدنو فحسب، حطت بيني وبينه، لم أدر جاءت من أين؟ أحاول التبرير والتفسير فأوهم النفس أنها قدمت من حديقة أبو جبل، لكنني لست بمستوثق.

فراشة لم أعرف لها مثيلاً، مجهولة عندي، ولم أر صورتها أو رسمها في كتاب، أو المتحف الزراعي الذي عاينت به أنواعاً وأنواعاً من فراش محط مثبت بدبابيس وهذا ما يخذلني.

خضراء

غير أن الدرجة لم أعرفها من قبل، عميقة لها طبقات لا تدرك بالحس، كأن الجناحين والجسد الرهيف قُداً من نبات غامض لا يعرف أحد أين ينمو، طافت بنا، حطت قربي، خُيِّلَ إليّ أن عينيها متوجهتان نحوي، غمرني ما يغمض عليّ، ما لم أعرفه من قبل، كأني محاط بغشاء شفيف، كدت أراني، ملاحي؛ المزيج من ابتسام كامن وحزن مقموع، سمعت ذلك من قديم، ربما من أمي نفسها، لا يجوز إبداء الحزن أو الأسى في الحضرة حتى تولي..

أستعيد السطح واليامة والحمام المحلق وكل ما يصلني، أقول بنطق خفيض..

«يا ترى عاملة إيه هناك؟»

يا ريتك تكوني مرتاحة..

يا ريتك تكوني راضية عني..

محمد يسدد البصر إليّ، ملتزم أو متهيب، لزم حال السكون مثلي حتى حلقت مبتعدة إلى اللا أين..

حمام الديمومية

حتى الآن أعد سقارة من كوامني وبواعث التوثب عندي، لم ينل منها بعد عشوائية الإحاطة كما جرى مع هضبة الجيزة التي حوصرت من قريب وبعيد، وقد كان بمكنتي رؤيتها واضحة جلية من سطح في الجمالية، ما تزال سقارة من أماكن معدودة أشارف فيها السر. منها في بر مصر أخميم، ومدخل جهينة من ناحية الغرب، وأبيدوس بما حوت، بظاهرها وخفيها، بما تسفر عنه وما تبطن، بدنيويتها وأبديتها، بما انقضى منها وما بقي، بما تبدد وما تحوي، البر الغربي أمره معروف بالنسبة لي حتى إنني لأود الإقامة فيه وتمضية ما تبقى لولا صعوبة الأحوال واضطراري إلى قضاء المعاش، كذلك المطل على جزيرة فيلة، آخر مكان ذكرت فيه إيزيس أم الدنيا وعذراء العالم، لا شيء يجددني ويعمقني ويقاربني مثل تدفق المياه عبر الجنادل، بهذه المناسبة أتمهل لأفصح عن أمر لم أبح به من قبل، ذلك أنني أحترم اثنين، الأول لم أعرف إلا اسمه وصفته وتاريخ أسلافه، أما الثاني فلم ألتق به شخصياً، لكن جرى بيني وبينه مراسلة، الأول رأيت مرقدته عند زيارتي الأولى إلى أسوان، رأيت جهة الغرب مرتفعات تتوالى بعدها مراحل الصحراء الممتدة حتى ضفة الماء الأعظم المحيط، وقد بلغت، وقفت عندها في عدة مواضع من طنجة شمالاً إلى العيون والداخلة جنوباً، مروراً بأصيلة والرباط والدار البيضاء وأغادير والصويرة وحواضر أخرى من المغرب الذي يهيمني ويعرفني على ذاتي وهذا مما يطول الحديث فيه، لو فتحت المجال فيه فلن ينقضي، في أعلى نقطة إلى جهة المغرب رأيت قبة تامة الاستدارة، قيل لي عندما سألت إنها قبة «أبو الهوا»، شيخ لم يلتق

به أحد، جاء من عمق الفضاء محاطاً بسرب حمام أبيض، بمجرد ملامسة الأرض سكنت أنفاسه، هبت رياح ألفت عليه رمالاً دثرته، أما الحمام فلزم الموضع وما يراه الزوار حتى الآن من نسل ذلك الذي جاء محلّقاً حوله، وعندما بنى بعض الأخيار زاوية صغيرة فوقها تلك القبة عُرفت بهذا الاسم، عندما جئت إلى أسوان أول مرة عام واحد وستين وتسعمائة وألف، حضرت بالصدفة ضغطة الزر بيد جمال عبد الناصر ومحمد الخامس وثالث لا أذكره، ربما يكون عبد السلام عارف العراقي، لو شئت التأكد فلن يكلفني هذا الكثير، غير أنني لا أعتمد في قص هذه الحكايات إلا على ذاكرتي وما حوت، وما كان يمكن أن تحوي إلى جانب ما يترأى لها أو ما تعاد صياغته من خلالها. ذاك حسبي وثوابي وحقيقة مآلي عند القدير الرحيم.

مؤكد أنني زرتها، أرى حالي أمامها مشرفاً على النهر المهيب، طويل الصمت والذي لم أعرف له مثيلاً ويمكنني القول إنني رأيت أهم أنهار الدنيا، النيل ليس كمثله نهر، المهم... أنني لست مستوثقاً، هل زرت (أبو الهوا) في رحلتي الأولى ضمن فريق الكشف أم مرة أخرى تالية؟ لا يمكنني القطع، غير أن المبنى المهيب البسيط الآخر لفت نظري، فوق المرتفع، جهة الغرب، غير أنه أقل انخفاضاً، قيل لي إنه مرقد الأغاخان، زعيم طائفة الإسماعيلية، إحدى اثنتين انحدرتا من الفاطميين بعد خلاف يطول شرحه قرب نهاية الدولة بعد وفاة الخليفة المستنصر الذي جرت في عهده الشدة المستنصرية التي أكل الناس فيها بعضهم بعضاً لما عَزَّ القوت واختفى الرغيف حتى بيع بوزنه ذهباً وهذا معروف، مدون، تعلق بصري بالقبة والضريح، قلت إن الأغاخان رجل عرف كيف يختار الموضع الذي يبدأ تفرقه في الوجود واللاوجود، ألتزم هنا بقول شيعي الأكبر سيدي محيي الدين الذي أتوسل به، وأنزع إلى كل فرصة تمكّني من ذكره أو ترديد قول منسوب إليه.

الآخر قلت عنه نفس المعنى، كنت أقرأ دائماً عن حرصه على تمضية الكريسماس ورأس السنة في أسوان، لفت نظري زيارته الأخيرة لها ورحيله الأبدي بعد عودته

إلى موطنه بأسبوعين لا غير، يبدو أنه أراد إغماض العينين في أسوان، لكن المرء لا يفارق حيث يريد، لا في المكان أو الزمان، عندما قصدت أسوان منذ سنوات عديدة نزلت فندق كتركت الذي شُيد على هيئة مسجد قرطبة الذي بُهرتُ بعماراته الفريدة، أثناء وقوفي في البهو منتظرًا إنهاء الإجراءات في مكتب الاستقبال، فوجئت بمدير الفندق يُقبل مبدئيًا المودة، قال إنه من جهينة، بادلته الحرارة، قال إنه سيخصني بشيء لا يقدمه إلا للمقربين، سينزلني جناح الرئيس ميتران، قال إنه قرأ عن مراسلات بيننا، قلت إن ذلك حقيقي، كنت أسكن حلوان بعد زواجي، بعد صدور روايتي الأولى «الزيني بركات» مترجمة إلى الفرنسية، وصلني بالبريد خطاب، لاحظت أن شعار الجمهورية الفرنسية مطبوع على الركن العلوي جهة اليسار، لم أتوقع أمرًا، ربما خطاب لشأن ما، في اليوم التالي قدمته إلى ماجدة التي تتقن الفرنسية، طلبت منها أن تخبرني بما يحوي، فتحته على مهل لكن ما إن طالعت بدايته:

«دا من الرئيس ميتران.. معجب بالزيني بركات..»

الخطاب مكتوب بالخط عكس العنوان الذي صيغ بحروف الآلة، حبر أزرق، توقيع، تحته الاسم، الورق يحمل شعار الجمهورية، الخطاب الأول معلق إلى الجدار المواجه في إطار من خشب، أحفظ بالخطابات الأخرى في ملف بدرج مكتبي، كلما صدر لي كتاب مترجم قرأه وكتب لي رأيًا متضمنًا النفاذ إلى الجوهر، إلى خباياي، أرد بشكر وتحية، عندما دخلت الجناح، خرجت إلى الشرفة وعندما رأيت ما رأيت صحت رغم انفرادي:

«الآن فهمت..»

أنشني إلى سقارة، فقد شردت مطولًا وحدث عن القصد، غير أنني أذكر مكانًا أوثره من الشمال، أعني الميناء الشرقي ومنحناه العجيب، أرجع ذكر جبل سربال في سيناء، وجبل جلاله في صحراء البحر الأحمر، والواحات الداخلة غربًا، لعلني أستدرك أمورًا، سقارة عندي تبدأ بمرتقى الهضبة، عندما يصبح النخيل هناك

بأسفل، لابد من نظرة متمنياً بقاءه هكذا، كثيفاً، عتيقاً عند الحد، مهيباً بالحافة المشرفة، سقارة كون، خاصة ما خفي منها، ما لم يُعرف بعد، جئت مبكراً، هذا ما طلبه مدير المنطقة، يمت إليّ بصلة، من بلدة قريبة من جهينة، سيفتح اليوم مدخل مؤدّ إلى مرقد ربما يحتوي على أثاث جنازي كامل، كل الدلائل تؤكد أن اللصوص لم يعرفوا الطريق إليه، مشرف على قصور الفرعون في بدايات الدولة القديمة، لم يرقد هنا إلا كل ذي شأن، بل إن أهمية كل منهم تعرف بالمسافة الفاصلة عن هرم الملك، ما زلت أستعيد اللحظة، فتح الباب المغلق من أربعة آلاف عام وبضع مئات من السنين، ثمة صلة، ثمة وُصل، بين بصري وما رآه أولئك الذين ردموا وأغلقوا الممر المؤدي، جاء بعدهم من قاموا بالتمويه المتقن، كانوا يُقادون من مقار إقامتهم معصوبي العيون حتى لا يستدلوا على الطريق، تماماً كما جرى بعد ذلك مع فثاني دير المدينة الذين حفروا ورسوموا مراقداً ملاين السنين في وادي الملوك، استعدت لحظة توصل كارتربالباب الذي يحمل خرطوش الملك توت، يصف ذلك في مذكراته، أقف في ذلك الصباح السبتبري، هدوء أسبغ عليّ، شأن اللحظات الفارقة التي عرفتها كلها، أتقلق قبلها، أتوقع وأتنبأ وأتخيل وأصوغ حوارات متوهمة حتى إذا دنوت وتدلّيت ينزل عليّ هدوء فأصير إلى سكون ومحايمة كأني غيري، هذا ما حلّ بي عند المدخل، بعد أن فرغ العمال المدربون من إزالة آخر العوائق تقدم مدير الموقع ليزيل الجدار المصوغ من الطوب اللبن، أو كما يُعرف في البر الغربي، بّري وملتقاي، بالطوبة الخضراء تميّزاً لها عن الطوب الأحمر والأسمنت الذي ابتلي الصعيد به.

كنت التالي للمدير الذي أحدث فتحة راحت تتسع شيئاً فشيئاً، كنت مُرهف الحواس لتنسّم الهواء، محدد الإقامة منذ أربعة وأربعين قرناً على الأقل، غير هباب مما يتردد عن مخاطر ربما تحملها غازات مكبورة طوال هذه القرون المستمرة، ضيق عيني حتى أدقق وأحقق غير أن ما جرى فاجأ الجميع حتى وقت هذا التدوين.

إذ اندفعت حمامتان من العمق إلى الفراغ الفسيح، مرفرفتان، ارتفعتا مبسوطتي الأجنحة، دارتا دورة فوقنا ثم ولتا الوجهة صوب الجانب الغربي، غابتا....

حمام البيا

أعرف من لفافة تورينو التي فسر بعضها لي ما استطاعه سيرجي نيوزادة مترجمًا معانيها من الخط المقدس - الهيلوغرافية - إلى العربية مباشرة، في بيته الفسيح المطلّ على بحيرة ليزا، أن سيد الحكمة تحوي هو من صاغ الرموز، أو .. فلاكن دقيقًا، محققًا، مختصرًا، صائبًا بقدر الإمكان، هل يمكن إرجاع هذا كله إلى شخص واحد؟ إيجاد الحروف، صياغة الكلمات، تحديد الجهات الأصلية والفرعية، درجات الزوال وميل الظل، علاقة المحدود باللامحدود؟ وسائر ما تُنسب إليه بدءًا من تحديد الرموز المقدسة حتى طرق البناء وتعيين وسائل رفع المياه من سواقي وشواديخ وطينور، وصولًا إلى مواعيد نوات البحر، أبيض كان أم أحمر، منذ تلك العصور السحيقة اعتمد الخلق ما حدده وأقرّه، وما زال أهل السواحل يستخدمون مصطلحات تقارب تلك التي صاغها، هل يُنسب هذا كله إلى شخص واحد؟ أم أنها تراكمات شتى صاغ بعضها وتوصل إلى الآخر من يصعب إطلاق أسماء عليهم لانعدام المعرفة بهم وقلة ما وصل عنهم، لذلك تُسبب الأعمال إلى اسم بعينه وهو أهم درجات الوجود، وتعدادها خمسة تنسب أيضًا إلى تحوي سيد الحكمة والمعرفة، ولأتوقف عندها قليلًا فلطالما حيرتني وأعملت الأسباب لاتصال فكري وسعبي، أما الخمسة فهي: الاسم ثم الكا ثم البيا وبعدهم الجسد، أما ما أثار دهشتي فهو الخامس؛ الظل، كيف يكون الظل من شروط الوجود والسعبي؟ حيرني هذا الأمر مدة أربعين سنة أو أكثر، خلال هذه المدة كانت المعارف تأتيني من جهات شتى،

بعضها مني، وكثيرها من آخرين، معظمهم طُوي أمره، وقليل، بل نادرهم ما زال يسعى في عين وقتي، لا أدري في أي مصدر قرأت أن مما أرساه تحوتي من مفاهيم، أن كل مرئي له مقابل في اللامرئي، في صعيد مصر إذ يقع طفل أو يتعثر تسارع الأم نحوه قائلة:

«اسم الله عليك وعلى خيتك - أختك - اللي احسن منك..»

اسم الله حافظ وحام، وشاغل الإنسان منذ اكتماله وبدء سعيه.. الحماية، الحماية من المخاطر سواء كانت منظورة، معاينة أو غير مدركة. في مواجهة بيت خالي الذي بدأ سعيي منه في الحياة الدنيا، بيت.. لا، فلاأكن دقيقاً، بقايا منزل، مدخل تليه ساحة صغيرة مؤدية إلى غرفة لا نوافذ فيها، لا صومعة، لا فرن، هنا تعيش الجدة «الدودة»، هذا ما كان يناديها به الناس، لا أعرف أهو اسمها الحقيقي أم أنها كنية غلبت فصارت بديلاً لاسم مجهول الآن، حلت مكانه، قصيرة، نحيلة جداً، برقبتهاجاعيد غائرة، تحيطها بعقد من مادة زرقاء غميقة، لم أعرف لها اسماً أو وصفها، حلقات صغيرة متجاورة متضامة، كل سبع حلقة مختلف لونها فمرة برتقالية ومرة حمراء ومرة بيضاء، لا يتكرر إلا اللون الأزرق، الغريب أنني في إحدى زياراتي إلى القسم المصري بمتحف المتروبوليتان قد أصبحت حافظاً لمواقع مقتنياته حتى لأقدر على استدعاء ما أحن إليه على البعد وهي عديدة، متنوعة، غير أنني أخص بالذكر باروكة من الشعر المظفر بتلييسات من الذهب، الباروكة في المتروبوليتان والقناع في القاهرة، كذلك حاملة القرايين مذهلة الجسد بها حوى من معالم ومقامات وأنغام أكاد أصغي إليها مع طول التحديق أينما كنت، لا يؤثر في مثل تلك النظرة المحدقة إليّ عبر آلاف السنين، أتواصل مع أصولها وأوشك على إدراك منابعها، في القسم الخاص بتل العمارنة شفتان لأنثى لم أعرف مثلها قط، تمتان إلى تمثال للملكة أو أميرة، تهشم ولم يتبق منه إلا هاتان الشفتان فأصبح لهما وجود قائم بذاته، غير متصل بما قبله أو بعده، بما فوقه أو تحته، لا ذقن ولا

أنف، فقط بقايا وجنات ثرية، هكذا صارتنا كونًا مكتملاً، أتوقف أمامها طويلاً، وأمضي منفعلًا بما يغمض عليّ، عندما أرى نحتًا كهذا، أو تمثال نفرتيتي الكامل في برلين أو الناقص في المتحف المصري والذي يمنحني أكثر مما يئته الأول، ذلك أن الناقص إبحاؤه أغزر وأثرى، عندما يتم الشيء يحدد البصيرة، وعندما نراه ناقصًا نكملة نحن كما نهوى ونرغب، نصير إلى شراكة في إيجاده، وهذا مما يطول الحديث فيه، لا أرى مثل هذا النحت أو رسم جميلة الجميلات نفرتاري إلا وأرى المبدع الذي أوجد هذا، في شفتي تلك الأنثى الغاربة، الحاضرة، أرى رغبة الفنان، ذلك المجهول الذي لا يذكره أحد، لا يعتد به باحث ولا يتوقف عنده مختص، فقط تمثال نفرتيتي غير المكتمل، وقياسات جهاته وشمخة الملكة وجلال عنقها المفرد فيه أتم من الكامل، المعروض في برلين بأبهة، واحتفاء مبين، الناقص عرفوا اسم من صاغه، الفنان تحتمس، عثروا على التمثال في مقر عمله، ورشته، لولا ذلك لظل مجهولاً، رغم وصول اسمه فلم يعن لي شيئاً سوى أنه مشتق، منتسب إلى تحوتي، لكن ما بذله من عناية، ما أظهره يجعلني أوقن إما أنه عميق الإيوان وإما غائر العشق، قلت ذلك لصاحبي الذي قاسمني حب الأقدمين، والهيام بهم، حتى إن ألوان لوحاته لم تحدد عن أصباغ القدامى والتي هي ألوان مصر. قلت لمن رحل وترك عندي غصة، جودة خليفة:

«الفنان الذي أبدع هذا إما أنه مؤمن أو عاشق..

أجاب على الفور بتلقائية أفنقدها:

«طبعاً العاشق لابد أن يكون مؤمناً.. كلاهما واحد..

تلاحقني الشفتان، ليتني رأيتهما مع جودة، في الممر القريب تأملت طويلاً نافذة التجلي، الخاصة بظهور رمسيس الثالث، مكانها شاغر في معبد هابو، عند نهاية الممر، قرب موضع الخروج تعلقت بثلاثة وجوه من الفيوم، أعرفها قبل وقوع نظري عليها، طالعتها في الكتب، جرى بيني وبين تلك العيون بث وتلقيت مثله،

لكم حيرتني تلك النظرات القادمة من اللاوجود الحسي، لو توقفت عندهم واستدعيت ما أعرفه من ملامح أخرى لحاد السياق وانصرفت عن الأمر كله، في المتحف معبد محدد من آثار النوبة، تم تفكيكه في الستينيات، أهدها عبد الناصر إلى الولايات المتحدة نظير ما أسهمت به في إنقاذ آثار النوبة، المعبد صغير، أشبه بما نسميه زاوية، محاط بمياه في لون نهر النيل، يعتبره القائمون على المتحف درة الموجودات، إنه محط الزائرين ومقصدهم، غير أن من تجول في الصروح العظمى لا يبهز بهذا رغم أنه مؤثر عندي لمسحة حزن بادية في أحجاره، هذا ما ألقاه فيه، فيما يلي المعبد باب يؤدي إلى قسم يخص أمريكا، هنا أعود إلى ما أثار دهشتي، أمران.. أولهما الظل باعتباره من المكونات الخمس، أمعنت الفكر والتدبر، توصلت إلى حقيقة بديهية، من يمت فلا ظل له، شرط الظل السعي، وتلك تتطلب القيام، من يكتمل تمامه يرقد والراقذ لا ظل له، ظله مطوي فيه، متحد فيه، وشرط وجود الظل الوصل والفصل، ذلك أنه ملاحق لمن صدر عنه، متحرك غير مستقر، أحياناً يتمدد أو يتقلص طبقاً لمصدر الضوء والتمكين، بدون الظل لا توجد حياة، من هنا قد أفهم ما حيرني عندما قرأته: الظل أصل الأشياء، يقول الشيخ الأكبر: إذا مضت الشمس تبعها نورها وبقيت الأرض مظلمة، كذلك الروح إذا رحل عنه الجسم إلى عالمه الذي جاء منه تبعته الحياة المنتشرة منه في الجسم الحي، وبقي الجسم في صورة الجهاد في رأي العين، فيقال «مات فلان»، وتقول الحقيقة: رجع إلى أصله.

هكذا عين الحال.

ثانيهما، لماذا اختص تحوتي رأس الإنسان بجسد طائر عندما وضع الرموز وحدد أشكالها وألوانها؟ لماذا جسم يمامة بالتحديد، رأيت الشكل واضحاً في مرقد نفرتاري، وجهها بملاحمه الأثيرة، الساكنة، في المتحف المصري بالطابق الثاني آثار من مرقد يويا، تطاردني منه عينان ساجيتا الجفنين لهما عندي وقفة وتطويل إذا أذن الحال، أما الآخر فذلك التمثال المذهب للبا، للروح، رأس آدمي بجسد يمامة

في حالة سكون، الجناحان مسدلان، ملامسان الجسم، بالاكتمال يخرج الإنسان خاصة والمخلوقات عامة من التقييد إلى الإطلاق. ما هو المرئي المعين للإنسان القادر على الرفرفة والتحليق؟

الطيور.

ما أقرب الطيور إلى الإنسان؟

اليمام.

يقول تحوتي في المتون إنه لم ير خاصية في الإنسان إلا ورأى مثلها في اليمام، خاصة الصلة بين الذكر والأنثى عند بدء اللحظات الحميمة، فالمخلوق الوحيد الذي يبادل إلفه التقبيل والمناغشة قبل الوصل هو الحمام، اليمام، وغير ذلك مما لا يُحصى.

حَمَامُ الْحَاجِ فَهْمِي

ستظل هذه المسافة منعرجاً أحسن إليه وأرنو، شأنها كمواضع أخرى، أثق أنني لن أبلغها، إما لزوالها أو انتهائها إلى مكان لن أعرفه مرة أخرى، لانقطاع الصلة أو لوهن الإمكانية عندي، أو لزوال المعالم وتغيرها، نبدأ من ميدان سيدنا ومولانا؛ المدخل المؤدي إلى بداية الخان، إلى اليسار المطعم الإيراني، لا يزال مذاق طبق الخضار باللحم والأرز المفلفل يراودني رغم بعد المسافة وانقضاء الحول بعد الحول، في فسحة المدرسة الإعدادية، ما بينَ الفترة الأولى والثانية، ساعة نتجه كما شئتنا، لم أشارك صبحي اللعب، إما أن أتجه إلى الشيخ تهامي أقلب الكتب وإذا توفر معي المال، ثلاثة قروش مقابل الوجبة ألتهم حبات البسلة بالمرق واللحم الناعم والأرز، لعله المطعم الأول الذي تعاملت معه، لم يكن من عاداتنا التردد على أماكن الأكل إلا فينا ندر بصحبة الوالد، الجهة المقابلة مدخل المقهى العتيق ذائع الصيت، على جانبيه فانوسان عتيقان وعمودان من رخام، درج من حجرين مستطيلين يؤدي إلى الممر المظلل بروح وريحان، تتوسطه ثلاث نافورات تبث المياه المرطبة صيفاً، المطمئنة شتاءً، على الجانبين مقصورات مظلمة بستائر من خرز ملون، مرايا من قصور، صوانات عطور نادرة، أطباق مطعمة، دكك من خشب مخروط، الحاج فهمي الفيشاوي أمضى عمراً يرتاد صالات المزايدات أو أماكن يجري تصفيتها، اقتنى منها ما يجلب عن الحصر، بعضه مازال معروضاً حتى يومنا هذا بعد زوال النعيم وأيام التقصي والدنو، لم أر الحاج عندما كان أحد فتوات

القاهرة المعدودين منذ وعيت على حضوره طفلاً أجيء إلى فضاء المقهى حيث الشاي في الأكواب الصغيرة ضيقة الخصور، لم أعرف مثلها إلا في مقاهي بغداد والبصرة وأربيل، تُعرف هناك بالاستكان، منذ صباي أراه متمدداً فوق الدكة، ضخماً، مهيباً، صامتاً، النرجيلة لا تفارق فمه حتى أثناء نومه، فراغ حوله عامر بالبخور، بالمستكة والخبهان وما خفي، نسيم العنبر والعاج والحريير الطبيعي ومرق الكوارع وثريد لحم الرأس وفواح لحم الماعز المشوي على بخار التنور، يا الله، إلى جواره حصانه الأشهب المنسَّب، يقف على مقربة كأنه حارس وفي أمين، لا رباط يقيده ولا سرج أو لحام إلا عندما يعتليه الحاج، في المقهى حتى الآن لوحة من البني ومشتقاته كافة، رسمها فنان مجهول، واحد من كثيرين، عبروا وأقاموا ثم أدت بهم السُّبل، كلُّ إلى طريق، صورة فوتوغرافية مكبرة بالألوان؛ يقف فوق كوبري الجامعة، الحصان وصاحبه، كل منهما مزهو، فخور، لا أدري عند التمعن والإيغال من صاحب من؟ يحكي الوالد أن ركوب الحاج فهمي وتمخضه كان فرجة تستحق، يبدو الحصان مزهواً بفارسه المتراجع قليلاً إلى الخلف، شماً بنظرته وتطلعه، أما من رأى خطوهما الراقص فهو محظوظ، تناغم وتجاसर رغبة في اجتياز حيز الجسد المحدود، المؤطر، مفارقه إلى اللامدى، لم أقف للأسف على ذلك، غير أنني رأيت الحاج يطعم حصانه قطع سكر، الحصان بعد أن فرغ يتمسح برأسه في كتفه كأنه يقبله، شاهدت أيضاً الحمام يقف على حافة القفص والحاج مفرد كأنه شراع بليغ، يتبادل اللثم مع الحمام الذي يتقدم فرخاً فرخاً إلى حافة القفص وهذا من أغرب ما رأيت وعانيت، كثيراً ما يختلط عليّ الحال فلا أدري هل ما جرى كان واقعاً أم توهماً مني، غير أن ما جرى بعد هدم المقهى، لا... قبل الشروع في تقويض مستودع الذكريات غريب، عجيب، لو أنني لم أعاينه بنفسي وشاهدته فأشهدته بعيني لسرى عندي شك، بعد أن أصرَّ المحافظ الغشيم على قراره بإزالة المقهى التاريخي لإقامة بناء حديث، قبل موعد بدء الهدم بيوم واحد، قبل ارتفاع

أول معول، ظل الحاج فهمي مغمض العينين حتى ظنوا أنه أوغل في الوسن، بالفعل لجَّ إلى بعيد، بعيد جداً، لم يستطع الاستمرار حتى رؤية البنيان الذي صار جزءاً منه، تقوض قبله، في نفس اليوم همد الحمام، رآه كل داني وقصي طريقاً في قفصه، أما الحصان فظل واقفاً مكانه، رأته منكس الرأس هزاله موجع للرائي، سبعة أيام لم يذق خلالها شربة ماء أو كسرة خبز.

مسألة

سئل تحوتي يومًا، غير معروف ممن؟

• ما الفرق بينَّ اليمام والحمام؟

قال مجيبًا إن اليمام هو من نرغب أن نكون. أما الحمام فهو نحن كما نكون.

ثم قال: إن اليمام هو ما نطمح إلى أن نكونه، ما نتمنى أن نصير إليه في تفرقنا عن بعضنا، ما نصبو إليه، هو رغباتنا الدفينة مأمولة التحقق.

الحمام نحن.

ييام الحمام

حدث ابن إياس في تاريخه المفقود أن امرأة الأمير منجك من يشبك شاد العمائر أرسلت في طلب الشيخ صادومة المعروف عنه القدرة على الإصغاء إلى ما لا يقدر سمع الإنسان على التقاطه، ومعرفة أحوال الحيوان والطيور، واستدعاء الثعابين من مكانها، كذا العقارب والهوام وأم أربعة وأربعين والعناكب السوداء السامة، كان أمهر من يجيد الحجاماة، وتخليص المولود المتعسر من الطريق المعتاد، وعمل الأحجية التي تقرّب البعيد وتبعد الكريه غير المحبوب، وله واقعة كاد يهلك فيها لولا تدخل الشيخ أبو السعود عند السلطان الغوري وسأحاول أن أوردتها إذا ناسب الحال لأنها حساسة بعض الشيء، ولأنني أخشى النسيان سأوردها الآن باختصار وأشير إلى ذكر ابن إياس لها في تاريخه المعروف المنشور ولي به صلة معروفة، ذلك أن السلطان الغوري عندما تجهز لمباشرة زوجته التي لم يتسرّ إلا بها ولم يقتن أي جارية وهذا من الأعاجيب، فوجئ بوشم أخضر على هيئة مثلث أخضر اللون بجوار فرجها، سألها: ما هذا؟ فقالت إنها طلبت الشيخ صادومة وهو المعتبر، الثقة، الأمين، ورجته أن يعمل لها عملاً يحب فيها زوجها الذي يتباعد عنها مؤخرًا ويقويه عليها لوهنه المتزايد، غضب الغوري حتى بان عرق جبهته الغليظ، والذي يخشى نفوره أعتى أمراء السلطنة، طلب الشيخ صادومة وأمر ببطحه أرضًا لضربه بالمقارع، غير أن رسولاً وصل من طرف الشيخ أبي السعود، أسرّ إلى الغوري، بما

جعلله يتغير ويأمر بإطلاق صادومة، ويقال إنه ظل يردد لفترة: لا يهمني ما عمله، المهم... كيف وصل إلى ما وصل إليه؟

هذا ما كان من أمر امرأة السلطان، أما زوجة الأمير منجك من يشبك فقد خلت بالشيخ وقالت إنها تعاني أمراً غريباً تخشى البوح به لأقرب الخلق، طمأنها الرجل وقال: سرّك في بئر... قالت إنها كلما دخلت الحمام تفاجأ بفرخ ييام، يقف عند طرف المغطس، لا يرفع عينه عنها، والأغرب أنه يقدم على ما تحبجل من ذكره ويمر بها كل ما هو غريب عنها، ترتعش وتنتشي، تكاد توقن أنه بني آدم مسحور، ما يحيرها كيف يصل إليها رغم أنه لا يوجد منفذ في الحمام، لا إلى الخارج أو إلى الداخل، سألتها أربعين سؤالاً لم يوردها ابن إياس، طلب دخول الحمام، أشارت إلى المكان الذي يبدأ ظهوره عنده، قالت إنها تخشاه، ربما كان جنياً مسحوراً، أو آدمياً يعرف زوجها وأولادها، خفت صوتها قالت إنها تخشى أن تحمل منه، تطلع إليها الشيخ متعجباً من درجة صوتها وخفوتها عند نطقها بذلك، أما عيناها فسال منهما التوق، قرأ الشيخ نصوصاً، وحرك يده اليمنى ثلاث مرات حركة دائرية، صمت بعدها، استدار إليها، حدق فيها حتى انتابتها رجفة وبلبل، قال إنه لن يقترب ومضى، فانت الأيام، تكونت أسابيع، قبل نهاية الشهر الثالث أرسلت تطلب الشيخ، عندما دخل، اتجه إلى المكان المقابل للموضع الذي جلس عنده المرة السابقة، أخرج قارورة عطر صغيرة، طلب شعرتين من خُصلها، أحرقهما، اختلطت رائحتهما بالعطر، دهشت، قالت: لكنك لم تعرف ما أرغب، تطلع إليها، تلك النظرة، نفذت عبر سلسال ظهرها، لم ينطق قام منصرفاً قبل ظهور فرخ اليمام، لم يجتمعاً لحيزة في الحمام، عند طرف المغطس مكث متعلقاً بها أثناء تجردها قبل نزولها الماء الدافئ السلسيل...

بماتة الدرب

لعل ذلك جرى في بداية عام سبعة وخمسين، علامة الزمن هنا العدوان الثلاثي، حضرنا وقائعه في مبنى على ناصية الدرب الأصفر الذي يصل ما بين شارعي الجمالية والمعز، أشهر ما فيه حتى الآن بيت السحيمي، في مواجهة بيتنا خانقاه بيبرس الجاشنكير، عرفت فيما بعد أن عبد الرحمن بن خلدون تولى مشيختها عندما جاء إلى مصر وأقام فيها حتى وفاته ودفن في مقابر باب النصر، أما المبنى الذي انتقلنا إليه فكان يعرف بعمارة عليش، أسرة قديمة عرفوا بمخبز للعيش ناحية أم الغلام، جئنا بعد أن ضاق بنا مسكن درب الطبلاوي مع تقدمنا في العمر، شقة من حجرتين وصالة، في مواجهتها تسكن عائلة أم جميل، سيدة قوية الحضور، لها منظر إذا وقفت في الشرفة ساعات العصري لتشم الهواء، أما ما تعلقت به فابنتها واسمها «فرنسا» أكبر مني عمراً، كنت في الحادية عشرة وهي على الأقل في السادسة عشرة، فارهة، جميلة الطلة، رائحة نسيمها الأنثوي مازال في ذاكرة شمّي، رويت جانباً من بواعثي تجاهها في الدفتر الخامس للتدوين «نثار المحو»، كنت أمضي وقتاً قبل تدرجي نحو النوم، خلاله ينشط خيالي تتحول الظلال إلى مخلوقات لم أعرف لها مثيلاً وأصوات الليل إلى مصادر غامضة، بعضها في كهوف البر، والآخر في عمق النهر الذي لم أكن أعرف ماء أعظم غيره إلى أن رأيت البحر عام ستين ثم طرت فوق الماء الأعظم أو بحر الظلمات كما كان يُعرف قبل اكتشاف الصفاف الأخرى للمحيط، أعبره في سبع ساعات، كان الخيال متأججاً وسر حاته

بلا حد، ومما قوى عليّ تلك الحقة حضور يمامة كانت تظهر فوق السطح يومياً في وقت معلوم أستطيع تحديده، قبل سماعي للحن المميز لنشرة أخبار الظهيرة في الثانية والنصف، تظهر فجأة فوق السور، لم أرها قط قادمة من أعلى، أو منطلقة من سرب، موعدها غير مألوف، أصحاب الأبراج يطلقون ما عندهم ما بين العصر والمغرب، يلوح كل منهم براية لها لون درّب سربه عليه، فوق عدة أسطح كنت أرقب صعود بعضهم على السلالم الخشبية لإطلاعهم من أعلى الأبراج، تلويحهم وإطلاقهم صفيراً، لكل نغم مُعين، ما من مخلوق مرتبط بمكانه مثل الحمام واليمام، لو نقل على بعد عشرات الكيلومترات يمكنه الاستدلال على موطنه، على مكانه بالتحديد مدفوعاً ومسترشداً بالرائحة التي تخص الموضع أو مكاناً قريباً منه، أيضاً بالضوء، يقول المختصون إن إبصاره يمكن أن يرى ما يتجاوز الأشعة فوق البنفسجية، أما استدلاله على الجهات فيتم طبقاً لموضع الشمس نهاراً ونجوم معينة ليلاً، خاصة الشعرى اليمانية، المعروفة قديماً بسوتيس، والذي تتوجه إليه مداخل الأهرام والمعابد كافة ومراقد الأقدمين، كل برج من الخشب، له اسم آخر: «الغِية» من الغواية أو الهواية، والمعني بها أولئك الذين يعتنون بالحمام واليمام لهم أسواقهم وأماكنهم، يعرفون بعضهم البعض، لهم مصطلحاتهم، ومن أغرب ما عرفته منها إطلاق اسم «ضريبة» على العينين النادرتين، لم أجد صفة جامعة بين اللفظين أو وشيجة، أجهل الأبراج تلك المشيدة من الطين، في الريف، والأروع فيها رأيت على الطريق السريع أثناء قدومي من سوهاج إلى أسيوط بالعربة، بالتحديد فيما يلي النخيلة، وللنخيلة عندي منزلة رغم أنني لم أدخلها يوماً، لم أنزل بيتاً أو دواراً من دورها، لكنني متوله بها عند مروري لأن شاعراً كبيراً ولد وعاش بها، أعني محمود حسن إسماعيل، وزميلاً عملت معه واقتربت منه، رحل مبكراً بدون مرض أو علة، نام ولم يصح، أقصد فيليب جلاب، عندما وقع بصري على مجموعة الأبراج المتواليّة، تشكيل فريد لم أعرف له صنواً أو شبيهاً، طلبت من السائق التوقف،

دنوت وابتعدت، تأملت وانبهرت، لم ألتقط صورة رغم صحبتي للآلة، ما يجذب انتباهي أفضل بقاءه في ذاكرتي، تسجيله بالصورة تقييد وتحديد، أما الذاكرة فتلتقط المكنون الخفي حتى لو تبدل أثناء استعادته يظل اللب باقياً بشكل ما، هذا حالي مع لحظاتي الحميمة، مع الأماكن التي ارتبطت بها، ناصية كانت أو ركنًا في حديقة أو واجهة مقهى، مرأى الأسراب في فضاء القاهرة القديمة يرقط ذاكرتي، حركتها الدائرية، الصاعدة فجأة، حيدتها عن اتجاه ظنته أبدئًا، أثناء اقتراب سرب من الآخر ربما تنتقل واحدة من هنا إلى هنا، السبب في تقديري وليس عن علم ودراية نشوء تجاذب بين أنثى وذكر، لا شيء يغير مسار اليهام إلا هذا، وهنا عنصر تشابه مع الإنسان، فلا يغير مصير الإنسان إلا امرأة، هكذا قيل.

يامة الظهيرة توثقت بي واعتدتها، جرى بيننا عهد، حتى إنني كنت أملس ريشها فلا تجزع ولا ترفرف مبتعدة، أمني من قعدتها لاحظت، قالت مرة: «أكيد فيك شيء لله...».

لما تطلعت إليها متعجبًا: قالت:

«الحمامة تحبك، الطير يشعر بداخل من يقترب منه... الحمامة لا تخاف منك». لم أقل لأحد، حتى أمني، حتى هذه اللحظة، لأول مرة أبوح بما عاينته، بما جرى أمامي، مرة تبسمت اليمامة، ضحكة بشرية كتمت شهيقني حتى غابت، مرة أخرى لمحت دمتين وأسى إنسانين، مددت أصابعي ملامسًا طوق رقبتها الأزرق، خطت تجاهي مرتين، لأول مرة أنتبه إلى رهافة قدميها ودقتها، عند انصرافها مرفرفة التفت إليّ، بعد أيام قلائل حزم أبي أمتعتنا ولم أطأ هذا السطح حتى هدم البيت وإزالته، البيت رقم واحد، عطفة باجنيد داخل درب الطبلالوي، باجنيد اسم حضرمي، كل ما يبدأ هكذا با... يكون حضرميًا، نزلت حضرموت، زرت شبام، وسيئون والمكلا. لها تأثير ومكانة.

قرب منتصف الليل فوجئت باليامة تطل عليّ من زاوية التقاء الجدارين، معلقة إلى ما لم أتبينه، ابتسامتها التي لم تستمر طويلاً، هي لا يمكن أن أخطئها، هي، هي، كيف دخلت الغرفة؟ أين رفرفة الجناحين؟ لونها الأحمر الطوي عينه، يُقال إن اليام عندما تنسم رائحة البر انطلق من سفينة نوح، غرست أول يامة في طين الأرض، عادت ولونه يكسو قدميها، لفت نظر نوح وفهم البشارة، دعا الله أن يكسبها اللون حتى يتميز عن الحمام، هكذا صار، أصبحت متوقعاً ومتعجباً لقاءنا الليلي، كم استمر ذلك، ربما عشرة... لا، بالدقة سبعة شهور، عاد أبي يوماً قعد مقمعزاً، مهموماً لم يكن يقدر على إخفاء شيء، قال لأمي إنه من الضروري الانتقال، لا بد من البحث عن سكن آخر، قال إنه رأى حمامة في الليل تعبر الصالة إلى أودة الأولاد، هذه علامة شيء خفيف لا يمكنه تفسيره، علمت فيها تلا ذلك من سنوات عديدة أنه الموت، خشيت أمي، عانت من الفقد ما يكفي، هكذا عدنا إلى درب الطبلاوي، إلى البيت رقم 11، بيت أم كوثر، قريب من مدخل العطفة، فيه استويت على الانفراد وبدأت السعي، لم أر اليامة قط، لم أعرف أهي التي تجلت لأبي فكان ما كان، أم أخرى مغايرة؟ غير أن اليامة ظهرت لي في مكان آخر، جد ناء، جد قصي، فريد، لم أتوقعها قط، ولكن تلك حكاية أخرى.

يمام المحيط

ثلاثة اجتيازات:

كل وافد إلى الوجود يعبر مرة إلّا، ثلاث ثلاث، الأولى في جهينة عندما جئت من عدم ولم أكن أعلم أنني ماض إلى مثله، العدم لا يلد إلا عدماً، ليت المخلوق الساعي يعي ويدرك، المولود لا يعي ولا يحتفظ بذكرى عبوره من الرحم الأصغر إلى الأكبر، لكنني... لماذا أجزم؟ لماذا أقطع بما لم أحط به يقيناً أو علماً؟ به من يدري ربما نوع آخر من الوعي لا ندري عنه شيئاً.

المرة الثانية عندما فتحت عيني، تمام الساعة السادسة إلا الربع طبقاً لتوقيت مدينة كليفلاند بولاية أوهايو الأمريكية إفاقتي من النوم العميق جرت على مراحل وضعتها في يومياتي المعنونة «الخطوط الفاصلة» غير أن ما أعيه وأتمثله كأنه تم بالأمس إبصاري الساعة في مواجهتي، ذهن صاف، حضور مكتمل وضوء سابغ وافد عبر النافذة الزجاجية بعرض الجدار، هأنذا بعد شق صدري وإجراء الجراحة، كنت مثل المولود وما ولد، غير أنني مولود مكتمل المعرفة، أعرف أن هذا سرير، وتلك أنابيب، وأن الساعة في موطني الآن الثانية عشرة، سبع ساعات فارق التوقيت، إنني أشارك من أجهله في الغرفة، لا أدري جنسيته، طريح على ظهره مثلي، غير أنه مغمض العينين، مسدل الوعي، لا يتحرك يميناً أو شمالاً، لا تبدر منه دفعة، ما بيني وبينه ستارة خفيفة، لم أتمكن من ملامحه لم أكن قادراً على الحركة كما أرغب، فقط أحرك رأسي، ثم إنهم جاءوا ثلاثة؛ ممرضتان وآخر زنجي

فاره، حركوا السرير بذرّبة، خرجوا بي إلى غرفة في نهاية الممر، مفردًا صرت، سرير يتوسط حجرة نافذتها عريضة، أمامي سبورة، يكتب عليها اسم الممرضة التي ستكون مسئولة عني ومواعيد تنوع الدواء.

حجرة فسيحة، ناصعة الضوء، يمكنني أن ألمح شاطئًا وزرقة بحر ممتدة إلى ما لا نهاية، لأنني طالعت الخريطة قبل قدومي لأعرف الموضع الذي سيشتق فيه صدري ويخرج منه قلبي إلى حين، تنتهك وحدته ومصونته، أدرك أنها بحيرة من تلك الموصوفة بالعظمى، على الشاطئ الآخر كندا وعلى مقربة شلالات نياجرا التي أقرأ وأسمع عنها منذ صباي، النافذة شفافة والضوء ساج، ناعم، أبقيا عارية من أي ستارة، رافعًا السرير المحاذي لظهري، فقط لمسة للزر المرسوم على لوحة مستطيلة، أخفض وأرفع وأتجه يمينًا أو يسارًا بغير أن أغادر مكاني، فقط، إلى الحمام لقضاء الحاجة أو للاستحمام وشريط لاصق عريض بطول صدري، حتى موضع السرة، بعد انصراف ماجدة زوجتي بإلحاح مني لاكتمال الغروب وخشيتي من المسافة إلى الفندق، شوارع الناحية غير آمنة مضت وبقيت منفردًا متطلعًا إلى الجدار المحاذي للنافذة، ماجدة رصت فوقه الكتب التي حرصت أن تصحبني في رحلتي هذه:

الخروج إلى النهار - برت أم هارو

العهد القديم، العهد الجديد

القرآن الكريم.

الفتوحات المكية، طبعة بولاق

الإشارات الإلهية، للتوحيد

مفاتيح الغيوب، لمؤلف مجهول

موبي ديك، لهرمان ميلفيل

صحراء التتار، لدينو بوتزاني

حكايات حارتنا، لنجيب محفوظ

ذكريات منزل الموتى، لدستوفسكي

المجلد الأول من أعمال تشيخوف

ديوان الحماسة، لأبي تمام

الطاو

عندما يجيء الدكتور فوزي للاطمئنان بيدي كل مرة تعجبه «أول مرة أرى مريضاً يجيء مع مكتبة».

لكم أمتن له، كان لقاءنا بداية صلة ومودة دائمة إلى وقت تدويني هذا، بعد ذهابه غمرني حنين وحنين. أما الحنين فلإلى طلة أمي الصامته عليّ، وأما التحنين فلإلى مواضع بعينها عرفتها وذكرها لا يعني شيئاً إذا أخبرت عنها أو أسررت، طفوت عبر الوقت الذي مرّ بي، رحت مني وعدت إليّ، في لحظة بعينها استوثقت أنني لست بمفرد، ما زلت وحيداً، في الثامنة إلا ربعاً ستطل الممرضة التي لازمتني بعد الظهر، تبتسم مستفسرة، مودعة في الثامنة تلج الحجرة الممرضة التي ستبقى حتى الصباح، تناولني الدواء تعود في العاشرة، أتمنى أن تكون من أغدقت عليّ بالألمس نظرتها الحانية، وعندما أدارت ظهرها وشبت على أطراف أصابعها سمعت موسيقى الأنوثة منبعثة من تضاريسها الدافئة، سرى عندي ما سرى فكان ذلك أول إشارة إلى ديب الحياة وأنني مازلت على العهد مقبلاً، قوياً على الحضور الخفي حتى إني أصغيت وأرهفت الحواس كافة، لم أتوصل إلى شيء، غير أنني عندما توجهت إلى النافذة رأيتها، ما حيرني أنني نطقت على الفور.

«أهلاً...»

مستعيراً هيئة ودرجة وبوح وإقبال ابتني ماجي عندما تراني بعد طول غيبة، لم أسأل نفسي: كيف ولجت فراغ الغرفة؟ بل... كيف وصلت إلى هنا؟

هي... هي...

ييامة السطح، تبادلني الحنين بالنظر، يميل رأسها إلى يمين ثم شمال، تعتدل، والله مبتسمة... باسمة، متسائلة، مالك... مالك؟ هكذا يبدو صوتها، هديلها المرقرق الذي طالما حيرني، كنت راغباً تواقاً، متوثباً إلى طرح التساؤلات: كيف قطعت الزمن من طفولتي إلى الآن؟ بأي عطر فواح استرشدت، بأي الكواكب استدلت؟ بأي الحبوب تقوتت؟

لم أنطق ولم تهدل، صرنا إلى صمت نتفاهم خلاله بالبصر والبصيرة، بالإيحاء، دارت حولي، رفرفت عليّ، حطت عند طرف السرير المحاط بحاجز خفيض يحول دون السقوط، دنت مني وأملت عليّ ما يجب الهمس به والنطق بمضمونه عند الحين المقدر، أطلعتها وأطلعتني، طلّت عليّ وتلمست دفء ريشها، سرت عندي وبسطت عهوداً قديمة، زفقتني كافة صنوف الغياب، حاذتني كما كنت أحاذيها عند خطوها فوق سور السطح، تملّيت منها جلياً من مرقي وقد عرفتها من قبل سارياً، لكم انقضت المدة خفية، كأنها سلبت مني همساً، انبعث من حضورها نغم أجهل مصدره غير أنه شجي، نفذ إلى صندوق غرارة قلبي المهتوك سره، من لم يعد له من الأين أين، وقع بيننا محاجة وتفاوض وتبسّس خفيض، أفضت إليّ باقتفائها أثري عبر التنسم، توسدت الفراغ ونعست في الأعالي الأقاصي، كان مسراها قربي يعيدني سيرتي الأولى، عناصري التي وفدت من كل صوب حتى تلملمت فيّ وها هي تتأهب لتفرق لالقاء بعده، غمغم دمعي وترقرق سمعي حتى إنني لم أنتبه لمشول الأنثى التي تمنيت حضورها، الفواحة، الباعثة للقوى المحركة، تتطلع دهشة متسائلة بالنظر...

يمام الحد

فناء خانقاه بيبرس الجاشنكير المراجعة لبيتنا في الدرب الأصفر رأيت اليمام يتجول فوق الأرض غير هيباب أو فزع من المترددين، يلقط الحب المتناثر أو ما يناسبه مما نجهله، لم أمسه، لم أتجه إليه رغم نزق الصبا، لم يحذرنى أحد، سبب أجهله دفع بي إلى تأمله، متابعتة كأني منه وكأنه مني، يقال إن طلسمًا مدسوسًا في موضع ما يُحدث أمرًا لأي عابر لعتبة الباب بحيث لا يقدر على الشروع في مس الحمام أو اليمام أو ما شابه، حتى المعشش قرب القبة الرأسية بمهابة، ماثلة عندي من خلال كل منافذ الاقتراب، عندما أجيء من شارع الجمالية، أو من ناحية باب النصر أو من داخل الدرب، تشكل عندي صرخًا وتكوينًا مع المئذنة المصاغة على هيئة مبخرة، طراز نادر، أقدمه فوق ما تبقى من مسجد الصالح نجم الدين أيوب، وإليه تنسب حارة الصالحية الواقعة بين شارعي المعز وخان جعفر وتلك من دروبي ومسالكه ومن مستثيرات حنيني النافذ، تلك أعتقها فيما تلا العصر الأيوبي أقدم الأمير بيبرس الجاشنكير على بناء اثنتين فوق ما تبقى من مئذنتي الحاكم بأمر الله وقد شيدها في الأصل على شكل منارة إسكندرية، ويمكن ملاحظة شبه مع الجزء الأسفل من مئذنة قبة المنصور قلاوون، والتي تعد من معلمي ومرجعيات ذاكرتي وكانت رؤية هلال رمضان تتم من فوقها ولا تزال ماثلة مكتملة، استكمل أيضًا ما تبقى من مئذنة ابن طولون التي صممها على نمط ملوية سامراء التي لا تزال وقد ارتقيتها وطفّت حولها من أعلى عند ركوب طائرة حوامة زمن ما بعد حرب أكتوبر

ولذلك تفصيل لعلي مورده يومًا، ومما يحكى، عن ابن طولون المولود في سامراء أنه كان عتيًّا، قاسيًّا، لا يبدي ابتسامة ولا يلهو حتى مع أحفاده ومن قبلهم أبنائه، في أحد الأيام كان في مجلس، أمسك ورقة، لفها حول إصبعه الوسطى، عندئذ قال أحد ندمائه:

«ضبطتك تلهو».

تطلع إليه مجيبًا للتو:

«لا ألهو... إنها أصمم مثذنة المسجد...»

عندما وقع زلزال القرن الثامن الهجري، أطاح بالجزء العلوي شأن مثذنتي الحاكم، أتمها ببرز الجاشنكير، وهذا اللقب يعني وظيفته، هو المكلف بتذوق الطعام قبل السلطان حتى لا يتمكن أحدهم من دس السم له، ووظيفة جليلة وحساسة، لا يتولاها إلا الثقة المبين، يُقال إنه بعد أن أتم الخانقاه كان يرغب في جعلها مأوى لليام والطيور المهاجرة أيًا كان جنسها، ظل يسأل ويتقصى حتى عثر على بغيته في رجل من أقصى المغرب الأقصى، يقال من شنقيط المعروفة الآن بموريتانيا وكان كيّسًا، مهذبًا، حافظًا للشعر وخلاصة المثور، قارئًا لنجوم السماء، عارفًا بمواقعها ومصائرهما، وقدرة أفلاكها على التأثير، هو من أعد الطلسم الخفي الذي يوقف أي مخلوق يدخل إلى الخانقاه من أي جهة عن مجرد التفكير في النزوع تجاه أي يمامة أو حمامة، هذا مجرب معروف وحير ابن خلدون عندما قدم إلى مصر وتولى مشيخة الخانقاه وأشار إلى ذلك في كتابه الجامع، ذي المقدمة التي أصبحت معروفة، ذائعة أكثر من المتن نفسه، وإذا كان الطلسم يستدعي طلسمًا فلا بد من الإشارة إلى آخر خفي في داخل الأزهر أعده عجوز نوبي من قبائل الكنوز، طلسم يمنع أي طائر من التحليق أو سكنى الجامع، التعشيش فيه خاصة وهذا سار حتى يومنا هذا، اجتهد كثيرون في محاولة الوصول إلى مكمنه والإحاطة بكنهه، غير أنه من الثابت فشل الكافة حتى كريزويل عالم الآثار الإنجليزي، والذي يعد حجة

في مجاله، ما زلت أتردد على الخانقاه خاصة عند العصر لاستلھام انقضاء الوقت وإدراك أن الإنسان في خُسْر، أما الیام فله الأمان والمودة في القربى، من المواضع التي يأمن فيها الحمام ويلتقط الغلة عند أقدام المارة میدان سان مارك في البندقية، عندما نزلتها أول مرة منذ حوالي عشرين عامًا قبل الأوان الحالي، یاه كأن ذلك بالأمس، عندما وقفت في میدان أخذني العجب، كأني في صحن مسجد، المباني حوله على مستوى ارتفاع واحد، فوقها عرائس متساوية تمامًا مثل تلك التي ينتهي عندها جدران المساجد والكنائس، معظمها مستلھم من زهرة اللوتس، الفرق في الهيئة وعدد الحدود، فثمة ما يشتمل على واحد لا غير وهذا أقرب إلى الزهرة الأصل رمز التجدد وعودة الحياة ومنها یبعث الإنسان من جديد، یولد تارة أخرى، ومن العجائب ما عثر عليه كارتر في مرقد توت عنخ آمون، مزهرية على هيئة لوتس یبزغ منها رأس الملك الشاب، في مسجد الحاكم للشرافات خمس حدود، وربما یكون لذلك صلة بعقيدة الدروز التي تقول بحدود العقل الخمسة، في سان مارك أطلت النظر ومن مقهى عتيق رحت أرنو إلى عازقة کما أن شابة كانت الأنغام لا تندفق من الأوتار، إنما من جسدها الأملودي، سواد ثوبها الذي یلامس تقاسيمها مع بشرتها الواقفة عند حدود البیاض وصفرة زغب شعرها ألحق بي الدوار، في نوافذ قصر الدوق رأیت عناصر زخرفة السجاد الفارسي، والتركمان وبخارى في النوافذ المنمنمة وحوافها، طفت المدينة عابرًا جسورها الثلاثمائة مسترشدًا بصاحبة عرفتها في عرض القناة الكبيرة كان لعينها ألق ثريا المورانو الذي یصنع في قرية قريبة، اتصل بیننا مسرى المودة وكان ذلك فاتحة الخطاب، هیه... انطوى ذلك بعد تعدد لقاءاتنا في مواضع شتى حتى كان ما كان مما لست أذكره فلا یسألني أحد عن التثمة، ذاك حسبي، حمام سان مارك، یام النافورة القريبة من تمثال النيل في روما، یام الکعبة، یطوف الصحن رغم الزحام ولا یحلق أبدًا فوق البیت العتيق له الحمى ومنه الحمى، أما الیام المكان الذي رأیته في صحن المسجد القديم الحاوي لمرقد

سيدي نجم الدين كبرى في بادية خرتنك ولي معه شأن، عند الحد الغربي لوادي الملكات اعتدت في إقامتي الديسمبرية الخروج إلى حيث أشرف على أول البادية، أقرب من تجمعات الطيور القادمة من برد الشمال، رأيت بعضها فوق السطح في صباي المولي، مع اتساع المدينة وتزايد الأدخنة والأبخرة وعكارة الأنفاس بدأ تغير في المسارات، صارت الطيور تلزم الأطراف، في الأقصر على مدى أربعة وخمسين عامًا منذ بدء مجيئي لم يتبدل شيء، خاصة عند الأطراف، فيما يلي الوادي الذي يقع به مرقد أي الكاهن الذي تحوم الشكوك حول قتله توت عنخ آمون واعتلائه العرش، أقعد منفردًا وتأتيني مفردات الأمم، بلبل أبيض وهذا من النوادر، كروان سنغالي، البكاشينة المزوقة، يحوم حولي صقر الغروب ومرة حط فوق كفي، تطلع إليّ ثم اعتلى كتفي، مال برفق ملامسًا وجنتي فلزمت!، لم أعرف إذا كان هذا ذكرًا أم أنثى، لكن حنية الملامسة ولطف الاقتراب جعلني أوقن أنها تنتمي إلى ألفة الكائنات كما قال شاعرنا صلاح جاهين، رأيت الكناري، دقناش البادية، دقناش القبطي، الأكحل، وتبادلت مع غراب البين النظر، كنت أنام وكافة الأجناس حولي وإذا غفوت لا تحدث ضجة، غير أن صقر الصحاري ارتفع وانقض ملتقطًا عقربًا غليظة الحجم كانت تقصصني، إذا أدركني الغروب ومالت الشمس لتبدأ رحيلها الليلي تدنو مني الزرايزر توقظني، بمس الجفون وحافتي أذني، في منامي منذ سبع سنوات، بعد وصولي بأربعة أيام جاءني صاحب قديم، غابت أخباره عني منذ أحوال، بدا شابًا كما عرفته، قال إنه ملم بألفة الأسراب لي، ومحبي لأنواعها، قال إن هذا عجيب، يعني أن شيئًا صافيًا من زمني الأول ما زال مكنونًا عندي، قال إنه يوصيني بطائر نادر أفلت من رففته فضل مساره، إنه الحسنون المغربي، سيأتي إلى موضعي، رأسه من درجة لون حمراء لا شبيه لها حتى في أندر الأصباغ واليوافيت، ما عليّ إلا أن أمسكه برفق، وأن أحفظ به وأسافر شهًا إلى أيدوس، أطلقه فوق الأوزيريون، هناك سيهتدي إلى ولافه تطلعت إليه غير راض، تكليف

غريب لم أعتده، لم يحدث قط أن خطر لي إمكانية التفكير في مدّ يدي قاصداً التقيد إلى أي طائر من أي نوع، استيقظت كدراً حتى إن عم محمود استفسر عندما رأي في الصبح إذ يتنفس.

«مالك... جرى لك شيء؟»

لم أنطق، فقط تطلعت إليه صامتاً، بعد الظهر مضيت إلى حيث موضعي، لمحت أسراباً شتى، ما هذا الحسون المغربي؟ لم أسمع بذلك، عندما أصبحت قاب قوسين أو أدنى فوجئت بردة فعل لم أعهد لها، كل الطيور التفتت ناحيتي حركة غير معروفة لي، اندلعت مرفرفة في الجو، غابت عني ولم تعد لي حتى يومي هذا...

يَمَامُ أَبَدًا

جاء في كتاب الإصطخري المفقود «سجع الغمام في أخبار اليمام» إنه من الأنواع المرصودة جنس يُقال له: «راحل» يطير منذ خروجه من البيضة حتى دنو منيته، يعد من أصغر الأنواع الموجودة حجمًا، لا يتجاوز طوله كف اليد إلا بمقدار إصبعين في بعض الأخبار غير المؤكدة، يطير على ارتفاعات عالية حتى إن الجوارح القوية لا تقدر على بلوغه، لا يعرف أسرابه الكثيفة إلا بعض سكان الجبال المرتفعة عندما يرون عبور ما يشبه سحبًا كثيفة مختلفة ألوانها، أخضر وأحمر وأصفر وأخرى لا يمكن توصيفها لأنها غير موجودة في سائر أنواع الطيور المعروفة لهواة الأصناف كافة، يقول سكان الهضاب المرتفعة، من منغوليا إنه لو تصادف رؤية الأسراب قبل غروب الشمس أو شروقها فإن ما يصدر من أصداء الألوان في الفراغات العلا من أعاجيب الوجود، غير أن هذا لا يتاح إلا نادرًا وربما كل عدة أجيال، فمن الموثوق به أنها لا تسلك مسارات محددة شأن كل ذي جناحين، إنما في هيامها الدائم تتبع ما يصدر عنها وربما يكون لأحوال الجو على تلك الارتفاعات القصية تأثير، قال البعض هذا، لكن كل ما يتردد غير موثوق به، لأن جمع الدلائل صعب مع بعد الارتفاع القصي، يؤكد الإصطخري أن بعض سكان جزيرة سومطرة في المحيط الهندي يؤكدون أن «ييام أبدا» لا بد أن يمر بالجزيرة والسبب وجود شجرة من اللبان، نادرة، لا تنمو إلا فوق مرتفعات الجزيرة، ومن أجلها جاء المصريون القدماء لأن طقوس عبادة الإله في قدس الأقداس لم يكن ممكناً أن تتم إلا مع

الدخان المتصاعد من فحم خاص لا يوجد إلا في أقصى جنوب المعمورة فيما يلي منابع النيل، ونوع نادر من البخور ينمو شجره في صلالة بساحل عمان بين أشجار كثيفة من جوز الهند تنبت وتثمر قرب قرية صغيرة من إقليم ظفار، شجر جوز الهند لا يعرف إلا في أقطار آسيا عدا هذه المنطقة.

أقول إنني قرأت ما نقل عن الإصطخري، للأسف لم يصل إلينا إلا شذرات من مؤلفه في كتب متفرقة، وإن ذكره جزيرة سومطرة كان دافعاً قوياً لا يعلمه إلاي للانضمام إلى هذه الرحلة الخاصة التي أعدت لكاتب ألماني شهير احتفى به واستقبله القوم بحفاوة ضمن ذلك تخصيص طائرة تقلع صباحاً من عدن وتعود مساءً، إلا أنني سألت عن إمكانية بقائي يومين، فقبل لي: على الرحب والسعة؛ ذلك أنني مضطر للبقاء ثلاثة أيام حتى موعد الطائرة التالية العادية، نزلت ضيفاً على مسئول الزراعة في المدينة، إقامتي بطول الحديث عنها وربما أدون مفرداتها في مجال آخر إذا سمح الوقت وخلا البال، إلا إنني أورد ملمحين، رحلتي الشاقة في عربة رباعية الدفع، حكومية، قادها الناظر بنفسه في مدق وعريرتني تلاً متوالية كلها مزروعة بأشجار اللبان، مشهده غريب، جعد، متشابك، خاصة الجذع ثلاثي الشجر، أضفى على المكان غرابة، لكن الشجيرات السبع النادرة التي يعبر يمام الأبد المحيط من أجلها قائمة، محاطة، محمية بالأهالي، الجزيرة كلها محمية طبقاً لقرار من الأمم المتحدة، خبراءها يقيمون في أماكن خاصة، غير أنهم يتجولون باستمرار للحفاظ على مظاهر الطبيعة، والظروف التي تؤدي بآلاف الكائنات البحرية الغربية، كثير منها غير معروف في المراجع المختصة، رأيت لحظات خروج القشريات والسلاحف وأنواع الإستاكوزا ضخمة الحجم، بعضها في طول صبي تجاوز العاشرة، سمعت أصوات الملاغة والسفاد، توقفت طويلاً أمام الأشجار السبع، درت حولها، لم أتجاوز الحواجز الدائرية المغروسة، قال الناظر إن ثمة عُرفاً ينظم العناية بها، ترعاها عائلة يتكلم أفرادها لغة خاصة بهم، يؤكدون أنها

المصرية القديمة التي كانوا يتخاطبون بها مع الرسل القادمين لاستجلاب البخور النادر من تلك الشجيرات، للأسف لم ألتق أحداً من الأسرة، تعلل ناظر الزراعة بأسباب شتى، وربما حال بيني وبينهم لسبب ما، غير أنني التقطت صوراً، وفيما بعد مضيت إلى مقري ومثواي في البر الغربي، استيقظت مبكراً قبل قدوم السائحين، خلوت بالمعبد الذي لا مثيل لمعماره، أبدعه سنموت لمن ارتضته وقبلته صنواً ومكملاً لفراعاتها، عمال وفنانو دير المدينة ألبوا بالصلة، سجلوا ما خمنوه على شقف الفخار، الأوسترايكا، تفحصت الرسوم فوق الجدران، ترسخ يقيني أن ما عاينته في سومطرة هي المسجلة على جنبات المعبد المفرد في حضن الجبل، غير أن ما لفت نظري وحيرني رسوم عصافير دقيقة تتخذ وضعاً لا هو على الأرض ولا في الفراغ، أجنحتها مرفرفة بطريقة مغايرة كأنها تهفّف إلى أسفل، أيمن أن تكون هي؟ إذن ... كيف تمكّنوا من رؤيتها وتفحصها، عدت إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من طيور مضرّ، خاصة «طيور مضرّ» للكلونيل «مينر تهاجن» وآخر للدكتور أحمد الحسيني وثالث شامل جامع لمحمد العناني ورابع من وضع برتل برون إضافة إلى ما جاء ذكره في المصادر القديمة مثل «الحيوان» للدميري و«الحيوان» للجاحظ وكتاب مغربي لمؤلف مجهول وجدت فيه ذكرًا يمكن إدراجه في مجال التلميح، يذكر أن ثمة جنسًا من الطيور يطوف إلى الأبد بالفضاء، لو حط على أرض يموت. استعدت ما سمعته في سومطرة عن صلة غامضة بين شجيرات اللبان السبع وهذا النوع من اليام، سمعت عن التقيتهم تأكيدًا بوجوده وسباحته الأبدية في الفراغات العلا، لكن لم ألتق إفادة عن كيفية توالده، ورعايته للبيض خلال هذا التحليق اللانهائي، سمعت تفاصيل لا تخص نوعًا بعينه يتضمن قدرة الطيور على النوم خلال هجراتها الطويلة من مناطق الشمال إلى الجنوب وأثناء إياها، بعض أفرادها يغفو وآخر يبقى يقظًا، مع الاستدلال بالغريزة على الاتجاه ومواضع الوصول حيث الدفء والماء والغذاء، عند خروجي إلى الصحراء، إلى

حواف البحيرات راقبت ورصدت ودونت الأنواع وتفاصيل السلوك، لكنني عجزت عن التوصل إلى تفاصيل دقيقة مقطوع بها عن أيام الأبد هذا، الملح لي عجوز سومطري يعرف لغة الأسماك في أعماقها أن شجيرات اللبان التي اهتدى إليها المصريون القدماء هي العلامة الوحيدة في الأسفل التي يهتدي بها هذا الجنس النادر، من هذه الشجيرات تنبعث رائحة خاصة لا تقدر أي حاسة على التقاطها إلا أيام الأبد، أدرك المصريون ذلك فعمدوا إلى استجلاب هذا اللبان عبر شجيراته بعد أن وفروا له كافة وسائل النمو والتفتح داخل المعبد المعروف الآن بالدير البحري حتى تعبر الأسراب الخفية لصعوبة رؤيتها أو رصدها، للأمر صلة وثيقة بالمعتقد والرؤية، وهذا ما شق عليّ تحصيله أو الإحاطة بتفاصيله أو حتى بما يومئ إليها، غير أنني شغلت بهذا اليوم حتى أصبحت دائم التطلع إلى أعلى أينما حللت أو وصلت، لعل وعسى، أحياناً يقوى عليّ شعور بمروره على محاذاة مني إلى أعلى، جرى ذلك في مواضع لم أتخيل أن ذلك الحضور الغامض لما لا أدركه سيقوى عليّ إلى حد الرفرفة والهفرفة، يصعب عليّ إحصاء المواضع، أذكر على سبيل المثال وليس الحصر، ضفة نهر اليانجستي بالصين، وقمة سلمان بك بكردستان، وقرب مدينة الداخلة بصحراء المغرب، وعند شاطئ المحيط المحاذي لسان نازير الفرنسية، أما الموضوعان اللذان قوي عليّ الأمر فيهما، فهما البر الغربي بالقرنة والجلف الكبير بالصحراء الكبرى، وأخيراً زاد الأمر كل حين حتى لأسمع وأرى هفوف الأسراب الطوافة أبداً، والتي يتحلل كل منها فور دنو الأجل إلى ذرات خفية تبادر إلى التفرق في الفراغات سحيفة النأي، يقوى عليّ حضورها، مرورها، عبورها، رحيلها إلى اللاهية، أدركها على البعد، كأي أصير إليها...

مقتبس

يقول الجاحظ في كتابه «الحيوان»، حققه ودققه وشرح غوامضه عبد السلام هارون:

«الحمّام وحشي، وأهلي، وبيوتيّ، وطوراني - منسوب إلى طور سينا - وكلّ طائر يُعرف بالزواج ويحسن الصّوت، والهديل، والدُّعاء، والترجيع فهو حمام، وإن خالف بعضه بعضًا في بعض الصوت واللون.
وقال: القُمرّيُّ حمام، والفاختةُ حمام، والورشان حمام، كذلك اليمام.

مقتبس

ومن مناقب الحمام حُبّه للناس، وأنس الناس به، وأنت لم تر حيواناً قطُّ أعدل موضعاً، ولا أقصد مرتبة من الحمام، وأسفل الناس لا يكون دون أن يتخذها، وأرفع الناس لا يكون فوق أن يتخذها، وهي شيءٌ يتخذ ما بين الحجام إلى الملك الحمام.

مقتبس

ويقول الجاحظ عن لقاء ذكر الحمام بأنثاه:

يبتدئ الذكر الدعوة، وتبتدئ الأنثى بالتأني والاستدعاء، ثم تزيف وتشكل، ثم تُمكن وتمنع، وتحيب وتصدف بوجهها، ثم يتعاشقان ويتطاوعان، ويحدث لهما من التغزل والتفتل، ومن السوف والقبل، ومن المصّ والرشف، ومن التنفخ والتنفج، ومن الخيلاء والكبرياء، ومن إعطاء التقبيل حقه، ومن إدخال الفم في جوف الفم، وذلك من التطاعم، وهي المطاعمة.

ويقول:

ثم مع إرسالها جناحيها وكفيها على الأرض، ثم الذي ترى من كسحه بذنبه، وارتفاعه ب صدره، ومن صرّبه بجناحه ومن فرحه ومرّحه بعد قمطه والفراغ من شهوته، ثم يعتريه ذلك في الوقت الذي يفتر فيه أنكح الناس.

مقتبس

ويقول:

ومما أشبه فيه الحمام الناس، أن ساعات الحضان أكثرها على الأنثى، وإنما يحضن الذكر في صدر النهار حضناً يسيراً، والأنثى كالمرأة التي تكفل الصبي فتفطمه وتعرّضه.

مقتبس

قال مثنى بن زهير:

لم أر شيئاً قَطُّ في رجل وامرأة إلا وقد رأيتُ مثله في الذكر والأنثى من الحمام.
رأيت حمامة لا تريد إلا ذكرها، كالمرأة لا تريد إلا زوجها وسيدها، ورأيت حمامة
لا تمتنع شيئاً من الذكورة، ورأيت امرأة لا تمتنع يد لامسٍ، ورأيت الحمامة لا تزيف
إلا بعد طردٍ شديد وشدة طلب، ورأيتها تزيف لأول ذكر يُريدها ساعة يقصد إليها
ورأيت من النساء كذلك، ورأيت حمامة لها زوج وهي تمكن ذكراً آخر لا تعدوه.
ورأيت مثل ذلك من النساء.

مقتبس

وقال: لا يكون التقبيل إلا للحمام والإنسان، ولا يدعُ ذلك ذكر الحمام إلا بعد الهرم، وكان في أكثر الظن أنه أحوج ما يكون إلى ذلك التهيج به عند الكبر والضعف.

بيت هائم

ولا فما بالي ولم أشهد الوغى أبيت كأني مشخن بجراح

آخر

فالأرض تعلم أنني متصرفٌ من فوقها وكأني من تحتها

تعب

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مُرادِها الأجسامُ

«المتنبي»

سرٌّ

فكنْتُ إذا يَمُمْتُ أرضًا بعيدةً سرَّيتُ فكنْتُ السرَّ والليلُ كائمهُ

«المتنبي»

قُقْنَس

وكان بها فيما يزعمون الطائر الذي يقال له قُقْنَس، وهو طائر حسن الصوت وإذا حان موته زاد حسن صوته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن لأحد أن يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته ما يमित السامع، وأنه يدركه قبل موته بأيام طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصباح، وزعموا أن عامل الموسيقى من الفلاسفة أراد أن يسمع صوت ققنس في تلك الحال فخشي إن هجم عليه أن يقتله حسن صوته فسد أذنيه سداً محكمًا ثم قرب إليه فجعل يفتح من أذنيه شيئاً بعد شيء حتى استكمل فتح الأذنين في ثلاثة أيام يريد أن يتوصل إلى سماعه رتبة بعد رتبة فلا يبغته حسنه في أول مرة فيأتي عليه، وزعموا أن ذلك الطائر هلك ولم يبق منه ولا من فراخه شيء بسبب هجوم ماء البحر عليه وعلى رهطه بالليل في الأوكار فلم يبق له بقية، ويقال إن بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله فأعطاه قدحاً فيه سمٌ ليشربه فأعلمه بذلك فظهر منه مسرة وفرح، فقال له ما هذا أيها الحكيم؟ فقال هل أعجز أن أكون مثل ققنس:

خطط المقريري - أول - ص 18

أين سحر اليمام؟

تقول بربرة إلنا أسترالية الموطن - في كتابها عن اليمام:

ماذا يجذب الإنسان إلى اليمام، إلى الحمام، إلى سائر الطيور، أهو التنوع الجميل؟
من اليمام الصغير صاحب الأطواق، إلى ملكة الحمام فيكتوريا المتوجة، إلى الحمام
الطابوتشيني الهولندي القديم، إلى حمام الترومبيتر الفرنكفوني، إلى الزراير
والقماري المصرية؟ هل هو السحر الذي يقترن مع غريزة العودة إلى الديار،
وغريزة السرعة التي تقترن بالأنشطة الرياضية؟ أم أن السبب هو روعة التحليق
في السماوات وتوقنا إلى ذلك؟ أم أن الإجابة تكمن بالقرب منا، أي أن الطيور ترمز
إلى الآخر بالنسبة لنا؟

شعر

قال الخليفة المأمون: مهما وصف الناس الدنيا لما قدروا على الوصف كما قال أبو نواس:

ألا كلُّ حيٍّ هالكٌ وابنُ هالكٍ وذو نسبٍ في الهالكينَ عريقُ
إذا امتحن الدنيا ليبس تكشف له عن عدوٍّ في ثيابِ صديقٍ
ذكر ذلك ابن خلكان في «وفيات الأعيان».

تعريف

قال ابن بختويشع في كتابه الحيوان، وهذا نادر جداً:
«الأتن: بضم الهمزة والنون، طائر يضرب إلى السواد، له طوق كطوق الدبسي،
أحمر الرجلين والمنقار مثل الحمامة إلا أنه أسود، إذا اعتراه حزن، أو أسى، ينوح
كالنساء.

تعريف

جاء في الجزء المفقود من «الحيوان» لأرسطو ما نصُّ ترجمته:

«الأنيس: طائر حاد البصر، يرى من مسيرة ثلاثة أيام، يشبه صوته صوت الجمل، مأواه قرب الأنهار والأماكن كثيرة المياه، ملتفة الأشجار، له لون حسن وتدبير في معاشه، يحب الأنس ويقبل الأدب والتربية، وفي صفيره وقرقرته أعاجيب، وربما يفصح بالأصوات كالقمري، وربما أبهم كحممة الفرس، غذاؤه الفاكهة، وربما اللحم، ويألف الرياض.

وحشة علي

جاء في «عمل اليوم والليلة» لابن السني عن خالد بن معدان عن معاذ ابن جبل، أن علياً رضي الله عنه شكّا إلى النبي عليه الصلاة والسلام الوحشة فأمره أن يتخذ زوج حمام وأن يذكر الله عند هديله...».

وفي سنن أبي داود والنسائي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة».

مسافات

جاء في «الحيوان» للدميري، أن من طبعه أنه يطلب وكره ولو أرسل من ألف فرسخ، ويحمل بالأخبار ويأتي بها من البلاد البعيدة في المدة القريبة، وفيه ما يقطع ثلاثة آلاف فرسخ في يوم واحد، وربما اصطيد وغاب عن وطنه عشر حجج فأكثر، ثم هو على ثبات عقله وقوة حفظه ونزوعه إلى وطنه حتى يجد فرصة فيطير إليه وسباع الطير تطلبه أشد الطلب وخوفه من الشاهين - الصقر - أشد من خوفه من غيره وهو أطير منه كله، لكنه يذعر منه ويعتريه ما يعتري الحمار إذا رأى الأسد، أو الشاة إذا رأت الذئب والفأر إذا رأى الهر.

طوق

حدث بعض القدامى فقالوا إن نوحًا أرسل الغراب والحمام من السفينة لما استقرت على الجودي، فلم يرجع الغراب فدعا عليه، ورجعت الحمامة فدعا لها، فتزينت بالطوق عن سائر الطير.

طائر

تتنوع أسماء الطيور وأنواعها، لكنها تبقى دائماً وأبداً مظهرًا من مظاهر الروح الإلهية لتربط رمزيًا بين الظاهر والباطن، بين ما هو محدود مقيد وما هو مطلق، عند تتويج الملك على الأرضين، مِصْرَ العليا ومِصْرَ السفلى، يقوم بإطلاق أربعة من الطيور إلى الجهات الأربع الأصلية ليعلم القاصي والداني، الظاهر والخفي أن ملكًا جديدًا تولى ...

بـ

إنها المكون التالي للاسم في الإنسان وسائر المخلوقات، إنها الروح، تظهر في الرسوم وبعض التماثيل على هيئة جسم طائر رأسه بشري، تفتن البـ بالكا لتمدا الكائن بالطاقة الروحية اللازمة للسعي، الكا هي النفس، وفي ريف مِصْر العليا ما يزال القوم يلتزمون الصمت عند ظهور فراشة خضراء، إنها روح عزيز راحل جاء لزيارة من يحب.

حمام اليمام

قال الأصمعي في كتاب: «الطير الكبير» إن اليمام هو الحمام البري، الواحدة يمامة وهو ضروب، والفرق بين الحمام الذي عندنا واليمام أن أسفل ذنب الحمامة مما يلي ظهرها فيه بياض، وأسفل ذنب اليمامة لا بياض فيه، انتهى.

طوق

نقل النووي في التحرير عن الأصمعي، أن كل ذات طوق فهي حمام، والمراد بالطوق الحمرة أو الخضرة أو السواد المحيط بعنق الحمامة في طوقها.

عب الماء

وقال الإمام الشافعي في «عيون المسائل»: وما عبَّ من الماء عبًّا فهو حمام، وما شرب قطرةً كالدجاج فليس بحمام.

شعر

شقيق بن سليك:

تغني الحمام الورق فاستخرجت وجهي	ولم أبك حتى هيّجتني حمامة
من الوجد شوقاً كنت أكتمه جهدي	وقد هيّجت مني حمامة أيكّة
لوقت ربيع باكر في ثرى جحد	تنادي هديلاً فوق أخضر ناعم
ونذكر منه ما نسرّ وما نُبدي	فقلت تعالي نبك من ذكر ما خلا
والأفاني سوف أسفحها وحدي	فإن تُسعديني نبك دمعتنا معاً

شعر

جحدر الفقعي:

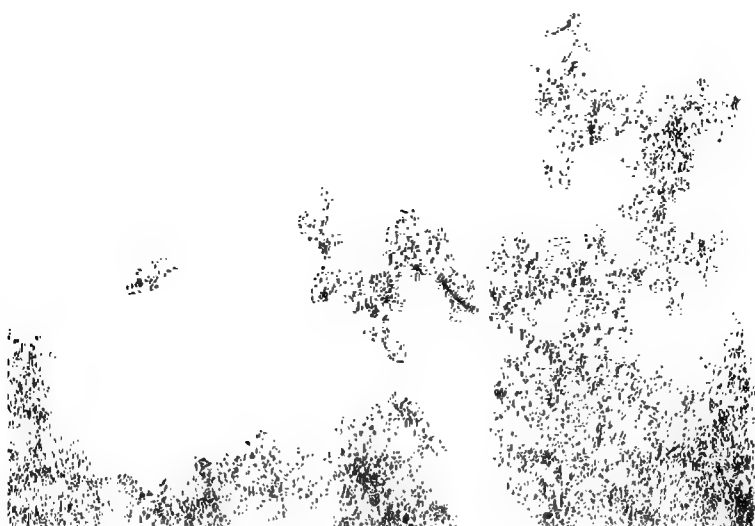
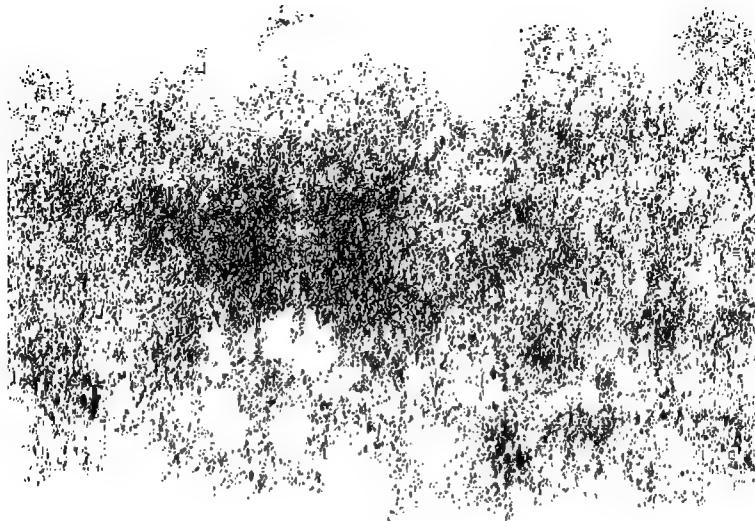
وكنْتُ قد اندملتُ فهاج شوقي	بكاءُ حمامتينِ تجاوبانِ
تجاوبتا بلحنٍ أعجميٍّ	على غصنينِ مِنْ غربِ وبانِ
فكان البانُ أَنْ بانت سُلیمی	وفي الغربِ اغترابٌ غيرِ دانِ

شعر

مجنون ليلي:

لقد هتفت في جنح ليل حامية	على فَنَن تدعو وإني لنائم
فقلت اعتذارًا عند ذاك وإنني	لنفسِي فيما قد رأيتُ للائم
أأزعمُ أني عاشقٌ ذو صبايةٍ	بليلى ولا أبكي وتبكي البهائم؟
كذبتُ وبيت الله لو كنتُ عاشقًا	لما سبقتني بالبكاء الحمايم





حكايات مراکشية

في قبة الأمراء المراكشيت

أجلس ما بعد تمام الغروب، فضاء مراكشي مفرق، قبة مستوفية الاستدارة تامة النسب، مشرفة على سرحة ماء مؤطر في مستطيل رحب، حدائق محيطة، منصة بسيطة، اسم الموضع بعث عندي حيناً ما إلى أمور لا أستدل عليها، قبة الأمراء، أجلس بين مدعويين وضيوف من بلدان أخرى، بعد المفتتح انتقلت عضوات الفرقة الإيرانية إلى الصدارة فحللن عندي أهلاً ونزلن في روعي سهلاً، خاصة تلك البنية ممسكة الطار، نحيلة، فارهة، ستبقى من ثوابتي، تفاجئني حيث لا أتوقع وفي مواضع لم أبلغها إلا بعد طول ترحال واغتراب، وقفتها، جلستها، عزفها، لم أعرفها إلا من خلال مراقب البصر، صلتني بالموسيقى الفارسية يطول الحديث فيها، ربما أفصح في مقام آخر، غير أنني أوجز فأقول إنني عرفتُها بالتداعي بعد إيجالي في تذوق الموسيقى التركية ومعرفة أحوالها وأعلامها، في ضاحية باريسية على الطريق المؤدي إلى مدينة ليل التي أعرفها أولاً من الروايات القديمة ثم بالإقامة، التقيت موسيقيين إيرانيين، عازف متقن لآلة السيتاد الوترية، مستخرج لأدق مكامنه، على شاطئ المحيط التقيت في سان فرانسيسكو بعازف للآلة نفسها، قادر متمكن، هما صنوان، الأول اسمه داريوش إطلاعي، الثاني حسين علي زاده، لكل منهما حضوره وطرائقه، لكل أسلوبه وروحه، أحتفظ بتسجيلات وافية واضحة للحفلات التي حضرتها لكل منهما، الأمر مغاير لما أصغي إليه وأتلقاه من أخرى لم أكن جزءاً منها، إذ يدوي التصفيق أتجه أكثر إلى ما كان، إنها أنا جزء

من البنية. للأسف لم أحتفظ بتسجيل لما أصغيت إليه في قبة الأمراء، غير أن مطلع العزف يتجسد أمامي وفي سمعي بمجرد ورودها عليّ، ملاحمها مقامات وأنغام، هنا أستعيد ما دونته في «مقاصد الأسفار» أورده نصًّا:

كانت مثل زميلاتها الأربع الأخريات، نحيلة جدًّا، كأنها عصا ارتدت ثوبًا، ملاحمها مستطيلة، تبدو خلال مشيها وكأنها تحاول الاختباء من شيء ما لا يبين، كلهن يرتدين السواد ويغطين شعورهن بحجاب خفيف، يظهر ولا يسفر، يومئ ولا يشير، يوحى ولا يلفظ، زميلاتها أربع أستعيدهن جمعًا، لا فوارق بينهن، مجرد مساحة من لون قاتم الحلوكة، ملاحمهن اندمجت في ذاكرتي عداها، هي تمسك بطار أشبه بالغربال، الثانية أمامها قانون، والثالثة تحتضن كمانًا، أما الرابعة فلها التنبك، قريب من الطبل البلدي، غير أن ما ينبعث منه له رهبة، صوت مفرد، مهيب، أعرف أستاذًا تخصص فيها، جمشيد الأب، لقيته في رويامون بصحبة جمشيد الابن، لا أستدعي ما يتعلق بإيران إلا وترد عليّ النحيلة، ليس لأنها الأجل، ملاحمها خبيثة لا تلفت النظر، إنما تبدو متمهلة كرائحة العنبر، تبث بهدوء، صمت، يسمع منه حفيف يتصاعد حتى يصبح صوتًا لشلال كاسح لكل ما يكمن بين الصلب والترائب، الأجل أكبرهن سنًا، المنشدة. لم أعداها منهن لأنها لم تختص بآلة رغم أنها جزء منها، صوتها، جماها للعمر المتقدم تتجسد فيها رهافة وسريان الجميل، ما يضيفه داخل دافئ على خارج مهيب، طلة من الميراث الإنساني الرحب البديع، أرقب أنا ملهن تضبط ما يمسكن به، لا أدري من أين ستنبعث الأنغام، من الأصابع أم الأوتار والأسطح المشدودة؟ ترى: ماذا ستقدمه تلك البنية الرهيفة التي تبدو كظل لأصل خفي غائب لا ندري كنهه، الأناشيد من أشعار مولانا، وعندما نقول في كل لغات العالم مولانا فهذا يعني مولانا لا غيره، إنه جلال الدين دفين قونية، سافرت إليها بترتيب من صاحبي أكمل أوغلو، من مواليد مِصْرَ، الأبرز في إستانبول، تتأهب الفرقة النسائية، مفتتح حفلات السماع، تمسك الطار،

ترفعه إلى أعلى، من الطبيعي ألا يكون المفتوح إلّاها، هي ولا غير، النعمة الأولى وما تبقى توابع، تمامًا مثل ضربات القدر في مفتوح الخامسة لبيتھوفن، بداية لا تنقضي حتى لو توارت إلى حين، تظل بادية، ماثلة، محددة للمسار كله، مفتوح البداية أساس التكوين ومركز البنيان، هكذا الرواية والنقش والعمل السياسي، الخطوة الأولى إشارة، تحدد الوجهة والمستوى، الحفاظ عليها مؤشر التوفيق، لم يكن عزفها إلا تمهيدًا، مع بلوغ الأوج بدأت تفسح للصوت البشري، تقدمت الجليلة بدون خطأ، تصدرت الواجهة بدون سعي، توجهت إلى السماء المنبسطة فوقنا والتي بدأت حروفها النجمية في الظهور، وجهها صار أضوى، جمالها مراحل، شيئًا فشيئًا تتحد بما تقوله، لا أفهم ولكنني أدركت، ليس مهمًا معاني الكلمات، المهم مجملها، الإيقاع يمنحني الفهم الأثقب، لا أعرف التركية، أو الفارسية، أو الصينية غير أن الموسيقى مدخلي ومأخذي، لم أتبادل مع أيمن كلمة، خاصة النحيلة التي رحت أطوف بها، لم أستفسر من صاحبي جعفر عنهن، لم أهتم بالاطلاع على موضع نشأتهن، يستوي عندي انتماؤهن إلى خراسان أو كرمان، البصرة أو أزمير، شانغهاي أو مرسى علم. أحيانًا لا أريد المعرفة لأعرف أكثر، بقاء الأشياء الحميمة بعيدة في موضع المجهول يقربنا أكثر من الجوهر في هيامي لقائي، هواي بخارى وإقامتي قاهرية، ودليلي ما قاله الشيخ صالح يومًا في ساحة الأزهر عندما جاء قوم من الملايو، يحفظون القرآن ولا يعرفون معانيه، أشار إليهم مصرحًا: هؤلاء أعمق إيمانًا، ذاك قصدي.

سليطين

لسنوات لم أعرف المقصود بالاسم، إلى أن شرحه لي صاحب حميم من أهل المغرب، قال إنه تصغير سلطان فصارت تلك رتبته عندي وإن لم يقترن حضوره جهتي إلا بتلك الصيغة، «سليطين» لولا أنني أحتفظ بصورته، أطلع ترقق ملامحه، وسرحة نظراته وما صار لي معه، ولولا الصورة التي أبدو فيها قاعدًا عند قدميه لظننت أنه جاءني في حلم أو صار إليّ في حالات توهمي ما لم وما لا يوجد، عندما نزلت الدار، في اليوم الثالث جاء أحد أصحابي، جعفر من كنسوس، قال مبتسمًا مبتهجًا: اليوم بعد صلاة العصر سيحل بالدار الشيخ مصطفى سليطين نزيل أغمات منذ سبعة عشر عامًا، لم ينزل المدينة إلا مرتين، الأولى عند وفاة أمه والأخرى بعد ولادة حفيده الأول من ابنته فاتحة، وها هي الثالثة، منذ خمسة أعوام قرأ عليه أحد مريديه، أستاذ للأدب في جامعتي محمد الخامس ومونبيلييه مقاطع من كتاب «التجليات» أصغى وقبل أن يذهب الرجال قال له: إذا جاء صاحب هذا وأشار إلى الكتاب فأخبروني، ثم قال: سيكون لي معه مفاوضة، عندما علم الأستاذ بحلولي ضيقًا على موسميات مراكش المكرسة للترحال جاء، مضى إليه فقرر الرجل مفارقة معزله، وهذا نادر، حدد موعدًا ما بين العصر والمغرب، لم يخطر أحدًا بالطريق الذي سيسلكه إلى البيت، فلو شاع الأمر سيصير زحام وقد لا يتمكن، أمره معروف، وصيته شائع، المستر البعيد دائمًا مرغوب، هكذا لقيت نفسي في مواجهته، إلى جواره والد سي حبيب خادم ضريح الجزولي الكبير، صاحب

دلائل الخيرات، صافحته بهدوء مقاومًا رغبتني في تقييل يده، نصحني جعفر ألا أقدم، راح يتطلع إليّ وأنا أخفض محلي حتى أصير دونه، بدا مطمئنًا مُسرّيًا، متفهّمًا، قال شيئًا لم أتبينه غير أنني أكاد أوقن قربه من هذا المعنى:

«قريب كقرب الشيء من الشيء...».

«بعيد عني، بُعد الشيء عن الشيء...»

يتقارب من بعضه، يوشك على التلاشي من دائرة البصر، نحيل حاني الطلة، دائم الابتسامة، تتلاحق حروفه، تتداغم، أوشك على دخول هذا الحال، أحفظ أحيانًا كثيرة لمن أحب أصواتهم وتعلق بوجداني، أحيانًا أجهل الكلمات فأستدعي أخرى ثلاثم الوزن والإيقاع وتتحد بالمقام، غير أنني فوجئت بيسر التلقي وصفو المتابعة، رغم أنني لم أكن أستوعب إلا أن المعاني كانت تصل إليّ بدون بذل جهد للإصغاء أو لفهم المعاني، شيئًا فشيئًا يخفت صوته، يتطلع إليّ، بالكاد أرى حركة شفتيه، ثم كدت أوقن أنهما لا تتحركان، غير أن المعاني سرت منه إليّ بدون انقطاع، التساؤلات مني يقابلها الأجوبة منه، أحيانًا يستفسر، أو يطلب توضيحًا أو يطلب مني قراءة بعض مما دونته، أحببت إصغائه إلى كتاب التجليات، ما قرأته عليه منه، رافقني ذلك بعد ابتعادي وخلال أسفاري إلى أنحاء شتى من المعمور، ولولا أنني لم أطلب الإذن بالتصريح لذكرت ما انتهى إليّ من جميل الإلقاء والتلقي، غير أن ذلك لم يكن أغرب من حديث سي زروق إلى الحسنون.

مقام الرجال

منذ نزولي مراكش، عام تسعة وسبعين من القرن الماضي وسعيني إليه ومثولي في حضرته لم أنقطع عنه حتى في بعدي عنه وبلوغي الأفاصي، ترددت عليها كثيرًا وفي كل سعي أبدأ يومي الأول بالتوجه إليه، ألج فراغ القبة؛ جدرانها الأربعة من الألوان، كذلك شهوقها واستدارتها، أحمر وأزرق وأخضر منعنع، نأيت عن مدينة السبعة رجال غير أن فراغ القبة بقي معها، كذا ألوانها، ورائحة ماء الورد الذي يرشه خادم الحضرة على المريدين والقصاد والغرباء مثلي، أينما وليت وجهي يحضرني، يواتيني، يسري عبر مساري إلى قدس أقداس روحي. أما الموسيقى فأصغي إليها بمجرد أن يخطر لي الضريح وصاحبه، أتهدد وأطفو مع المقامات الأندلسية والمواجيد الخفية، اعتدت أن أقصده مشيًا، من آداب زيارة الولي الحميم التمهّل والترجل؛ أما التمهّل فيقتضي ببطء الخطو مع السير ولزوم الجانب الأيمن كلما أمكن ذلك، هكذا الحال مع السبعة رجال الراquدين حول المدينة على مسافات متساوية، سيدي الجزولي، القاضي عياض، أبو القاسم السهلي، يوسف الصنهاجي، عبد العزيز التباع، عبد الله الغزواني، لي مع كل منهم أحوال، أما سيدي أبو العباس السبتى فأمره غير ذلك وهذا حديث يطول لعلي مورده يومًا، يليه سيدي الجزولي، عند نزولي مراكش أطوف بهم أجمعين ماشيًا، غير أنني ألزم سيدي السبتى، لا أصل إلى مدخل مرقده إلا عبر أقواس وعمرات مظلمة بغير أسقف، على جانبيها نساء فقيرات يترقبن ما يجود به الكرام، عند دخولي واتجاهي إلى الركن الذي يتصدره

سي محمد عز الدين ضابط الإيقاع وحافظ الأنغام، حارس المقامات، هو الوحيد الذي عنده علم الموسيقى، يدرسها ويصونها، وليلة افتتاح مسجد مولاي الحسن الثاني كان على رأس الجوق يضبط المدائح وكنت أرقبه من شرفة علوية يمكنني من نافذة بالجدار أن أرى المياه العظمى المنبسطة إلى اللوحة، في كل مرة أرفع يدي بالتحية فيومئ للمصري القادم من بعيد، من صار معروفًا لأهل الحضرة والمقيمين بالمدينة القديمة، أقعد مترقبًا رؤية خادم المشهد، رأيته أول مرة وتعلقت بسعيه وإشرافه على الجمع، يرش ماء الورد على الحضور، ثم يوزع أكواب الشاي بالنعناع «الأثاي»، في كل مرة لا أراه أتوجس، أخشى السؤال حتى لا أسمع ما لا أتوقع، عند ظهوره يستقر الحال ويكتمل الأمر، تبدأ الحضرة حوالي التاسعة صباحًا، تستمر إلى ما قبل رفع أذان الظهر، صلاة الجمعة، تتدرج المقامات، ينشد القوم الموشحات المتوارثة ويتصاعد الدرج حتى يقلع إلى الفراغات العلوية، فينشج هذا ويدمع ذاك وينفرط عقد ذلك، كلهم من أهل مراکش، صناع، حرفيون، موظفون، متقاعدون، تجار، يحفظون الموشحات عن ظهر قلب، ما نعرفه في المشرق حال مغاير، نرتدي ملابس بعينها، نتجه إلى مكان بعينه، نرى عازفين وقائدًا، استهلال فاندماج ثم انصراف، عند سيدي السبتي الأنغام والنظم مثل السعي وسلوة الأغراب، من سدى ولحمة الحياة اليومية، هذا أمر آخر، بجوار القبلة مستطيل محدد يؤطر مرقد الولي الحميم، رضوان الله عليه، يرقد مستأنسًا بالسماح، حاضر معنا، لرقدته هنا سيرة، بعد وفاته، حمله القوم ليواروه في مراقد المدينة المجاورة للسور، غير أنه حاد بهم إلى هذه القبة، وذلك الموضع بالذات الذي رقد فيه ابن رشد أجدر الفلاسفة، شارح أرسطو، وجوهر الأجرام السماوية، انتهى النعش إلى هذا المكان، فوجئ القوم بصوته كما عرفوه.

«قم... هذا مقام الرجال...».

فوجئ الجميع بتشقق الأرض، عندئذ أقدم الأعوان، استخرجوا رفات ابن
 رشد، كفنوه، وأتوا بكل كتبه، وضعوه على الجانب الأيسر لدابة جهزت لتحمله
 مع سائر ما كتب إلى قرطبة حيث مهاده وملعب أترابه، حكى لي الشيخ مصطفى
 سليطين أن الكتب وكافة ما خط وضعوها في غرارة على الجانب الأيمن، فتعادل
 رفاتة مع سائر ما دونه واستقام الحال طوال الطريق من مراکش إلى قرطبة، برًّا
 وبحرًا، أما سيدي أبو العباس السبتي فرقد وحوله طيب وريحان ونعيم محبين،
 صرت أنا القادم من بعيد نقرأ منهم.

طنجية

في مراكش التقيت سيدي حبيب السمرقندي، تعرفت إلى أبيه راعي مقام سيدي الجزولي صاحب دلائل الخيرات وأحد الرجال السبعة، البيت مجاور للضريح، ما بينه والمسجد يسعى الوالد ليؤم المصلين في المواقيت الخمس، البيت مفتوح على الزنقة، لا يغلق بابه أبداً، فسيح الفناء، من طابقين، تطل الغرف على ممرات مشرفة، تحت أماكن الضيوف، وأعلى الأهل ومن والاهم، إكراماً لي ومحبة أفردوا لي غرفة في الطابق الثاني، فسيحة، رحبة، تطل على أسطح البيوت المجاورة، منها أرى مجمل المدينة وعند الأفق جبال الأطلس الشاهقة بلمعة ثلوج قممها التي تستمر طوال العام في برودة الشتاء القاسي أو قيظ يوليو الوعر، وهذا من أعاجيب مراكش، في المدينة يبلغ الحر مداه، وفي الأفق يبرق الثلج في ذروة الجبل والصيف، فسبحان من جمع النقيضين معاً، يتصدر الفناء المقعد، الجدران من جص فاسي منمنم، والأسقف من خشب مراكشي ملون، الجدران حتى منتصفها مغطاة بزليج مغربي منمنم، في البيت يلتقي أجناس شتى، معظمهم لا يعرفون بعضهم، لا يسألهم أحد عن منشئهم أو مقصدهم، يقعدون، إذا جاء وقت الطعام يدعون إليه، أحياناً يقف سي حبيب يشرح ما سيقدم خاصة إذا جاء أغراب، أجنب في الجنس أو اللغة، ما زلت أذكر وقوفه ذات عشاء وبين يديه الطنجية، الآن وقت هذا التدوين وقد انقضت سنون لا حصر لها، لا أدري ... أكان ذلك اسم الوعاء أو الأكلة - كما ينطقها سي حبيب - غير أنني أستعيد مذاقها، لحم ضأن مطهي

على الحرارة التي يضمهرها الفخار المدفون في رماد حار لنهار وليلة كاملة، يستوي متمهلاً هادئاً متفاعلاً، منصهرًا مع البرقوق والتين والزيتون وطور سنين، فما أهى وما أجهل! يبدأ سي حبيب بتوزيع المكنون في الأطباق التي يجاور كل منها رغيف خبز من القمح الصافي شبيه بالعيش الشمسي في صعيدي المصري، متعلق أنا به حتى إن صحبي وأحبابي إذا أرادوا إدخال السرور على روحي يأتونني بأرغفة منه، وأحياناً واحد لا غير فأنفرد به لأكله بدون غموس، سواء قل الحضور أو كثروا لا يحتاج سي حبيب إلى استبدال الطنجية، واحدة فقط يغرف منها مقادير متساوية، أيًا كان عدد الحاضرين لا يأتي بغيرها رغم صغر حجمها ومهما بلغ عدد الضيوف يستمر يأخذ منها ولا يتفد ما فيها، يظل يغرف إلى أن يتأكد من شبع الكافة، إذ ينتهي من آخر ضيف يمضي عبر عمر مؤدٍّ إلى ما لا أدري، هذا من أعجب ما رأيت، لكنه ليس الأغرب، فما ألمحت إليه مما رأيته من الحسون وصاحبه أعجب.

حسون

جرى ذلك في رحلة أخرى، شتاء، فيه تجيء الطيور المهاجرة من أقصى الشمال، ولي بها هيام، أتقصي مساراتها وأتفحص أوصافها وأنواعها، بل أبحث وأسأل عن عاداتها، إنها الطيور أمة من الأمم التقيت أسرابها في مواضع شتى من مِصرَ، خاصة عند الحدود الفاصلة بين الأخضر والأصفر، بين الزرع والجذب، بين الغيطان والصحراء. فوق سطح بيتنا في درب الطبلاوي، عاينت العصافير والهدهد، وفي شارع الجيزة أمام حديقتي الأورمان والحيوان رأيت «أبو قردان»، غير أن ما عرفته في الخلاء القريب من الماء والحقول يجل عن الوصف، خاصة عند مشاركتي دوريات رجال الصاعقة في الصحاري والمناطق البعيدة عن الضجيج والزحام ونفث الدخان والعوادم، مع اتساع المدن غيرت الطيور مساراتها التي ظلت تسلكها آلاف السنين، ليس هذا بالهين، الأمر عويص ويحتاج إلى شروحات فلا رجى ذلك، غير أن الخيال مهما شطح بي لم يكن ليبلغني ما أصغيت إليه من أنيسة الشوفشاونية لقيتها في مراکش، أقول باختصار إنها أميرة أندلسية العينين قادمة من الحقب المولية إلى زماني بكامل بهائها وجلاء حضورها، لو أني اتبعت طيفها لوليت عما أريد الإفضاء به إلى من لم ألتق به، فلا رجى، فلا رجى، هي من حدثني عن عيسى الوزاني، مشينا من دار الباشا إلى ساحة الفنا، إلى حافتها المؤدية إلى الكتبية المئذنة الأشهر، قدر لي رؤية شبيبتها «الخيرالدة» في أشبيلية، عاينت كلاً منهما وأنا أقارن مآذن القاهرة التي أعرفها واحدة واحدة، كل منها قائمة بذاتها لا تشبه الأخرى، في المغرب تتشابه الصوامع -المآذن- كذا في سائر الحواضر الكبرى

من بخارى شرقاً إلى بغداد وحلب واليمن، في مِصْرَ يختلف الأمر، كل مئذنة قائمة بذاتها، مفردة، للمغرب تأثير مائل في مئذنة محمد بك أبو الذهب المواجهة للأزهر، ومئذنة الناصر محمد بن قلاوون في بين القصرين، منمنماتها أندلسية جصية أرق وأدق من الدانتيل، لقيت عيسى عند طرف الساحة، يجلس فوق دكة مستطيلة، صافحنا وأبدى تهلاً بالشوفشاونية، قوامه فاره، ملاحه قُدت من صعيدي، يرتدي جلباباً مغريباً بنيّاً وطربوشاً أقل طولاً من الذي عرفته صبيّاً غير أنه اختفى بعد ثورة يوليو، يعرف سبب قدومنا، أبدى الترحيب وأشار إلى حيث يجب الانتظار، كأنه أعاد تشكيل هيئته، بسط يديه على ركبتيه، رفع رأسه صوب الفراغ، أصغيت إلى صوت متموج مستمر، عصفور ما، ما أعرفه، ما تأملته في القاهرة القديمة، له صوصوة، ما سمعته هنا تغريد عجيب، توقف، ثم عاد، توقف ليستأنف مرة أخرى، عند طرف الدكة حط طائر الحسون، عرفت أوصافه من الشوفشاونية غير أنني فوجئت برقته وانسيابية ريشه وخصوبة ألوانه، الأحمر المجاور للأخضر المشرب مع البياض المتداخل مع الأصفر، أما نممة العينين والأنف وتناسق الأطراف مع الجسم الانسيابي فأوجد عندي رققة وتسليماً، يتطلع إلى الوزاني، يرقبه، لسبب ما يبدأ عندي نغم لم أدر ما تصنيفه، غير أنه يمت إلى نوبة أندلسية من النوبات الإحدى عشرة التي وصلت كاملة إلى زماننا، لم أستطع تحديدها، بدأ الحوار بينهما، أوصتني الشوفشاونية بالصمت التام والإصغاء، وألا أسأل عن المعاني الكامنة إلا بعد طيرانه، تغريدات متبادلة مختلفة الطول، أحياناً تتوقف فجأة ومرات تتداخل كأنهما في مبارزة، من حدة إلى رقة هفوف ومن سلسال إلى صعود ثم تدرج فصمت يسير، بلغت لحظة لم أعد أدري من صاحب الصوت، الطائر أم الإنسان؟ وعندما استفسرت صاحبتني عن إحجامي وعدم نطقي بالسؤال، تطلعت إليها صامتاً، لم أقل إنني وقفت على ما دار بينهما رغم جهلي بلغة الحسون والسبب الذي دفعه إلى إقلاع مفاجئ...

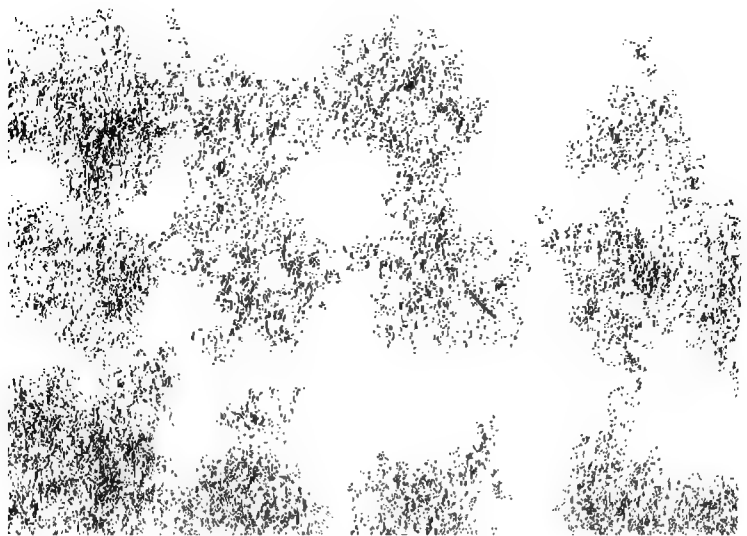
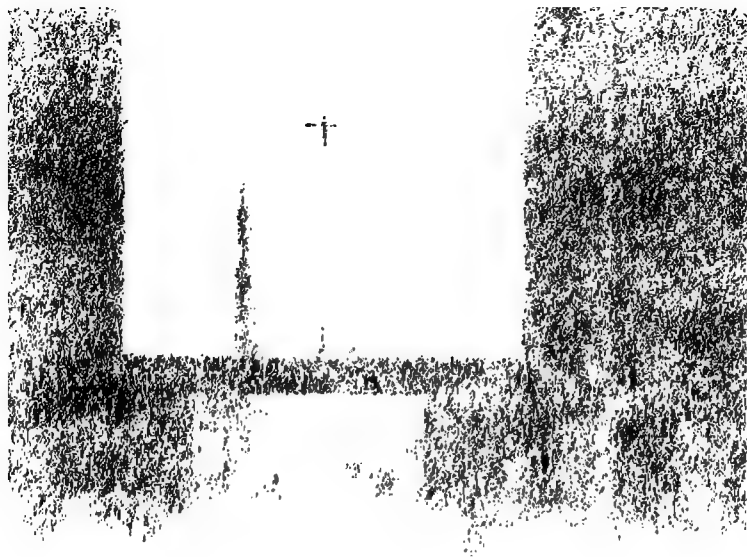
بلبل عراقي

جاء في كتاب الحيوان للجاحظ أن الحمام هو المخلوق الوحيد الذي يتتهج ويرفرف بأجنحته فرحاً بعد فراغه من الجماع، كل الكائنات، بما فيها الإنسان يدركها الهمود وتنكفى بعد بلوغ الذروة، حتى إن بعضها يدير ظهره إلى وليفه ويسعى إلى الوحدة، غير أن الجاحظ لم يعرف ما عاينته ولو ألم به لذكره في مؤلفه الفريد والذي لا ينافسه إلا «الحيوان» لكمال الدين الدميري وهذا سفر فريد عجيب، به تكتمل رؤية الإنسان إلى ما يعيش حوله من مخلوقات، في بغداد تعرفت إلى محمد القيسي، كان فناناً يهوى التمثيل، شارك في أعمال معروفة وله ذبوع وانتشار، ملم بالتراث الفني خاصة الموسيقى وبالأخص فنون المقام، أخرج بعضاً من التسجيلات النادرة، نسخها صاحب له غاب عني اسمه ولكن لم يغب عني موقع معرضه «أنغام التراث» الذي يقع حيث تشير إصبع معروف الرصافي من خلال تمثاله، منه اقتنيت تسجيلات نادرة لمحمد القبانجي ويوسف عمر وسهرة خاصة لناظم وحبيته سليمة مراد المعروفة بسليمة باشا، وصوتها لم أعرف له مثيلاً، أنشوي المطلع، به خشونة ذكورية، فما أغرب ما يتولد عن اجتماع الضدين في عنصر واحد، تسجيلات أخرى لزهور حسين، وصديقة الملاية، وباس خضر وغيرهم من المطربين ومشاهير العازفين، كل هذا من أصول يحتفظ بها محمد القيسي وقصد إتاحتها للناس، مع تقدمه في العمر، قصد افتتاح مقهى يحتوي على كل ما هو عتيق،

الماء يقدم في السطل المعدني، لم أعرف مثله إلا بائع مشروب الخروب في مواجهة مشهد سيدنا ومولانا الحسين بالقاهرة المعزية، وما زال في المقهى المطل على دجلة أقياص للبلبل العراقي، طائر نادر، بادي المعزة وغزير الزهو، مساء كل خميس يقيم حفلاً لقارئ المقام يوسف عمر، حضرته وجلست إليه وسمعت منه، ما زال يمثل عندي باهتزازة رأسه من يمين إلى شمال ومن شمال إلى يمين وشاربه الكثيف المصبوغ بالكوزماتيك والذي رأيت إعلانات عنه في سلسلة روايات الجيب التي كانت تصدر في الثلاثينيات والأربعينيات لصاحبها ومحررها عمر عبد العزيز أمين، القيسي خبير بطباع البلبل العراقي، دائماً يتابعه بعينه، بل لا أبالغ إذا قلت إن ثمة خيطاً خفياً يربطهما، فإذا لاحظت علامات وهن يدركها القيسي من مكمنه، المقعد الذي لا يفارقه، وطوال جلسته أتذكر الحاج فهمي الفيشاوي، وفم الشيشة لا يفارق فمه ليلاً أو نهاراً، كذلك محمد القيسي، ذات أصيل بغداد في الخريف قال لي إنني سأرى شيئاً عجباً لا يقدم عليه مخلوق في البر أو البحر أو الجو، انتبه إلى القفص الكبير الذي صنع في تونس وأهداه إليه أحد العاملين في السفارة، لوان لا غير، أبيض وأزرق، قال إنه وضع داخله زوجين متحابين، الذكر يزقق أنثاه، والأنثى لا تقرب الزاد إذا أدركه وهن، يرى منهما في ساعات الصفو والمحنة ما لم يعرفه في كائن ما، لم يقرأ عن مثل ذلك، قام متجهاً إلى القفص، أتى بمقعد وقف فوقه قبل أن يمد يديه ليفتح الباب طلب مني الانتباه، سوف أرى أمراً عجباً، ينزاح الباب إلى الخارج، لم يطل الزوجان على الفور، خطوة واحدة إلى اليمين، أخرى إلى الخلف ثم انطلقا كأنهما يتقنان الطريق، دار الذكر فوق النهر والأنثى في الاتجاه المقابل، شكلاً ما يشبه دائرة، ثم اتجه كل منهما إلى مركزها المتوهم في الفراغ، رقصة ما، اتجها إلى أعلى وعند حد معين تلاقيا، اتحدا، استمر ارتفاعهما بدون رفرفة، الرفرفة داخل كل منهما، خلال السمو إلى فوق يتوالجان، يسمع

تغريدتهما بعد الفراغ كأنه نغم شارد من منظومة، يعودان معاً، رأيت بعيني دخولهما
إلى القفص. عينا القيسي مغمضتان كأنه هو المتشي. في مراکش ينتظرون في ميقات
معلوم من الخريف قدوم سبعة أزواج من بغداد ليتسافدوا في الفضاء المراكشي،
ثم يعودون بعد رفرقتهم فرحين، لماذا يقطعون هذه المسافة القصية ليتناكحوا لا
غير؟! في الأمر أمر!





سديم

بيت هائم

ريحُ

يجولُ بأفـاقِ البلادِ مُغرِّبًا وتسحقُهُ رِيحُ الصبا كلَّ مَسْحَقِ

امرؤ القيس

يقين

إذا قلتَ المحالَ رفعتَ صوتي وإن قُلْتُ اليقينَ أطلتُ همسي

أبو العلاء

علم

واعلم أن العمر قصير والعلم كثير.

علم

يجب أن تعلم كثيرًا حتى تعلم أنك لا تعلم.

نية

النية أصل وشرط، الفعل تابع كالظل، الإنسان لا يتقرر حاله إلا بالنية، إنه يتغير من حال إلى حال، ولا يبدو على ظاهره أثر لهذا التحول، مثل أبي الذي جاء مضطراً من جهينة إلى مِصرَ، وأمضى بها نصف قرن أو أكثر فلم أعرف متى قدومه على وجه الدقة غير أنني أعلم يوم وساعة انتقاله، ما أنا على يقين منه أنه اضطر للإقامة من أجل العيش وتربية الأولاد ولزوم الحال، والحال متغير، قد يدوم ثواني وربما يمكث قرناً أو يزيد، ما أنا على ثقة منه أنه ظل يحن إلى أصل مولده، إلى موضع وفادته إلى الدنيا، فهو لم ينو المكوث في مِصرَ، لذلك ظل حُكمه مثل الجائع مدة بدون أن ينوي الصيام فلا يثاب على ذلك، ومثل المسافر الذي يرد على مدينة ويبقى مدة طالت أو قصرت فإنه لا يصير مقيماً، ما لم ينو الإقامة، وإذا نوى صار مقيماً. أما حالي في هذه الدنيا فأنا أعلم به وأدرى، ذلك أنني منذ أن وعيت إلى زمن حكيمي تلك الحكايات لا قرار لي، ولا نية للاستقرار، ولا لواح لذلك عندي، لذا أعي أنني غريب، راحل، متقل وإن أطلت العيش هنا أو هناك، ذاك حكيمي.

وقت

كثيرًا ما تأملت أشكالًا من الحياة أجهل أسماءها إن كان لها اسم. كائن في حجم ذرة دقيق، عندما رأيته أول مرة ظننته نثرة وبر، غير أن حركته نبهتني إلى كينونته، ثمة حيوات أخرى لا تظهر إلا عبر عدسات المناظير المكبرة، لا بد أنها ذات وعي ما، حاضر وأن وآت، ربما شكل آخر من الوعي لا ندركه، أقرأ عن عمر الكون، ثلاثة، أربعة عشر مليار عام مما نعد ونحصى، يتحدد البدء من الانفجار الكبير، في المتون العتيقة ثمة إشارات إلى بدايات مماثلة كما يصفه العلم، في متون الأهرام، في الخروج إلى النهار.

«في البدء كان هناك عماء».

«لقد جئت للوجود في الأزمنة السحيقة، ثم انشطرت مني منذ البدايات الأولى الأشكال المختلفة التي لم تكن قد تجسدت على الأرض من قبل، لقد أتممت كل عملي عندما كنت وحيدًا

عندما جرت البداية من جسم في حجم هذه الذرة المتحركة غير أنها كانت ذات كثافة لا يمكن أن أستوعبها كان كل شيء متضمنًا فيها، العناصر، الفلزات، الذرات التي أتكون منها، مضى على ذلك تلك المليارات من السنين، إذا كان للوجود مدة، فإن لي مدة، لهذا الكائن الذري مدة: الساعة عندي توازي مليون سنة من عمر الكون، اليوم ربما يساوي مليارًا، المليار يمكن أن يساوي ثواني

معدودات من عمر هذا الكائن الذي أرقبه وأخشى أن أتنفس قربه فيكون زفيري عاصفة هوجاء مدمرة لحياته.

لكن... مهلاً، مالي أمعن! مالي أتقصي! أأست القائل: إن الأمر نسبي؟ أأست من سطر أن ملخص الوجود يبدو لنا كل يوم، الفصول الأربعة تمضي على مرأى ومسمع، مراحل العمر ما بين شروق الشمس وغروبها! والعصر إن الإنسان لفي خسر، لم أكف عن طرح سؤلي كل حين رغم الإجابة الماثلة على مرأى ومسمع.

كلام

هذا أمر جبلت عليه، نشأت، واعتدت، عندما أتواجد في جمع، أو أواجه من لم أعتده، من يقوم بيني وبينه حاجز، عندما ينشأ عندي خجل في مواجهة حسناء أو شك على طرق بواباتها، أصمت بالحديث، أو أحيّد عن الكلام بالكلام، هذا أمر دقيق من صميم مكنوني.

حدث أن همّمت بمحبة قدرًا من الوقت، تجدد حضوري معها وصرت في خلق جديد، ثم إنها طلبت مني أن تعرفني إلى صاحب قريب منها، تبعتها إلى مقهى عند ناصية ما في شارع بعينه ممتد في مدينة أسكن إليها وفيها أهتدي، جلسنا، كان ساعيًا إلى القربى وكنت ممعنا في التواري، متمرسًا، في كل دقيقة أنشئ ساترًا وألف حجاب، فجأة تطلع إليّ بعد اتصال الكلام مني، قال:

«أنت تتكلم حتى لا تتكلم...»

في معتقل التحقيق، واجهت الضابط مرتدي الثياب المدنية، رائحة عطره النفاذ ما تزال في أنفي رغم انقضاء ثمانية وأربعين عامًا لحظة هذا التدوين، أمعنت في التفاصيل، استخدم مهاراته وما درسه وما عرفه من خبرات لإرغامي على إجابات محددة، ولم يزدني ذلك إلا سعيًا في الاستعانة بحالي، وعندما بلغ الحد الذي أيقن معه باللافائدة تبدل أدبه المصطنع، سبني ... لا، بل سب أمي، تطلعت إليه بعينين تردان ما فاه به، لم أنس ذلك قط، ذكرت ما جرى لي معه مرات، ولو جمعنا وقت

معاً لأسمعته ما تلفظ به وأنا حسير، لم يتبق من العسف والحبس ومعاناة الحواس
إلا تلك اللحيظة، ندبة في روحي، لم يشف الغليل أنني أجبت بالنظر، بصمتي، لا
يهدئني الآن إلا وعيي بأنني جبلت على الصمت منذ وفادتي، لم أخاطب صدقاً إلا
عندما صرّت إليّ...

مشيب

فما شاب رأسي من سنين تابعت طوَالٍ ولكن شيبته الوقائع
«عروة بن الورد»

اسم

قال تحوتي:

في البدء كان عماء، ثم أوجدت الأسماء فظهرت الأشياء والمعاني.
قرآن كريم: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾.

إنسان

قال حكيم صيني قديم:

الماء والنار يمتلكان الطاقة، لكن ليس لديهما وعي، الأشجار كذلك، الطيور والحيوانات لديها الوعي، لكن تفتقد الحس الأخلاقي، الإنسان يمتلك الطاقة والحياة فضلاً عن الحس الأخلاقي، هو إذن... الكائن الأكثر كمالاً تحت السماء. الإنسان ليس له قوة ثور، لا يستطيع الجري مثل الحصان، ومع ذلك يعمل الثور والحصان في خدمته.

لماذا؟ لأنه مؤهل للعيش في مجتمع، خلافاً للحيوانات، ما الذي يجعل البشر قادرين على العيش في المجتمع؟ إنه مبدأ التصنيف، ما الذي يجعل التصنيف فعالاً، إنه الحس الأخلاقي، هكذا... فإن اعتماد التصنيف انطلاقاً من الحس الأخلاقي يقود إلى الانتظام، والانتظام يقود إلى الوحدة، والتوحيد يقود إلى تضافر القوى، وتضافر القوى يقود إلى القوة، القوة تسمح بالسيطرة على الأشياء، هذا ما يتيح للبشر أن يعيشوا بسلام في أماكنهم، فليتبخوا حركة الفصول الأربعة، ولينظموا حركة العشرة آلاف كائن بطريقة تنفع العالم كله.

وقال أيضاً:

إذا بقينا متباعدين، لا نتبادل المنافع، نعيش في فاقة.

حلم

«الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»..

«حديث شريف»

حلم

قال كالدرون دي لا باركا في مسرحيته «الحياة حلم» نقلها إلى العربية من الإسبانية صاحبي صلاح فضل:

أيتها السماوات

لو كان هذا حقيقة، لكان هذا كله حلماً

فلتعتل مني الذاكرة

فليس بممكن أن يتسع حلم لكل تلك الأشياء

رحمتك يا رب فمن ذا يعرف

أن يخرج من كل هذه الأحداث

أو لا يفكر في أحدها أبداً

من ذا رأى أحزاناً مشكوكاً فيها؟

لو كنت حلمت بتلك العظمة

التي رأيت نفسي فيها فكيف الآن

بتلك المرأة تشير إليّ

بعلامات في مثل ذلك الوضوح؟

إذن كان حقاً، لم يكن حلماً؟

وإذا كان حقًا، وهذا آخر
من الاضطرابات ليس أقل
فكيف بها تسمى حياتي
حلماً؟ فهل هذه الأبعاد
تشبه الأحلام لتلك الدرجة؟
وهل الحقيقي منها يؤخذ على أنه أكاذيب
والزائف على أنه صحيح؟
ما أقل ما هناك من فرق بين جانب وآخر.
إلى حد أن تقوم مشكلة للمعرفة!
إن كان ما يرى وما يستمتع به
كذباً أم حقاً
فهل تشبه النسخة بهذا القدر
الأصل حتى يقوم الشك
في معرفة ما إذا كانت هي نفسها؟
إن كان هكذا لا بد أن ترى
وقد اضمحلت بين الظلال
العظمة والحكم
الجلالة والأبهة
فلنعرف كيف نستغل

هذه اللحظة التي قدرت لنا
فإننا لن نحظى منها
إلا بما يتمتع به رائي الأحلام.
هذا حلم، ليكون كذلك
فلنحلم الآن بالأفراح
فستصبح بعد من الأحرار
لكن... بنفس حججي
أعود لأقنع نفسي
لو كان حلمًا... لو كان وهماً زائلاً
فمن ذا يضيع بوهم بشري
المجد الإلهي؟
وأي خير ماض ليس بحلم؟
ومن ذا يذوق النعم البطولية
ولا يقول لنفسه عندما
يستعيدها في ذاكرته:
إنه بلا شك كان حلمًا
كل ما رأى؟ فلو كان هذا يمسس
زوال وهمي، لو كنت أعلم
أن الشهرة شعلة جميلة

يحيلها إلى رماد
أي ربح ينفخ فيها!
فلنهرع إذن لما هو خالـد
فهذا هو الذكر المعمر
حيث لا تنام السعادة
ولا تخبو العظمة
ما الذي يبهركم؟ ما الذي يفزعكم؟
إن كان معلّمي حلما
وراني لأخشى في أعماقي
أن أصحو منه مرة أخرى
وأجد نفسي حبيس السجن
وحتى لو لم يكن هذا
فحسبي أن أراه في الحلم.
فهكذا وصلت
إن كل السعادة البشرية
تمر في النهاية كأنها حلم
حلم:

قال الحكيم تشانج ووسه وهو يحاور صاحبه: أنت شديد العجلة في تقدير اتك،
ترى بيضة وتوقع للحال سماع الديك، تنظر إلى السفود وتوقع أن يوضع أمامك

حامة مشوية، سأحدث إليك حديثاً عشوائياً فهل يمكنك أن تستمع إلى حديث عشوائي؟ كيف يقعد الحكيم عند الشمس والقمر ويمسك الكون بذراعيه؟

الحكيم يحيل كل شيء إلى كل متجانس، يرفض التمايزات، يتجاهل الفروق في المراتب الاجتماعية، يكدح الناس، يكدون، والحكيم بدائي المعرفة، عديمها، يطوي عشرة آلاف سنة معاً ويقف عند الواحد، الكل، البسيط.

جميع الأشياء هي ما هي، تقتفي مجراها تلقائياً.

كيف لي أن أعرف أن حب الحياة ضلال؟

أن أعرف أن من يخاف الموت لا يشبه إنساناً كان خارج منزله في شبابه فلم تكن له نية العودة إليه؟

لي تشي ابنة حارس الحدود آي لما أخذتها دويلة تسين لأول مرة بكت حتى تبلل ثوبها بالدموع ثم لما وصلت إلى المأوى الملكي وشاركت الملك سريره الفاخر وتذوقت الطعام الزاكي تأسفت لبكائها:

ما يدريني أن الميت لن يندم على توفه للحياة؟

إن من يحملون بوليمة في الليل قد يأتيهم الصباح فيكون ويعولون، والذين ييكون ويعولون في المنام قد يخرجون صباحاً للصيد، وهم حين يحملون لا يدرون أنهم يحملون، وإنما يعرفون بعد أن يستيقظوا، شيئاً فشيئاً تحجب اليقظة الكبرى وعندها ندرك أن الحياة نفسها هي حلم كبير.

فراشة:

ذات يوم رأى تشوانج تشو نفسه فراشة في المنام، كانت الفراشة نحوم وتمتع ولا تعرف أنها تشوانج تشو، وفجأة استيقظ فإذا هو تشوانج تشو نفسه، نحن لا

ندري إن كان تشوانج تشو قد حلم بأنه صار فراشة أم أن الفراشة حلمت أنها تشوانج تشو؟

محااجة:

قال الحكيم تشانغ ووسه لصاحبه وهو يحاوره: لنفرض أنك حاججتي، لو غلبتني بدلاً من أن أغلبك هل أنت بالضرورة على حق وأنا على باطل؟ هل أحدنا محق والآخر مبطل؟ أو هل كلانا محق أو كلانا مبطل؟ لا أنا أدري ولا أنت تدري، وغيرنا أشد ظلامًا، من نسأل ليعطينا الموقف الصحيح؟ ربما نسأل أحدًا يتفق معك، لكن ما دام يتفق معك كيف يمكنه تقدير الموقف الصحيح؟ قد نسأل أحدًا يتفق معي ولكن ما دام يتفق معي كيف يمكنه وضع القرار؟ قد نسأل أحدًا يختلف مع كلينا ولكن ما دام يختلف مع كلينا كيف سيضع القرار؟ هكذا... لا أنت ولا أنا ولا غيرنا قادرون...

شذرة:

لكل أول آخر، لكل بداية نهاية.

«مفتتح الزيني بركات»

شذرة صينية لحكيم مجهول:

«ليس للبدء بداية أو نهاية، تعرف الكائنات حياة أو موتًا دون أن تصل أبدًا إلى تمامها، ممتلئة حينًا، وفارغة حينًا آخر، لا تستقر الكائنات في أشكالها الثابتة، لا يمكن الاحتفاظ بالسنين، ولا إيقاف حركة الزمن، انحدار ونمو، امتلاء وفراغ، لا ينتهي شيء إلا لبدأ شيء جديد...».

يقول زهانج زي:

«من يعرف لا يتكلم، ومن يتكلم لا يعرف».

جاء في اللاوزي:

«علة وجود الشبكة هي السمكة

ما إن تصطاد السمكة حتى تنسى الشبكة

علة وجود الفخ هو الأرنب

ما إن تصطاد الأرنب حتى يُنسى الفخ

علة وجود الكلمات هو المعنى

ما إن يُفهم المعنى حتى تُنسى الكلمات

أين أجد من يعرف أن ينسى الكلمات لأقول له كلمتين؟!».

قال كونفوشيوس:

«تعيش الأسماك مع بعضها في الماء، ويعيش الرجال مع بعضهم في

(الداو)⁽¹⁾».

بالنسبة للكائنات التي تتطور في الماء، يكفي حفر بركة ليجدوا فيها مادة

وجودهم، أما بالنسبة لأولئك الذين يعيشون في (الداو) فيكفيهم التعطل عن

العمل لتتابع حياتهم مجراها، وهذا ما يجعلني أقول إن الأسماك يسهو بعضها

عن بعض في الأنهار والبحيرات، والبشر يسهو بعضهم عن بعض في فن التزوج

بـ(الداو).

(1) «الداو» يعني الطريق.

من وحي كتاب صيني قديم؛ ترجم الأصل صاحبي محسن فرجاني إذا ما
تحركت الأشكال تولد الظلال، الظلال ما نراه وليس الأصول.

إذا ما هاجت الأوتار، يتردد الصدى

الناتج إذن أصداء وليس الأصوات ذاتها

إذا ما دارت دائرة العدم، ظهر الوجود

فلا يجيء من العدم مثال ذاته

العدم لا ينبج عدماً، إنها ينبج العدم وجوداً، والوجود يصير إلى عدم.

الأمر نسبي؛

كل شيء يرى القيمة لنفسه ولا يراها لغيره، إن قلنا إن شيئاً عظيم؛ فلأنه هكذا
من جانب بعض الأشياء، معنى ذلك أن كل شيء عظيم، وإن قلنا إن شيئاً ما
صغير؛ فلأنه هكذا من طرف بعض الأشياء، معنى ذلك أن كل شيء صغير، إن
قلنا عن شيء إنه صحيح؛ فلأنه كذلك عند البعض، ومن ثم كل شيء صحيح،
وإن قلنا عن شيء إنه خطأ؛ فلأنه كذلك عند البعض ومن ثم كل شيء خطأ.

كل شيء هو ذلك الشيء، كل شيء هو ذاك (غير للشيء) كل شيء هو «هذا»،
الأشياء لا تدري ما هو «ذاك» لأن وعيها قاصر على الـ«هذا» إن الـ«ذاك» والـ«هذا»
يتتجان بعضهما، وعليه حيثما وجدت حياة يوجد موت، وحينها يوجد موت توجد
حياة، حيثما يوجد «إمكان» يوجد «محال» وحيثما يوجد محال يوجد إمكان؛ ولأنه
يوجد حق يوجد باطل، ولأنه يوجد باطل يوجد حق.

القيام بالإنشاء هو الهدم نفسه، بالنسبة للأشياء ككل لا وجود لإنشاء ولا
هدم، كل شيء من كل شيء.

«ذات يوم، وفيما السيد هوان مستغرق يقرأ في القاعة، وبينما نجار العربات «بيان» يعمل على نجارة دولاب في أسفل الدرجات، وضع هذا الأخير مقصه ومطرقته جانبًا، صعد الدرجات، سأل السيد: ماذا تقرأ؟

أجاب السيد: إنها أقوال الحكماء...

قال النجار: أي حكماء؟.. هل يوجدون الآن؟

قال: كلا... لقد ماتوا منذ وقت طويل.

قال النجار: إن ما تقرأه ليس إلا فضلات القدماء.

غضب السيد قائلاً: كيف يجروُ نجار على التناول على ما أقرأ؟

إذا أحسنت الدفاع عن نفسك وإلا فالموت لك؟

قال النجار «بيان»: يرى خادمك الأشياء من خلال تجربته المتواضعة لصنع دولاب، الضربة الخفيفة لا تقص، الضربة القوية جداً تنزلق عن الخشب، لا إفراط في القوة أو اللين، الضربة باليد، وردة الفعل في العقل، إن في داخل هذا مرارة تعجز الكلمات عن تجسيدها لم أستطع تعليمها لابني، كما أنه لم يستطع تعلمها مني، وهكذا، رغم أنني في السبعين فلا أزال أعمل في صنع العجلات، لقد أخذ القدماء بموتهم، أخذوا معهم كل ما لم يستطيعوا نقله، وبالتالي فما تقرأه ليس إلا فضلات القدماء...».

13

13

1

4

13

13

13

13

13

13

13

ثمانية

عبود القائد

ثمانية أشقاء، كُل منهم اسمه عبود، والدهم عبود وجدهم الأول والثاني حتى السابع عبود أيضًا، عرفت منهم ثلاثة وسمعت عن الأربعة الآخرين، خمسة منهم غابوا قبل أن أبلغ البر الغربي وأعتاد عليه حتى ترسخت إقامتي فيه، ولو ساعدتني الظروف لانهيت إليه وما فارقت أبداً، أما عبود الغائب فتعرف إلى نمساوية تزوجها وصحبته إلى بلادها، انقطعت أخباره تماماً، لا يذكر أي من أشقائه الثلاثة أي تفاصيل عنه لولا أنني علمت بأخباره من الحاج أحمد الكتبي الذي اتخذ موقعاً له أمام مقبرة سنجم رع حتى فارق إلى الأبد، وقد علمت بعد حين وحزنت عليه، إذ كان بيني وبينه سلوان وتلطيف، وتظل طلته نادرة عند استعادتها، كذا ابتسامته التي يقابلني بها، إذ أفد عليه وأحل. رحم الله الجميع، كافة من سبقوني من كافة الملل والأجناس، الحاج عبود ترتيبه الرابع بين أشقائه، طويل له بسوق نخلة ورصانة مسلة، للملاحه بُعد خفي كأنه يطالعنا من وجود آخر، يؤكد ذلك صوته المصحوب بصدى لم أعرف مثله، بيته مجاور لمحلي الذي أمضي فيه أيامي، يمتلك عربة أجرة رقمها سبعة، طراز ييجو قديم، لها لونان، أبيض وأزرق، بيني وبينه مودة، ينتظرن في المطار أو على محطة القطار، يصحبني من الشرق إلى الغرب عبر الجسر الجديد ومن قبله عبر النهر بالمعدية، يتصل بي أو أتصل به بالهاتف، أصغي إلى صوته الذي يبدو لي قادمًا من أزمنة سحيق البعد، أتحرك معه، لا يعرف كل شبر في القرنة وما جاورها، بل يعرف الأحجار والأشجار، الطيور والحيوانات،

كل ما يزحف أو يمشي أو يطير، يحفظ مواعيد الرياح وأنواعها، ولم يخطئ فيما تنبأ به قط، قادر على رصد العقرب مهما اختبأ كذا الحيات، ما يؤدي منها وما لا يضر، حجة في أمور الخلق، متتبع للأنساب؛ من أنجب من، من تزوج بمن، من سافر، ومن انتقل، ومن هاجر، ومن استقر بعيداً، ومن «طفش» ولم يأت منه أو عنه خبر، اعتدت تناول إفطاري وغدائي وعشائي بالمطعم الذي مده عبود الخامس صاحب البيت في الحديقة، أرائك على الطراز القديم، مناخذ من جريد النخل، مظلات من الجريد أيضاً، فاتني القول إن السرير وكل ما في الحجرة من النخيل، حتى سقف البيت مسنود، مقام بجذوعها، عبود الرابع والخامس يحترمان رغبتني.. الانفراد؛ لا يقبلان على الجلوس إلا إذا دعوتها أو لمحا مني استعداداً، عدا عبود السادس الذي كان يجيء من بيته القريب من النيل، يسكن قرية حسن فتحي، أبوهم عمل معه وكان خير معاون، حافظاً لسره، للسادس هذا ذكر مني ورعاية أمر، صباح باكر وكل ما يلوح بنبي بقيظ حار، بعد تناولي الإفطار، أثناء شربي الشاي الغامق الذي اعتدت عليه، دنا عبود الرابع مبتسماً كما يبدو دائماً، مقدمة شعره تشبه أبي، عين درجة الخشونة، شعر يلف على بعضه.

«تفضل...».

سألني متقصياً، نبرة هادئة ربما تبدو جديدة عليّ.

«عندك إيه النهار ده ؟...».

قلت: إنني أنوي زيارة مرقد «مِنَى»، سمعت أن ألوان القط الذي يلهو بالسمة تحت الكرسي بهتت، قال: إن القط والسمة لن يذهبا بعيداً، غير أن ما يدعوني إليه لا يمكنني بلوغه والاطلاع عليه إلا اليوم وفي وقت لا يُلم به إلا هو. لما تطلعت إليه مستفسراً، أشار بيده.

«يلاً معاي...».

أيقنت أن في الأمر شيئاً، تقدمني إلى السيارة التي اعتاد إيقافها في المنحدر الذي لا يكاد يُلاحظ والمؤدي إلى المدخل المغطى بالأشجار والنخيل، حتى ليصعب رؤية المكان من الطريق، قدرت موضعه مكان قدس الأقداس بمعبد أمنتحتب الثالث، لم يتبق منه إلا التمثالان الشهيران في مواجهة الغرفة التي أقيم بها، أخرج إليهما في أويقات مختلفة، قبل الشروق وخلاله، عند منتصف الليل وقبل وبعد انبلاج الفجر وليالٍ عشر، عند الظهر وما قبل وما بعد المغيب وما بينهما العصر إن الإنسان لفي خُسْر.

اتجه صوب وادي الملكات، الطريق مرصوف إلى حافة الصحراء، إلى اليمين دير المدينة حيث أقام الفنانون، مشهورون برسم جداريات الآلهة والملوك والنبلاء ومشاهد العالم الآخر، غير أن أجل ما أبدعوه تلك الشقف الصغيرة التي أبدعوا فوقها أجل لوحاتهم، تحرروا من قيود المعبد وأشكال الآلهة والرموز المقررة سلفاً، محددة الألوان والأوضاع، القطع المعروفة بالأوسترايكا يرسمها كل منهم بعد فراغه من العمل في المراقد والمعابد والقصور، يشرب كل منهم البوظة وبعد أن يبدأ النشوة و«يونون» يشرع في التعبير عن ذاته، رؤيته، تنطلق رؤاه في هذا الحيز الضيق، هكذا رأيت في تورينو راقصة تشبه غوازي الصعيد، رسم للمهندس سنموت عشيق الملكة، على البردي، صورهما أحدهم في أفحش الأوضاع، من أصدق؛ الفنان الذي يقطع المسافة إلى المرقد السري معصوب العينين، يكشف بصره تحت الأرض ليصور الآلهة يقودون الملوك في الوجود الآخر؟ أم نصدق الذي انفرد بنفسه ليلاً وراح يبدع ألوانه هو وخطوطه هو؟! لكم حيرني هذا التناقض! تجاوزت العربية الطريق المرصوف، لم ألمح مدقاً مهدته الأقدام أو العربات، غير أن الأرض الرملية صلبة ساعدت السيارة العتيقة غير المزودة بآلات الدفع التي يمكن أن تساعد في التخلص من الغُرْز في الرمال، لم أقلق لثقتي في الحاج عبود، فاره، ثابت على المقود، كأن ملاحه قُدَّت من حجر نادر، يصعب الوصول إليه مثل

الديوريت الذي حُفر منه تمثال خفرع باني الهرم الأوسط، أعرف عشق السويدية له، جاءت من أقصى الشمال ضمن فوج، لمحت عبود الرابع عندما جاءوا لتناول العشاء في المطعم ذات ليلة، منذ أن وقع بصرها عليه حصل لها «تول»، عادت لتجلس أمامه، تنظر إليه لا غير، بدأت تتردد مرتين في السنة، أول الشتاء وآخره، دعتة إلى زيارة بلدة صغيرة تعيش فيها مطلة على بحر الشمال، سألتها عما إذا كان قبل الدعوة؟ أوماً، لم يفصل ولم ألح، غير أنني لا أدري كيف يمكنني تحديد من عرفت منهم أنه أمضى شهرين، وأنه عاد ليوصل حياته، يصحب أجنب من جنسيات شتى يفضلون صحبته في عربته القديمة، أحدهم كان صحفياً فرنسياً، كتب تحقيقاً صغيراً عنها وعن عبود شبيه أجداده الفراعين من أطراف عديدة علمت أنه رفض عروضها وإلحاحها للزواج منه، حتى إنها قبلت أن تحيي وتقيم كزوجة ثانية، تساعد امرأته الأولى، تطبخ وتغسل معها، ستتقن كل شيء حتى خبز الأربعة الشمسي التي تحب رائحتها عند خروجها من الفرن، غير أنه اعتذر بركة شارحاً، أن أم عياله ابنة عمه ولم يعرف منها إلا كل ما هو جميل، لماذا يؤذيها؟ قالت إنها تكتفي برؤيته، تمنى لو أنه قبل حضورها، ستقيم في البيت الذي يستضيف بعض ذوي الحساسية الخاصة والتحلق المتأني بها تركه الأجداد، بما أودعوه لرحلة الزمن، قال إنها على الرحب والسعة، أثناء إقامتها جلست إلى زوجته، تعلمت بعض الكلمات العربية غير أنها تفاهما بدون لفظ، إحدى مرات إقامتي رأيتهما، أثناء إعداد الغداء، تقشر البصل، تحرق الملوخية، توقد نيران الفرن، بعد أن تفرغ تقعد بين النساء والأولاد صامتة، غير أن ملاحظتها تعكس عين الرضا، اختلف القوم في عملها هناك، قال بعضهم إنها خبيرة بنوك، وقال آخرون إنها مدرسة، لا... طيبة شهيرة، وأكد البعض أنها تنتمي إلى العائلة المالكة، لكنها تعيش وحيدة، بمفردها، عبود الرابع لم يؤكد ولم ينف.

بعد أن أوغلنا في الصحراء الممتدة، لم أعرف كم قطعنا من المسافة والزمن؟ لم أدر... هل ما رأيته إنسان ما أم شُبه لي؟ لكن كلما اقترينا بانث ملاحه، عندما توقفنا تمامًا وبطل محرك العرب، نفس الملاح، كأنه عبود الرابع قبل عشر سنوات، تعانقنا، قبّل كل منهما كتف الآخر، يتسمم الرابع، يقول إن ثمة مفاجأة تنتظرني، وإنني سألقى كل العناية من محمود.

أيقنت أنه شقيق للثلاثة الذين أعرفهم، هل يمكن أن يكون هو السابع الغائب، ماذا يفعل هنا، أين نحن بالضبط؟ قال عبود الرابع إنني في عين العناية، سيرجع ليقضي غرضًا ويعود، اتجه إلى العرب، لم أنطق فلأر ما سيجري، بطل مني الخوف منذ زمن بعيد، ربما منذ إقامتي قبل حوالي تسعة وأربعين عامًا في قصر كبير هجره أهله على أطراف مدينة سمالوط، كانت صغيرة، قليلة العدد، الآن... امتدت، تجاوزت القصر، المباني التهمت الأراضي التي طالما تطلعت إلى خضرة النبات فيها، إلى تجاور النخيل الراسخ وأشجار أعرف قليلها وأجهل كثيرها.

«تفضل...».

تبعته، مستعيدًا بعض الأماكن التي بلغتها ودهشت لغرابتها، الجلف، جبل الجلالة، أعالي البحار، الجزر غير المسكونة في البحر الأحمر، لم أسأل عن المكان، عما سأراه، يبدو عبود كأنه يفكر في أمر لا صلة له بي، رغم الصحراء فإنني لم أرصد ذلك القيظ الذي خلفته ورائي، طقس محايد، لا برد، لا حر، أما الضوء فكأنه لا يصدر عن الشمس التي تزايد شعوري بنأيها السحيق، لم أحط علمًا بما سأشاهده، ما سأقف عليه، هل يصحبني إلى مرقد لم يكتشف بعد، لكنني موقن أن هذا الموضع لم يبلغه أحد ممن أعرف، حدود الوادي أقصى حد الغرب، القرنة، دير المدينة، وادي الملكات، توقف عبود السابع، بسط يده كأنه يقول بالصمت: تفضل

توقفت، تطلعت، لم أستطع التقدم مأخوذًا بالدهشة لأسباب عدة منها ما أبصرت، وحدة رؤيتي ونفاذي إلى بعيد...

عبود المهيب

هو السادس منهم، تقلبت به الأحوال من نقيض إلى آخر، ما عرفته عنه نثار من هنا إلى هناك، لم ألم به في مكان واحد أو وقت معين، إنما من خلال ترددي وإصغائي إلى أهل الناحية عند لقائي بهم في القاهرة أو مدن أخرى، أحياناً ترد سيرته عرضاً ومرات أقصد الاستفسار والتقصي، كان هادئاً طويل التأمل، يتوق إلى سلوك طريق الدكتور، وإذا قيل الدكتور في البر الغربي فالمقصود هنا الشيخ أحمد الطيب، لا يمكن إطلاق الصفة على غيره، الطبيب يسمونه الحكيم، بدأ سلوك طريقه، التحق بالكتاب ثم المدرسة الأزهرية بإسنا، لسبب ما لم أقف عليه لم يتم المرحلة الثانوية، عاد إلى البر ليتقلب في مهن عديدة أتقن عدة لغات بحيث يمكنه التعامل مع السائحين القادمين من جنسيات لم تكن معروفة مثل الروسية والصينية وجنوب إفريقيا وغير ذلك، عمل مع الحاج محمود في البيت الذي يؤجر غرفه للزائرين، وهذا نزل اشتهر أمره، عمل في فندق جديد، خمس نجوم في الضبعة، هناك تعرف على تلك الإيطالية ويبدو أن وثاقاً متيناً امتد بينهما، أرسلت إليه دعوة لا يعرف أحد كيف حصل على التأشيرة الأوروبية التي يُجرى التدقيق لمنحها، خرج من البر حاملاً حقيبة ملابس لا غير، حجمها صغير، منذ ذلك الصباح الباكر الذي ودعه فيه أشقاؤه الثلاثة، أصر على ألا يصحبه أحد إلى القطار رغم إصرار عبود الرابع على مرافقته بالسيارة التي يركبها الغريب والقريب، انقطعت أخباره مدة، ثم اتصل هاتفاً بشقيقه عبود الخامس الذي يدير البيت والمطعم، طمأن أشقاءه على الأحوال،

ثم غاب مدة، تلقى بعدها عبود الرابع بطاقة بريد من دولة إسكندنافية كما يفهم ذلك من طابع البريد، ما عرفته فيما بعد آثار دهشتي، إذ إنه واطب على الاتصال بالحاج أحمد الكتبي، يتصل به عدة مرات كل أسبوع أحياناً لمدد طويلة، مرة أبدى الحاج حرصه حتى لا يكلفه، قال ضاحكاً إنه يتحدث ببطاقات رخيصة يعرفها المصريون المهاجرون، جرى ذلك قبل معرفة الهواتف الذكية وأساليب الاتصال المجانية، أو صاني الحاج ألا أخبر شقيقه فاستجبت لرغبتني في معرفة المزيد عن الغائب، ولأني حريص جداً على ألا يقع بيني وبين القوم أدنى سوء فهم، ذلك أنهم لم يُبدوا لي إلا نقى المودة، وجميل الترحيب حتى إني صرت كأني قريب لأحدهم، أو شبيت بينهم ثم عدت إليهم، علمت أنه تقلب في مهن عديدة؛ نادل في مقهى، سائق عربة أجرة، موزع إعلانات عند تقاطع الطرقات، بائع زهور في المشارب والمطاعم ليلاً، ثم حمّال في محطة القطارات المركزية، آخر ما أفضى به أن رجلاً إيطالياً افتتح مطعمًا للبط البكيني تعرف إليه، عندما رآه، قال إنه يرى فيه ما طال بحثه عنه، في هذه الفترة كان يمر بظروف صعبة، مارس خلالها مهناً شاقة، صعبة، لم يفصح عنها الحاج، إنما أجهلها في عبارته: ربنا أمر بالستر، وكان باستطاعتي أن أفهم وأستنتج، المطعم يقدم البطة كاملة، معدة بالطريقة الصينية، غير أن لأكلها أسلوباً مغايراً لما نعرفه في مِصر، إذ تقدم من خلال طقوس لا نعرفها، يدخل المختص بتقطيعها بعد استقرار البطة على منضدة متحركة بجوار الزبائن، يحمل سكيناً كبيراً وآخر صغيراً، رهيف النصل، الرجل رأى في عبود كافة الشروط المطلوبة، أهمها المهابة والقدسية، إنه طويل، هو الوحيد بين أشقائه الذي يبدو كنخلة باسقة، ثم إن دراسته في المدارس الأزهرية أضفت عليه سمناً ووزانة وصمماً طويلاً في ملامحه، في حركاته وسكناته، غير أن الصفة الأهم ملامحه الصينية، لم يلحظ أحد ذلك في البر قبل هجرته، غير أن الحاج أحمد لاحظ ذلك، وله تفسير عجيب إذ معرفة اللغة تكسب الإنسان ملامح من يتكلمون بها، استعدت ما لقيته خلال

زيارقي لكلية الألسن منذ عقدين عندما كنت بحاجة إلى التعاون مع مترجمين من لغات شتى لمشروع كلفت به، عميد الكلية الذي تربطني به صلة جمع عددًا منهم، كان من بينهم صيني السميت، وجهت إليه حديثي باعتباره مستعربًا زائرًا، تبسم قائلاً: أنا مصري... عندئذ انتبهت إلى الحاضرين، أستاذ اللغة البولندية له ملامح أهلها، أستاذ اللغة الكرواتية كأنه وُلِدَ في بلاد جوزيب بروز تيتو، أما المتخصص في الأمهرية فغامق اللون رغم سكندرته، قال الحاج أحمد إنه أتقن الدور، حتى صار العديد من الزبائن المقتدرين يجيئون خصيصًا لانتظار لحظة دخوله بخطى متمهلة راسخة، ناظرًا إلى حيث لا يمكن التحديد، يتوقف لحظات أمام البطة، قبل أن يرفع السكين اليمنى الكبيرة، يشبثها بها، ثم يقطع جزءًا من الجلد تحت الجناح، يقلبها بخفة وتمكن، يجتزئ قطعة مساوية من الصدر، ثم الجزء الخلفي، ثم يقلب البطة، في أقل من دقيقة يحول الجلد واللحم إلى قطع شبه مثلثة، تاركًا الرأس سليمًا والهيكَل العظمي كله، يمسح السكينة الأولى على مهل في قطعة قماش بيضاء ملمومة فوق الصينية، ثم يتبع بالأخرى، بعض الزبائن يحرصون على التصوير معه قبل استدارته البطيئة ومضيه إلى حيث جاء، عندما يعود إلى بطة أخرى تتعلق به الأبصار من كافة الجالسين، منذ دخوله وأثناء تقطيعه أو وقوف البعض إلى جواره للتصوير وحتى استدارته عائداً لا يحيد بصره عن النظر إلى بعيد...

عبود المبدع

عرفت مثله، لا أذكره، لا يخطر على بالي، إلا ويرد الآخر، حاطون الذي اشتهر أمره وذاع بقدرته على التقليد المتقن لإحدى أئمن قطع مجموعة توت عنخ آمون، الكرسي، ورغم وجود أكثر من مقعد في المجموعة النادرة التي اكتشفها كارتر في عشرينيات القرن المنتهي فإنه معروف، مُجمع على أن لفظ الكرسي إنما يُقصد به واحد لا غير، ذلك المذهب المرسوم عليه الملك وزوجته وأشعة الشمس بادية، أوتي المعلم حاطون كما كان يُعرف في خان الخليلي قدرة نادرة على صناعة مثله بحيث يشق الأمر على أهل الاختصاص التمييز بينهما، كان ذلك زمن السياحة الثرية، في الأربعينيات والخمسينيات، أعداد القادمين قليلة، لكن معظمهم أثرياء، لوردات وبارونات وأصحاب دواوين شواهد، ازدهرت حرف التحف الثمينة، كان النقاش ينحني على الصينية شهراً كاملاً. يوماً من عشر إلى خمس عشرة ساعة، المادة فضة والخيوط والرسوم ذهب، بطل ذلك مع تغير الظروف وبدء زمن السياحة البراري، أولئك القادمون على ظهورهم حقائب فيها حاجاتهم وأحياناً تضم خيمة وأسرة يمكن فردها ونصبها في الحدائق العامة، أمثال حاطون انطوى أمرهم ومن أوتي القدرة على الاستمرار بدّل أحواله ليساير الوقت، أما عبود السابع، أصغرهم وأكثرهم موهبة، منذ بدأت التردد على البر والإقامة فيه ألتقيه، يقيم في أحد بيوت القرنة القديمة، معظمها أزيل الآن، منذ طفولته أتقن النحت، بدأ بأواني الألباستر الشفاف، ثم بعض التماثيل الصغيرة. بلغ درجة من الإنقان

لم تُعرف إلا عن حاطون، في كل مرة يبيع الكرسي يوقف مشتره في المطار، لا يسمح بسفره إلا بعد التأكد من وجود الأصل في المتحف، بعد سنوات من المشقة ومعاناة الزبائن وفوات المواعيد حصل على تصريح، بوساطة مسئول في الهيئة، كان يدخل معه النرجيلة في مقهى الفيشاوي، جمعتها صلة، عبود ابتكر وسيلة أخرى، إذ كان يدس عشرة قروش فضية في تجويف داخل التمثال المقلد، يمكن الوصول إليه بدون خدش التمثال، لم يكن يقدم على نسخ إلا ما يعجبه ويتعلق به، يكفي أقل من ساعة يتأمل فيها ويحفظ الملامح والتفاصيل، أشهر ما عُرف به نحتة لرأس نفرتيتي، ليس ذلك الذي تم تهريبه إلى ألمانيا، اطلع على صور دقيقة له، فكر في السفر لرؤيته ومعانيته، إلا أنه انتهى إلى فزادة التمثال الناقص المعروض بالقاهرة، أجرى مقارنة طويلة، صارمة، أمضى ساعات مغمض العينين لا تصدر عنه حركة، انتهى إلى ما أكده لأجانب متمكنين، بعضهم وافقه ومنهم هورننج الألماني الذي جاس مراقدا البر الغربي وأدرك الكوامن الخبيثة، كثيرا ما قال إن الناقص أفتن من الكامل، كان يعني التخصيص والتعميم، فبالنسبة للاعتبار الأول كان يقصد مؤكداً جمال القاهري على ذلك المعروض في برلين، كان يردد أن روح نفرتيتي لا تزال في خطوطه، والفنان الذي عرف اسمه «تحتمس» موجود باستمرار أمام الملامح حتى وإن لم يره أحد، أما الاعتبار الثاني فيتعلق بالعموم، فالعمل الناقص يتمه كل من يراه كما يرى، إنه مثل الكتاب المفتوح الذي لم ولن يغلق، باستطاعة كل ذي فهم وملكة أن يقرأه ويضيف إليه، أي يصير الطالب والمطلوب معاً، وهذا من الدقائق، الرقائق، التمثال الذي تعلق بصورته غير معروض بمصر، إنه هناك في البعيد، ما يلي المحيط، حاملة القرايين، اعتبر قوامها الرشيق ذروة التكامل ونقاء التماثل، عندما سافر صاحب له من أهل البر أوصاه أن يصور فيلماً للتماثل بحيث يراه من كافة جهاته، أو في المهاجر بما وعده، أرسل إليه قرصاً عليه عشر دقائق مع أستاذ أمريكي بجامعة نيويورك، متبحر في الاقتصاد، لكن عنده هيام بمصر القديمة

حتى إنه لا يطير إلا على متن طائرات مصر للطيران، يقول إنه يشعر بالأمان مع حورس شعار الخطوط المصرية، مرة سافر إلى تايلاند، يمكن أن يقصدها مباشرة من المدن الكبرى غير أنه طار من نيويورك إلى القاهرة ثم إلى بانجوك، ضعف المسافة، غير أنه كان سعيدًا كلما نظر من النافذة ورأى حورس على الجناح، سنويًا لا بد أن يزور الأقصر، يقيم في البر الغربي ويقصد أيدوس ليرى المعبد ثم يسافر إلى أقصى الجنوب ليحضر؛ تعامد الشمس على ملامح رمسيس الثاني، أحبه عبود وخصه بنحت تمثال، دهش الرجل عندما رآه، رأسه في وضع تأمل، قال: إنه لم يجلس أمامه وليس لديه صورة له، كيف أتقن تجسيد الملامح هكذا؟ لم يجبه عبود إلا بالصمت، التمثال الآخر الذي أتقنه الكاتب المصري في وضع التأهب محفوظ في القاهرة، عندما شاهد صورة المعروض في اللوفر أكد أن الكاتب المحفوظ في القاهرة أجمل بكثير، يكاد ينطق، أتقنه إلى درجة أن أحد مفتشي الآثار أبدى قلقه من مهارته وخشي من تبادل الأصلي والمقلد، سمعت الكثير مما يتردد حوله، رأيته يتردد على المطعم الملحق بالفندق الذي يديره شقيقه، اعتدت ورود القوم، بدءًا من رجال الآثار الذين يدخلون كسلطة وأصحاب نفوذ، أيضًا رجال الشرطة المختصون بالسياحة والأمن العام، كذلك الأدلاء المتقنون لغات الأجانب، لكل منهم تخصصه في جنس معين، بعضهم يجيء بالسياح ويتقاضى عمولة، هذا سائد هنا، عالم متشابك أرقبه من بعيد، ما يعنيني يخصني، أما اتناسي بالقوم فقد بادلوني ودًا بود، عبود الفنان لم يتحدث معي كثيرًا، يحترم صمتي وانفرادي، كنت أتمنى زيارة مكان عمله غير أنه لم يدعني، آخر مرة رأيته قبل اختفائه الغامض قبل عيد الأضحى، جاء وجلس في نفس المكان الكنبه المواجهة لي، الصف الثاني، جاء شخص لا أعرفه، طويل يمسك عصا، عمامته تدل على أنه من أبناء الناحية نحدثًا متقاربين، سمعت أقوالًا متناثرة من هذا وذاك، تفاصيل علمتها في البر الشرقي، صاحب بازار اعتدت زيارته، تعرفت على والده عندما نزلت الأقصر أول مرة منذ

أربعة وخمسين عامًا، بالضبط عام سبعين، مما سمعته ونا إلى من الشرق والغرب أن شخصًا ذا نفوذ جاءه، التقى به في هذا الموضع الذي اعتاد الجلوس فيه، صحبه في عربة سوداء ستائرهما مسدلة، بعد يومين سافر إلى القاهرة، هنا تختلف الروايات، لا شيء مؤكد، كما أن أشقاءه لا ييوحون، لم ألح، فقط سألت مستفسرًا عن أحواله، أجابني عبود الرابع: ربنا معه، لم أدق ما قيل لي، صحبه المسئول المهيب إلى قصر بمصر الجديدة أطلعه على اثنتي عشرة صورة لقطع من المتحف المصري، عرض عليه مبلغًا فوجئ به، يدفع نصفه مقدمًا ونقدًا، يعلم أن أهل الصعيد لا يفضلون التعامل بالشيكات، الباقي فور التسليم، مطلوب استنساخ دقيق يحير أهل الاختصاص، المجموعة كلها من توت عنخ آمون من مرحلة تل العمارنة، يُقال إن عبود الفنان آخر العنقود، لم يجب مباشرة، طلب إمهاله، عاد إلى القرنة، قال لصاحب له من البحيرات إنه غير مستريح لما طُلب منه، قلبه يحدثه بما لا يقدر على البوح به، يُقال إن صاحبه قال له: إما أن تمتثل فالرجل صاحب سطوة، وإما أن تهج إلى أي جهة؛ لأنهم لن يدعوك طاوريًا ما أخبروك به، الموضوع صعب، حتى الآن لم أسمع ما يقطع بما انتهى إليه عبود السابع، هل امثل للنصيحة واغترب طلبًا للسلامة، أم أنهم أخفوه إلى الأبد حتى لا ييوح؟

عبود الكحات

أول مرة سمعت اللفظ بدا لي غريباً رغم أنني أعرفه، المعرفة الأولى تحيل إلى الطب، سمعت أبي يقول يوماً بعيداً: ... فلان عمل عملية كحت... لكن في البر الغربي يتعلق بالآثار «فلان عمل كحتة امبارح وربنا أكرمه ولاقى تمثال ذهب... شذر حوارات سمعتها أثناء جلوسي للإفطار أو للعشاء بالمطعم، لكثرة ترددي وطول صمتي صرت واحداً منهم، لم ألتق عبود الأول إنها سمعت عنه، لم أستفسر، شيئاً فشيئاً صرت أُللم طرفاً من هنا وآخر من هناك حتى أستكمل وأستوفي، عبود الأول أكبر الأشقاء، وُلد عندما كانت الأسرة تعيش فوق في الجبل، في قرنة أولاد مرعي، بيت نصفه في الجبل والآخر مبني، لكن عُرف أنه يؤدي إلى عمر، في نهايته غرفة دفن يتوسطها تابوت من حجر أصفر مجهول، قيل إنه كوارتزيت وهذا لا يوجد منه إلا بقايا تمثال حار العلماء في أمره وهوية من يمثله، قيل: إنها الملكة تاي وإنها ميريت آمون وإنها مجهولة كان لها حيثة ومهابة، لم يستخدم هذا الحجر الذي يكون شفافاً إلا في هذا النحت، إنه نادر، يستقر الآن في متحف المتروبوليتان بنيويورك ويعتبر أحد مقاصدي كلما نزلت نيويورك، لكثرة ترددي أصبحت ملماً عارفاً بسائر المقتنيات في القسم المصري الواقع إلى يمين القادم من المدخل الرئيسي مهيب الطلعة بسلامه العريضة والواجهة التي تستدعي إلى دار القضاء العالي بشارع فؤاد القاهري، أما المرجعية فالعمارة الرومانية، في المتحف عدة قطع أنجبه إليها مباشرة ثم أعود من حيث بدأت لأخطو متمهلاً متأملاً مستعيداً ما عرفت، الأثير عندي تمثال حاملة القرابين ولو كان الأمر طوعي لأفردت لهذا التمثال قسماً

خاصًا به ولما سمحت بوضع أي شيء قرب، بعده تلك الباروكة المضففة بتليسات من الذهب الخالص، الشعر هنا والقناع الذي يمثل الأصل، صاحبة الجلالة بالقطع، أو عالية السمو في القاهرة فما أغرب وما أعجب، تابوت خشبي، عادي، لا يمت إلى ملك أو وزير، لكن ألوانه طازجة، خاصة الأخضر. أما ما شدي إليه فعين واجدت، أو كما تسمى عين حورس، غطاء تابوت آخر رسم من داخله الربة نوت، تمثل السماء سقف التابوت يمثل السماء أما أرضيته فعليها الرب جب، أي الأرض، نرى نجومًا وشواهد تؤكد أن المأوى النهائي مهما ضاق فإنه كون مصغر، ثم نافذة الظهور منتزعة من معبدها، المكان الوحيد الذي احتفظ لنا بدورة مياه حيث كان ابن الآلهة يقضي حاجته، تصميمه كنيف عادي نصفه بالبلدي، حفرة ومسندان للقدمين إذ يتخذ الملك وضع «القعمزة» ليسهل أمره، نافذة التجلي لا يظهر من خلال زخارفها إلا مرة واحدة في السنة، عاينت مكانها الفارغ في المعبد الذي بناه رمسيس الثالث، أما نهاية المطاف ومنتهى الوصول فهاتان الشفتان، دائمًا أقول من وحيهما: إن الناقص أتم من الكامل، أخبرني الدكتور رشدي سعيد الذي زارهما بعد طول إلحاح مني: إن هذا حجر نادر جدًا فوق الكوكب، وربما يكون من بقايا نيزك ارتطم بالأرض، دائمًا أتملاه وأرتوي بسخائهما على البعد، فلا أكف ... لو سبلت حالي لما توقفت، أعود إلى ما بدأته فأقول إنني دهشت عندما علمت بوجود تابوت من هذا الحجر النادر في بيت والد عبود الأول وأشقائه، صحنبي عبود الرابع، أوقف العربة قرب الطريق، صعدنا على مهل المرتقى المؤدي، خلال تلك الفترة عظم ضغط الإدارة لإتمام نقل السكان إلى ناحية الطارف، غير أن الأهالي كانوا ما زالوا يقاومون، غير أن كافة الدلائل تشير إلى أن هذه المرة فاصلة، ما فشلت فيه الحكومة في الأربعينيات سيتم الآن، ما لم يستطع حسن فتحي إنجازها بعد بناء قريته التي صارت معلمًا معماريًا في العالم سينفذ الآن، الأب عمل معه في بناء بيوت القرية، لم يتبق منها إلا المسجد والسوق وبيت يسكنه أحمد عبد الرازي ابن رئيس العمال الذي ساند وحمى حسن فتحي خلال إقامته وعمله، لم يكن يقيم بالبيت أحد

بعد أن هجره الأشقاء، راح كل منهم إلى سبيله، استمر عبود الأول به، وبعد غيابه بدأ الأمر من حريم الأم التي خلت إلى نفسها في السنوات السابقة على اختفائه، غير أنها انتبهت بعده، انتابها حال جرى لها مثله عندما أتى إليها عبود الثاني برأس مومياء، لشابة فاتنة الملامح، هذه حكاية أمرها ذائع، أصرت على الرحيل، قالت إنها تخشى ما سيجري لها ولأبنائها من بعدها، لم يفلح معها شيء، حتى رقية الشيخ الطيب الكبير، لم يكن هناك مفر من الانتقال، استأجروا ذلك البيت الذي تحول إلى نزل يديره عبود الخامس، وشيدوا بيتًا أصغر إلى جواره أقام فيه عبود الرابع، نزلت الممر المؤدي إلى الغرفة حيث التابوت، فعلاً... لم أر مثيلاً له، حتى تابوت تحتمس الثالث الذي ما زال موجوداً بمرقده الفريد، والذي أعده أرقى ما يوجد في وادي الملوك، بهرت به وبدقة نقوشه وغرابة الحجر، لكنني لم أستطع القطع بتشابهه مع الشفتين الغزيرتين، يقتضي هذا مقارنة من أهل الاختصاص، ربما لاختلاف الضوء أو الهيئة هناك بقايا نحت، هنا مرقد كامل، كأنه لم يمس، تعددت زيارات المسئولين إليه، كلما جاء أحدهم يطلع عبود الرابع ليلاقيه، بالطبع يعطله هذا، يعوق رزقه، في تلك المرحلة كان القوم يجيئون من كل فج، من جنسيات شتى، كانت السياحة في أوجها، قبل اندلاع ثورة يناير وكساد الأحوال الذي استمر طويلاً، معروف أن هذا المرقد الملحق بالبيت أمره قديم، لم يكتشفه عبود الأول، لكنه انطوى على أسرار لا حصر لها راحت معه، سواء كان حيًا يسعى أو راقداً، ممتزجاً بالثرى متحدًا به، كان طويل الصمت، كثير التأمل، لم أعرف من شقيقه اللذين عاشرتهما طويلاً من لقنه أصول الكحت، كيف يستدل على وجود خبيثة ما، تميز بذلك، كافة من عرفوا الكحت ومارسوه توصلوا إلى ما اكتشفوه بالصدفة، أو بالاستدلال من خلال قرائن وعلامات، كلهم بمن فيهم عبد الرسول الذي عثر على خبيثة الدير البحري وعرف الطريق إليها رغم غموضه وإتقان إخفائه، كانت لديه قدرة على فهم الخط الهير وغليفي بدون أن يتعلمه، أكد عبود الرابع أن اللغة لم تنقطع، الحكماء القدامى وضعوا ترتيباً لاستمرارها، بحيث يوجد أربعة على الأقل في كل وقت يتقونها

ويفكون طلاسماها، لا يعرف أحدهم الآخر، وربما يولدان من بطن واحد ويجهل الأخ أن شقيقه ملم بالقلم القديم، قال: إن كل ما نعرفه من كتب لم يرد فيه إلا ذكر شخص واحد لا غير يعرف الخط العتيق، إنه سيدي ذو النون الأخيمي وأصله نوبي، من أين لمن وُلِدَ في أخيم تلك المعرفة؟

يمط شفتيه باسطاً يديه، عندما يوغل عبود الرابع في الإخبار عن أمور مشابهة تتخذ ملامحه بعداً غامضاً، كأن شخصاً آخر كامن فيه، كأنه يخاطب ما لا تدركه الأبصار؛ لذلك يمضي مغرباً إلى بعيد، تتوازي نظراته مع طلة كافة التماثيل المصرية، ينظر أصحابها إلى حيث لا يمكن التحديد أو التعيين، النظرة أوضح ما نجدتها في حدقتي الكاتب المصري، كافة ما وصل إلينا منه نظرة فيها شيء من شجن، ومس من أمل، وبعض انتظار، وما لا يمكن الإمساك به، يبدو عبود موازياً لذلك الذي أعرفه، ربما هذا سر السويدية التي هامت به، وأرادت أن تقضي عمرها عند موطن خطاه، على هيئته تلك أخطرتني بما خفي عن شقيقه، لم يكن يمارس الكحت للإظهار، إنما للإخفاء.

كيف؟

راح إلى ما كان يتحدث عنه شقيقه باستمرار ناحية فيسا وراء الصحراء، بعد وادي الملكات، باتجاه الغرب حيث تنزل الشمس، يمكن بلوغها في ساعة مما نعرف، لكن العودة منها تقتضي أعماراً ولا تكفي، قال إنه توصل إلى ما يمكن أن يقلب الدنيا، كل ما عُرف من مراقد الغارين، ما يبدو أنه نُبش منها أو المرقد الوحيد الذي وصلنا كاملاً حتى الآن، هذا كله ليس إلا تمويهاً لحفظ المراقد الأصلية.

صمت عبود الرابع، راح بعينه إلى بعيد، اقتربت منه: هل عرف أخوك أحدها؟ هل استدل على المكان الذي يحتويها؟ تطلع إلي صامتاً، أمسكت بكتفيه...

أين هو؟ أين راح؟

لم يجد عن سرحته، وطال سكوته وإبهامه...

عبود المتذوق

لا أدري من القائل: لا يغير مصير الإنسان إلا امرأة. وفي البر الغربي تكون في الأغلب الأعم أجنبية، كثيرة الحكايات التي تروى عن نساء جئن للسياحة وتعلقن بشباب ورجال بعضهم متزوج وله أطفال، تفاصيل ذلك بلا حصر، لو انسقت وراء الرغبة في إيراد بعض ما جرى لما توقفت، غير أنني أقصر الأمر على عبود الثاني والمعروف مؤخرًا بالمتذوق، جاءت من فرنسا، بنية ممشوقة، سوداء العينين، تقيم بمدينة موندلييه المطلّة على البحر الأبيض، نزلت عند عبود الخامس، الحقيقة أن معظم نزلائه فرنسيون، يبدو أن ذلك بعد ظهور عدة مقالات في ملاحق السفر بصحف كبرى، صحفيون جاءوا وأقاموا، ناموا على العنقريب، أكلوا الملوخية الخضراء والويكة والحمام المحشي بالفريك الأخضر اللباني، وأعجبوا بالعيش الشمسي والجبن المعتق لسنوات في البلايص، النخيل والرمال والمراقد التي تحفل جدرانها بالمقدس وكل عجيب، الإقامة الطبيعية بعيدًا عن تكلف الفنادق الكبرى المتشابهة في كل الدنيا، إضافة إلى دماثة القوم وتهذيب عبود، وقدرته الفائقة على إبداء المودة وإشعار كل نزيل أنه ضيفه الشخصي، والمؤكد أن بعضهم عرض عليه فرصًا مغرية ومنهم ذلك الإندونيسي الذي يمتلك عدة فنادق في جزيرة بالي التي توصف كأنها جنة، عندما عاين موقعها على الخريطة ورأى بحرًا ومحيطات يجب أن يقطعها قال: يا بوي... هو أنا اتجنت أروح آخر الدنيا. اعتذر بكياسة، فضل أن تجيء الدنيا إليه بدلًا من ذهابه وانقطاعه عن البر والناس الطيبين، أبقى رغم أنه

معروف دور سيدة هولندية تعرفت به وهامت، خلال ترددها اقترحت عليه إعداد البيت القديم المبني بالطوبة الخضراء كنزل، المكوث فيه طبيعي، كل وسائل الراحة ميسورة، مياه ساخنة وباردة، فراش نظيف، إضاءة جيدة، أما النخيل فمحيط، مؤطر للوضع كله، استشار أشقاءه وانتهى الأمر إلى إعداد البيت بعد تخليص الأوراق من السياحة وغيرها من مصالح، مشى الحال وبقي معلماً في البر، غير أن عبود الثالث جاء ليرحل، مسافر من يوم خروجه من بطن أمه، في صباه أتقن عدة لغات يختلف أشقاؤه في إحصائها، خمسة، ستة، المؤكد... بينهما الإنجليزية والفرنسية. كان يرافق القادمين إلى المزارات، عنده قدرة على الشرح والتعريف بزوايا رؤية فريدة، حتى إنه كان مطلعاً على زاوية فوق الجبل يمكن من خلالها رؤية الشمس عند الغروب في مشهد مهيب، كان يردد: ليس مهماً أن ترى، المهم كيف ترى، لا يعرف أشقاؤه أنفسهم كيف بدأت الأمور مع البنية الفرنسية، حتى إنهم اختلفوا في اسمها فمن قائل: إنها مارتين، وآخر يؤكد أنها فاليري وثالث يجزم أنه رأى جوازها وأنها كريستين. المهم أنه ذات يوم أطلع أشقاءه على موعد سفره، أتم كل شيء قبل أن يخبرهم، أصرَّ على الخروج بمفرده فجراً رغم إلحاح عبود الرابع على توصيله بالعربة إلى المطار، فارق البر بحقيبة ملابس، ومنذ ذلك الحين لم يعرف أشقاؤه وصحبه أخباره إلا عبر الهاتف. أحياناً كنت أتقصي أخباره وكانت إجابات عبود السائق مختصرة، غامضة، ولم أَلح، حدث أنني سافرت إلى باريس وكان الوقت صيفاً، أثناء انتظاري الحقيبة أمام السير المتحرك اقترب مني رجل متوسط العمر، قال إنه يقرأ لي، ويتمنى لقائي منذ زمن ليس بالقليل، دعاني إلى زيارته، يمتلك مطعمًا في الحي الثامن مصنفاً من المطاعم الجيدة، احتفظت بالبطاقة التي قدمها لي، شغلني أمور عن زيارته، غير أنني عدت بعد حوالي ستة شهور، عادة أحتفظ ببطاقات كل بلد في ظرف، تأملت ما لدي، توقفت أمامه، هاتفته، رحب بحرارة، مضيت إليه، مشيت من الحي اللاتيني حيث أقيم عادة، عبرت

السان جيرمان، ثم النهر، كان الموقع قريبًا من فندق جورج الخامس الذي اعتاد محمد عبد الوهاب الإقامة فيه، ربح بي الرجل، وحدثني عن مراحل، دعوته إلى زيارتي في القاهرة، أثناء جلوسنا دخل رجل واضح أنه مألوف هنا، جلس على مقربة يتطلع إليّ، دعاه صاحب المطعم للسلام، رغم ما أعانيه في تذكر الوجوه والأسماء، فإنني تعرفت عليه، قلت: إنني التقيته في البر الغربي، لم يبد عليه المفاجأة أو الجمود، تطلع إليّ، قال: إن كثيرين يجيئون إلى البر، إنه سعيد بلقائي، تراجعت عن حماسي خاصة عندما لاحظت أن صاحب المطعم يناديه بجودت، لم أذكر اسمه الذي ناديته به مرارًا، لا أعرف تقلبات الأحوال في الغربية، لاحظت الاسم، بين بين، يمكن اعتبار صاحبه مسلمًا أو مسيحيًا، لماذا أبدي الملاحظة؟

حدث أثناء عودتي من نيويورك في الثمانينيات أن التقيت نائب القنصل في المطار، صاحب قديم، قال: إنه جاء مع بعض المصريين، جمعوا مالا لشحن جثمان زميل لهم، غير أن مشكلة واجهتهم، أثناء غسله في المسجد اكتشفوا أنه وشم رسغه بصليب، البعض يغير اسمه ويعتق المسيحية ظنًا منهم أن ذلك سيفسح لهم ويسهل، قال صاحبي إنه حائر، هل يدعهم يخبرون أهله أم...، قال إنهم سألوه ولا يعرف كيف يجيبهم. لم أرد برأي قاطع، في الغربية رأيت وعانيت أعاجيب وغرائب، ربما... ربما أحكي جانبًا منها يومًا، قدم صاحب المطعم طبقًا به صنف إليه، أمسك بملعقة، تناول ما بها بتأن، حرك شفتيه متلمسًا المذاق من عدة جهات، ثم بدا كأنه يصغي قال: دعه يبقى الشورية على النار خمس دقائق مع إضافة قليل من الكسبرة، ثم أتى إليه بطبق مجوي صنفًا غيره، وبعد أن تمهل وتفحص أبدى الرأي والنصح، الحق أن فضولي قوي عليّ، لم أبد ذلك، لكنني بعد أن صرت من زبائن المطعم عند ترددي، كنت أستفسر بشكل غير مباشر، وما عرفته أنه تنقل بين مدن عدة، من موبيليه إلى ليون إلى سان مالو وأخيرًا باريس، لا يعرف أين يقيم، غير أنه يتردد بانتظام لتذوق ما يقدمه المطعم من أطباق، بيدي ملاحظاته، إنه أشهر من يقوم بذلك ويُعرف

بالدكتور، لا يتوقف الأمر على المطاعم التي تقدم الأصناف الشرقية، إنما يبدي ملاحظاته لأصحاب المطاعم الفرنسية والإيطالية والمغربية، بل معروف بإتقانه مذاق الأطباق الصينية، خاصة البط البكينى، إنه لا يكف عن الحركة في أحياء باريس الثمانية عشر والضواحي أيضًا، يمكنه أن يأكل في أي مطعم؛ إنه المدعو الدائم، في مرة أخرى قال صاحب المطعم مبتسمًا: إن لديه قدرة أخرى لا يمكن أن ينافسها فيها أحد، يمكنه معرفة حرارة النساء وطبائعهن بالنظر إلى ملامحهن، خاصة الفم، يؤكد الصلة بين شكل وتكوين كليهما، يستطيع أن يتعرف على حرارة الأنثى أو برودها خلال ممارسة الحب، ما ترغبه وما تطلبه، وأيسر الطرق إلى بلوغها الذروة، يقول: إن من يتقن معرفة الطعام يسهل عليه معرفة النساء، وإن حيوات كثيرة تعسرت وأصاب أطرافها ما أصاب لعدم معرفتهم ببعض، بالطبع ... ليس هنا، في الغرب يعرف كل منهم الآخر، لكن المآسى عندنا، وما أدراك ما عندنا، يقول صاحب المطعم: إن صيته ذاع حتى إن أثرياء عربًا ممن يزورون باريس يستضيفونه في الفنادق ويعرضون عليه صورًا، أو أفلامًا للشخصيات المطلوب تحري طبائعهما، فقط... الإناث، الرجال مجال آخر لا يفضلُه ولا يتعامل معه، يفكر في وضع كتاب يقدم فيه خبرته لكنه لا يجد الوقت، يشك في وجود ناشر يجزؤ على طبعه من المحيط إلى الخليج، استوقفتني ملاحظته عن الصلة بين المداخل، بين الفتحات التسع في الجسد الإنساني، صرت كلما رأيت أنثى من أي عمر أو جنس أتأمل وأتمعن شفيتها وأستنتج، تفت إلى مصاحبتة والاقتراب منه، آخر زيارة منذ عام سألت عنه، قيل لي إنه سافر إلى نيويورك، تعرف إلى سيدة أمريكية ميسورة هامت به ودعته إلى زيارة تحولت إلى رفقة وإقامة، عندما قصدت البر الغربي منذ شهرين سألت عبود الرابع عنه بعد يومين من إقامتي، قال إن أخباره انقطعت تمامًا منذ عامين، وعندما استعدت ما أطلعني عليه صاحب المطعم المصري لاحظت اقترانه بانتقاله من باريس إلى نيويورك...

عبود العاشق

حدثني عبود الرابع على الطريق من القرنة إلى قنا حيث معبد سيدة الأنوثة والجمال، الربة حتحور، لي به هيام، وصل إلينا بمعجزة سالماً تقريباً، أضرب به المثل دائماً على عمق الثقافة وقوة الروح في أرض الكنانة، من بناء أجنب غير أنهم بالكموت تمصروا وتجدروا في أرض كيميت الخصبة، أعني البطالمة، أبناء وأحفاد الإسكندر الأكبر المقدوني، الغازي، من تجرأ على مِصْرَ، غير أن البلد الأمين، القديم أفقد الغزاة صلاتهم بأصولهم، اعتنقوا الديانة وآمنوا بالرموز، من يقدم على زيارة دندرة المكرس لحتحور المقدسة، أو معبد إدفو المشيد لحورس بن أوزير، وإيزيس زوج حتحور، لهما موعد قديم يلتقيان فيه، تتجدد من خلاله الحياة، ينتقل حورس إلى أنثاه من إدفو إلى دندرة، احتفال مهيب تتجه فيه المراكب والقوافل من بحري إلى قبلي، تفاصيل العقيدة المصرية مدونة على الجدران، أصبح البطالمة مصريين شكلاً ومضموناً، هذا ما جرى للمماليك ومن قبلهم الفاطميون والعرب والرومان، تهضم مِصْرَ الغرباء، تفقدهم خصائصهم، يتكلمون لسانها، نأخذ منهم، نعطيهم، لكن المخ يكون أظغى، في الجمالية عرفت تجاراً للسجاد والنُّقل «المكسرات» والتنباك، جاءوا من سهوب آسيا الوسطى، الجيل الأول يتكلم العربية بتعثر، الثاني لا يمكن التنبؤ بأصوله، لا في اللسان ولا في العادات، كثيراً ما أحاول التفرس في أصول الأشقاء عبود، لكل منهم قامة سامقة، وسمت ملامح كأنها قدت من حجر نادر مثل الديوريت الذي صيغ منه تمثال خفرع، في عيني كل منهم نفس النظرة التي

حيرتني، النظرة إلى بعيد، غير محدد، محاولة للنفاذ إلى الأبدية، لتجاوز ما لا يمكن تجاوزه، عبود الرابع يظل ساهماً، صامتاً، قد يبدأ الحديث، يتدفق بلا انقطاع، بانفعال، يلون الأصوات، ثم يكف فجأة فكأنه لم ينطق قط، في تلك الرحلة بدأ الحديث عن أشقائه، قال إن أهل الناحية يقولون عنهم إن مسأ لحق بهم وإن جدهم لأبيهم دعا على سلالته بالفرق، قال إنه لم يتبق منهم إلا ثلاثة في البر، كل في حاله، رغم قربهم في المكان، فإن الواحد منهم إذا جلس إلى الآخر يروح إلى بعيد، كل منهم في بعد قصي عن الآخرين، يبدو أن الدعاء عليهم صحيح وأن مفعوله نافذ، سكت ثانية واستأنف متحدثاً عن عبود العاشق، قال إنه السادس بينهم، من يومه صامت، يفضل القعاد مع نفسه، وعندما لاحظ عبود الأول سكوته وحديثه إلى نفسه خشي أن يكون ملبوساً من عفريت أو جان، أسرّ إلى أمه بما عاين من شقيقه، واقترح ذهابه إلى الشيخ الطيب ليرقيه ويبعد عنه المس، إلا أن أمه خشيت سرّيان الأمر وبدأ القوم تعاملهم معه على أنه خارج الأمر والبنية، قالت إنها ستملس على رأسه وتقرأ آية الكرسي سبع مرات لعل وعسى، تقدم الزمن وكثرت سرّحاته، يغيب باليومين والثلاثة يرفض أن يقول أو يوضح، في إحدى الليالي جاء إلى البيت بعد صلاة العشاء، يحمل لفافة حصيرة داخلها شيء ملفوف في ملاءة كشف عنه وإذا بأمه وأشقائه في مواجهة مومياء مدثرة بالكتان، قناعها سخي الألوان، واضح التقاسيم، أنثى ذات بهاء كأن وجنتيها يدفق فيهما الدم، أما شفثاها فسختان، ربما هما من أوحنا إلى عبود الثاني تلك الصلة بين الشفتين والعينين والفرج، أما الشعر فأسود غطيس، كأنه مصفوف منمنق منذ ساعة لا غير، لم يدر أحد إذا كان باروكة أو أصلياً، غير أن الملامح تسيل أنوثة وقدرة على الإحاطة، قال لأمه: «دي حتفضل معانا في البيت... أنا اللي حراعيها...».

خبطت صدرها بيدها جزعة، مروعة...

«يا خراب بيتك يا عبود... رجعها... رجعها دي أميرة... إزاي تهينها كده...»

لطم وجهه منفعلًا:

«كلام إيه ده يا ما؟.. دي نور عيني وحبية قلبي...»

لطمت وجهها، تحول صراخها إلى نواح كأنها تشيع راحلا...

«حقك عليّ يا أميرة... ساحيه يا ست الكل... أصله... ما يعرفني... رجعها... رجعها...»

تجمد كل من حضر المشهد، أحاطها عبود باللفافة، عويل أمه لم يعرفه أحدهم من قبل، ولا حتى يوم وفاة عبود الكبير، حملها كما جاء بها، خرج مبهورًا، أما الأم فلم تكف حتى مطلع الشمس، «من يومها لم نعرف له أثرًا ولا بان له ظل...».

«أين راح؟»

أوماً بذقنه ناحية الغرب «هناك... هناك»

لزم الصمت، لم ينطق حرفًا فيما تبقى من مسافة ولا عند العودة...

عبود الفُرصي

عادي جدًا أن يرافق أحد أهالي البر أجنبيًا خلال إقامته، يدلّه على المزارات، يساعده في التعرف على الخلق، ومصادر الشراء، يعرفه بعادات القوم، للناس دراية ودربة على إتقان الضيافة وإظهار المودة للغريب، لا يعرف أحد كيف بدأت الصلة، وأين، بين الخواجة مهيب المنظر وعبود الثالث؟ كان يقطع البر يوميًا من وادي الملوك إلى الدير البحري وربما يكمل إلى دير المدينة ثم مدينة هابو، متجولًا باستمرار حاملاً مراوح من خوص النخيل، ومنشات من السعف يتقن عملها، وأحيانًا يحمل عددًا من نسيج نقادة المعروف بالفركة ولقرون عديدة كان يصدر إلى السودان، النساء هناك يفضلنّه في لباسهن الشبيه بالساوي الهندي، منذ سنوات قل الطلب عليه وتوقفت أنوال عديدة عن العمل، إذا تعرف خلال سعيه بأحدهم يصحبه ويهتم به مقابل النصيب، الرجل أقام في النزل الذي يديره عبود الخامس، اعتادا الجلوس معًا في المطعم والمقهى فوق دكة واحدة، وكثيرًا ما تناولا العشاء معًا، الرجل من أيرلندا، أحواله ميسورة، قيل إنه بروفيسور في جامعة كبيرة، وأكد آخرون أنه مهندس أحيل إلى التقاعد قرر أن يزور أهم ستة مواقع في العالم، أولها البر الغربي، ثم أهرامات المكسيك، ومدينة البندقية، والمدينة المقدسة في بكين، والمعبّد البوذي في كاتمندو بنيبال، وتاج محل في الهند، ربما يعد كتابًا عن هذه المزارات، أبدى عبود حماسًا للفكرة، أكد أنه سيطلعه على ما يضمه البر الغربي، فرجة خاصة جدًا، بسط الرجل يده فوق صدره شاكرًا، استفسر عن إمكانية شرب بيرة مصرية

ستلا، قال إنها شهيرة جدًا عند من زاروا مِصرَ، قال عبود إن شقيقه لا يتاجر في الخمر، لا يقدمها هنا، لكنه يعرف فندقًا صغيرًا بعد معبد هابو بأمتار يمكنه أن يأخذ فيه راحته، وقف مبتهيجًا.

«أدعوك إلى العشاء أيضًا...»

قطعا الطريق المترب إلى الفندق المبنى بطوب أحمر، نوافذه ألومنيوم، بعد الزجاجة الثالثة بدأ الخواجة يونون وعبود يترنم، أصغى إلى تفاصيل زيارته غير أنها كانت متصلة بالعمل، سريعة، مزدحمة باللقاءات والمناقشات، مجال عمله البرمجيات البنكية، رغم ذلك عرف نساء من كل الأجناس والملل، لكنه لم يتعرف بعد على مصرية، رغم الوصول إلى الزجاجة الرابعة من البيرة الشقراء المتقنة، فإن الوصول إلى هذا الحد من الحديث أطار الخدر الذي راح يسري، وعطل الرغبة في الحديث التي بدأت تقوى، هل يطلب منه أن يكون... لا... فليتنبه، الذين يقصدون البر الغربي لا يبحثون عن هذا، وإذا جرى ذلك فيكون منهم فيهم، هذا يجيء مع صاحبة له، ذاك يقيم مع رفيقه، صحيح أنه يحدث إعجاب أنثى بذكر من أبناء الناحية، ولكن رجل يبحث عن امرأة هنا أو يضع عينه على إحدى بنات البر، هذا صعب، لا... مستحيل، قبل أن يوغل، فوجئ بالخواجة يميل ناحيته، يقول:

«مستعد أدفع عشرين ألف دولار... ساعة وبس...»

ضحك حتى إذا ووجه بحدة، يمكنه القول إن الأمر مزحة، غير أن عبود استفسر: «كم؟».

راح يترجم المبلغ إلى جنيهات، مائة وأربعين ألف جنيه، كم شهرًا، لا... بل كم سنة يجب أن يقطع فيها البر من بحريه إلى قبله حتى يحصل مثله؟، عند انصرافهما كان ذهنه متقدًا رغم سبع زجاجات ستلا دفعتة إلى التردد على الحمام، كأن خطاه

وسيط بين فمه وفتحة تبوله، بعد أن صحبه حتى باب النزل، أكد أنه سيرد عليه غداً، قال الخواجة بعامية واضحة: «وريني شطارتك...».

راح بسرعة يمسح البر بذاكرته، بالطبع دماغه راح إلى الحلب، لكن الأمر يحتاج إلى وقت، ثم إنهم دربوا نساءهم على الغواية، لا بأس من التعري إلى حد معقول، حتى إظهار الصدر للمحة، واللمس الخفيف والمعرق، لكن الإيلاج مستحيل، قبل وصوله البيت قعد على حجر قديم قريب من الساقية القديمة، صحيح أن لقري الصعيد ونجوعه زمته، لكن لا تخلو ناحية من بيت يمارس فيه الحرام سرّاً، الكل يعرف ويتواطأ، لو أنه مقيم لفترة، ضبط نفسه يلقي اللوم على ضيق الفرصة وليس على المبدأ، يكون أولاً، يقبل أو يرفض، عندما دخل البيت لاقته امرأته، لا يغمض لها جفن إلا إذا رجع وأغمض عينيه قبلها، بعد دقائق قالت: «فيه حاجة؟»

هز رأسه نفياً، أصرت، إنها تعرفه من دخلته عليها، لا يجيد إخفاء ما يمر به، بعد إلحاح قال مبدئياً الضيق: إن زائراً يقيم عند عبود شقيقه في النزل، طلب منه ما لم يجرؤ أحد على مجرد التلميح له طوال خدمته بالبر وسعيه هنا وهناك، حكى التفاصيل متجهاً بعينيه إليها، لم يجد عنها وكأنه يريد رؤية ردود فعلها كأنه يحاول تلمس ثغرة ما، ماذا؟ هل يريد مبادرة منها؟ عندما نطق المبلغ متمهلاً خبطت صدرها براحة يدها، هل جن؟ قال إنه ثري جداً يلف العالم وهذا لا يمثل بالنسبة إليه شيئاً، تقارباً، هذا حالهما عند وقوع الشدائد، غير أن كل ما مرّ بهم أمره معروف، شجار هنا، خلاف هناك، غتاة من شرطة السياحة، لكن ما طلبه الرجل، حتى الثالثة صباحاً لم يعرف كلاهما النوم، ما جرى من حوار بينهما ناطق وصامت يطول وصفه، احتوى على تقدم وتقهقر، إقدام ونكوص، استنكار يعقبه تساؤل ثم تدبر، أخيراً عندما ملح ما يشبه القبول، قال إنهم أولى، المبلغ سيقلب أحوالهم، بل سيمكنه من استئجار مكان قرب الديبر البحري، سيدفع الرخص المطلوبة، وما يقتضيه الحال من عكمة لهذا أو ذاك، باختصار توصلاً إلى اقتناع تلخص في

قوله: «مرة وتعدي». أما هي فقالت إنها من أجله يمكن أن تلقي نفسها في البحر وربنا يسامحها، هكذا... طلعت عليه شمس النهار ولم يغف إلا قليلاً، ولولا حلم خاطف أورثه أثراً ما استطاع أن يتأكد أن عينه راحت في النوم لحظات، قام ليتناول إفطاره، وكانت امرأته مستيقظة قبله، غير أن اتصالهما وتقاربهما قبل التوصل إلى قرار تحول تباعدًا إلى درجة أن كلًّا منهما تجاهل النظر إلى الآخر، وقبل خروجه بالولد والبنت ليركهما عند عمهما عبود السائق، أشار إلى الجلباب فقالت وبصرها منكس إلى الأرض:

«أنا عارفه أنا حمل إيه...».

عاد بالخواجة حوالي الحادية عشرة، جلسا في الحوش المؤدي إلى غرفتين، وفوق غرفة ثالثة تستخدم صيفًا، عندما دخلت تحمل صينية الشاي وفوقها كوبان وثالث أكبر به ماء، تطلع إليها الخواجة لافظًا بالعربية:

«الله...»

راحت وجاءت ثم قام فجأة ليقول إنه نسي شيئًا، إنه مضطر للذهاب كي يحضره، قال للخواجة إنه في بيته، وعندما خرج لم يتطلع إلى امرأته، لم يذهب بعيدًا، انتحى ركنًا قريبًا من النخلات الثلاث الباسقات من جذر واحد، أخرج المظروف، راح يعد المقدم داخله، يبلل طرف أصبعه ويستأنف، تمامًا كما وعد، عشرة آلاف ورقة خضراء، بعد أن تأكد أخفى المظروف في جيب الصديري، عاد إلى العد مرة أخرى، كان يتعجل مرور الساعة الثقيلة، غير أنه بعد مرور حوالي ساعة ونصف راح يتطلع إلى الباب، لم يتفق على كل هذه المدة، وبعدين يا خواجة، ما يعرفه أن كلمتهم واحدة، عندما اكتملت ساعات ثلاث قام واقفًا، محدثًا نفسه بصوت عالٍ:

«لا... كفاية كده...»

اتجه إلى البيت، خبط الباب ثلاثاً، لم يجبه أحد، الباب مفتوح، هل تركه هكذا؟ ماذا لو... يجب أن يتنحى منها، غير أن صوتاً لم يجبه، ما من رد فعل.

الغرفة الأولى خالية، الثانية أيضاً، طلع السلم متمهلاً، أين ذهباً؟ ما من حس في البيت، لحسن الحظ أنه ما من بيت إلى جوارهم من قبلي أو بحري، الباب مفتوح، توقف وانهار داخلي يتوالى حتى إنه تداعى متهاوياً لاطماً وجهه، رأسه، مردداً: «يا خراب بيتك... آه يا بوي يا كسري...».

عبود الفندققي

لا يمشي إنما يسري كطيف، لا يسمع له حس ولا يصدر عنه صخب، ينادي من
يعاونه في خفوت، يسأل الزبون كأنه يهمس، طلته في شفافية الماء، عذبة، سلسيل
مطمئنة، مرحة، خلق ليكون مضيئاً، من اللحظات التي أتوق إليها إقباله عليّ
عند وصولي مصافحته الحنون، يتقدمني حاملاً مفاتيح الغرفة، لا بد أن يفتحها
بنفسه، سيد معاونه يتبعه حاملاً الحقيبة، لم ألمحه يحمل حقيبة أحد، لا رجل أو
امراة، يقف في مدخل الغرفة باسطاً ذراعيه، داعياً، يتأكد أن كل ما يلزم في مكانه،
إذا وصلت ليلاً يسألني عما أرغبه لإفطار الغد إلى جانب الزبادي والعسل، أنبئه
بما أرغب... إذا وصلت صبحاً يستفسر عما أرغب في الغداء، يذكر ما عنده فإذا
لم يوافقني منه شيء يُعد ما أرغب، بمجرد أن أهاتفه من القاهرة يخلي الحجرة من
ساكنيها إذا كانت مشغولة، أيّا كان نزيلها، منها أرقب شروق الشمس، أستيقظ
مع بدء انبلاج الضوء وتبين الأبيض من الأسود، لا أولي البصر مع ظهور حافة
القرص، صعوده البطيء شتاء، السريع صيفاً، إذ يكتمل أغمض عيني، أتم نومي
أو أتقلب ذات اليمين والشمال، لا يسمح لأحد بالجلوس حيث اعتدت، عند نهاية
الكنبة المستطيلة، أمامي منضدة من جريد النخل، عليها مفرش نظيف، هدوء لا
يتغير، تعدد الزبائن أم قلوا، بعد اطمئنانه إلى مضي الأمور وانصراف الحضور إلى
مهاجعهم يدخل إلى الصالة، أرى أصداً ألوان التلفزيون، تتوالى المشاهد غير أنه
يولييه ظهره، يجلس منحنيًا، أصابع يديه متشابكة، يحيرني سلساله الهادئ، تواليه

الناعم، سمعت أنه خرج عن طوعه بعد واقعة شقيقه عبود الفُرصي كما صار يُعرف في البر والتي مزق فيها الخواجة حضورها إلى قطع أكبرها في حجم راحة اليد، اختفى ولم يعثر له على أثر ولم يدل أي إنسان بما يفيد عنه، حتى سائق العربّة الذي أتى به اتضح أنه من محافظة أخرى، سُمع صوته حادًا، غامقًا لأول مرة، مزيج من نواح وعواء معًا، خشي الكلب الاقتراب منه حتى كف، ظل على وضعه بضع ساعات ثم قام إلى صميم حاله، كأن شيئًا لم يكن، حكايات أشقائه يتناقلها القوم خفية، يوقنون أن ثمة لعنة لحقتهم حارت في تعليلها الأسباب، منذ أن عرفته لم يتغير لون جلبابه، بني غامق، الصديري أبيض، جلباب واحد أم عدة يبدؤها، يوحدّها اللون، في ذلك العصر الخريفي الذي يشملني برحمته لمحتة مطرقًا، حزينا، هكذا تفصح هيئته، حتى إنه لم يلتفت ناحيتي مومئًا أو مبتسمًا، بعد حوالي ساعة توقف عبود القائد بعربته، نزل ملوحًا إليّ، قمت واقفًا فأقبل، استفسرت منه.

«عبود ماله...؟»

«عبود مين يا أستاذ...؟»

أشرت إلى المبنى، تبسم دهشًا

«عبود راح من زمان، ادعي له ربنا يرد غربته، إذا كان حي...»

«راح فين؟»

«هناك...»

اتجهت يده إلى الغرب...

سجدیم

2

3

4

تحنان

ثلاث

ثلاث لحظات غمرني خلالها حنان دافق من إناث لم أعرفهن ولن... مما يمثل في مخيلتي دائماً، أبداً تلك اللحظات قبل إغالي في السُّبات، بلغت درجة من الاستسلام لم أمر بمثلها في كافة أطواري، صرت قابلاً كل صورة للفناء، ممدداً كنت على سرير متحرك، مرتدياً روباً مفتوحاً من الخلف ولا شيء آخر، مجرداً من كل سوء، للمرة الثانية أقدم على شق صدري وتغيير صمامات رئيسية في قلبي، عند باب غرفة العمليات أوقف الممرض السرير، جاء طبيب التخدير واسمه ستارك، أجرى وخزاً في ساقي، كنت ملثماً، مدركاً، بعد أن فرغ أصبحت الدورة الدموية لا تخص القلب، إنما محولة إلى جهاز يقوم بعمل القلب والكلى ويراقب المخ، تغيرت الأمور عن المرة الأولى، ما زلت أذكر وخزاً حاداً في الرقبة لم يحدث في المرة الثانية، يفصلهما أربعة عشر عاماً، ضاقت خلالها فتحة الصدر لمدة اثنين وعشرين سنتيمتراً إلى ثلاثة عشر، وأخبرني من أثق به أنها صارت وقت تدويني هذا سبعة لا غير، كنت في هدوء سحيق، احتوى كافة ما يقع عليه بصري، لفت نظري جهاز كأنه من كريستال مبین، دقت البصر الحسير، أدركتها هنا، جاءني من الجانب الأيسر، مالت عليّ، قالت بدرجة من الصوت لم أعهد لها من قبل.

«أكيد... إنه شيء مخيف، لكن ما من بديل، نقبل المخاطرة لتتقي ما هو أفدح، هل تحتاج إلى شيخ؟... عرفت أنك مسلم...» لا أدري هل اعتذرت بالنطق أم

الإساءة؟ قالت إن كل شيء سيمر بأفضل ما يمكن وإنني في أكفأ مكان في العالم يمكن أن تجري فيه مثل تلك الجراحة، قالت... لا أعني ما تحدثت به، ذلك أنني بدأت أوغل، حتى الآن لا أدري هل انبعث صوتها من إطلالتها علي أم من داخلي، أحياناً يجيل إلي أنها كانت ترتدي الأبيض، وأنها تقريباً أربعينية، جميلة الملامح، لكن التدقيق عبر الملامح لا يبلغني أي ملامح، بل إنني أشك فيما عندي، هل جرى ذلك حقيقة؟ وإذا كانت وهماً فلماذا يتجسد لي صوتها خاصة إيقاعه، ودرجته، وما يحويه من حنية صادقة، لا... لم يكن قط واجباً وظيفياً، غير أنني لست موقناً، أحياناً يفاجئني حنانها فأتدثر به غير سليم.

اللحظة الثانية جرت في نيويورك، كنت مقيماً لأيام عند ابنتي التي استقر بها المقام، المبنى مطل على النهر الشرقي، ثمة رصيف ممهد، يقصده هواة صيد السمك والعشاق، والأمهات بأطفالهن، وسيدة هندية أو باكستانية لا أدري، تمشي بهمة ونشاط، تروح وتجيء، تروح وتجيء، تختفي فجأة، كنت أمشي بعض الوقت قبل أن أعود إلى البيت، مرة عند المدخل المؤدي إلى الرصيف، فوجئت بدفعة مجهولة لا أدري مكنها أو مصدرها، درت دورة غير كاملة، لم يكن قربي ما يمكن الاستناد إليه، لا أدري من أي جهة ظهرت تلك البنية، رمادية البنطلون، زرقاء التنورة، ناعمة الشعر، مؤنسة الطلة، مدت يدها إلي لتسند، لتحول دون سقوطي.

«هل تحتاج مساعدة؟»

راحت الدفعة، كنت أخشى تكرارها...

«لا... شكراً»

هل تسكن قريباً؟

أشرت إلى العمارة الشاهقة، أصرت على مرافقتي حتى المدخل، بضعة أمتار قميت لو طالت، وحتى لحظتي تلك أستعيدها بامتنان وعرفان وتوق مبين.

أما الثالثة فجرت في مدينة الإنتاج الإعلامي القريبة من مدخل الطريق الغربي المؤدي إلى صعيدي، إلى مسقط رأسي والبلد الذي جئت فيه إلى الوجود، جهينة، بعد أن فرغت من لقاء على الهواء، أدركني خلاله تعثر أنفاس فخشيت أن يجري لي ما وقع تلك الليلة منذ سنوات، وكان بداية الخطي المؤدية إلى جراحة القلب الثانية، أثناء قطعي الممر المفروش برخام ثقيل تزايد الثاقل عليّ حتى إنني توقفت عن السّعي، قصدت دكة قريبة محاذراً الزحف على أربع، يبدو أن تلك البنية لمحتني، هرعت ناحيتي جزعة.

«مال حضرتك...؟».

مغمض العينين سألتها كوباً من الماء، عادت بعد لحظات، لا أدري أي مكان سعت إليه، ليس ماءً إنما محلى بالسكر.

«هل أستدعي الإسعاف...؟».

كنت مبتعداً إلى مكان قصي لا يمكن تعيينه، بعد رشقات الماء والسكر أعود متمهلاً، أفد من جديد، أهذا تدريب على غياب مكين؟ لا أدري ولكن لهفة هذه البنية تعاودني، ومن أسف أنني لا أقدر على استعادة ولو قبس من حضورها، لست عليّ بمسيطر...

بين سيدي مرزوق والشهباء

جرى ذلك عام خمسة وخمسين وتسعمائة وألف، صبحني أبي مع شقيقي إسماعيل لصلاة الجمعة في سيدي مرزوق، مسجد وضريح يقع عند مدخل الدرب، عادة يفضل أبي صحتنا إلى مسجد مولانا وسيدنا الحسين أو الأزهر ثم يقصد فندق الكلوب العصري لمجالسة الحاج عبده النوبي، لعله يلتقي بقادم من البلدة أو أحد معارفه، رائحة الشاي الأخضر بالنعناع وما تيسر من شواء الكباب وتقليبة فتة الكوارع ما تزال باقية عندي. لماذا سيدي مرزوق في ذلك اليوم؟ لأن الشيخ مصطفى إسماعيل أعظم من تلا القرآن بعد الشيخ رفعت سيقراً، حدث لأول مرة، فلم يسبق دخوله أي مسجد داخل الجمالية، ما زلت أستعيد تلك الظهيرة وإعجاب القوم ومنهم أبي، بعد سنوات طويلة أدركت أسباباً عديدة لإعجاب أبي، كنت شأن الكثيرين ميالاً إلى الشيخ عبد الباسط، غير أنني الآن أعي الأسباب، حدثني أبي فقال إنه اعتاد المشي حتى مسجد مصطفى فاضل قرب درب الجمايز لسماع الشيخ رفعت، قال إن ما تبثه الإذاعة من تسجيلات ليس إلا مجرد إشارة تجاه كنز لم يُعرف مثله، مَرَّين القوم وغاب، قال أيضًا إنه لم يعرف من يدنو منه ويقترب إلا مصطفى إسماعيل وإن لم يؤت جمال الصوت. مرت الأيام، تنقلت من الشيخ البهيمي إلى الشعشاعي وأسرفني الشجن في صوت المنشاوي عند ترتيله، وفي آخر القرن نزلت حلب الشهباء، حدثني صاحبي محمد قجة عن شاب في المدينة القديمة يقتفي تسجيلات نادرة لأم كلثوم، من المعروف أنها لم تكن

تؤدي الأغنية نفسها مرتين متشابهتين، كل حفلة لها تصاريف وأداء يحير أذق وأهم المتخصصين، هذا الشاب عازف قدير للعود، صبي مدلل لا يغني إلا إذا صاحبه مع أنه صغير السن، غير أنه مقتدر، متين، عكف على الإصغاء إلى الأغنية الواحدة عدة حفلات، يختار أروعها، رق الحبيب مثلاً، آخر ما لحن محمد القصبجي، أداء أم كلثوم بلغ الذروة في حفلة يناير عام اثنين وخمسين من مسرح الأزيكية بحضور الملكة ناريهان، وهكذا... في بيت حلبي عتيق من طابقين، جلست في الطابق الأول أصغني إلى ما يقدمه الشاب، لا أعرف ما لحق به الآن بعد سنوات من العنف والتدمير المنظم وشيوع الخراب، فوجئت أن لديه تسجيلات نادرة لمطربين آخرين وحفلات خاصة لأصوات همت بها من حلب، الشيخ درويش الحريري، محمد خيري، صباح فخري وغيرهم، غير أن ما فاجأني تلك الساعات لمقرئي القرآن من المصريين، أثناء تقليب الشرائط، لمحت واحداً كتب عليه قصار السور، الشيخ مصطفى إسماعيل، الجمعة عام خمسة وخمسين وتسعمائة وألف، فبراير، تناولته، قلبته بين يدي وعندى تهدج، إذن... كانت القراءة في فبراير، غاب عني ذلك، والله طلبت سماعه، الوحيد الذي أصغيت إليه...

نعم... نعم...

آل إليّ الفضاء كله وما حوى، لم أتوقف عند قطع الشيخ وصعوده ونزوله المتمكن، إنما كنت أبحث عنّا في الأصوات المتداخلة، في الوهم الذي لم يتبق منه إلا الأصوات والفضاءات التي لا تدرك ولا تحصل...

ماء

لورأى إنسان بداية تشكل الماء لما تخيل مساراته وتحولاته، أرق العناصر وألينها وأوهنها حتى إنه لا هيئة ولا شكل له، إنها يتخذ وضعية ما يحتويه ويتأثر بلونه، عندما قصدت سويسرا للمرة الثانية دعاني صاحب لي لزيارة مدينة قريبة من جنيف حيث منزل مكثي لأيام معدودات، مصري، قبطي، هاجر في نهاية الستينيات، بدا لطيفاً، مضيافاً راغباً في التواصل وإبداء المعونة؛ لأن الطرق فسيحة، ناعمة، سهلة، محكمة، بدا لي الانتقال سهلاً ميسوراً، طبيعة مصقولة، لا شائبة ولا زائد أو ناقص، تحدثنا عن الأحوال، والإخوان، ولطف التدبير الذي مكنهم من الحكم حتى يعرفهم ويتبينهم الناس، أما لطف اللطف فخرج المصريين لإقصائهم، لم نتجادل، رغم لقائنا أول مرة، حكى لي عن سنواته الأولى ومجيء معارفه الآن وانطلاقهم معاً، خاصة في الجنس، مرة واقع ثلاث عشرة أنثى في ليلة واحدة، كان ذكراً طلوفاً، الآن وهنت الرغبة حتى إنه يبدي الحرج مع بعضهن، ويتهرب من متابعة أخريات، للعمر أحكام، قال إن التضييق على الهجرة بدأ نهاية الستينيات واستحكم في السبعينيات، يفسر هذا تقدم أعمار الزبائن في مقهى المصريين بشارع لوزان، معظمهم من النوبة، داخله يبدو مقهى في شارع البورصة أو سوق التوفيقية وسط المدينة. بسرعة وصلنا مونترال المطل على بحيرة فسيحة على الضفة الأخرى سلسلة مرتفعات جبلية، قال إنها فرنسا، المدينة أنيقة، مصقولة، فيها وقع مصطفى النحاس باشا معاهدة 1936، فندق أصفر الطلاء، أخضر النوافذ، بسرعة رأيت

من خلاله آخر أزيل وحل مكانه مبنى حديث قبيح، فندق سميراميس، جرأني على الجلوس فيه معلمي وصاحبي محمد عودة، خاصة في الشرفة الشهيرة، الفسيحة المظلة على النيل، كل جمعة يجلس فيها توفيق الحكيم بصحبة مريديه، أذكر هيئته وإلى جواره الدكتور حسين فوزي، إذن... لا بد أنني قصدتها وحضرت، متى... بصحبة من؟ لا أدري، دخلت إحدى غرفه مرة واحدة، ربما كان ذلك عام أربعة وستين أو خمسة، ربما ستة وستين، المؤكد قبل هزيمة يونيو، كان اتحاد الصحفيين العرب، بين الضيوف غسان كنفاني، كان روائياً شهيراً مرموقاً، قرأت له «رجال في الشمس» و«الأدب الصهيوني». كنت أرسل إليه قصصاً ينشرها في ملحق «المحرر» الذي يرأس تحريرها وقتئذ، رأيت في غرفته، يرقد في السرير، عنده وعكة اعتذر بسببها عن حضور اجتماعات اليوم، لا أذكر ما دار بيننا إلا أنه بقي عندي بلطفه ودماثته وصوته الخفيض إلى أن قرأت نبأ استشهاده بعد أن طالته يد المخابرات الإسرائيلية كان نشطاً فعّالاً في الجبهة الشعبية، قرن القول بالفعل، ما زلت أرى تمدده في الفراش مستنداً إلى وسادة وراء ظهره، نزولي فوق السلم الرخامي العريض، وتدقيقي في السقف، المدخل، استعادة ما أعرفه أن فيلد مارشال مونتجمري أقام مع رئاسة أركان الحلفاء في إحدى الغرف بالطابق الثاني، لو تم الإبقاء على المبنى لصارت تلك الحجرات مزاراً، غير أن الرغبة في إزالة الرموز ودثر أماكن الذاكرة والعراقة وتعجل الربح دفع إلى بيع الفندق، أرضه وما قام فوقها بمليون جنيه لا غير دفعها سعوددي، وجدت سميراميس في مونترو، الارتفاع، طريقة البناء، استدارات الواجهة، المدخل وحتى الشرفة الأمامية، لم أهتم بمعرفة اسمه، أطلقت عليه «سميراميس» رحنا نمشي على مهل أمامه، بحيرة منبسطة كمرآة، غير أن ثمة نهاية مجرى يجيء من الجبل القائم وراء البيوت، مغطى لا يلاحظ، ينكشف عند حافة البحيرة، يتدفق الماء عفيفاً قوياً إلى البحيرة، تطلعت إلى أعلى، جزء من الألب، عندما أسافر جواً قاصداً الغرب، أنتظر ظهور المرتفعات

المكسوة بالثلوج البيضاء صيفاً أو شتاء، أدق البصر إلى الوهاد، الوديان، الطرق التي تبدو كخيوط سوداء ملقاة هنا أو هناك، أحياناً أقدر الارتفاع عن السفح بعشرات الأمتار، تشير المعلومات التي تظهر بانتظام على الشاشة أن درجة الحرارة خارج الطائرة خمسة وخمسون تحت الصفر، لا أقدر على تخيلها، أقصى ما عرفته ستة وعشرين ناقص، كان ذلك في موسكو عام سبعة وثمانين من القرن المنصرم، من الطيران رأيت ميلاد العيون والأنهار، خاصة عندما تنقلت بالهيلوكوبتر فوق الجبال والممرات والسهوب في شمال العراق وسويسرا وفراغات مِصْر الصحراوية، يبدأ الأمر من اللاشيء، مما لا يمكن الإمساك به أو حصره أو رؤيته، ذلك البخار الذي يتحول إلى غمام سابح ينزل قطره حيث تقتضي الأحوال والظروف، يتجمد فوق القمم، جليد أبيض ناصع نقي مثل الحقيقة ورؤية صفى القلب، عند يوم معين، لحظة ما يبدأ ذوبانه بتأثير عوامل قريبة، بعيدة، بعضها ربما يكون قادمًا من أكوان بعيدة عن الوجود الذي يحدنا، كثير لم يعرف بعد، يبدأ التفكك، يسري قطر الماء منحدرًا، ربما يمضي عبر مسالك مهدتها قطرات أخرى من ملايين السنين، ربما تكون هي نفسها أو غيرها قدمت من مواضع نائية، لا يمكن تمييز الماء من الماء، لا يشبه إلا جوهره وشكله، يتكون سر سوب جد ضئيل، يلتقي بآخر عند نقطة لم يحددها أحد، عينتها الطبيعة، ثم يمضي ليقابل آخر، يتدقق بمقدار أكبر وهكذا حتى يصير شلالاً هادرًا، أو عينًا صاخبة مثل تلك التي وقفت أنظر إليها في مونترال أمام فندق سميراميس القاهري، مياه قادمة من جبال كردستان، أو مرتفعات التبت أو كلمنجارو أو كلورادو وما خفي كان أعظم، رأيت جبال حميرين في شمال العراق الممتدة، الصلدة مقصوفة قصًا بالماء، هكذا يسري دجلة، لا تجرؤ قوة على الصمود في وجه أضعف الموجودات، دائمة التحول، في طور تبدو جامحة، وفي آخر لا تُلحظ ولا تبين...

قال جابر أبو حسين في الهلائية:

وحسيت عقلي دوابه من العقل غايب
رأيت شجرة يا بنت في وسط منزل
وهجموا العدا بسلاح جابوها قضايب
كحتوا على الشجرة وقطعوها
والله خسارة مضللة ع الحبايب

قال شاعر مجهول في عدودة:

ما كان سلامتك يا نخل في ليفه
يا سمس اخضر ما حل تقطيفه
ما كان سلامتك يا نخل جوه الليف
يا سمس اخضر ما حللوش تقطيف

نصيحة:

لا تسليخ الأشجار
ولا تحكي الأحلام

شعر

قوتي غنائي، وطمري سائري، وثقي
والنفس أماراً بالسوء ما اجترمت
مولاي كنزي، وورد الموت موعودي
إلا وسيء طبعي قائل: عودي
اللزوميات أبو العلاء المعري

كل ذرات هذه الأرض كانت
أوجها كالشموس ذات بهاء
أجل عن وجهك الغبار برفي
فهو خذ لكاعب حسناء

عمر الخيام
ترجمة: أحمد الصافي النجفي

تنكر لي دهرٍ ولم يدِرْ أنني
وظلُّ يُريني الخطب كيف اعتداؤه
أعزُّ وأحداثُ الزمانِ تهونُ
وبتُّ أريه الصبرَ كيف يكونُ
الأبيوردي

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام
أبو تمام الطائي

وأول النهار شباب وقوة، وآخره مشيب وهرم، فجواب المتعنت أنه ما أراد إلا ذات الشمس من حيث هي من غير نظر إلى ما يطرأ عليها من حركة فللكها؛ لأن هذه الحالة في الإبكار والعشي إنما هي خير وشر بالنسبة إلينا؛ لأن فلك الشمس لا يزال دائراً، وحركة الفلك واحدة لا تتغير أبداً إذ الكرة لا فوق لها ولا تحت، فالشمس في جرمها واحدة لم تتغير أبداً، وهي هي أبداً ما زالت ولا طرأ عليها شيء.

ابن أبيك الصفدي

الفيث المسجّم في شرح لامية المعجم

قال حطان بن المعلى:

أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حَكْمِهِ	مِنْ شَاهِقِ عَالٍ إِلَى خَفْضِ
أُبْكَايِ الدَّهْرُ بَوْفِرِ الْغَنَى	فَلَيْسَ لِي مَالٌ سِوَى عِرْضِ
لَوْ لَا بُنَيَاتُ كَرْغَبِ الْقَطَا	رَدَدَنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضِ
لَكَانَ لِي مُضْطَرَّبٌ وَاسِعٌ	فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ
وَأِنَّمَا أَوْلَادُنَا يَتِنْنَا	أَكْبَادُنَا تَمَثِّي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ	لَا مَتْنَعَتْ عَيْنِي مِنَ الْغَمَضِ

«من ديوان الحماسة لأبي تمام»

أَسْفًا، لَنْ تَكْمُلَ رَحِلَتُنَا يَا شُعْرِي
وَسَأَمِضِي كَيْ أَضَعَ خِيَامِي فِي أَرْضٍ أُخْرَى
لَا تَذُرُونِي عَنْهَا رِيحُ الزَّمَنِ الْهَوِجَاءِ

(صلاح عبد الصبور)

هَلْ عَادَ قَلْبُكَ مِنْ مَآوِيَةِ الطَّرَبِ	بَعْدَ الْهُدُوءِ فَدَمَعَ الْعَيْنِ يَنْسَكِبُ
أَمْ هِيَ جَنَّتُكَ دِيَارُ الْحَيِّ إِذْ ظَعْنُوا	عَنْهَا كَأَنْ بَعْمَايَا رَسَمِهَا كُتِبُ
بَلْ طَائِفٌ هَاجَ مَنَا الشَّوْقُ فَابْتَدَرَتْ	لَهُ الْمَدَامِغُ لَا عَانَ وَلَا صَقِبُ

(امرؤ القيس)

قال ذوالنون،

سافرت ثلاثة أسفار، وجئت بثلاثة علوم.

«ففي السفر الأول جئت بعلم قبله العوام والخواص، وفي السفر الثاني جئت بعلم قبله الخواص دون العوام، وفي السفر الثالث جئت بعلم ما قبله العوام، ولا الخواص، فبقيت شريداً طريداً وحيداً»

عن نفحات الأنس للجامي

المريد والمراد

قيل لذي النون المصري «من المريد؟ ومن المراد؟». قال: «المريد يطلب والمراد يهرب».

عن نفحات الأنس للجامي

وكان ذو النون - قُدَّسَ سرُّه - سيَّاحًا، فقال:

«كنت في سفر، فرأيت شابًّا، وبه قلق واضطراب، فقلت: من أين يا غريب؟
فقال: أأكون غريبًا من كان له مع الله أنس ومودة؟ فصحت صيحة وخررت
مغشيًّا عليَّ، فلما أفقت قال: ماذا حدث لك؟ قلت: وافق الدواء الألم».

عن نفحات الأنس للجامي

علم

توجه ذو النون المصري، قدس الله سره، إلى العزيزي بالمغرب، وكان من قدماء المشايخ لتحقيق مسألة، فقال العزيزي قُدّس سرّه: إن كنت جئت لتحصيل علوم الأولين والآخرين، فهذا محال لأن الله تعالى هو العالمُ بعلم الأولين والآخرين، وإن كنت جئت لطلبه فقد تركته في المكان الذي خرجت منه.

عن نفحات الأنس للجامي

الأعشى:

أُرِقْتُ وَمَا هَذَا السُّهَادُ الْمَوْرَقُ	وَمَا بِي مِنْ سَقَمٍ وَمَا بِي مَعَشَقُ
وَلَكِنْ أَرَانِي لَا أَزَالُ بِحَادِثٍ	أَعَادِي بِمَا لَمْ يُمَسِّ عِنْدِي وَأَطْرُقُ
فَإِنْ يُمَسِّ عِنْدِي الشَّيْبُ وَالْهَمُّ وَالْعَشَى	فَقَدْ بَنَ مِنْنِي، وَالسَّلَامُ تُفَلِّقُ
بِأَشْجَعِ أَخَاذٍ عَلَى الدَّهْرِ حَكْمُهُ	فَمِنْ أَيِّ مَا تَجْنِي الْحَوَادِثُ أَفْرُقُ

تساؤل:

لماذا يرفع الناس رءوسهم إلى السماء عند دفن الميت مع أنهم يوارونه الثرى؟
لماذا يتوجه الكافة إلى السماء عند الدعاء مع أن الله موجود في كل موضع؟

تحوتي، أمنتب، كونفوشيوس، لاوتسو، البوذا، سقراط، عمر الخيام،
ماركس، فرويد، نيوتن، أنشتين، كل هؤلاء فاعلون أكثر من الحاضرين الآن، إذن
أليس الغياب أقوى؟

من الحكمة الصينية:

بقدر تعقيد الأشياء تعم الفوضى، بقدر كثرة القوانين وتعددتها تنتشر المخالفات،
بقدر ما نحكم بقوة السلاح يزداد الخصوم، من فقدوا الحكم فهذا ليس لنقص في
القدرة على إحلال النظام، وإنما لأنهم عاملوا الخلق بقسوة.

سماء.. أرض

السماء بمنزلة المظلة للعربة، تظلل كل شيء، الأرض كصندوق للعربة تحمل
كل شيء، فصولها الأربعة مثل الخيول، فما من شيء إلا وهو في خدمتها.

أعداد

للسماء فصولها الأربعة وعواملها الخمسة، وأقسامها التسعة، وأيامها
الثلاثمائة والستة والستون، للإنسان أيضًا أربعة أطراف، وأحشاء خمسة
وفتحات تسع ومفاصله الثلاثمائة والستة والستون، السماء تعرف الرياح والمطر،
البرد والحر، كذلك الإنسان يغضب ويرضى، يأخذ ويعطي، مرارته غيوم، رثاه
النفس، طحاله الرياح، كليته المطر، كبده الرعد، مع السماء والأرض والإنسان
يجيء العقل.

سماء

السماء جسم، وهي بهذا لا تختلف عن الأرض، لكل الأجسام آذان، ما من جسم له آذان منفصلة عنه، السماء بعيدة عن البشر، مستحيل على آذان السماء سماع ما يصدر عن البشر من أصوات، عندما يكون إنسان ما في قمة برج يعجز عن رؤية أجسام النمل على الأرض، ومن باب أولى لا يستطيع سماع ما يحدثه من صخب؛ ذلك لأن النمل ضئيل جدًا بالنسبة للإنسان، لأن النمل من دون أصوات لا يمكنه اجتياز تلك المسافات، السماء أعلى بكثير من قمة برج، والإنسان صغير جدًا جدًا إذا ما قورن بالسماء، إذن من الخطأ القول إن السماء ترد بما يفيد أو يضر على كلام الإنسان، سيئًا أو جيدًا.

واحد

ما ينشئه الإنسان من صلوات، ما يلاقيه من أفراح وأتراح، هذا كله من صنع القدر، واحد فقط يقرر الحياة أو الموت، طول العمر أو الموت المبكر، هناك واحد وحسب يقرر من الذي يتبوأ منصبًا رفيعًا أو منصبًا متواضعًا، ويقرر الغنى أو الفقر، بدءًا من الملوك والأمراء وصولًا إلى العوام، بدءًا من القديسين والحكماء، وصولًا إلى الحمقى والبلهاء، من الكائنات كلها التي لها رأس وعينان ودم، ما من مخلوق يمكنه الإفلات منه.

أهلك

الذين من أمك وأبيك
يتعاركون معًا وراء أسوار البيوت
لكنهم عصبة واحدة في وجه الغريب
بينها أعز أصدقائك

مهما كانوا قبائل وعشائر

فلن يجاربوا حربك

ولن يدحروا لك عدوك.

لاوتسو: الطاو

فراغ

ثلاثون عصا خشبية، ملتفة حول استدارة مركز دائرة، تصنع عجلة دوارة.

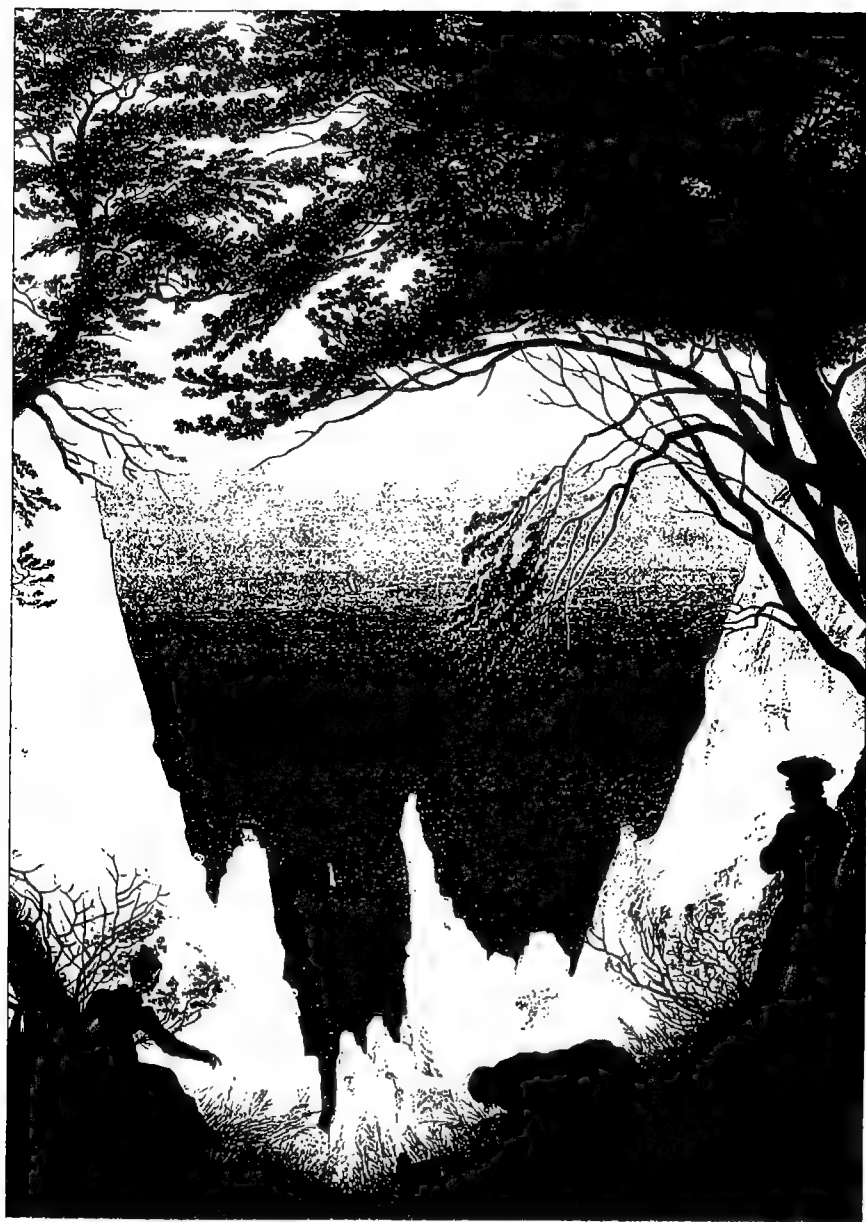
أتعرف أنه لولا الفراغ ما كان يمتلك المكان.

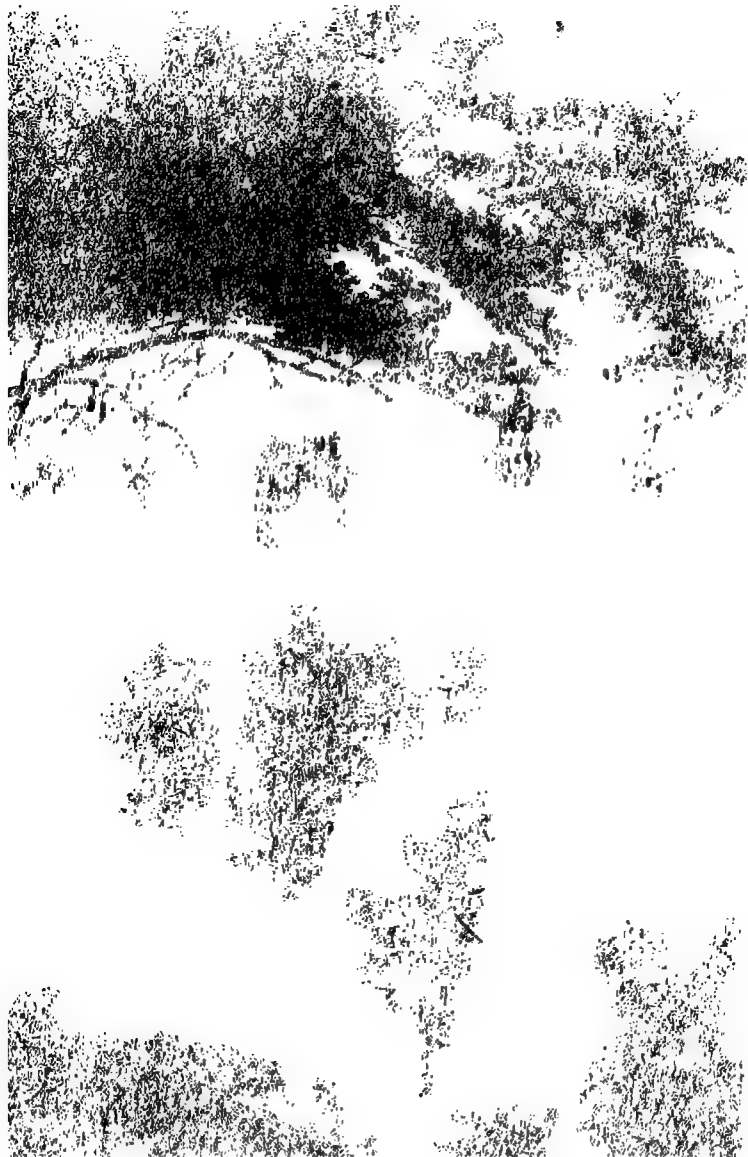
لولا فضاء حول قطب مركزي، ما التأمت هناك العصي والإطار والدوران.
كذلك لا تصير قطعة من صلصال، إناء صالحاً للاغتراف، إلا بقلبها الفراغي
الباطن.

ولا يقوم في جدار باب أو تطل على الأفناء نافذة، إلا بما انتقب في الجدران من
مساحات فراغية، فالخلاء العدمي شرط بدء الوجود، فلذلك، صار للموجودات،
يد العطاء وللمحجوبات طي الغيب، مأمول الرجاء.

لاوتسو: الطاو

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ حَمِيدٌ ۝١٩﴾ وَتُبْحَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ
يَوْمَ الْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا
فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿[سورة ق.]





حكايات الأشجار

8.

نخل

له عندي صولة وجولة.

مقدم على كافة الشجر، حتى إنني أعده أمة قائمة بذاتها، حتى إذا قيل على مسمع مني، أو قرأت ذكرًا للشجر بما يحوي من أنواع شتى لا يخطر عندي بينها أو ضمنها، جنبس مفرد.

رغم تشابهه فإنني أجد في كل منه انفرادًا، لا تشبه واحدة الأخرى، رغم توحد الجنس إلا أن نخيل الصعيد له عندي منزلة، حضوره، سموقه، انبثاقه، لون جذعه ودرجاته المشتقة من بني فاتح إلى غامق. أما اخضرار الجريد العالي وسوبات البلح الصفراء المتدلي منها ما يُعتبر أحمر أو أصفر فلكل من هذا معانٍ وهوى، في القاهرة القديمة من النادر رؤية نخلة، فقط داخل المسافر خانة التي احترقت وبادت معها تلك التي تأملت طويلاً، كذلك في بيت السحيمي، ما تزال في الحوش الداخلي حيث الساقية والطاحون ومخازن الغلال والزاد والمواعين التي كانت، منذ خمسين عامًا، لا ... بل أكثر، أتقن ملاحظة ما يطرأ من تغيرات على البيت، بأطواره ومراحل، ومجيء وذهاب، من له صلة، عابرة أو مقيمة، لي في هذا مدارج وأحوال، أول دخولي إليه عندما أقمتنا في الدرب الأصفر عام ستة وخمسين، أشرت إلى هذا من قبل، في الداخل نخلة وشجرة نبق، الأخيرة أزيلت في الستينيات لأن ثمارها مجلبة للوطايط التي كانت تعشش نهارًا في منذنتي الحاكم بأمر الله، في الليل تطير أسرابها بحثًا عن القوت، مقصدها تلك الشجرة، لم يكن

في البيت إضاءة، فقط ما يلزم غرفتين يقيم فيها مع أسرته، لما تزايد أمر الوطاويط وخشي على أطفاله منها، بعضها يلتصق بوجه الآدمي ليمتص دمه.

لسبب ما، حقيقي أو مفتعل، أزيلت شجرة النبق، بقيت النخلة، وحيدة، غير مثمرة، ذكر، أخبرني عبده الغريب حارس البيت أن حبوب اللقاح كانت تنتقل منها مع النسيم إلى أكثر من نخلة، واحدة في صحن بيت قديم بحارة بيرجوان، أخرى داخل مسجد الحاكم وبقيت حتى ترميمه بواسطة طائفة البهرة أحفاد الفاطميين، أما الثالثة فبعيدة نسبياً، بازغة، سامقة في فناء جامع الظاهر بيبرس بالظاهر، والغريب أنها لم تكن تقبل حبوب اللقاح إلا من نخلة بيت السحيمي، قال إنه أحيط علماً بذلك من زميل له كان أبوه مختصاً بتقليم النخل في بيوت الأكابر بالدرب الأحمر، ويعرف أحوال النخيل في المدينة القديمة، حتى إنه كان على ألفة ببعضها حتى لينحني له تودداً ومحبة عند الاقتراب والدنو، أو الارتقاء بسرعة لنقل بذور اللقاح من هذا إلى تلك، كان على دراية بكل منها حتى ليفرق عند التلقيح بردود فعل هذه من تلك. مع اجتثاث النخل بدأ تغير الأحياء وتدورها، بقيت الجدران وقامت المباني لكن بدأ غروب الروح، كان يؤكد حساسية النخل للأشخاص فيقبل هذا وينكمش عند ظهور ذاك، يتهيج لوقت ويحزن لوقت، يؤكد عبده الغريب أنه عشق نخلة في إحدى مقابر الإمام الشافعي، كان يزورها ويخلو بها، مما تردد أنه كان يلحقها منيه وتنفرد برطب جنّي عرف طريقه إلى مائدة الملك في عابدين لفرادته وانعدام شبيه له، وهذا عجيب، غريب.

من نافذة قطار الثامنة صباحاً أتابع المريتات المتراجعة، المطوية عبر توالي المسافات، بعد القيام من محطة الجيزة، واجتياز الصف والعياط ألحظ تكاثف النخيل، اصطفاؤه، ثباته، مع الوصول إلى المنيا وبعدها أسيوط يتكاثر حضوره، حتى ليبدو كتلة متصلة كجدران من جذوع وجريد وتمر مختلف أنواعه، لكنه ليس متشابهاً أبداً، هكذا يبدو من بعيد، من مسافة، لكن عند الاقتراب يختلف الحال، عند وصولنا جهينة يقوى عليّ حضوره، أينما وليت أطلعه، ليس عبر توجيه

بصري إلى الأعلى، إنما في كل صوب، أسقف البيوت من جذوعه، عجل السواقي من أخشابه، كذلك الجسور الممتدة فوق مجاري المياه والترع الضيقة، أما اللوف المتخذ من حراشيفه فيصحبنا داخل الحمام، أسعى بصحبة أبي، ورث مائة وخمسين نخلة متفرقة في زمام جهينة، من الغرب إلى الشرق حيث حدود الزمام المحاذي للمراغة وشندويل، بعد وصولنا إلى البلد يتجه أبي إلى الأحباب والأصحاب، ربما يمضي الليل عند أحدهم، في اليوم التالي يتجه إلى النخيل، نخيله هو، عندما بدأ يصحبني معه، يطوف بي هنا وهناك، عرفنا إلى بعضنا، كان يخبر كلاً منها عني، ثم يقدم النخل إليّ، عند اقترابه يلقي السلام قبل أن يلمس الجذع وكأنه يصافح، نخيله متباعد عن بعضه، يصله هو خلال الزيارة وربما ينقل رسالة من هذه إلى تلك، ما حز في روحي وآلني تيههم مني، بعد غيابه الأتم عدت إلى البلد، والد وما ولد، جئت بعد انقطاع لم أستطع الاستدلال، تشابه عليّ الأمر مع يقيني أن النخيل مختلف عن بعضه، لا يشبه أحدها الآخر، كأنه يعاقبني لنسياني مواضعه وإهمالي مواعيق أبي، غير أن زيارتي الأخيرة أنشأت عندي أمراً، لم أكن مرتاح البال، شغلت بما لا أدري كنهه، بما غمض عليّ، معالم أعرفها تغيرت، تبدلت، ما بين ترعة البير حيث محطة الحافلات والميكروباص ومنازل أقاري لم يعد فراغاً، ظهرت بيوت شائهة، خرسانية القوام، طوب أحمر غير مطلي، عشوائية الرؤية، لم يتبق من جهينة التي أعرفها إلا مزق، شظايا متناثرة الملمها بالذكرى والسعي الحثيث، ومحاولة خطي أبي المندثرة، لا أدري متى بدأ عندي، ذلك النبأ الغامض، ثمة نخلة تقتضي أحوالي، تدركني من مغرسها، تسمع ما أهمس به، ما أنطقه جهراً أو سراً تقتفي مما يرد عليّ من بواده وهو اجم غير أنني لا أقدر على تحديد موضع لها خارج الأطر كافة، غير أنها جهينة أكاد أصغي إلى لهجتنا من خلال حفيف سعفها وأناثها النشوى عندما يلقيحها النسيم، هالني الجريد الأصفر المتراكم أعالي النخل، لم يعد أحد يقلمه بعد توقف سلسال التعليم من جيل إلى آخر، سفر الرجال إلى الأفطار البعيدة أخل بالمنظومة وبدل المواعيد، باعد ما بين اللقاءات الأثيرة، غير أن ما جرى لي من نخلة القرنة بلّبنني بقدر ما طمأنني...

نخلة النخلات

لو أن الأمر بيدي

لو طاو عتني الأحوال، لو تناغمت الظروف لرسوت في البر الغربي، لأقمت في البيت الذي بدأت التردد عليه منذ ثمانينيات القرن الماضي، طفت البر الغربي في أول الستينيات، أكاد أستعيد كل خطوة، كنت في المقتبل والسعي غاية في حد ذاته، الشاطئ الذي فارقت ما يزال بادياً، لم يشحب، لم يختف بعد، جئت فيما تلا ذلك مرّات، غير أنني كنت من العابرين، إقامتي في البر الشرقي، بالأقصر رغم أنني قريب من الكرنك أو الأقصر، لكن شتان، منذ الثمانينيات تبدل الأمر، أقيم في الغرب وأفد إلى الشرق، في متون مَصْرَ القديمة يعني المشرق بزوغ الشمس أي الضوء، أي الميلاد أي التجدد، التبديل، يعني أيضاً وفادة الراحلين إلى عالم الغرب، غير أنهم يولدون من جديد من الشرق في الأبد الأبد، يقال للمبرأ إنه ولد من الشرق في عالم الغرب، هذا من المعاني المحيرة، تمامًا مثل تلك العبارة.

«مات مفعلاً بالحياة..»

أو تلك التي لا ينطقها إلا الكاهن مرتدياً قناعاً بمثل رأس أنوبيس، أثناء طقس فتح القم:

«انهض... إنك لست بميت...».

لم أعرف في كافة ما اطلعت عليه تعبيرًا عن التعلق بالوجود ورفض العدم مثل الذي أوردته، كثيرًا ما رغبت في سماع نطق الكهنة للعبارتين، باللسان القديم، بذات النبر والإيقاع لعل ذلك يكون ممكنًا يومًا ما، رغم أن الأمر يشغلني غير أنه ليس موضوعي الآن، إنها هو من تداعيات البر الغربي، كم من غرب عرفته إلا أن المعنيَّ عندي واحد لا غير، إنه بر الناحية الأخرى من النيل حيث تغيب الشمس وتبدأ رحلتها الليلية المحفوفة بالمخاطر، عرفت هذا النوع من الإقامة في بيوت صغيرة معدة للزائرين، عاينت بعضها فيما بعد، لكن بيت الحاج محمود أقربها إليّ، من ناحية يشبه بيت خالي الذي جئت فيه إلى الدنيا، مبني بالطوبه الخضراء التي نعرفها باللبن، موقعه عند نهاية المعبد الأشم لأمنحوتب الثالث، أي أنه قريب من المرحلة النهائية لقدس الأقداس، إن لم يكن موضعها تمامًا، من الطابق الثاني حيث غرفتي التي لم أعرف غيرها، يكفي أن أهاتف الحاج قبل قدومي بيومين، لو أن الغرفة مشغولة يعمل على إخلائها وله في ذلك طرق شتى، المهم أنني أصل لأجد مكاني خاليًا، إنها الأوسع مساحة، مستطيلة، يتصدرها سرير من جريد النخل، يُعرف هنا بالعنقريب، يصعب على العقارب تسلق قوائمه وإن سمعت بوجود بعضها أحيانًا في الفراش، لكن الحاج محمود السائق وهو شقيق للحاج محمود مدير النزل ومدير شئونه يؤكد لي أن ذلك يحدث عن طريق السقف المغطى بسعف النخيل وأوراقه، كل ما يحيطني من الشجرة المباركة التي ينسب إلى خير البرية قوله في وصية مدونة موثوق بها: «أكرموا عمتكم النخلة..»

تقول الرواية إن مدبر الأمر كله بعد أن خلق آدم، أبا البشر أجمعين من صلصال مكين، وقيل من طين، بقيت فضلة صغيرة في حجم السمسم، خلق منها النخلة، لذلك اعتبرت صنو البشر، الحق أنني جُبلت على التعلق بها والاتكاء على ذاتي وقت الخطوب تحت ظلالها، لا أراها الآن أينما حللت إلا ويمثل سعي أبي واقترابه على مهل منها ونطقه السلام الحميم، أخص بالأمر نخيل الصعيد، هذا جنس

خاص الخاص من أمة النخيل وشعوبها، حتى الواحات الداخلة والخارجة وسائر ما عرفته منها في صميم الصحراء الكبرى، بما في ذلك مطماطة في تونس التي وصلت إليها من قابس. أما نخيل غرداية الواقعة في تخوم الصحراء الكبرى جنوب الجزائر فلها شئون، خاصة أن تمر دجلة نور الكهرماني المضيء حتى إنني أستحلب الواحدة منها ولا ألثمها مرة لا غير لإطالة أمد تسرب المذاق إلى حنايا الروح وليس إلى الحواس، أعرف مواعيد ظهوره وأسأل صحبي الحميمين جلبي لي إذا توفرت الإمكانية وساعدت الظروف، رغم هيامي به وبحثي عند من أعرفهم في باریس إذا حللت بها يظل استثناء، النخل والتمر، شجر الصعيد فيه أمر خفي لا يبين، متنوع ثمره غير أن العناية به فيها تقصير، والترويح له خائب، يقلقني إهمال النخل الباسق، وتكاثف السعف الذابل وعدم إزالته، إنه نذير، يقول القدماء إنه لا يظهر إلا في ديار الإسلام، غير أنني رأيته في بلدان أوروبية ناحية الجنوب، لكنه غير منجب للتمر، فقط زينة للطرقات، نعرفه في مِصرَ بالإفرنجی، إنه كذلك، إنه ليس كذلك، عندما دخلت دير الآباء الدومينكان في تولوز لزيارة الأب جاك جوميه، ولي به صحبة، ومني له مودة، زرته في معزله وكان بشوشاً، عطوفاً، روى لي وأخبرني بأيام إقامته في مِصرَ، وإذا حان الأوان وناسب المقام فسأخبر عنه، عَرُبَ بعد عودتي إلى ديارى بشهور ثلاثة فحمدت الله على اللقاء، الذي دبره سيدي حبيب السمرقندي، ما علق بذاكرتي تلك الأعمدة في البهو الكبير للكنيسة، كلها نخيل متحجر، بيضاء تسر الناظرين، من أين جاء النخيل إلى تولوز؟

لا بد من الأندلس، من إسبانيا القريبة، شاهدهة هناك، لكنه غير مشمر، عقيم، ليس مثل نخيل الصعيد، في الغرفة المألوفة لي، أندثر به، السرير منه، كذلك السقف، الشرفة التي تتوسط الجدار الذي تتخلله أيضاً نافذتان، إحداهما محاذية لموضع رأسي على الوسادة، كلما حللت هنا، أنتظر ظهور جريد النخل العالي، لولا ملاحظتي ذلك مرة بعد أخرى لظننته وهماً، عند وصولي تكون النافذة مؤطرة

لفراغ يمكنني التطلع منه ورؤية الفناء الخلفي للبيت المجاور، مع شقشقة أول ضوء أولي الوجه لأطالع ابتسامة الجريد وأوراقه متألفة الخضرة، تبتسم النخلة في أول ليلة تُغير توجهها، عادة تميل بسعفها، بجذعها إلى بحري، مع حلولي تميل إلى قبلي حيث أشغل موضعي، صيفًا وشتاءً لا أغلق ضلفتي الزجاج أو الشيش، أكتفي بحاجز السلك الذي يمنع الناموس أترقرق مع لواح الضوء، أولي الوجه ناحيته، أحيانًا أخرج إلى ما بين الغرف، سطح صغير، مرقب، يشرف على تمثالي ممنون كما يعرفان منذ العصر البطلمي، وهما لأحتب الثالث، أنتظر بزوغ القرص أتابع صعوده السريع صيفًا، المتمهل شتاءً ثم أعود إلى فراشي مفعمًا بالحياة، مقبلًا على الدنيا، راغبًا في مشاركة كافة الأحباب والأصحاب ومن يربطني بهم ود.

لا أعرف متى بدأ انتباهي إلى النخلة؟ لا أقدر على التحديد، غير أنني منذ سنوات عديدة انتبهت، بادلتها المحنة بمثلها، ومع الوقت قوي عليّ حضورها عندي، حتى ليحفني جريدها ويُمسّدي سعفها، ويغمري ذرورها بالنشوة، تلمس عليّ، أنشقتها، أصير إليها وتصير إليّ فأذوق عسيلتها ونضار جمارها، أسكن إليها وتصير إليّ.

شجر الأنوثة

لولا أني رأيت وعانيت ما صدقت.

تلك الكلمات وإيقاعها وجُرسها تعيد إليَّ أبياتًا من شعر الملحون، أصغيت إليها في بيت سيدي الدباغ عام تسعة وسبعين من القرن المنصرم، في بيته بفاس البالي بالمغرب الأقصى وله عندي موضع مصون، شاعر بدين قليلاً، عذب الصوت، عازف على طبلية صغيرة مصاحب له، علق بذاكري.

«التقيت، قبلت، حضنت، وما... فعلت»

عشقت هذا الفن فيما بعد والآن، بعد ما يقارب الأربعين حولًا عندي سائر مدوناته ومعلمته، ولي عنه حديث يطول إذ إنه مما اختص به المغرب، فهو غير معروف خارجه.

أقول إنني عرفت مرقد سنجم رع الأبدى عند زيارتي الأولى لدير المدينة، قرية الفنانين الذين رسموا مراقد الملوك في واديهم الصامت، أيضًا منازل النبلاء، بيوتهم الأزلية حفروها في مرتفع يطل على البيوت التي عاشوا فيها وتبدو معالمها خاصة عندما نرتقي المرتفع المطل عليها، عندما رأيت جمال الألوان وحيويتها وغازرة بثها وفراة التصور الأخروي، قلت لنفسي: هذا شغل المعلم لنفسه، سنجم رع أحد هؤلاء، وُلِد وتعلم في معبد هابو، لم يعرف مكانًا آخر، إذ كان محرمًا على الفنانين مفارقة القرية، رغم أن الكهنة كانوا يعصبون عيونهم عندما يتجهون إلى مواقع

المراقدين فكانوا يضعون في الاعتبار إمكانية معرفتهم لمواضعها الحاوية، في المساء يشربون الجعة، ويرسمون الملوك المقدسين في أوضاع فاحشة، كثير من تفاصيل حياتهم اليومية معروف الآن، وصاياهم، غرامياتهم السرية، الغضب، الفرح، رأيت سجلات بذلك، بمناسبة مرور قرن على اكتشاف القرية بواسطة العلماء الفرنسيين، رغم رؤيتي لكتب عديدة تحوي صوراً شتى لمرقد سنجم رع، فإنني لم أكتشف هذا المشهد إلا في زيارتي الأولى خلال الثمانينيات، ربما عام أربعة أو خمسة وثمانين، فوجئت به عندما اتجهت إلى يمين الداخل، رفعت البصر إلى زاوية صعبة قرب التقاء الجدار الشرقي بالشمال المستطيل، إلى أعلى.

شجرة جميز تخرج منها أنثى جميلة، تفاصيلها بادية، نصفها الأسفل يتجه إلى جذع الشجرة، تقدم المدد إلى الراحل وأفراد أسرته، تبث إليه أسباب الوجود، ترتدي ثوباً أحمر يبرز زهاء الأنثى، من صميم الشجرة، تقدم صينية عليها أرغفة ربما تحوي طعاماً ما أو شراباً، إبريق ماء، زهور لوتس، القوام وضاح والصدر وثير واعد والكتفان مُنحنيا هذيان ورفرفة، كل هذا يمكن أن تشير أي أنثى لها من الجمال حظ ومن الفتنة نصيب، غير المؤلف، ما يتجاوز القوانين الفاعلة ذلك الاندماج الهين، اليسير، بين الجذعين المؤلفين، المنغمين، المرأة الشجرة، الشجرة الأنثى، ما يجمعهما القدرة على الإنثار، كل منهما مصدر تكوين ومحله، لذلك كانا إلى منزلة المكون أقرب، يقول الشيخ الأكبر: كل مكان لا يؤنث لا يعول عليه، الأنثى مصدر للحياة، تحتوي وتُحتوى، من تندمج بشجرة الجميز حتّور المقدسة، أعرفها من التاج المخصص لها، قرص الشمس يحف به قرنا بقرة، ربة الخصوبة، الجمال، الطاقة الحيوية، طلعت بعد أربع ساعات من الانشداء والعجب مرّ عليّ خلالها عدة زائرين من أجناس شتى، نظروا وعبروا فحنقت لدخولهم المكان المقدس بغير علم، ولأنهم لم يتوقفوا أمام الشجرة الأنثى، أمام أجل حقل قمح

يحصد سنابله سنجم رع وزوجته، هناك في اللاهناك، حيث حقول يارو، طرحت
بخاطري الأسئلة على الأسئلة.

من رسم الفنان وزوجته؟

هو قبل وفاته، أم ابنه؟

غطاء التابوت الذي يخص زوجته ينضح بجهاها، عيناها المقتحمتان، الخضر اوان
الحيتان، النفاذتان، وجنتها الدافئتان، لها الاكتمال والجمال وجلال الهيئة، لم أرهما
على الجدران إلا معًا، هنا أورد حكاية كل ما تحويه واقعي، موثق، إذ ظل هذا
المرقد في تخوم الصمت مصوّنًا مكتملاً، يضم الأسرة لأكثر من ثلاثة آلاف عام
وخمسائة، حتى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، عندما جاء عامل من
أهالي القرنة إلى جاستون ماسبيرو وأخبر عن مرقد مكتمل ما زال باب الخشبي
المكون من مصرعين قائمًا، أرسل ماسبيرو من يحرس المدخل حتى الصباح خشية
السرقة، مع شروق شمس يوم كان يخشاه سنجم دخل ماسبيرو إلى المرقد الذي
حوى الفنان وزوجته «اينفري» وابنته «خندس» وزوجة ابنه «تامكت» وسيدة
تسمى «إيزيس» ربما زوجة ابنه أو إحدى قريباته، استخرجت التوابيت وبدأ تفرق
الأسرة عن بعضها بعد تضام ورقدة دامت ما يقارب ستة وثلاثين قرنًا.

سنجم رع يرقد الآن في المتحف المصري، أما زوجته إينفري وابنتها فنقلتا إلى
متحف المتروبوليتان وقد رأيت توابيتهما هناك، أما المومياوات فنقلت إلى متحف
بيو دي في كمبردج بولاية ماساشوتس. أما زوجة الابن «تامكت» فترقد الآن في
متحف برلين.

من يدعو إلى جمع شملهم مرة أخرى؟ أما تحتور المقدسة فما تزال تقف مكانها،
مشرقة من شجرة، تقدم أسباب الحياة للمبرأين، سنجم وامرأته، ما أغرب ذلك،
لكنه ليس أعجب مما جرى في تلك المدينة من صعيد مصر.

شجر الوقت

عندما نزلت مدينة سمالوط أقمت في قصر قديم مهجور قبلي البلد، أنشأت به مصنعًا للسجاد اليدوي يتبع المديرية العامة في المنيا، لم يكن بالمدينة فندق، ولا غرفة يمكنني استئجارها، الأهالي لا يقبلون الأعزب الفرداني، اقترح المدير إقامتي في الطابق الثاني، لنقل بدقة إنه قدر حالي والظروف التي جرى نقلي فيها بتعسف ظاهر لإبلاغي عن فساد، شرحت الأمر مفصلاً في دفاتر التدوين، فليراجعها من يرغب؛ في ذلك الوقت كان القصر منعزلاً، قائماً بمفرده، تحيطه حقول ممتدة، إلا ناحية الباب الرئيسي المطل على الطريق السريع، احتوى على ستة وخمسين غرفة، كنت أغلق أبوابها كلها حتى أحصر المكان الذي سأنام فيه، بعد انصراف أمين المخزن والساعي والمتدربين وأصير إلى وحدة ومعزل أشد قسوة مما عرفته في الحبس الانفرادي بعد حوالي عام، كان ذلك عام خمسة وستين من القرن الماضي، الساعي اسمه فتحي، نحيل، مطل دائماً على شيء ما يتجاوزني حتى وهو يتحدث إليّ، عيناه دائماً إلى بعيد، لم يقصر في خدمتي، يشتري لي الجبن والأرغفة والبسطرمة وما يمكنني أن أسد به الرمق دون طيخ أو إعداد ما، يحرص على نظافة المكان، يجيء يومياً من منشأة بديني، قرية صغيرة على بعد كيلو ونصف الكيلومتر، يحكي لي أخبار المدينة، كانت تبدو هادئة، خلواً من كل ما يمكن استشارة الفضول، غير أنني أصغيت إلى أمور غزيرة شملت كل حذب وصوب، من الشجار والتصالح إلى القتل والاعتصاب والخطوبة والطلاق واختفاء بعض. بعد انقضاء

شهرين وبضعة أيام، جاءني فتحي حوالي العاشرة صباحًا، خلالي، ومن خلال نظرتة السارحة قال: إنني محظوظ، فلما استفسرت منه عن السبب قال: إن ظهور الشجرة سيكون هذه الناحية، أشار إلى قبلي البيت، سألت: أي شجرة؟ قال: إن سملوط تنفرد عن كافة النواحي بشجرة لا مثل لها، لا أحد يعرف نوعها أو إلى أي جنس تنتمي، كل سنة تظهر بعد منتصف الليل لمدة دقائق خمس ويؤكد آخرون أنها سبع، رهبان جبل الطير أكدوا أنها ستبدو قبلي البلد فيما يلي قصر الشريعي، إذا رآها مريض يشفى، وإذا لمحتها عاقر تحمل بولد ذكر، وإذا اقترب ضيق الحال ينفرج أمره، وفي ظهورها أمور أخرى لا يعلمها إلا رازق الطير في السماء، حاولت معرفة تفاصيل أكثر، غير أنه لزم الصمت، لم ينطق، كأنه أمر بالكلام والسكوت، في الليلة المحددة خرجت إلى الشرفة الفسيحة المطلّة على الغيطان القبلية، ملحقة بغرفة فسيحة لا يعرف أحد من كان يشغلها ولأي غرض، غير أنني قدرت أنها غرفة النوم الشتوية، على البلاط، خلو من أي أثر ولو يسير، في مواجهتها بحرية أشغلها للطف نسيمها ورحابتها، رجحت أنها الصيفية، لأول مرة أقف فيها ليلاً، السماء كثيفة النجوم، لا توجد مصادر ضوء قريبة إلا عند عبور القطارات في الاتجاهين، خاصة السياحي المتجه إلى الأقصر، خط من الضوء متصل يلغي الفوارق بين العربات، حتى قطارات البضاعة التي لا يهتم بها أحد، يهددني كل متجه إلى مصر، مقرب لأهلي الذين أغرب عنهم لأول مرة قسراً، هل قال فتحي إنها تظهر عند منتصف الليل؟ ربما، لا أدري قبله أو بعده. آثرت حصار اللحظة، ما يسبقها وما يليها لعل وعسى، لم أدر ما سأفعله بالضبط، بماذا أنطق؟ أي كلمات ألفظ، هل أتمنى؟ هل أرفع الصوت أم أهمس أم أردد المعاني لذاتي؟ انتهت إلى رحابة الليل وشموليته، ليل الصعيد في جهينة أليل، لكن هنا يبدو الفراغ أفسح من النهار، ربما لأنه ممتد بقدر التهيو الذي لا حدود له، رحت أستعيد ما عرفته من ليالٍ، خاصة في معسكرات الكشف، في اصطحابي لأبي عند زيارته لأصحابه

في النجوع القريبة، أرهفت السمع، كنت واثقاً من التقاط أصوات من الفضاء السحيق، نجوم تهسهس وأخرى تصدر ما لا أقدر على توصيفه، أنقل البصر من أعلى إلى أسفل، أقصد سائر الجهات بصوت قطارات إلى بحري، إلى قبلي، عربات نقل لا تسعى إلا ليلاً متقاطرة، سيارات صغيرة، لم أدر متى ساد السكون، صمت لم أعرفه كل سكون له صدى وترجيع عدا هذا، لم أكن أدري إلى أي صوب أنجه بالبصر الحسير، غير أنني لمحت ظلاً قائماً يتقدم فوق الزروع التي لم أدر في العتمة، سمس هو أم برسيم؟ شجيرات قصيرة لم أفكر في كل نهاراتي أن أستفسر عنها، رغم عدم وضوح الملامح فإنني كنت على شفا يقين أنها هي، بنية، صبية، فرعاء، ميادة، قبابها متقنة، بالضبط كما أهوى، كنت أقصد محطة القطار، المكان الوحيد الذي يمكنني قضاء الوقت به وتشيع حنيني عند مروق القطارات السريعة التي لا تقف إلا بعواصم المديريات، أو وقوف الأخرى المتمهلة، كنت أراها عند نزولها فأمسك أنفاسي حتى إذا حاذتني لجزء من الثانية أثبت كافة ما لدي من شفرات عصية الفُصّ وأشواق حبسة الروح، أعرج إليها بكيونوتي، لا أتبعها خشية أن يتبه أحدهم، إنما أتسمها، أود لو قبلت الفراغ الذي طفت عبره، اجتازته قاصدة وجودي، بيداً لحن مجهول المنشأ ويتردد نغم لا أدري من أي آلة، أتقنت تموجه عند نفاذه إليّ، يسري الحنين الممض، المؤلب إليّ فما أثرى عبير الأنثى وقوة نفاذها!

هي...هي...

تقف تحت الشرفة أرى تقاسيم جسدها ومقاماته، نهاوندها وصباها ومحورها وهُزّامها.

هي...هي...

شفافة الرداء، أميل متجاوزاً الحافة، أسمعها، يصير حالي إلى خلق جديد، تعال ... تعال ...

غير أني لا أتقدم، لا أقدر على مفارقة موضعي، الليل الأليل يوثقني، إلام
تدعوني؟

كأنها فضت سؤالي الذي لم أنطقه، تمد ذراعها مشيرة إلى جهة، أتبع فأبهت مما
أرى.

شجرة من ضوء ناعم، حنون، يغمري فأتمنى الهدودة والتدفق صوبها، لا
أدري أجذعها قادم من تحت أم فوق، انتفى التحديد وراح التحديد واستبهم
المعنى عليّ.

تعال... لا تضيع الوقت...

اسكن إليّ، أوثق حالي، أتبع بالبصر لا غير، تتجه بمفردها ويقيني مكتمل بها،
أسمعها تردد ما لا أقدر على تفسيره، ما سأفترضه بكل لسان حي، وكل نطق
لكائن، ومع بهتان نور الأغصان والفروع والجذع الذي لم يدم توهجه راح مني ما
لا أجده حتى الآن ولا أجروؤ على افتراضه حتى.

أصلها ثابت

قال سيد الأرضين: انظر إلى النخيل، لا شيء يمنخني معنى الديمومة مثله.

ثم قال: ثابت، باق، لا يميل مع الريح وإن اشتد.

ثم قال: النخيل وسائر الشجر يصلان الظاهر بالخفي، الغائب بالحاضر، الخفي بالمائل، لا نرى الجذوع شأن كل أصل خفي لا يحضر، نرى الابن مع غروب الأب، لا نعرف إلى متى، إلى أين تمتد الجذور، نرى الجذع وربما نتسلقه، نكمن بين الغصون لكننا لا نفكر في الخفي الذي لا يبين وهذا ما يكفل ثبات الأغصان.

ثم قال: كل الأشجار تميل مع الريح، عدا النخلة، أصلها ثابت..

أصلها ثابت...

صمت قليلاً ثم توجه إلى سيد الحكمة الذي تعلم الصمت كلما نطق السيد، سأله عما إذا كان ممكناً إيجاد نخلة تدوم أبداً، لا تمرض ولا تتمكن منها دابة صغرت أو كبرت.

أطرق قليلاً وطلب كعاداته إمهالاً، غاب ثلاث ليال، جاء إلى القصر بعد الشروق مباشرة وكان من المسموح لهم بالدخول حتى لو كان سيد الأرضين نائماً، قدم إليه نموذجاً للمسلة، والتي صارت فيما بعد آلاف السنين برجاً، ثم مثلثة مختلفة الأشكال، غير أن الجوهر واحد، جذع أصله ثابت، جذوره غائبة خفية، وانطلاقه إلى أعلى في إشارة خفية.

شجرة الوحدة

حتى أبلغ تلك اللحظة التي رأيت فيها ما رأيت، لا بد من تمهيد وسياق، عندما بدأت عملي مراسلاً حربيًا في الجبهة كنت مدفوعًا بذاتي، ساعيًا إلى التواجد في الخط الأمامي لأبلغ اترانًا كنت تواقًا له بعد هزة نالت من صميمي بعد هزيمة يونيو التي لم أكن قريبًا من ميادينها ولا طرقًا في مجرياتها، بعد عملي في الصحافة سافرت إلى بورسعيد. وصلنا رأس العرش على الضفة الأخرى وكان لنا أمور ليس هنا مجالها، سمعت عن الرفاعي فتعلقت به قبل لقائه، ويمكنني القول إن صلتي الحميمة به بدأت بعد سماعي النبأ العظيم يوم سبت، مساء ذلك اليوم كنت في زيارة لابن بلدي بدر حميد عندما علمت بوجوده في القاهرة، ضابط قديم، ذو مكانة في المدفعية والمخابرات الحربية، له حديث طويل، كنت أستفسر منه عن الأحوال بعد عبور العدو إلى الضفة الغربية، بتلقائية قال:

«بالأمس استشهد لنا ضابط عظيم.. أنت تعرفه..»

تطلعت إليه متسائلًا، وعندما نطق اسمه نزل بي كمد، لم يخفف منه إلا بكاء مفاجئ قادم من صميمي، يمكن القول إن صلتي به بدأت في تلك اللحظة، منها بدأت سعبي لاقتفاء وجمع سيرته، حتى إنني التقيت بواحد وتسعين مقاتلاً أقلهم برتبة مساعد، معظمهم ضباط هكذا كان تصميم المجموعة «39 قتال» التي كان الانضمام إليها لا يتم إلا وفقًا لشروط صارمة أهمها التطوع الذاتي، فاتني الخروج معه في عمليات قتالية رغم استعداده وسعبي ولقاء جرى خصيصًا لترتيب الأمر،

لكن لم يتم ذلك، غير أنني رافقته في طوابير سير، هكذا كانت تُسمى في قوات الصاعقة، نوع من التدريب الشاق، يتم خلاله قطع مسافات طويلة في أماكن غير مطروقة، لاحظت في المرة الثانية أنه أعلن خطة السير، غير أنها لم تتفق مع ما بدأ به، كأن يقول إن المسافة من أنشاص إلى مرسى مطروح؛ أي حوالي خمسمائة كيلومتر، عند برج العرب يعلن انتهاء المهمة وتصل المركبات التي سنعود بها، في نهاية الطابور الثاني استفسرت منه عن سبب عدم الاكتمال، تطلع بوجهه الهادئ المرسل إضاءة خافتة لا أدري مصدرها، قال إنه سيفسري لي؛ لو بدأ السير بإعلانه مسافة مقدارها مائة كيلو سيبدأ التعب بعد تمام الخمسين أو الستين، عندما أعلن أننا سنقطع خمسمائة كيلو متر سيبدأ الإحساس بالمشقة بعد مائتي أو ثلاثمائة كيلومتر، قال مبتسمًا: هذا لك. أو مأت، تذكرت شطرًا من بيت للمتنبى: على قدر أهل العزم تأتي العزائم.

مرة أخرى قال إنه لا حدود لطاقة الإنسان إذا ما قرر وتحمل، عندما بلغنا نقطة الانطلاق في أقصى الجنوب الغربي سألتته باسمًا عن الهدف، قال: وهل بعد الرمال إلا الرمال؟ قلت إننا نقرب من الشَّعْر!، قال إن الجلف الكبير منطقة مجهولة في معظمها، موجود في عمومها على الخرائط لكن تفاصيله غير مدونة، بعض الأجانب وصلوا إلى مشارفه، أحمد حسنين باشا ذكره، لكن ليس من الثابت أنه أُلْمَ به، عندما بدأنا السير كان قد نطق بتلقين مفصل عن ظروف التقدم في مناطق ربما نكون أول بشر يطؤها. استوعبت كل ما قيل، رددته بيني وبينني، رغم أنني لم أكن مكلفًا بمهمة محددة، فإنني حرصت على إبداء المساهمة في كافة ما نمر به، ألا أكون عبئًا على المكلفين باستكشاف المنطقة وتحديد مواقع تصلح لنصب بطاريات صواريخ ضد الطيران المعادي الذي بدأ يسلك عمرات غير معتادة للإغارة على الوادي، بدأ الانتباه بعد الهجوم على محطة كهرباء نجع حمادي، عندما التقيت الرفاعي أول مرة كان بمقر قيادة المجموعة شمال القاهرة، كان بهي الطلة، قوي الحضور، يقابل الدنيا

مفتوح الصدر، غير متوارٍ، على منضدة مستطيلة خلفه صور موصولة ببعضها، أبيض وأسود، قطاع كامل من خط بارليف، لمحت مياه قناة السويس، حرصت ألا أنظر مرة أخرى، قال بلطف هادئ إنه يسره مرافقة أديب وصحفي، سيحرص على إخطاري عند تنفيذ عملية خلف الخطوط، ستكون عبر خليج السويس، وفي الأغلب سيتم خلالها نصب كاتوشا، فهمت أن الأمر سيقصر على ذلك، لن تقع مهاجمة موقع ما حتى لا يحدث اشتباك، اعتبرت ذلك نوعاً من الحرص عليّ، قلت إنني على استعداد لكافة الظروف، أوّماً: أفهم ذلك، لم تمض شهور إلا وبدأنا هذا السير الحثيث، الحذر في منطقة جد نائية، خلو تماماً من أي مضارب أو أماكن إقامة عابرة حتى، وصلنا بالطائرات إلى شرق العوينات، ثم انتقلنا بعربات مجهزة لخوض الصحراء إلى نقطة متقدمة لحرس الحدود، من هناك بدأنا السير على ظهور إبل، يرافقنا جندي أصله من دارفور، عمل في الهجانة، كانوا مختصين بحراسة الحدود والنزول بمناطق الصعيد عند وقوع اضطرابات أو اختفاء بعض المطاريد المطلوبين من الحكومة، ما زلت أذكر حلولهم فجأة وسط البيوت بربع حسام الدين الذي وُلدت به، تبرك جماهم الميري، ينزلون من فوقها مرتدين أغطية رأس مرتفعة وقمصاناً «كاسي» وتنورة بدلاً من البنطلونات، وجوارب طويلة، لا... ليس جوارب بالضبط، إنما قماش ملفوف حتى الركبة، البنادق على أكتافهم والعصي في أيديهم، يتكلمون لغة غريبة، وقليلًا من العربية بلهجة خاصة، تذكرت ذلك عند رؤيتي عم زروالي العجوز، على جانبي جبهته ثلاثة خطوط من كل ناحية، آثار فصد نسيمه «تشریط»، قال عم زروالي إن المسار الذي نسلكه لم يدخله أحد قبلنا، لا إنس ولا وحش وربما.. ولا جن. منطقة الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود، المشكلة لا أحد يعرف أين سيخرج، قال الرفاعي: الأعمار بيد الله.

تطلع إليه صامتًا، كأنه يقول: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، أشار الرفاعي بأصابعه الخمسة متجاوزة، متلازمة.

هذه بلادنا ويجب ألا يظل فيها شبر مجهول لنا.

هكذا بدأ التقدم بواسطة عربات مجهزة للسير في أنعم الرمال أو أخشنها، مع بدء التوغل إلى الجهة المحددة في عمومها بدأ الصمت في مكان لم يتردد فيه صوت بشر من قبل، زروالي كان دليلاً إلى أحوال الصحراء، وليس إلى دروبها، كان لديه قدرة غريبة على تحديد الاتجاهات الأربعة من خلال نجوم الليل، خاصة الدب القطبي، هنا يتساوى مع الرفاعي، غير أن الصحراء التي عرفها الرفاعي في سيناء واليمن مختلفة، المرتفعات الصخرية غالباً هناك، الرمال مساحاتها معروفة، الدروب كالطرق معروفة منذ آلاف السنين، لكن في الغرب يختلف الحال، تمتد الرمال الناعمة إلى اللامدى، تمتزج أحياناً بصخور لكنها تظهر وسرعان ما تختفي تحت الذرات الصفراء الدقيقة، ترتفع في بعض المواضع، تتجه إلى أسفل في أماكن أخرى، غير أن هذا كله مهما طال واتصل لا يستمر، ينتهي فجأة كما بدأ، الرمال غالبية، دائمة، الجهات متداخلة إلا لمن له دربة وطول دراية، زروالي يمكنه تحديد الرياح من الرياح أياً كانت، نسمة أو عاصفة، أما النجوم فيتقن مواقعها كما يعرف خطوط يده إلا إذا تكاثفت الغيوم، وحجبت الأضواء القادمة من أبعاد سحيقة، عندئذ يبطئ الخطى، وقد يفضل التوقف حتى تلوح انفراجة في الأعلى، فقط يرى شيئاً من الأضواء الوافدة، عندما بدأنا قلت: إن الجو صحو، حظنا طيب. قال حتى الآن، لكن ما يكون في ساعة لا يستمر في أخرى، أحياناً يتغير الوضع في لحظات من النقيض إلى النقيض، أما التنبؤ بالأحوال فصعب، الحيوانات فقط، خاصة الإبل، ربما تستشعر العاصفة قبل هبوبها، غير أن ما تبديه لا يدركه إلا خبير.

مع تقدم العربات المعدة لطبيعة المكان، مع الإيغال في المسافات، مع امتداد الصمت صرت إلى حال مغاير لم أعرفه من قبل، الإقلال من الحديث، شيئاً فشيئاً يسري صمت بين كافة أفراد الدورية، عند التوقف لتلحق بنا سيارة تباطأت

بعض الشيء، أو لتدقيق معلومات، أو تدوين بيانات أو ملاحظات أو غرس علامات، يعبر كل بأقل الألفاظ، شيئاً فشيئاً يطوي الصمت تفاصيل الوجود، نستدل على الفراغ التحتي بالفراغ العلوي، يبدو الرفاعي مختلفاً عما عرفته في تدريبات القتال، أو عند أطراف المدن أو داخلها، فقط يبدو هو هو عندما يمر على العربات الأربع، يطمئن على المعدات، خاصة جهاز اللاسلكي الذي أولاه عناية خاصة، خشية الرمال الناعمة التي تسري مع الفراغ، مع الأنفاس، على المدقات التي لم يسلكها أحد منذ ملايين السنين، كان يتمهل فنبطع من بعده، زروالي له الإحاطة بأحوال الطبيعة أما الرفاعي فله إقرار السعي، يؤكد زروالي: إننا لو اتجهنا إلى الجنوب سنجد مرتفعات صخرية داخلها كهوف فيها تصاوير عجيبة لحيوانات بعضها ما زال في الصحراء، خاصة على مقربة من الواحات القائمة أو البائدة والآبار الظاهرة أو المخفية، حيوانات أخرى لم يتعرف عليها أحد، أنواع من الطيور كانت تفد إلى المكان في تلك الأزمنة البعيدة، تمتد لو تغير الاتجاه، كهوف ما قبل التاريخ، قرأت عنها في بعض ما كتبه الرحالة الذين بلغوها، عددهم محدود جداً، ثلاثة أو أربعة، بعض المصادر تقول إن المنطقة كانت مغطاة بالبحر، ثم تغير الحال إلى غابات كثيفة، ثم حلت الصحراء الممتدة، لم أعرف إلا كهوفاً في إسبانيا: عدد قليل ورسوم محدودة، مقصد للزائرين، لكن زروالي يؤكد أن الرسوم المحفورة بلا حصر، ألوان بعضها كأن الفراغ منها كان بالأمس، لم يخطر لي ذلك إلا في إطار التمني، لا يمكنني النطق حتى بما أفكر فيه، زمن حرب، والمهمة التي لا أعرف إلا عناوين مراحلها تتصل بحيوات آلاف لا نعرفهم، وقد لا نلتقي بهم، لكن ثمة ما يسري بيننا، تماماً كالصلة بين الرمال والرمل، بين الفراغ والفراغ، قال زروالي، إننا في صميم الهضبة، تحتوي على سبعة وديان، ينطق أسماءها بسرعة حتى إنني استوقفته أكثر من مرة لأتأكد من حروفها.

وادي الأخص، الليخت، الضيق، الجزائر، مفتوح، مشي، وسع.

قال: إننا مع طلوع شمس الغد سنبدأ السير في منطقة الرمال المتنقلة، تلك تتطلب يقظة وحذرًا، وانتباهًا يفوق كل ما عرفناه، منذ هذه اللحظة لزم الرفاعي، حلّ موقع العقيد عالي نصر، وأمري معه طويل، خاصة فيما تلا زمن الحرب وتغير الأحوال، يمكن القول: إن دخولنا السديم بدأ، منذ نطق زروالي بما سنقدم عليه قوي التضام بيننا، صرت كأني أنوب عن الجماعة، كل منهم يعني الكل، لم يعد حولنا إلا الرمال، خلفنا، أمامنا، أحيانًا فوقنا، أدركت الشبه بين البحر والصحراء، كثيرًا ما ورد عليّ مبدأ المقارنة، لكنني لأول مرة أواجه الهوَّ الأصفر، في البحر للزرقة درجات، لون يلد ألوانًا، هنا الصفرة متقاربة، لا نهائية، تستدرجنا إلى صميمها، من الشروق والغروب، أدركت أن أربع ليالٍ انقضت ونحن نتقدم على مهل، حتى العجلات المجهزة ومعدات مقاومة الغرز تعمل بصعوبة، أحيانًا نمر على مقربة من تلال ممتدة من الرمال، كل منها أشبه بهضبة راسخة، قال زروالي أثناء التوقف لفترة، لا تشغلوا أنفسكم بهذه التلال، كلها زائلة، في تنقل دائم، قد تدفن قرى وطرقًا في ترحالها، تذكرت زيارة سابقة إلى الواحات الخارجة، أول مرة أخرج من الوادي، إلى طبيعة مغايرة تمامًا، يومها قلت: إنها مضرٌ التي نجهلها، في الطريق إلى الداخلة بداية السبيل الوعر إلى صميم الجلف الكبير، رأيت الطريق المرصوف مقطوعًا بتلال ضخمة من الرمال، تضطر العربات إلى الخروج صوب الرمال، أحيانًا أرى طرقًا جرى رصفها لتحيد عن مواضع التلال المتنقلة، أحدها منذ مئات السنين طمر جيش قمبيز، ترى... ماذا تخفي الرمال تحت الرمال؟ هل تدري الرمال أنها ممتدة، صنو للبحر، غير أنها أرسخ سريانًا وأبعد مدى؟ أهـي رمال لأنها رمال أم لأننا نراها كذلك؟ على أي حال سواء هذا أو ذاك فستظل هنا وهناك في اللاهناك إلى أن تدبر الأفلاك ظروفًا مغايرة، عندما بلغت واحة الفرافرة وتجاوزتها إلى ما بعدها، خرجت وحيدًا ذات ليلة، ابتعدت عن الأحجار على جانبي مدق مهدته الأقدام، ربما تخفي تحتها عقارب حادة أو ثعابين الطريشة

القاتلة، غير أنني لم أعبأ بهذا كله، أخذني صمت الأبدية المنهمر عليّ، وشدة الليل العامر بالنجوم الفاترة والنشطة وسهام النار المنفلتة إلى احتراق أكيد عبر الغلاف الجوي، برق ضوء ثاقب لم أدر مصدره ولم أعرف حتى الآن ولم أنبئ بخبره أحداً، لمحت صدفة، ملت لألتقطها، غير أنها كانت لصيقة بقطعة مستوية من الصخر، لم تلن لي، غير أنني تسلمت الرسالة عبرها، هنا جرى البحر ولاحق الموج بعضه منذ ملايين السنين، استغرقني الأمر حتى كدت أصغي إلى أصوات ارتطام الماء بالصخور، لكن ... من أين لي افتراض شاطئ كان هنا؟ إذن فلأهم بحثاً عنه، عند هذا الحد سمعت من ينادي عليّ، مكرم رفيقي في الرحلة يعدو وبصحبته اثنان من أهل الواحة، قال: إن أحدهم رأي ممعناً في الدرب، خشي عليّ أن يأخذني الليل، كثيرون جرى لهم ذلك. أمعنوا ولم يرجعوا، للصحراء والليل نداء لا يُرد، هذا ما ظننته عندما وصلني صياح زروالي الهرم، غير أن الصوت كان قوياً، فتيّاً، يجتاز الحدود، نزلت من العربة غير قادر على قمع فضولي، يقف الرفاعي عند حافة منخفض، تتجه الرمال فيه إلى أسفل، إلى ما يشبه الحوض، دائرة فسيحة.

زروالي ينطلق في خطوات فسيحة أشبه بجمل أدركه هياج مفاجئ، يعدو، يعدو، غير أن ما كان يتجه إليه أذهلني.

شجرة..

وسط الأصفر السارح، الغالب حتى التقاء السماء بالحواف الأرضية، عبر هذا الهوّ تسمق بجذعها وأغصانها وربما تتدلى ثمارها التي لم أدق فيها جيداً لنأي المسافة، عند حد معين بدأ زروالي يرفع قدماً ويخفض أخرى، ذراعاه إلى أعلى ممسكتان بالآلي، يؤدي رقصة ما، رقصة صوب الآفاق الممتدة إلا أنها متجهة إلى تلك السيسبانية الحضور، كلما دقت بدت لي بعض تفاصيلها أكثر، فراغ صحو، ضوء ناعم يخلصها، طلعتها كوقفة تمثال ميريت آمون في الساحة المتبقية من معبد أخيم الكبير، نصب للأثوثة، هكذا تبدو الشجرة حضورها الوحيد زادها وهجاً

وألقا، تذكرت مرتفعًا صخريًا يمت إلى جبل الجلالة بصلة، كنت بصحبة جند من الصاعقة لفت نظري غصن نحيل ينتهي بوريقة نبات بازغ هذا كله من صلالة الصخور.

توقفت، انحنيت نحو الغصن النابت، ظهوره من الصخر أضفى معنى وهوى، لماذا أعجب مما أقدم عليه زروالي؟ ربما لأنه أظهر ما لم تجرؤ دهشتي على الجهر به، عندما دنا من الغصن المتميد كما بدا لي أطلق زخة رصاص في الهواء، التفت إلى الرفاعي، كان يلامس خصره بأصابع يديه وعلى وجهه ابتسامة ما، كدت أتقدم في الاتجاه عينه، غير أنه أشار بيده، حاشني، قال: إن زروالي مخلص لما اعتاده من أهله، عندما يرى البدوي أنثى جميلة في الصحراء لا بد أن يحيطها راقصًا أو صائحًا أو ... صمت لحظة ولم يكمل، بينما الكل متجه بالأبصار إلى زروالي الذي ازداد بعدًا حتى إنه عندما دنا منها أصبح صعبًا تبينه فكأنه فكاكها أو ذاب فيها

شجرة الكينونة

من الشجر ما حيرني وبلبل دواخلي بدري، فمنهن تلك التي ورد ذكرها في التنزيل العزيز. ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، لم استدل على المقصود من ذلك، تعددت التفسير عندني، وعندما تكثر الاحتمالات يبدأ التيه والفقد.

هل المقصود المعنى الخفي في الهيئة؟ الجذع متوسط يَنَ جذور لا تبين لا بد أن تدفن بدءاً من البذرة حتى تفجر الفروع التحتية قبل الفوقية التي تكتمل كلما اتجهت إلى أعلى، إلى فوق المتناهي واللامتناهي، غير أن ذلك لا يكون إلا بتوغل الأغصان التحتية، التي لا يبصرها نظر، ولا يلم بها بصر، هل المقصود أن الشجرة تجمع بَيْنَ المرثي واللامرثي؟

ربما يصح تفسير مغاير، أن المعنى يشير إلى شجرة كونية، لا هي شرقية ولا غربية، صعب رؤيا مرامها، وعز تتبع أصل غرسها، ومتهى فروعها، وكنه ثمارها، شجرة تمسك المدارات كافة وتمنعها من الانفلات عن بعضها، ليس الكون إلا شجرة، ما يسطحها خفي لا يبين، لا أذكر من قال شعراً أو نثراً: هل عرفت سر الحياة لكي تطمح إلى الإمام بسر الموت؟ من يدري من يلم بموضع أصلها إن امتد في مكان وزمان يمكن حصرهما وتحديدتهما، إذن: هل يمكن تعيين نهاية بسوقها؟ المجرات ودورات الأفلاك جذعها، ألا تفصح الشجرة عن عمرها بمقدار ما

تحويه من دوائر، لا تتكشف إلا إذا قطعت وبان فحواها ومرساها؟ الشمس
ونجوم النوا والمستعرات العظمى⁽¹⁾ أغصانها وفروعها، أما الكواكب والمذنبات
وكلُّ أسير في فلك يحتفظ به ويديره إلى حين، ليس هذا كله إلا ثمارها، أما ما خفي
منها فأعظم قدرًا وامتدادًا، إنما نحن نولد ونسعى ونتفرق عن بعضها في شجرة
واحدة، أصلها ثابت وفرعها في السماء. هكذا يكون الأمر كله.

(1) المستعرات العظمى: نجوم منفجرة سحيقة البعد، شديدة التوهج.

رُسُوفِي التَخُوم

قبل الخوض في بنيان هذا الكتاب الغريب الذي لم أعرف له مثيلاً في سائر الآداب التي ألمت منها بقبس، أتساءل هل من صلة بين ذلك الرسم الجداري الفريد الذي لا أكف عن الإشارة إليه والتنبيه إلى وجوده وتخيل من خطه وأنشأه؟ هل من وشيجة تربطه بذلك الشكل الذي اختاره لسان الدين بن الخطيب لكتابه الذي لم أعرف له مثيلاً، عنوانه: «روضة التعريف بالحلب الشريف»؟

ما زلت أذكر دهشتي المتجددة المستعادة كلما ارتقيت الصخور لأتجه إلى مرقد تحتمس الثالث، يتجاوز عمرها خمسة وثلاثين قرناً، اللوحة تتضمن الملك، مؤسس الإمبراطورية يرضع من الشجرة، الشجرة بمنزلة الأم، تدر حليباً صافياً لتمد المبرأ بأسباب الوجود في اللاوجود، عندي هوى بعناوين ابن الخطيب، القاضي، الوزير الأندلسي، ومن قبل ومن بعد الأديب المسك بمحاسن اللغة الخفية، لتأمل عناوين مثل:

«كناسة الدكان بعد انتقال السكان».

«نفاضة الجراب في علالة الاغتراب».

«الإحاطة في أخبار غرناطة».

«ريحانة الكتاب ونجعة المتاب».

أما الكتاب الذي أتمهل عنده وأمعن فيه، فيبدو التلميح إلى معماره من عنوانه، الروضة مقصود بها الجنة، وما من جنة بدون حديقة، وما من حديقة بدون شجر، أورد قيسًا من مطلعته أو مدخله، أو افتتاحيته بما يدغم ما ذكرته من وجود مرجعية مقدسة يقول:

«وعلى ذلك ذهبت في ترتيبه أغرب المذاهب، وقرعت في التماس الإعانة باب الجوّاد الواهب، وأطلعت فصوله في ليل «الخبر» طلوع نجوم الغياهب، وعرضت كتائب العزيمة عرصًا، وأقرضت الله قرصًا، وجعلته شجرة وأرضًا، فالشجرة المحبة مناسبة وتشبيهًا، وإشارة لما في الكتب المنزلة وتنبئها، والأرض النفوس التي تغرس فيها، والأغصان أقسامها التي تستوفيها، والأوراق حكاياتها التي نحكيها، وأزاهير أثمارها التي نحكيها، والوصول إلى الله سبحانه وتعالى ثمرتها التي ندخرها بفضل الله ونقنتيها، شجرة لعمر الله يانعة، وعلى الزعازع متنانعة، ظلها ظليل، والطرف عن مداها كليل، والفائز بجناها قليل، رَسْتُ في التخوم...».

آه من «رست في التخوم» تلك، آه ثم آه، يمكنني الإفاضة والشرح مع التبيين صفحات لا تُعد، لكنني أوجز وأدخر فأقول: إنني أنا، أنا من رَسُوت في التخوم، قرأ ابن الخطيب كتبًا عديدة عن المحبة، أخص منها بالذكر أحدها، طالعته وأحبته، أعني «ديوان الصبابة» للفقيه الحنبلي أبي العباس أحمد بن يحيى التلمساني المعروف بابن أبي حجلة المتوفى سنة سبعمئة وست وسبعين هجرية، دافعه المعلن وضع كتاب في المحبة الإلهية، غير أن ثمة إشارات عديدة توحى بقلقله روح متوثبة متطلعة، عندما شرع في تأليف الكتاب كان قد بلغ مرحلة الكهولة، بعد حياة طويلة تقلب فيها بينَ الجاه والسلطان، بينَ ارتقاء وانخفاض، من إقامة في دياره الأندلسية ونفي إلى سلا بالمغرب، كان قد بلغ مرحلة يتأمل فيها ما مضى وإدراك بقصر ما تبقى، وهذا عين حالي منذ بدئي ذلك التدوين، هذا عن خاص الخاص، أما الأحوال العامة فمضطربة، مملكة غرناطة تقترب من احتضار مؤكد، تهب عليها رياح

عائية، أدرك بثاقب بصره أن الأمور ماضية إلى غايتها، لذلك كان سلوك الطريق عوناً ومنقذاً له، من هنا خصص كتابه هذا للمحبة الإلهية، وقع خياره على الشجرة لينظم منها مكنونه، ليس مهمّاً نوعها أو جنس ثمارها، إنها شجرة المطلق، شجرة اللا وجود والوجود، السعي والوصول، الخفاء والظهور، بل إن ما وقع عليه اختياره من أشعار لتكني عن أحواله وزلزلة روحه، وإدراكه اقتراب النازلة، فلتأمل ما اختاره من غزل قيس بن ذريح المعروف بحب لبنى...

وإن كان فيها الخلق طراً بلاقع	كأن بلاد الله ما لم تكن بها
ويجمعني والهـم بالليل جامع	أقضي نهاري بالحديث وبالمنى
لي الليل هزنتي إليك المضاجع	نهاري نهار الناس حتى إذا دجى
كما ثبتت في الراحتين الأصابع	لقد ثبتت في القلب منك محبة

عُرف كمؤرخ، كطبيب، كسياسي، عالم بالموشحات، بالطب، بالدين، كاتب رسائل بارع، غير أن هذا الكتاب يكشف عن مبدع، رقيق، موسوعي الثقافة، معمار الكتاب يكشف عن ذلك، معرفة بالموسيقى، بالنجوم، بالسيما، إحاطته بالشعر، سي محمد الكتاني محقق الكتاب يحصي أكثر من ألف ومائة بيت، معظمها من أشعار الصوفية والغزل، كثير منها غير معروف في المصادر المتاحة، لا مبالغة إذاً عندما يقول إنه ديوان جديد في الشعر الصوفي، الحكمي.

إذن... شيد ابن الخطيب كتابه على هيئة شجرة، الشجرة لا تقوم في فراغ، إنما تغوص جذورها في الأرض حتى يمكنها البسوق، يبدأ بوصف الأرض التي تغرس فيها فسيلة المحبة، اعتبر الطبيعة الإنسانية مثل طبقات الأرض ومعادنها وعروقها، ما تحوي وما تطرح، ما تُظهر وما تخفي، خصبها وجدبها، هنا يذكر القلب والروح وسائر القوى الروحية والحسية، في القسم الثاني يتحدث عن طبيعة

الفلاحة التي سيقوم بها غارس الشجرة، إن دفن البذرة ومتابعتها بالسقي والرعاية يستلزم مجاهدة، إلى ري مختلف أنواعه، عبر الجداول والعيون وما تيسر، هذا الماء من علوم نقلية وعقلية، تلك البذرة لن يساعدها في النمو إلا العلم بما يستلزم، وهذا يقتضي تنقية أرض المحبة من الأعشاب الضارة.

توقفت عند القسم الثالث ويخصه للعمود المشتمل على القشر والعود والجني الموعود، لقد تمت البذرة وأينعت وخرجت الشجرة إلى الوجود، بطرق مفهوم المحبة اللغوي، ثم يفضي به الحال إلى المحبة الإلهية، محبة المخلوق لخالقه سبحانه.

أما الرابع فعنوانه «الفرع الصاعد في الهواء على خط الاستواء».

هكذا نصعد مع الشجرة إلى أعلى، ليس صعودًا سريعًا عابرًا، إنما متمهلًا، متأنيًا، متأملًا، هكذا يحدد المضمون الذي سنستوعبه شيئًا فشيئًا، يقول رحمه الله: «ويشتمل على قشر لطيف، وجرم شريف، وأفنان ذوات ألوان قنوان وغير قنوان، طلع نضيد وجني سعيد... فالقشر الحروود والرسوم، وخواص العارف الذي هو المعروف بها والموسوم، والفنون التي يقوم عليها والعلوم.

والجرم ظاهر الخلق المقسوم، وعلاجه كما تعالج الجسوم، وباطنه المجاهدات التي عليها يقوم، وقلبه الرياضة.

والغصون والمقامات فيها المقام المعلوم، ومادتها السلوك الذي بتدريج غذائه تبلغ الأفنان والورقات ما تروم.

والزهرات اللوائح والطوالع والبواده التي لها الهجوم والواردات التي تدوم أو لا تدوم.

ثم الجني وهو الولاية التي كان الفارس عليها يحوم...

لكل قسم من الكتاب...، آسف، لكل جزء من الشجرة الصاعدة، عنوان القسم الخامس جعلني أغادر طوري وأفلت مني طربًا.

«تفرع ضخام الغصون من شجر السر المصون».

من هذه الغصون تتفرع الأمور إلى وريقات، أوراق الشجر، أورد بعضاً منها.

ورقة في حب حبيب الحبيب، وعداوة عدوه.

ورقة الرضا بكل ما يفعل المحبوب.

ورقة الشوق إلى المحبوب.

ورقة الوجد.

ورقة المراقبة.

ورقة الطاعة للمحبوب.

ورقة مداومة ذكر المحبوب.

ورقة الولوع بالاسم والصفة.

ورقة الغيبة والذهول.

ورقة الغيرة.

ورقة الأنس.

ورقة الحزن

ورقة الخوف والرجاء.

هكذا تتوالى الوريقات تمامًا مثل المقامات، أما الغصن الرابع فيختص بشمار المحبين، الساعين، أحوالهم وأخبارهم، أصنافهم، وأحوالهم. ثم يصل إلى الذروة، منتهى الشجرة، يذكر الصادح على أفنانها والشادي الذي يهيج أشجانها، ويشير شجو الرأفة والحنان، الطائر الصادح فوق شجرة المحبة هو ابن الخطيب نفسه، ورغم الأدعية التي اختتم بها صدحه، فلم يسلم من ضيقي الأفق، هؤلاء المغلفة

قلوبهم، الصدئة أفئدتهم، ادَّعوا عليه غرابة المنزع، وأنه تكلم فيه على طريقة أصل الوحدة المطلقة، وسعوا ضده حتى مات حرقاً.

عندما نزلت فاس أول مرة قصدت مرقده مشياً، وقفت أمام ذلك البناء المتواضع، كان الطقس قيظاً والحر في ذروته، إلا أن ظلالاً خفية رقت حالي، أغصان شجرتة وأوراقها أحاطتني وخففت عني الهجير، شجرة ليس مثلها مثل، رواها بروحه وعمره عندما أريق مكنونه بسببها، واتصل بالعظام الذين لم تستوعبهم أزمئتهم بدءاً من ابن المقفع وحتى ابن الخطيب مروراً بالتوحيدي والسَّهْرُوردي دفين حلب، وغيرهم، تلك شجرة أخرى يطول الحديث عنها... فلا أقصر.

شجر الغواية

لكم تمنيت معرفة هذا الفنان الذي رسم تلك اللوحات، لا أعني شخصه، فلا بد أنه جاء وسعى ومضى قبل وفادتي إلى الدنيا، إنها أقصد اسمه لا غير، لو ألمت باسمه لأضاف ذلك أشياء لا أعرفها لأنها لم تحدث. لوحات ملونة طبعت على الحجر، كان ذلك سائدًا في القرن التاسع عشر وحتى بداية العشرين، كانت الصفحة تنحت على حجر مصقول، أهداني صاحب من زملاء الطفولة صفحتين متقابلتين من ألف ليلة وليلة، أحفظ بهما كأثر نادر، يزان ستة كيلو جرامات؛ أي أن عدد صفحات الليالي يوازي بنيانًا متينًا؛ إذ يقارب الألفي صفحة، استبدل بالحجر على أيدي المهاجرين الأرمن الزنك وكانت الورش متجاورة في شارع محمد علي، وبالقرب منها مقار الصحف الكبرى وقتئذ، ومنها المؤيد والمقطم وغيرهما، الطريف أن الشارع عُرف بالفنانين خاصة الراقصات اللواتي عُرفن بالعوالم، ويجهل الكثيرون الآن اتخاذه مقرًا لدور الصحف، وهذا مما يطول الحديث فيه، لا بد أن هذا الفنان المجهول عاش بالقاهرة القديمة، رسم ما رسم ومضى لم يوقع ولم يذكر اسمه، ومجهولية المبدع من خصائص الفن الإسلامي، عدا استثناء واحدًا لم أعرف غيره في مسجد قجماس الإسحافي المعروف بأبي حريية، في مركز المحراب المجاور للمنبر الفريد وقع المعلم الذي أنشأه باسمه.

تلك اللوحات أثارت مخيلتي طفلًا عندما كنت أتردد على مسجد سيدنا ومولانا الحسين، بجوار الباب الأخضر من الجهة الشرقية يجلس رجل ضرير لا يفارق مكانه

ليلاً أو نهاراً، يفرد اللوحات إلى جواره، حبل ممدود، كل واحدة معلقة بمشبك، فوق الأرض عدد مرتب، الغريب أنه يتعرف على كل منها بالإشارة إلى المعلقة أو بتحسس التي يمسك بها بعد أن يناوله الزبون، لم أكف عن تأملها وتفحصها منذ صباي، ثم مع تدريجي في المراحل حتى اختفائها تماماً من القاهرة، من جوار أبواب المساجد في سبعينيات القرن بتأثير تيارات التشدد الديني، عندما زرت تونس عام خمسة وثمانين وأمضيت يوماً في جامع الزيتونة فرحت من قلبي عندما وجدت هذه اللوحات منسوخة بذات ألوانها، صحيح الحجم أصغر لكنها هي، اقتنيتها كافة فلم يحدث أن اشتريت منها واحدة، كنت أظن في طفولتي أنها من الثابت الدائمة، ولم أستوعب بعد أنه لا شيء يبقى حتى الراسيات الرواسخ، فما البال بمطبوعات من ورق أقتني الآن المستنسخات التونسية.

البراق الذي أسرى بالحبيب ليلاً، جسد حصان ورأس إنسان متوج، وقد نشرت اللوحة غلاًفاً لأخبار الأدب، الجريدة التي توليت أمورها زمناً ليس بالهين، الطريف أنني اكتشفت عند إعدادها للنشر دائرة على صدر البراق داخلها علم الخلافة التركي، من هنا حددت تقريباً زمن الرسم والطبع، تعجبت من ذلك. غير أن دهشتي بدت عندما دخلت المتحف البريطاني - ومن بعد المتروبوليتان - أيضاً اللوفر، رأيت جداريات آشورية لرسم أحصنة مجنحة ذات رؤوس آدمية، غير أن عجبني خف عندما اطلعت على رسم أقدم بكثير من الزمن المصري القديم، لحصان مجنح ورأسه آدمي يعلوه تاج قريب جداً من اللوحة الغالبة على ذاكرتي فتلك أول ما رأيت بالرسم على شقفة فخار - أوسترايكا - من دير المدينة بالبر الغربي، حصان حول عنقه قلادة غير أن الوجه لأنثى بديعة التقاسيم، واعتبرت ذلك من الغرائب، فالأمر قديم، قادم من الحلم لكنيونة المستحيل في الواقع...

صورة أخرى لسيدنا إبراهيم يتأهب لذبح سيدنا إسماعيل وفي الركن الأيسر العلوي الملاك جبرائيل يمسك بذبح عظيم، فداء إسماعيل، أطلق أبي اسمه على

شقيقي الأصغر مني، صورة لسيدي عبد القادر الجيلاني، أبيض اللحية مهيبها، يركع متوجها للصلاة.

صورة للمحمل، الجمل يحيط به جنود الشرطة المصريون، أخرى ما زلت أرى المائلين فيها، أسد الله الغالب - هذا ما كتب تحته - علي بن أبي طالب، إلى يمينه سيدي الحسن، وإلى يساره سيدنا ومولانا الحسين، لم تكن الملامح بعيدة عما تصورته منذ البداية، ملامح مضيئة وحضور باء، ما بيني والحسن مسافة لا أقدر على طيها، فيما بعد ترددت مرات على كربلاء، الجديد عليّ هو المكان وليس المرقد المغطى بالذهب والفضة والسقف المجوهر بالكريستال، للمشهد القاهري الأبسط في الزخرف هبة وشفافية، ما شُغلت به في كربلاء، أن تلك الأرض آخر ما خطا فوقها الحبيب بقدميه والتلال الباقية آخر ما رآه بعينه.

أما تلك المعنية فاستعيدها دائما، وكلما بدت لي عبر الذاكرة تزهو الألوان في مواضعها، خاصة خضرة الشجرة التي تلتف حولها الأفعى، ذنبا إلى أسفل ورأسها متجه إلى آدم الذي يقف إلى يسار الشجرة، أما حواء التي انسدل شعرها حتى كاد يلامس كعبيها، ورقة خضراء تداري ما يجب إخفاؤه الآن، أكاد أصغي إلى ما جرى عبر سورة الأعراف التي أحفظها وأجد راحة ومتعة في تلاوتها على إيقاع من مقام صبا.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ...﴾

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا...﴾

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ...﴾

شجرة لا يمكنني تحديد نوعها، يغلب عليّ عند استدعائها الأخضر مع أن الجذع المستقيم بني ولولاه ما أثمرت الهامة، لا أعرف ولا ألم بما كانا يفعلان قبل ظهور الطاووس المتحول إلى هيئة أفعى، والثعبان في أقدم تصور له بمصر القديمة

كان رمزًا للزمن، للوقت، فهل بدأ الزمن مع طردهما من النعيم الدائم، مع نزولهما إلى الأرض، لولا الغواية ما جئنا وما سعيننا، لا أدري من أي نص استقيت أنها أكلا من تفاحة، هل قضم كل منهما قطعة أم استلذا طعمها معًا، الشجرة في اللوحة أقرب إلى الجميزة لكنها ليست، كان لا بد أن يمضي وقت حتى أدرك معنى التفاحة المقضومة التي تتخذها شركة آبل شعارًا ورمزًا.

لم تحرك عندي إلا التساؤلات، ثبت عندي حيرة تتجاوز كثافة فروعها وجذورها واستحالة إدراك موضعها والوقت الذي كانت فيه بذرة وفي أي أرض دُفنت وبأي مياه رويت، أم أنها لا تحتاج إلى هذا كله، بعض ما جال عندي عبر مراحل وتعاقب أطوار يمكنني الجهر به ولكن معظمه يظل في أفق المستحيل، أضرب عليه سدًا من صمت لا يفيض، صمت سيدركه صمتي...

شجرة لا تبلى

للجميز حلاوة ومعنى وهوى، أحد ثلاث فواكه كانت في المتناول، النبق والخرنكش ثم تلك الثمرة الطرية، لونها الخارجى وردي غامق، متفتحة، تكشف المركز منها، أسود حالك؛ لذلك طلعت من صغري وأنا أستمع إلى سبب ذلك مما يجرى على لسان القوم، عندما تُوفي الحبيب المصطفى اشتد حُزن الموجودات كافة، غير أن تلك الشجرة امتد حزنها في أحقاب تالية واستمر إلى أواننا هذا، وسيدوم ما استمر غرسها وإيناعها، غير أنني منذ أمد ليس بالقليل، منذ سنوات عديدة لم أذقها، ليس عن ترفع أو إهمال إنما لأنني لا أراها في الأسواق؛ ذلك أنه ما من فاكهي يعرضها في دكانه. لم أعرفها إلا من الباعة الجائلين على عربات تدفع بالأيدي أو يجرها حمار، منذ شهور لمحت بائعاً يقف إلى جوار عربة واقفة والحمار مشغول بالتهام التبن من جوال صغير معلق في عنقه، الثمار متراكمة فوقها، خطر لي استعادة المذاق القديم غير أنني كنت مرهقاً وراغباً في الوصول بسرعة، مازال في فمي، أما النبق فآخر مرة كنت في مولد سيدي أحمد البدوي منذ سنوات، ربما سبع، ربما أكثر أو أقل التهمت عبوة كيس، وأما الخرنكش فانقطع عهدي به، حال اسمه دونه عندي، كذلك مزازته، كنت مدعوّاً إلى عيد ميلاد ابن صاحب حميم، لمحت في منتصف كعكة الاحتفال ثمرة، خجلت أن أتناولها، سيفسد ذلك المشهد، كانت موسطنة، الغرض الزينة، تقريباً نسيت النبق حتى إنه لا يرد على بالي عند عبوري أسيوط التي اشتهرت به؛ أما الخرنكش فراح مني ورحت عنه، عدا

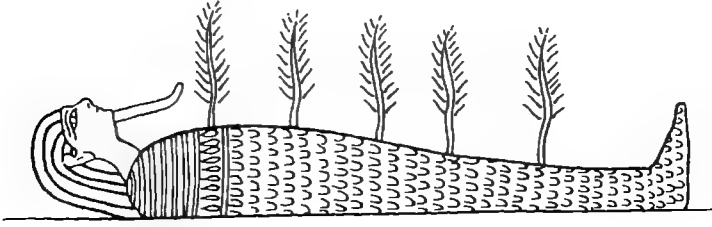
الجميز، لا يمكنني تحديد السبب، لكنه على الأرجح متعلق بالشجرة، ذلك أنها طالما حيرتني وأثارت بلبالي، والسبب رسوخها الذي لا ينافسه عندي إلا ثبات النخلة وبسوقها المستمر في ذروة الأنواع، تمر بها الرياح الصرصر بالغة السرعة فلا تميل ولا تهتز وهذا من غرائب الوجود، أما الجميزة فعندي يقين أن الظاهر منها مجرد إشارة يسيرة إلى خفي عميق لا أعلم مداه، ربما لما حاولت الإمام به عنها منذ بدأ ارتقائي المراحل لا يتعلق الأمر بحزنها الذي بدا في ثمارها، لا.. الأمر أقدم بكثير، كثيرًا ما أصغيت إلى ما يتردد على ألسنة القوم في جهينة، سواء ما تعلق بالنجوم أو الأشجار، ومن ذلك أن لكل امرئ ورقة تبزغ من فرع شجرة المصائر، شجرة راسخة، لا هي شرقية ولا غربية، لا فوقية ولا تحتية، سارية في كافة أنحاء الوجود تمسك بأطرافه بأقاصيه، بسائر جهاته، تبدو أحيانًا في صور كثر منها الجميز، فوق الورقة كل ماسيجري، ما سيمر بالمخلوق منذ خروجه من الرحم حتى بلوغ اللحظة المحسومة التي لا بد منها، عند التمام المكين، عندئذ تسقط الورقة، علامة فنائها ضوء ثاقب يمرق في السماء بسرعة خاطفة، حتى تلمحه العين لجزء يسير من الثانية، ويُعرف عند علماء الفلك بالشَّهب، لا يدري أحد مصير الورقة أو مآلها، غير أن المؤكد بلوغ هذا الضوء الهاوي من أعلى إلى أسفل سائر الجهات الأصلية وما تفرع عنها، بعد العشاء يتحلق القوم في الرحبة التي تطل عليها البيوت، أصغي إلى ما يتحدثون به، خاصة محمد أحمد إسماعيل وهو بمنزلة خالي، متقدم السن منذ أن عرفته، لم تتغير ملامحه حتى سقوط ورقته من الشجرة التي لا تبلى، يعرف أسماء الأرواح التي تسكن الشجر، حميرًا كان أو تينًا أو نخيلًا، ملم بأسماء الجن المؤمن الذي يطوف الدروب ليلاً، منادياً على بعض من خصهم بالتنبيه والإفاقة، وهذا يُعرف بين القوم بالهاتف، كان ينبه إلى مواضع العفاريث الضارة، غير المؤمنة، والتي تمرح ليلاً في دور هجرها أهلها أو عند سواقي لم تعد تثمر قطرة مياه، أما ناحية الغرب حيث الجبانة والجبل الذي تسكنه الضباع والموام والمطاريد وكل

ما يصدر عنه الإيذاء فجأة غير مأمونة، أخطارها بلا حصر، لا يقصدها إلا جل شارد غير مأمول رجوعه، أو من ضل عن عقله ونفسه فأقدم على الهيام في البرية، محمد أحمد هو من خطب أُمِّي لأبي وسعى بعدهما سنين عديدة، غير أنه في العشر الختامية كان لا ينطق إلا جملة واحدة مع تحديقه مطولاً إلى صاحب الشأن، يقول: «أكرمك الله بالإسلام..»

وعما تردد عنه أنه كان يتقن لغة الأشجار، خاصة الجميز والنخيل، ويقسم من أثق به أنه رأى يجادل نخلة عتيقة موقوفاً تمرها على من يخرج للحج لا غير، لا يقربها أحد، وتلقى كل عناية من تقليم وتشذيب ومعالجة وتلقيح، يتنافس الحجاج على تحصيل أنصبتهم منها، لو ذاق كل منهم ولو ثمرة واحدة منها فتلك بشارة بعودته إلى أهله سالمًا بإذن الله، أقسم على مسمع مني أن الأرض تنبت أشجاراً تحجل كالنساء، ويشاء القدر أن ألثقي بها بعد أكثر من أربعين عامًا، وجرى ذلك في جنوب صقلية، وسأذكر ذلك في سياق منفصل لحشيتي البعد عما يتعلق بالجميز الذي شغلني أمره، في مرحلة متقدمة قرأت ما أذهلني، وتفصيل ما عرفته كما يلي: الشجرة يبدو أنها أقدم من وجود العالم الذي نعرفه بحواسنا المحدودة، ذلك أن عقيدة الأجداد تقول بقدسيته، وأن روح «آتوم» أحد أقدم تجليات الإله تجسدت من خلالها، أودعها لقحة تفاعلت مع مكوناتها من جذع وأغصان، ومنها انتقلت إلى رحم السماء التي عُرفت بـ«نوت» ومنها تولد كل يوم الشمس عند الشروق، وأوضح صورها في مرقد رمسيس السادس بالبر الغربي، غير أن الأشمخ نراه في معبد دندرة المخصص لرمز الفتنة والأنوثة وحلاوة الوجود «حتحور» تلك التي تخرج من شجرة جميز في مرقد الفنان سنجم رع وسبق حكيم لذلك، «نوت» أنشئ بامتداد السقف كله، من حده إلى حده، قدماها عند الحافة يعلوهما ساقاها، تنثيان عند الركبتين، ومن ثم يبدأ جسدها الممتد بطول السقف، من بين فخذيهما تنبت الشمس، تولد، تشرق، تتجدد الحياة، ينحني العنق، يتجه الرأس إلى أسفل، بينما

تمتد ذراعاها لتحاذيا قدميها...، لو شئت لفصلت أكثر غير أنني أكتفي بهذا القدر على نية ذكر مواضيع الرموز مفصلاً فيما سيجيء لو ساعدتني الحواس وأمهلي الوقت.

إذن.. وُلِدَ أوزير من شجرة، لكن.. فليتأهب من يقرأ تلك السطور لما سأورده، ذلك أني سمعت من صاحب حميم متخصص في المصريات عن بردية نادرة بمتحف جامعة كمبيردج، تحتوي على رسم نادر لأوزير سيد العالم الآخر ومصدر النماء في عين الوقت، موميأؤه متمددة تحت الأرض، منها.. منها تنبت الأشجار، لن أطيل، غير أنني عندما نزلت ديار الإنجليز تقصيت واتصلت وساعدني من تفهم، حتى قصدت الجامعة الرفيعة المقام، وجلست في متحفها متفحصاً الرسم وها أنذا مورد صورته لعلها أبلغ من كل ما ذكرته أو يمكن تدوينه، فتأملوا..



شجرة التحولات

فاتني ذكر ما جرى من «ست» رمز الشر، سأورده قبل حكي لقائي بشجرة نادرة في صقلية، ذلك أنه بعد أن قتل شقيقه رمز الخير أوزير، أخفى جثمانه في جذع حميزة بعد أن قام بتفريغه، هكذا تعتبر الشجرة أقدم تابوت في الوجود، تفرق أوزير داخلها، امتزج بها وأثمر، هكذا جمع بين رمزية الحياة والموت، هكذا أصبح «أوزير نب خبرو» أي سيد التحولات، أو بمعنى آخر سيد التكوينات، هو الشيء ونقيضه، أخفى جميع أشكال الحياة في شخصه، تجسد في مياه الأنهار، في سنابل القمح، في ذروة الأشجار التي اعتبرت الجميزة أقدسها؛ لأن تحولاته بدأت منها، ولأنه وُلِدَ منها، هكذا حق له أن يقول:

أنا اليوم

أنا الأمس

أنا الغد

ولأنني أعاني تكرار ميلادي

فسأبقى مسلوب القوى

صغير السن

هل اقتربت الآن من أسباب تفضيلي لشجرة الجميز وثمارها سوداء الجوهر؟ ربما.. جرى ذلك من خلال الحكي، نحن لا نحكي لنعب الوقت، لتسلى، ولكن لنكتشف الكامن فينا، وفي الآخرين، لعل استمراري يرسييني على فهم ما لم أفهم..

شجر الوصال

رأيتها، عايتها، اختبرتها في جنوب صقلية، بالتحديد في مدينة سيراكوز كما تُعرف بالإيطالية، سراقوسة بالعربية، وناحية دمياط توجد بلدة صغيرة، وسط بين القرية والمدينة اسمها سرياقوس، لعل ثمة صلة ما.

نزلت بالرمو في نهاية الثمانينيات لحضور معرض للكتاب، ثلاثة أشياء بقيت معي، لا.. بل أربعة وشذرات أخرى لا أدرج أيًا منها؛ أولاً شقة في بناية عتيقة، دُعينا إلى زيارتها، دليلتنا شابة يمكن اعتبارها مرجعية للأنوثة، نحتها أعجوبة، يراودني تناسقها المهندم ما بين صدر مجوهر وخصر هامس وردف مقبب وامتداد يتجاوز حده المادي، أرى الرحلة من خلالها مهذبة إلى درجة رادعة، صوتها محايد يوقف أي شروع في المقاربة إلا من أوتي التجرؤ والبجاجة، وهذا أبعد ما يكون عندي، صحيح أن ذهولاً يأخذني عني عند معاينة الحُسن لكنني لا أظهر تيهي وقلقلتي، أوجهها إلى داخلي فأنطق لي عبارات لارابط بينها، وأردد بيني وبينني ألفاظاً لا وجود لها في أي لغة، إذا اشتد الأمر أسعى إلى الانفراد، أطلبه، إذا تم ربما أقف على يديّ، أو أخبط دماغِي في جدار صلد، أو أحاول اتخاذ وضع قد يُنهي الكينونة، ليس مثل الأنوثة باعث، ليس مثل فتنة المرأة حاضّ أو محرك، ما من ساعية قبيحة، إنما توجد عين ترى وأخرى لا تبصر، من شاهدها ذلك النهار يمكن إدراكها من الكافة حتى معدوم الحواس، عبرت فخطرت فتركت عندي أحوالاً لا تزال ترد عليّ مع جهلي بمقرها ومثاها وما صارت إليه، فما أغرب وما

أعجب، رجاء.. انتباه، لم أجد عن قصدي، لم أشرق وأغرب، أحكي عن شجرة، لا عن غصن، عن ثمار، ذلك أن كل أنثى تحوي شجرة.. هكذا! أما المعبر الثاني فمرتفع وسط مدينة بالرمو، مهيمن، مغطى بالأشجار، فوقه ما يقارب قصرًا صغيرًا أو بيتًا كبيرًا، قيل لنا: إنه مقر زعيم المافيا الأكبر، أما الآن فيستخدم لغرض ما لم أعد أذكره، ربما مقرًا لحاكم المدينة.

ثالث ما تبقى شاهد قبر في متحف قرب البحر، المتوفى اسمه محمد، في القرن الثالث للهجرة، أما تاريخ الرحيل فعلق عندي، الثلاثاء السابع والعشرون من رمضان، هيمن عليّ وشمل، مجرد حروف محفورة على شاهد منتزع من موضعه.. رابع ما زال ماثلاً، تلك الشجرة، كنت في طريقي إلى رؤية بناء لم أعرف مثيلاً له في تجسيد تلاقح الأفكار، كنيسة من الداخل، مقاعد مصفوفة، مذبح مهندم، مرتب، مسجد من الخارج، سأذكر المزيد عما عاينته في حكايات العمران وما أغربها!

الممر الذي خطوت فيه يؤدي إلى الكنيسة/ الجامع، ورد عليّ فريدريك الثاني ومراسلاته مع ابن سبعين في الأندلس، أما ابن قلاقس الصقلي فشاعر مرقوق الحس، أصله سكندري، قبل بلوغنا المدخل وقف مرافقنا، يدرس الأدب العربي في بالرمو، أشار إلى مجموعة من الأشجار، ذكر اسمًا لاتينيًا لم أدونه للأسف، هذا الشجر يشعر ويدرك ويبيدي رد الفعل، استعدت ما قاله صاحبي الأبنودي المقيم قسرًا في معزله بريف الإسماعيلية، بيت صغير تحيطه أشجار زرعها ويرعاها، أكد لي أن اليوم الذي لا يقرئ فيه السلام عندما يبدأ طوافه بالحديقة يزعل منه الشجر ولا يبيدي المجاوبة والود الجميل، قال إنه يبوح لشجرة معينة ويقرأ عليها ما ينشده، اشترط ألا يكشف أمرها حتى لمن تُكنُّ له وداً ورعاية وصون محبة.

كثيرًا ما استعدت حديثه وأتعجب، أصدقني القول أم ينشدني حالاً من الشعر؟ دام عندي ذلك حتى رأيت ما رأيت في سيراكوزا ذلك الصباح.

عندما اقتربت إلى حافة الأرض المنبتقة عنها الشجيرات، فوجئت بأوراق الأقرب إليّ تنسحب، تتلملم منطوية، ترتد مطوية، مغلقة، عندما ازداد قربي ومن معي دنت الأغصان من بعضها وبدأت الفروع مغلقة مستعصية على النفاذ، من رافقوني اعتبروا الأمر طرفة، مضى أمري بخلاف ذلك لأنني رأيت حتحور تخرج من شجرة حاملة الماء والزاد الروحي للمتوفى، واطلعت على رمسيس الثاني يستمد أسباب البقاء من شجرة الكون «أشد»، وجلست طويلاً في مرقد تحتمس الثالث الفريد، الأخاذ، أتأمل رضاعته من شجرة، لأني مستوعب لهذا وغيره أرجأت سفري يوماً، مضيت في الصباح الباكر متمهلاً عبر الممر، وعندما بلغت واتجهت لاحظت مرحاً في القوام، ودندنة في الفروع، وتميذاً في الأغصان ونغماً من شجرة تتوسط الجمع يسري إليّ، عندئذ غاب عني الوجود عدا ما أرى وأسمع، اتخذت أوضاعاً ونطقت بالصمت حروفاً ثم أقدمت على ما أقدمت وحتى تدويني هذا لم أبح ولن..

شجرة الصمت

جاء في كتاب بلوهر وبوذاسف، أن بوذا أوتي الحكمة وسداد الرؤية بعد مُكثه تحت شجرة ست سنوات متصلة لم يتحرك خلالها مبتعداً أو متجولاً، بعد انقضاء المدة التي يحار القوم في تعيين من حددها، هل نبع ذلك من داخله أم نودي من مكان بعيد؟

غير أن ما لم يذكره المصدر، أو المراجع الأخرى حتى أقدم المخطوطات المقدسة المحفوظة في أديرة الرهبان بأعالي الجبال في التبت وغيرها، نوع الشجرة يمكن تحديده، فما زال القوم يتوارثون في الهند فسيلة من نسل تلك الشجرة، لغرسها طقوس وحفاوة معلومة، مشهودة، أما الموعد فيحين عندما تبدأ إشارات الذبول واحتضار الشجرة التي هي ابنة من ناحية وأم من وجهة أخرى، كم يستغرق عمرها من الميلاد إلى الاحتضار؟

لا إجابة معروفة، غير أن الأمر كله عند رهبان المعبد القريب من موضع الشجرة.

كيف اقتات البوذا طوال مدة صمته؟

كيف بل ريقه وقضى حاجته؟

كيف استمرت هيئته؟ هل ظل على هيئة جلوسه كما عرفت أول مرة في الحديقة اليابانية بحلولان التي زرتها طالباً صغيراً في المدرسة الابتدائية ثم أقمت على مقربة

منها سنوات عدة، هل ظل متطلعًا إلى أسفل طوال جلوسه أم جال بالبصر فيما حوله؟

يقول من زاروا المعابد ومكامن الرهبان الهادئين، السالمين إنهم أجابوا على هذا كله بالإشارة إلى الشجرة التي لا تزال قائمة، ماثلة، مزارًا للساعين، راسخة، صامته حتى لا يصدر عن أغصانها هسيس ولا يتخللها نسمة أو شيء من بعيد..

شجرة الرضاغة

سطر مؤلف مجهول في بردية مفقودة، رشح بعض مضمونها في كتاب الطواف النيقوسي من العصر البطلمي، أن كهنة معبد آمون الأعظم أنشئوا حديقة اعتبرت من أسرارهم الدفينة، جمعوا فيها كل غريب، أوفدوا الرُّسل على هيئة تجار وبحارة وأطباء معالجين إلى سائر أنحاء الكون المعمور، بدأ ذلك واستمر لمدة تقدر بأربعمئة فيضان، رجعوا بفسائل غريبة لم تُعرف خارج موطنها، وأوجد الحكماء طرقاً مختلفة، عاجلوا ظروف كل منها في حيز معلوم بحيث تنمو وتثمر، عدا شجرة واحدة لا يعرف أحد مصدرها، كم من الأسرار اندثرت داخل هذه المعابد! شجرة مستقيمة الفروع، تضيء أغصانها من الداخل إذا أظلمت الدنيا أو غامت بعض ساعات النهار، ضوء خافت همسي، إنها شجرة الأمومة كما ذكرت في كتاب النيقوسي، غير أنه أوردتها في بعض المواضع واصفاً إياها بمرضعة المقدسين، أحد فروعها يدر حليباً مصفى، نادر الطعم، لا يجمعه بآخر شبه حتى حليب النوق، والزراف وما عَزَّ وجوده.

أقول أنا الساعي بعدما يقارب ثلاثة آلاف وخمسمئة عام إنني رأيتها، ذلك أن العادة جرت على دخول سيد الأرضين على الشجرة وقبل إطلاق الحائم الأربع إلى الجهات الأصلية لإعلام القاصي والداني بتنصيبه، قبل ذلك يمثل أمام الشجرة ويبدأ الرضعة الأولى من الغصن الميَّاد، في الموعد عينه من كل دورة للفلك يأتي

ويقترّب ليتحصن بحليها النادر من الأمراض كافة والأوجاع، ما خفي منها وما ظهر، كذلك أذى الهوام ولدغ الحشرات.

عندما أذى تحتمس الثالث المراسم وتناول الرضعة، طلب من حكيم المعبد، مصمم مرقده الأزلي نقش وضعه راضعاً، ولأن ما ينقش يبقى سرّاً حتى تكتمل الرحلة الأخرى، كل ما نراه الآن من نقوش ورسوم وهيئات إنها أعد للإبحار في العالم الخفي -أمذوات- هكذا جرى نقش الشجرة التي لا يوجد مثلها مثل، عندما رأيتها أول مرة، وكانت زيارتي تلك في ذروة حرب ثونة حيث يقل عدد السائحين وأنفرد بحيوات الجدران الخفية وأسرارها، وأستحضر أيام صباي المفتقد، إذ كان من عادة الأسرة قضاء شهور الصيف في جهينة، وحتى الآن أفضل الرحيل جنوباً في ذروة الصيف، لهذا تطول إقامتي في البر الغربي حيث اعتدت، في ذلك اليوم بداية النهار ارتقيت المرتفع الصخري نهاية وادي الملوك، هكذا حُفر المرقد، لا بد من صعود ثم هبوط، كنت راغباً في رؤية المثوى الأبدي لذلك المحارب الجسور الذي عبر سيناء سبع عشرة مرة على قدميه ليؤم الحدود ويدفع بالأعداء إلى بعيد، أخبرني من أثق بعلمه أنهم عثروا على لوحة عند مدخل ممر خبير، اعتاد أسياد الأرض وضع هذه اللوحات عند النقاط القصوى التي يصلون إليها تذكيراً وتحفيزاً، لم أكن أعلم بوجود هذه الخطوط فلما رأيتها لم أعد أرقب سواها، أخذتني عني، حتى إنني لم أعد أرقب الملك في موضع الرضاعة من الغصن، ذلك أن الغصن دنا مني، شخصت منفرج الشفتين مستقبلاً ما غيرني حتى وقت سعيي هذا..

خبر

جاء في الجزء المفقود من كتاب النبات للدينوري، أنه يوجد شجر في جزر الخالدات، إذا ضاجعه الإنسان يتأوه ويغنج ويُنزل، ثم يحمل ويلد. أما من وصلوا إلى عمق ديار الهند، فقطعوا بوجود شجر إذا قُطع ثمره المستدير، والذي يشبه رأس البشر، ينبت محله على القور، وفي أقصى بلاد ما وراء النهر شجر إذا ذبلت واحدة منها يُنكس سائر النوع أغصانه وفروعه لمدة أربعين يومًا حتى لو وُجد في الطرف الآخر من المعمور.

شجر الكون

في موضع ما، في اللامكان ثمة جذور لشجرة يستحيل الإلمام بها ، ذلك أنها تمتد عبر المدارات، فلكية أو كونية ، ما عُرف منها وما لم يدرك بعدها، غصونها باتساع السُّدم والمجرات المتباعدة عن بعضها، متجاوزة لكل طاقة جذب، تتخلل الكواكب والشموس، كذلك مصائرنا وأشواقنا، تتمدد داخل المخلوقات كافة، ما نلما منها وما دق، يشق رؤية ولو جزءاً منها، غير أن الإحساس بها كافة رغم شساعتها ممكن إذا أطلنا التحديق إلى ما لا تدركه أبصارنا.

«من دائرة معارف الوجود - تحت الطبع»

نحلة الرغبة

جاءني إلى حيث اعتدت الإقامة في البر الغربي فتى لم يتم العشرين بعد، سمعت عنه من الحاج محمود باعتباره أفضل من يتسلق النخيل في الناحية، إما لتقليم الجريد الزائد، أو لتلقيح الأنثى بذور الذكر حتى لا يكون الاعتماد على سريان الرياح لا غير، ثم إن بعضها يحتاج إلى معاملة خاصة.

سررت ودهشت!

أما السرور فلسعي أمثاله الآن وإتقانهم المهمة نقلًا عن آبائهم أو أجدادهم المعمرين، ذلك أن من مستثيرات حزني خلال ترددي على الصعيد خلال العقود الأخيرة كثرة النخيل الذي هاش جريده وحال لونه من الأخضر إلى الأصفر، يتكاثف في الأعالي، احتضار معلن وعدم مشهود بعد هجرة الرجال إلى الخليج وانعدام الخبرة بشجر يحتاج إلى عناية دائمة طول السنة، إنها لا تكتفي بتسميد التربة والسقي كبقية الأشجار، لكنها تُلف في بداية انبثاقها إلى الوجود حماية لها من حرارة الجو، فهمت لماذا يلف صغارها بالحصير وأحيانًا بالقماش وفي بساتين الفاطميين كان الحرير المنسوج في أخميم يستخدم لذلك، ذكر ذلك ابن ميسر في أخبار مصر، قبل موسم الطلع - في الشتاء خاصة - تتم عملية قص السعف اليابس، وإزالة الليف وتنظيف جذعها المدرج وتنظيف مجاري المياه لضمان تدفقها ونقاؤها، في موسم الطلع تحتاج إلى التلقيح بنقل حبوب الذكر إلى الأنثى وإلا فسد ثمرها، حتى إذا تلون البلح وبدأ يترطب بعضه تبدأ عملية «التدلي» أو «التغريد» وهي عملية إزالة السعفة ليظهر السوبات ويكون التمر في متناول من يجني التمر

الذي يجب حمايته من أمراض عديدة تذهب برونقه وليونته، خاصة إذا ظهر العنكبوت؛ لذلك يجب رش الكبريت أو مبيدات غير ضارة بالإنسان، أخبرني بذلك صاحب عزيز عراقي من البصرة لم أعرف من هو أكثر منه دراية، تذكرته عندما رأيت هذا الفتى الذي أكد لي معرفته بطرق عدة مؤدية إلى قمة النخلة، هذه المسالك تختلف من واحدة إلى أخرى، أما سرعته التي اشتهر بها في ارتقاء النخيل فمردها إلى الدراية، ليس في عمومها إنما لكل منها.

قال إن أنات النخيل لا تشبه واحدة منهن الأخرى، أكد له العارفون أن نساء البشر مثل ذلك، لا تشبه إحداهن الأخرى خاصة عند رحرحة ردود الفعل وسبل الانفعال مع التدرج في مراحل الجماع حتى الهمود بعد ارتواء.

هذا سبب دهشتي!

قال: إنه يعرف نخلة قريبة، لكنه لن يصحبني إليها، الشجر يفهم، إذا صحبني إليها ربما تدرك أنه أحالها إلى فرجة، تحدث عن أدق شئونها عندئذ لن تثمر ثمرة واحدة، يحدث هذا إذا غضب النخل أو أدركه أسى، يعرف واحدة لم تثمر ثلاث سنوات متعاقبة حزناً على ملقحها الذي وافته المنية وغير ذلك كثير..

قال إن هذه النخلة حيرته، داخ بسببها، بعد أن عرّفه أبوه عليها، وحان موعد لقاحها لم تقبل البذور التي حملها إليها من ذكر قريب، عندما يوشك على وضعها حيث يجب أن تدس يفاجأ بإغلاق محكم، رجع إلى أبيه الذي مال به الحال ولم يعد يرى أو يسمع إلا بصعوبة، قال إنه نسي إخباره؛ هذه النخلة بالذات أنوثتها فائرة، لا ترضى إلا بالبذور القادمة من فحل النخل المواجه لمدخل معبدها، الحق أن والده دله على أمور لم يتصور صدورها عن شجرة، إذ بمجرد اقترابه وإحاطة خصره بحبل يقيه السقوط فوجئ بها لم يعرفه منها أو من غيرها، خلجات، اهتزازات، أما قبولها للبذور فصاحبه رجفات وأيقن من سماعه شهقات متتابعة، حتى جرى له ما تعجب منه، إذ سرت عنده حمية وزاد في إحاطتها حتى تبدل أمره، لم يعد التمسك بها خشية الإفلات إنما سعيًا إليه ودبابة...

حاشية

يصل غرب وشرق البلدة طريق طويل ما بين مشارف الصحراء والجسر الذي تتوقف عنده المواصلات ما بين طهطا وسوهاج، إلى الجانب الأيمن للمقادم من الجسر تنتظم، مجموعات البيوت، كل منها يخص عائلة تنتظم حول رحبة يحدها سور له مدخل، إلى اليسار مسجد الناحية، بيت العمدة، وابور الطحين، نقطة الشرطة، مضيقة بيت إسماعيل أخوالي، في القرى والمدن الصغيرة لا توجد فنادق كبيرة أو صغيرة، لكل عائلة قادرة مكان لإيواء الغرباء، موظفين قدموا المهام، رجال شرطة، مغاربة عبروا الصحراء على الأقدام في الطريق إلى الحج، زمان.. كان للضيافة تقاليد، ينزل الغريب لمدة ثلاثة أيام، تقدم إليه أصول الضيافة من مأكّل ومشرب وسُبل راحة، صباح اليوم الثالث يُسأل: من أنت.. ومن أين وإلى أين؟ طبعا كان ذلك قبل ظهور المتطرفين وشيوع القلقلة وتشدد الأمن، وتهديد الطرق مع سرعة التنقل وظهور غرباء كثر.

أمام المضيقة يجلس الرجال منهكين بالحر وانشغال البال، فجأة اندفع حمار من بحري، أذناه مرفوعتان، مشدودتان، عضوه مشرع متصلب، انتبه القوم، حالة يعرفونها رغم ندرتها، صاح الخال محمد أحمد..

«شوفوا له حمارة.. حىخرب الدنيا..»

قام كل منهم مسرعًا إلى بيته، توزعوا هنا هناك، بحثًا عن أنثى له يمكن أن ترضى به، اليوم سوق قريب في نزه الحاجر، تجار الغلال وباعة الخضار والفاكهة وسائر الأغراض مضوا إليه، لكل جهة يوم وسوق له ترتيب.

رجع الحمار أشد إثارة، راح الكل يتراجعون ليلتصقوا بالجدران، خطر داهم منطلق، يمكن أن يؤدي، ينطح طفلًا، يقلب امرأة، يحطم أي شيء في المرة الرابعة، هناك قرب وابلور الطحين أوقفوا حمارة بدا أنها راغبة بعد أن تمكن، بعد أن هدأ، أطلق نهيًا لم يسمع القوم مثله منذ سنين، راح يتهارش مع الأنثى التي لاحت راضية.

تذكرت ذلك عندما أصغيت إلى فتى النخل في البر الغربي، تعجبت مما أصغيت إليه، ما استعدته من صباي، لو مس شخص ما أنثى ربما يقدم رجلها على إيذاء من جرؤ وربما يصل الأمر إلى حد يصعب تصوره، في الوقت عينه يسعى لتلقيح شجرة أو تسكين نزوة حيوان أعجم..

عشق الأشجار

ذكر كاتب مجهول في مخطوط قديم، بقيت منه شذرات في ربيع الأبرار للصوري وبغية الطلاب للمنصوري، أنه بعد دفن جميل لم تعمر بشينة طويلاً، دفنا على مقربة من بعضهما، ويبدو أن ذرات كلٍّ منهما توزعت على الموجودات في وقت متقارب، وكما يعرف خاصة الخاصة أن الإنسان يتفرق عن بعضه بالموت، لا يفنى إنما تستحدث مكوناته في نشءٍ آخر. ربما هذا أو ذاك من المراثيات المعينة أو غير المدركة بالحس، بعد وقت يختلف فيه الرواة بزغت فسيلتان لم يزرعهما أحد، الأولى قرب مرقد جميل، والثانية عند بشينة تناقل القوم أخبار ذلك فقال أحدهم: حنَّ الأصل إلى وليفه، بعد حين، نمت الأغصان ورسخ الجذعان، أما الثمار فكانت زهوراً حمراء مخففة ببياض، ذاع أمرهما قصدهما العشاق من كل فج، خاصة من يعاني الهجر، أو صعوبة القربى، أو يرغب في بث معلوم، دام ذلك عقوداً عديدة ولم ينفع زجر المتشددين وخشية الفقهاء من إيجاد نصب يُعبد كما كان البعض يقدر الأصنام، قال أحدهم: أحياناً تكون الأصنام بالمعاني والشرك بنية التوجه إلى غير الله سبحانه وتعالى، ويبدو أن تلك المخاوف نالت وتمكنت من شيخ القبيلة، جمع الأشداء، اتجهوا إلى المراقد الأبدية، ظهور ونماء شجرتين في هذا القفر من العجائب التي يسير بها الركبان، الحق أنهم وجلوا. غير أن الشيخ الذي تملؤه الرهبة من مخالفة الخالق سبحانه أقدم، ضرب المعول الأول غير أن الأمر لم يكن سهلاً، جذور لم يعرفوا مثلها، غائرة في العمق الأجذب، وعندما أوغلوا اكتشفوا أن الشجرتين متصلتان بجذور لم يعرفوا مثلها من قبل، بحيث لا بد من كشف الأرض حتى يمكن انتزاعهما معاً، قيل في ذلك الكثير، لكنه تدرى..

أشجار الأشجار

جاء في معجم الاستبصار فيما وقعت عليه الأبصار للكرمي النهرواني ويعد من النوارد المفقودة:

ومن الموجودات شجرة إذا اقترب منها رجل يصدر عنها تأوه وتحنين، حتى إذا لمسها أو ملّس على جذعها تميل عليه أغصانها، تمسّده أوراقها، يصدر عنها ما يُبان من الأنثى المشتاقة، تستجيب للعناق والأشواق، يترطب منها موضع حتى يمكن الإيلاج، ويتوالى منها ارتعاش أو ارتجاف حتى بلوغ الأوج، وفي جذر سرنديب شجر إذا اكتمل الغروب يتلملم تنطوي الفروع والأوراق، مع بدء انبلاج الضوء تنتفش، تعود إلى حالتها التي كانت قبل الغروب، وفيما وراء النهر منطقة جبلية، وعرة توجد بها شجرة لا يعرف أحد من غرسها أو كيفية ظهورها إذا اقترب منها ذكر، آدمي أو حيواني، تقوى رغبته ويتصب بقسوة حتى لو كان هرماً بطلت منه الرغبة ولم يعد يعرف معنى الشهوة، شد إليها الرحال من له حاجة بها من أقصى الأنحاء، وسائر المراتب وبعد شيوخ خبرها وثبوت أثرها، أرسل ملوك وخلفاء وأباطرة وزعماء نواحي لهم صولات وجولات على مساحات شاسعة من المعمورة وأعداد غفيرة من البشر يطلبون أمر الناحية ويرجون الحصول على فسيلة من الشجرة ويعرضون ما خف حمله وغلا ثمنه، ومن ذلك جوار حسان وحيوانات نادرة ذكية لم يقع بصر أحد على مثلها أحياناً كان الأمر يرسل المطلوب، لكن ما من فسيلة وصلت حية صالحة للغرس، فشلت كافة المحاولات لزرعها

في الجهات كافة، جاء في الكتاب أيضًا أن ثمة شجرة تنمو في جهة قرب التقاء البحرين عند طنجة، العجيب أن جذعها باسق وجذورها غائرة في مياه المالح، للوصول إليها لابد من نزول مرتفع صخري منحدر إلى المحيط، عرف عنها أن العاقر إذا قصدتها وتلمست بركتها بتمرير راحة الكف على الجذع المتين، حملها محقق إذا ضاجعها زوجها في نفس الليلة.. يتسم بعض الخبثاء، يقولون إن نفرًا من شباب فحول يخبثون قرب الشجرة ويقومون بالواجب مع العاقرات مقابل قدر معلوم، والله أعلم، وقيل أيضًا إن كافة أشجار الأرز في المعمورة تتصل ببعضها عن طريق نبضات خاصة ولا أحد يعرف مضمون ما ينقل (العلماء في العصر الحديث أكدوا ذلك، ورصدوا صلات بين أشجار الأرز في لبنان وتلك المغروسة في جبال الأطلس وجزيرة بالي وقرب بلاد التبت وفي حوض الأمازون) ثمة وشائج غير معروفة تصل بين أشجار هذا النوع وفي متون الأقدمين ما يؤكد تبادُلها الإشارات والتوقيعات، وثمة من يقول لو اهتز غصن منها في أقصى المشرق تحركت سائر الأغصان في شتى الأنحاء وهذا من الغرائب التي يصعب رصدها أو ملاحظتها، ربما يكون ذلك ضربًا من المبالغات ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

سرسوب

المؤكد أنها ظلت قائمة، فارعة، جذعها صنيدي حتى بدأت أعمال الترميم ودخل البيت العتيق من يجله، غرباء عنه، لم يعرفوا خصوصية حضوره، ومعراج الأصوات والضوء فيه وتناغم الجدران وحوارات الأسقف الحاملة المؤطرة.

شجرة صاعدة بقوامها النحيل حتى فروعها لا تمتد إلى بعيد فكأنها عصا ذات معين، بعد إعادة فتح البيت مكثت أكثر من عام لا أقربه وإذا مررت في الدرب أمامه أولي بوجهي، أريد بصري بعيداً عندما اضطررت إلى دخوله لم أجده رغم مثوله وقدم الوفود لزيارته، البيت الذي كان لم يعد، حتى الآن كلما مضيت إليه أحاول إدراك مكان التغيير، وهذا مما يطول الحديث فيه، غير أنني أتوقف عند الحديقة التي تلي المدخل، تطل عليه غرف السلامك والحرامك تغير نوع الحشائش صارت أقصر، أما النخلات الثلاث فلم أعرف مثلها في بر مصر كله، رغم أنني قطعت الصحاري وزرت الواحات كافة وصار بيني وبين نخيل الصعيد وشائج وصلات.

- ما يعنيني الآن تلك الشجرة. الفناء الخلفي، فيه ما فيه، المشربية الضخمة العريضة التي تحف غرفة الراحة وتجزئ الضوء الحاد العابر إلى الداخل، تخفف من حدته وتروض طيشه تمنمه، تحوله إلى أطيا في ذروة القيط، كذلك مشربية الطابق الثاني، غرفة الحريم المكنونة، المصونة، وفيها خزانة كافة ما خف حمله وتعاضم ثمنه، وبسبب تلك الخزائن الخفية التي يسط فوقها الفراش أو الوسائد،

جاء القول الشائع «تحت البلاطة». إشارة إلى ادخار المال وإخفاء الثروة وإظهار الضعف رغم تعاظم القوة.

بعد الترميم أزيلت الحديقة الخلفية، اختفت شجرة اللبلاب، وزهر الياسمين وتكعيبة العنب، جرى تبليط الأرض بدلاً من فرشاة الحشائش الخضراء الوثيرة، بدأ استخدام المكان الذي كان مكنوناً، مستوراً للحفلات واللقاءات وعروض مختلف أنواعها، غير أن الطاحونة والساقية بقيتا في موضعهما القوي وهنا رأيت الشجرة مائلة، جذرها عند مدخل الركن المخصص للطاحونة كان يديرها بغل شديد، تطحن القمح لإعداد دقيق الخبز، أما الساقية فتمد البيت بهاء وفير. دائماً أردد أن الباب لو أغلق على الأهل لاكتفوا عدة شهور بما لديهم من خزين، ما زلت أذكر إقبالي على الشجرة المائلة. ظننتها انفصلت عن أساسها غير أنني فوجئت بصلة لا يلحظها إلا من أوتي التمكين ومعرفة البيت ومكنونه، ثمة شجيرة، في سمك الخيط تصل الجذر الظاهر منه وما خفي بالجذع المائل المنفصل عن أصله، عبر هذا السرسوب الذي يمكن ألا يلحظ تدفق سائر عناصر الحياة والغذاء وما يكفل استمرار تلك الخضرة الباسقة عند نهاية الجذع والأغصان، صرت أتردد على فترات متقاربة لأطمئن على اتصال الأسباب، أنبه كل صاحب علاقة، أملس أحياناً على أغصان الشجرة المائلة التي لا تزال تورق وتشعر بالضوء، أنصرف مودعاً. لا أعرف ما سألقاه عند رجعتي..

حقول يارو

حقول يارو، رياض يارو، جنان يارو، أو حدائق يارو، إنه أقدم تصور إنساني للجنة حيث نهاية المطاف للمبرئين، بعد مثول الإنسان المتوفى أمام المحكمة الأوزيرية، بعد أن يشهد عليه قلبه، بعد أن يوزن القلب في كفة وتوضع ريشة ماعت في كفة الميزان الأخرى إذا ثقل الميزان، أي إذا طبت كفة القلب فهذا يعني كثرة الذنوب، عندئذ يلقي إلى وحش أسطوري يقف إلى جوار عرش أوزير نصفه الأعلى تمساح والأسفل أسد، هذا يعني أن المصير إلى الجحيم حيث العذاب المقيم المتنوع، أما إذا خفت الموازين، أي مالت كفة الريشة فهذا يعني خلو المرء من الذنوب، وأن مصيره إلى حقول يارو حيث النعيم المقيم، في جنة يارو نهر، لا توجد جنة إلا وفيها ماء جارٍ، نخيل وشجر وأعاب وخر وكل ما يرد على خاطر المرء المبرأ يلاقه أمامه، تحت اللوحات التي تمثل مشاهد من رياض يارو يكتب سطر واحد:

«أرض ليس فيها أعداء».

في مرقد سنجم رع وزوجته، مشهد للقمح الذي اصفرت سنابله، رهيفٌ، منمنم، تتآزر السنابل بتجاورها حتى تشكل جدارًا من الهشاشة لكن يمكن للمدقق أن يرى كل سنبل مفردة قائمة بذاتها، اللون أصفر يحوي اكتمال النضج وبشارة القطاف، الكل مجاور لمجرى قد يكون نهرًا وريما قناة، المهم أن الماء الصافي السلسبيل يسافر فيه عند طرف المشهد، بداية الحقل ينحني سنجم رع وزوجته

يحصدان ما لم يزرعاه، إنها الآن مبرآن، استوقفتني كلمة «المبرأ» موازية بدرجة ما، لوصف «المرحوم»، المبرأ بعد مثوله أمام المحكمة تعني أنه حتى وقوفه في مواجهة الميزان وأوزير كان متهمًا، أمضى عمره كله تحيطه الشبهات، متهمًا بجرم يمكن أن يكون مرتكبه ويمكن أن يكون بريئًا منه، ما يظنه فعلًا خيرًا قد يحاسب عليه باعتباره خطيئة، لا شيء يتضح إلا بعد تمام الرحلة، والحواس فما أشق ذلك!

في جنان يارو هدوء مقيم، نعيم دائم، لا خشية من عدو في أي صورة كانت، أو فعل يلحق الضرر لا جوع ولا ظمأ، لا سهاد، لا أرق، لا مرض، لا وسن، كل ما يتحرك فيه المبرأ حلم يقظ، لا هم ولا غم، ورغم ذلك توقفت طويلًا أمام سطور في كتاب برت إم هارو يبدي فيها المبرأ انزعاجه مما يعاين بالقياس إلى ما عايشه، مما عرفه، ما خبره.

ما هذا الهدوء المستديم؟!

ما هذا الصمت المقيم؟!

إنني أفقد الأصوات، الشيء ونقيضه.

أين الشبع؟ أين الجوع؟

أين الجنس؟ أين الحياة بكل ما حوت؟

لا أستعيد تلك المعاني إلا عندما أتوقف إذا كنت سائرًا، أو أكف إذا كنت متكلمًا، أو أشخص إذا كنت غافيًا.

مسار

الشجرة أتم الموجودات تجسيداً للمسار، جذورها خفية، ممتدة حيث لا تدركها الأبصار، إنه الأصل، ثمة شجرة يكتمل فيها المعنى، مزروعة على شاطئ النيل، راسخة المشهد، قوة الظهور، تتفرع أغصانها ثم تنحني صوب الأرض لتغوص فيها، تحفر طريقها لتعود من حيث جاءت، تابعت ما جرى عندما قرر الجهلاء بها رصف التربة بالبلاطات المصقولة، تأملت محاولات الأغصان النفاذ إلى عالم الغيب والشهادة، حالت البلاطات دونها فتمددت فوقها. شيئاً فشيئاً اهتدت إلى الفرجات الضيقة التي يمر بها كثيرون ولا يلحظونها لرهاقتها وشدة نحوها، من خلالها أدركت أن ثمة إمكانية، دأبت على المحاولة، دق الغصن ورق حتى فات، تبعته الأغصان، صحيح أنها غلظت وانبعجت بسبب اختلاف الظروف وتبدل التربة، ذلك هو...

شجر المستحيل

كافة الأشجار خارج الإحاطة، بعيدة عن التناول، الإنسان لا يعرفها إلا بالنظر، يمضي عمره متطلعاً إليها، مستظلاً أو مستأنساً بها في الهجير، تظل فروعها بعيدة، قصية، جذورها غائرة، منها الدفين والظاهر، كلاهما مستعص، أما المخلوقات التي أوتيت الإمكانية على التسلق أو القفز من فرع إلى آخر، فلا تلمس إلا جزءاً من كل، وسرعان ما تفارق. كذا الطيور التي تنتحي ركنًا قصياً في الأعالي لتبني عشًا لا يدوم إلا قدرًا يسيرًا، أما شجرة المستحيل عينه فتلك المشتملة على المعرفة. لم ولن يوجد من يمكنه الإحاطة بمفرداتها وأجزائها وما يؤدي إلى بعضه البعض.

سطور على شجرة

قيل إن سيدنا ذا النون، قال: وجدت على شجرة في بيت المقدس سطورًا مكتوبة لا تُفهم، قرأتها - وكان ذو النون قادرًا على قراءة كل حرف مستعصي - فإذا معانيها كما يلي:

كل عاصٍ مستوحش، وكل مطيع مستأنس، وكل خائف هارب، وكل راج طالب، وكل قانع غني، وكل محب ذليل.

صبا

ليل أليل يدثرني، الحجرة فسيحة، سرير، منضدة، لا شيء آخر، دفتر اليوميات معلق عند نهاية السرير، يحوي كل التفاصيل، درجات الحرارة، سرعة النبض، الضغط، أحوال القلب الذي ما زال يحاول الالتئام، لأول مرة ينتزع جزء منه، مني، لا أعرف مستقر الصمامين الآن، ولا ما يجري في صميمي، تكيف الصمامين الجديدين المأخوذين من حيوان أجهله، أفقدوه حياته ليمتد بأنسجته وجودي، لأول مرة أعرف مدة صلاحية لأحد أجزائي الأساسية، كل شيء أوضح لي وفصله الجراح في اليوم السابق على الجراحة، وقعت أوراقاً عديدة لا أعرف محتواها، لم أهتم بعد أن لاحظت توقعاتي غير المكتوبة، ونبهني إلى تفحص ما أوافق عليه وأقبله، أو مأت غير عابئ، غير معني بإحصاء أنفاسي حتى توقفها غداً إلى حين مقدر، إما أن تعود وإما أن تكف، الورقة الوحيدة التي طلبت إضافتها، في حالة الحرج أوصي ألا أوضع على ماكينة صناعية، فلأترك لأبدأ الطريق راضياً مرضياً، استجاب الطبيب متطلعاً إليّ بدهشة، سألتني عما إذا كان قراري له أسباب تتصل بديانتي، نفيت بهدوء، أشرت إليّ، ما زلت أرى درجة الضوء الخافت البارد المنبعث من السقف المرتفع، إدراكي المتمهل للأوبة، أول ما سمعته طبيب العناية لبناني الأصل، جراحة كبرى.. ثم قال بالعربية: حمدًا لله على السلامة. لم أنطق، شيء ما مثل ماوس الحاسب الآلي محشور في فمي، ما زلت أذكر نقلي إلى سرير متحرك دفعوا به إلى تلك الحجرة وسط بين الرعاية المركزة والعادية، كنت أستيقظ

وأغفو غير مدرك أو معني إذا كان الوقت ليلاً أو نهائراً، الباب بدون قفل، يمكن أن يُفتح في أي وقت، ثمة من يراقب أحوالي عبر شاشات في الخارج، متصل بأسلاك ترسم خطوطاً متحركة وأرقاماً على شاشة معلقة فوق رأسي، يصعب عليّ رؤيتها في وضعي المجبر على اتخاذه، هل استيقظت، هل سمعت ما سمعت في منامي، المهم أن التصفيق كان متواصلاً، صاخباً، سماعة من قومي يصفرون ويلوحون، ثم يصغون إلى صوت تعلقت بصاحبه، أحبيته وهمت به وعندما زرت حلب إنها كان مقصدي الحقيقي رؤيته، وقد كان، قام من فراش إعيائه، جاء إلى بيت سي محمد قجة ليتوسط فرقته، يقودها بإيماؤه أما الصدح والعلو ثم الخفض فكان من محمد سرميني الذي ردد على مسمعي نفس الموشحات والقذود والطقاطيق والقصائد، التصفيق يبدأ والموسيقى تبين، عزف قانون مكين، قمت من مرقدتي، تطلعت حولي، حفل في المستشفى، في الطابق المخصص للمراقبة بعد الرعاية الفائقة ما هذا؟ كل ما أطر بني يصلني، لكنني غير قادر على تحديد المصدر، فارقت الفراش متجهاً إلى الباب الذي لم يكن في موضعه الذي اعتدته إنها في الجهة الأخرى من الحجرة، لاحظت أن الأسلاك تسري معي، تتمدد، تتبني، لم يفصل أحدها، كلها طوعي، من أين الصوت؟ من أين؟ من يصفق من؟ يدع صبري مدلل كما لم أعرفه من قبل، حاضر، حاضر أكثر من جلوسه نحيفاً، نحياً لكنه قائد، أمر، تتبعه الفرقة كما تقتفي القافلة حاديها، بعد ظهوره في بيت محمد قجة بشهرين خرج إلى النهار، رثيته دامعاً مع أنني نادر إبداء الحزن علانية فلم أدمع إلا بمفردي، من الباب خرجت إلى عمر طويل فسيح، يأتيني عبره صوت صبري مدلل⁽¹⁾ بنفس الدرجة من الوضوح، لا يقترب ولا يتهايل، عندما وصل صوته إلى مقامي المفضل ودندن قدري دلال أمهر من سمعت على العود بدأ ترنحي وميلي، كنت أتحرك إلى كل اتجاه، نزلت إلى هوّ سحيق وصعدت إلى علو سامق، يداي إلى أعلى، أستحضر

(1) مطرب حلبي شهير، توفي.

حركة أيدي الندابات المودعات للمسافر إلى الأبد، الرقص والندب حزنًا صنوان،
يتدفق النغم مني، تتبعني الأسلاك الموصلة بمسببات الوجود، المعينة على التقصي
والفحص وأسباب تعقبي الصوت الذي أشجاني فخلاني. أميل مع الصبا كما
تمضي بي كل مذهب وجهة الالاهة.

تحول

أول من نبهني إلى وقوع التفرق شيخنا الأكبر، وإذا ما قيل الوصف فهو واحد لا غير. محيي الدين ابن عربي. عندما قرأت له نصًّا صار من مكوناتي: «لما كانت الحياة جمعًا والموت تفرقة..»

أمعنت وأوغلت فتوصلت بالحقائق، ليست أجسادنا إلا مجمعًا لذرات شتى قدمت من كل صوب، ما يجمعها الأنفاس. أو الروح التي رمز لها المصريون القدماء بطائر له رأس المبرأ الراحل أبدًا وسموها "الكا" ما هي؟ ما كنهها؟ هذا ما لم نحط به علمًا حتى الآن، أعرف أنني لن أعرف ماذا سيكون، هذا ما لا إمام به عندي.

شغلني حال تفرقي. عندما أزور المراقدة أتأمل ما بنيت فوقها وحولها من أشجار وأزهار، أتساءل: هل تحوي الأغصان والثمار والورود تلك بعضًا مما كَوَّن الراحلون، أم إن الصيرورة تنتقل إلى بعيد؟ لو صح احتواء تلك الأشجار على ذرات أبي أو أمي أو أي من الأحباب، ألا يقف الطائر المهاجر على طرف الغصن ويلتقط بعضًا من الثمر؟ ألا تنتقل المكونات إلى الأقاصي؟ إلى بلاد لم يطأها ولم يبلغها الراحلون إلى اللاشيء؟ أم أن التفرق يتم عبر مسارب وسبل في اللاوجود لا قبل لنا بإدراكها خلال سعين؟ لا أذكر الأشجار النابتة من أجساد الآخرين إلا ويمثل أمامي أقدم ما عاينت، أغصان الريحان، لونه الأخضر العميم، عرفته عندما صحبني أبي لزيارة مرقدة الشيخ مصطفى المراغي، كنت صبيًّا، غمرًا بعد، غير أن

الغياب الأبدي اتصل عندى بكل ما يمت إلى الريحان وروح وجنة نعيم، لن يطول اختفائي طويلاً. بضعة أسابيع، قل شهوً النوعية الرمال والأرض ودرجات الجفاف والرطوبة علاقة، حتى ما نظنه سيبقى سيولي يوماً، أعني العظام الرميم، أتجاوز عن المرحلة الأولى، أعبرها إلى تفرق الذرات، مضيتها إلى المسارب والسبل سرّباً، لا أعرف مم وفدت ذراتي، لكن ما زال عندى القدرة على تخيل ما يمكن أن نمضي إليه ونكون عليه. تلك ذرة يمكن أن تندمج في تكوين طائر، ليس مثل الطيور مخلوقات تعلقت بها، ما أتمناه اندماج بعضي باليما، أي جهة؟ ذلك الزغب الواقع ما بين الرقبة والصدر والمتمد إلى ما تحت الجناحين يا دفة مسعاي، ويا قرة وجدى، من يدري؟ ربما ألتقي ببيامة الظهر التي أنستني فوق السطح وودعتني عند الانتقال إلى الدرب الأصفر، ثم ظهرت عندى في مستشفى كليفلاند، لعلّي أستفسر منها عن السر، لعلّي أُلّبه بعيداً عن مثول وعيي، أتمثله بشكل ما، من أين لي العلم والإلمام بأن ثمة طرقاً مؤدية يعبر خلالها المعنى مع تفرق الذرات كل إلى جهة، لعلّي أستقر في جذع شجرة تتشربني جذورها الدفينة التي توغل في التربة لترضع الماء والغذاء وتمد به فروعها في الضوء، سأرحل مع كل ذرة، كلّ منها تحتويني، هكذا أتفرق على ما لا أعرف ولا خطر على قلب بشر، لو أتيح التوجيه لناشدت عدداً من ذراتي الاندماج بشجرة سرو، رأيت ما لا يحصى من أنواع الشجر، غير أنني تعلقت بالسرو، ولذلك أسباب أولها وأهمها وأرجحها تشابهها مع محبوبة همت بها نصّاً وروحاً، شجرة سامقة، سروة ذات نهدين وخصر وصرح حمرد من قوارير شفافة كالقجر رأيتها في بلاد السرو وسط آسيا. من أراد الاستزادة فعليه برسالتى إلى صاحبي عن الصبابة والوجد، أما هنا فميراثي كثير والمتاح من الوقت قليل، السرو ملمومة مضمومة منفرجة، مشهرة، قمتها إلى تضاؤل عكس كل الأشجار. لعلّي أتسرب إليها، أندمج فيها، لو أتيحت الإمكانية أخبرها، أطلعها على شبيبتها الإنسانية، ترى في أي أرض تسعى الآن؟ عشقت

السرو من هيامي بالمنمنمات الفارسية خاصة ما خطه ونمنمه بهزاد نزيل هيرات، ليت ذرة مني تتجه إلى الماء، لكم تأملت على ضفاف بحار ومحيطات تجويه. أخشاه لجهلي بالعلوم لكنني أئنس به عند جلوسي وبدء سرحاتي أو التطلع إليه من نافذة طائرة تعبر البحار وخاصة المحيط، الماء الأعظم، أه لو امتزجت بقطرة، لكم رغبت أن أسافر كالماء، إنه العنصر الوحيد المسافر إلى الأبد، المتحول في ترحاله، أتحد بقطرة ممتزجة بترية، أصير جزءاً منها، أتبخر فأصعد، أندمج بسحابة، كل الغيوم عابرة فوق الأراضي والبحار، إذا قدر لي اختيار اللحظة التي ينزل فيها مطري أفضل المحيط، حيث يلتقي الماء بالماء، يصير منه، وعند حد معين ينفصل، ربما يتوقف إلى حين إذ يتحول إلى جليد، عندما طرت فوق القطب، داعبني بياض الثلج، مساحاته الممتدة، ما يتخلله من بحيرات ما، جد عميقة الزرقة، هل يدري الثلج أنه أبيض؟ هل يعي الماء أنه أزرق، أخضر حيناً بين بين، أعود إلى الماء من الماء. أسافر إلى حيث لا أدري، تيار بارد يحمل أسماكاً يطلقون عليها سلمون. من حفر مجرى الماء في الماء، حتى ينتهي إلى مصب نهر قادم من عمق أمريكا اللاتينية، عند التقاء النهر بالمحيط - العذب بالمالح - يضع السلمون بيضه، لكل موضعه وتديره، رأيت أسراب السلاحف تخرج على شاطئ جزيرة سومطرة، ربما تعود إليها إحدى ذراتي المسافرة مع اليمام، مع الماء، مع بذور اللقاح، فهل يحن القطر إلى الأثر؟ لا أدري، أين اطلعت على ذلك الجدول، يتدفق من مرتفع، على ضفتيه أعشاب دقيقة تتخللها زهور حمراء قانية منمنمة لعلها شقائق النعمان، يحيرني الاسم، هل رأيت الجدول في ممر علي بك بكرستان؟ أم في النورماندي، أم في شسوع الصين، أم لملته من ذاكرتي، الماء من النيل، والصفتان من مور بلوس بالمكسيك والزهور من سيناء، أما الأعشاب فمن أيدوس؟ لا أعرف، لا يمكنني الجزم، ربما أتفرق في جناح فراشة لكم تأملت رهافته ونقاء ألوانه وما يعبره من مكونات الضوء، أصير إلى قصار العمر، الفراش لا يعرف إلا فصلاً واحداً، ذلك

الذي يولد فيه، تلك الذرة المتحركة كالغبار خشيت سحقها، بودي لو أصبحت جزءاً من آثار الأقدمين، لون، بقايا نحت، تراب عند مدخل مرقد لم يكتشف بعد، لعلني أندمج بحبة توت، عمره قصير، قصير بالقياس إلى ما أعرفه، لكن هذا الكائن الذي لا يرى إلا تحت المجهر لا بد أنه محتوي على توقيته، ربما تمر به الفصول الأربعة خلال ساعة مما نحصي ونعد، هل تمضي ذرة مني إلى معنى، إلى ملمح إذن.. ليتني أمثل في ابتسامة تلك العجوز التي اشتملت على كافة بهائها الأنثوي، تسعى بين المناضد ليملي عليها الزبائن ما يرغبون، تصف ما عندها وتنصح بهذا وتمتنع عن ذكر رأيها في ذلك، أحبيت حضورها، لم أعرف غزارة الأنوثة ورقة الحنو كما عرفته منها حتى أنني إذ أستدعيها لا أرى سواها. أنوء بدفقها، وأتوق إلى التوحد بطلتها، بابتسامتها تلك، آه لو أمكن ذلك خلال تفرقي على عناصر الكون، لو ركنت في بقايا دمة عند حافة عينها لهان عليّ كل ما أصير إليه، ولقبلت كل صورة متجهة إليها، منقلب إليها ومنها، داعياً أنني في كل تغير، ومع كل ذرة سأعرف الميلاد والموت من جديد، محقق توقي إلى ترحال دائم، مهما طال التوقف فلن يكون إلا مرحلة، جزء من كل، أتفرق في كل أنحائه ربما يبلغ بعض النيازك الهائمة والأفلاك الدوارة والكويكبات المأسورة في أرجاء الكون الذي أصير إليه و...

بذرة

جاء في كتاب التحولات - الصين - ما نصه:

ما هو ساكن يسهل الإمساك به

ما لم يفتح يسهل توقعه.

وما هو هش. يسهل تحطيمه.

وما هو رقيق يسهل نثره.

يكون الفعل فيما لم يحدث بعد.

يقوم النظام قبل الفوضى.

هذه الشجرة الباسقة نشأت من بذرة.

هذا البرج وطوابقه التسعة أصلها ربوة صغيرة.

رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة.

تنبه لكلمة. تنبه لبذرة أيضًا.

عندها، لن تعرف الفشل أبدًا.

وجاء فيه أيضًا.

التعاقب هو فتح ثم إغلاق. الحركة المستمرة هي، "الوصول إلى كل مكان"

ما يصل إلى مكان هو مرئي، صورة، ما إن تأخذ الصورة شكلاً حتى تصبح شيئاً ملموساً.

أغنية النحلة

قال الأبنودي:

عمري ما طلعتش نخلة.
مع إني شفت ف سني
أطفال مش أكبر مني..
طالعين بطريقة سهلة.
من غير ما بتحلم زي
إنها تبقى عصفورة
تضرب بجناحها وتعل
وتحط على الجريد..
أنا شفت ولد صغير
طالع بطريقة نحير
بسرعة بسرعة بسرعة
زي القطر الحديد.

هو يطلع وأنا شايف
أنا شايف لكن خايف
مع إني واقف بعيد.

* * *

نفسى يا ناس أطلع نخلة
وأنزل بطريقة سهلة
زي الولد الصغير.
واحصل الجريد
وأجيب البلح الوردي
أملابه جيبي ويدّي
آدي البلح في مكانه
وأنا أهه في مكاني
لسه.. واقف بعيد
وبابني حاحلم تاني
إني أبقى عصفورة
تضرب بجناحها وتعلا
وتحط على الجريد
نحط على الجريد!

تساؤلات

هل من هناك عندما أمضي إلى هناك؟ هل من جهة أسلكها عندما يبدأ تفرقي عني أم أهيم إلى كل صوب؟ هل من مستقر أم سأتابع كل نسمة، وتحملني كل ريح وتنقلني كل موجة إلى حيث لا أدري، هل سيعي بعضي بعضه بعضًا، أوقن أن شرط الوجود الوعي وقد عشت ترحالي في دنيائي أخشى من فقدي وعيي وعندما راح لفترة مضطربًا الدرء ألم ناجم، لم أعرف، إذا انتقلت من مريثات إلى عتمة، لا أعني أنها عتمة فكيف يكون الحال مع التحول من طور إلى طور، هل سأهيم في كون أم أكوان؟ هل أقطع المسافة من مجرة إلى مجرة ومن سديم إلى سديم في لحيزة أم لحظات أم أنه وقت غير الوقت؟ هل من مسافة تتلوها أخرى؟ أم تتضام كلها عندي فأصير القاصد والمقصود. المبدأ والمعاد الوسيلة والغاية؟ هل من عودة؟ هل من نشأة أخرى أم أن حظي من وجنة كاعب حسناء مثل حظ ذرة الغبار التي تحط هنيهة وتنفضها بأصابعها أو مروحتها دون أن تعرف ذلك المتيم بالوجود، الوجود الذي عرفه ولم يساعده الوقت للتملي من محاسنه وجميل مقاصده؟ هل يتبين الرشد من الغي؟ هل يصير النشر إلى طي؟ كم من سؤال يعقبه سؤال، ليس لي إلا طرح الأسئلة، وما دام النطق قد وقع فربما يجيء حين لا ألم به الآن ولا أعلم عنه شيئًا، يتحقق باعث التوق، رغم أن كافة ما قدرت على البوح به ظل وسيظل معلقًا.

* * *

﴿وَحَنَانًا مِّنَ لَّدُنَّا﴾

(مریم: آية 13)

7

8

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾

(سورة إبراهيم: آية 17)

القاهرة: 2008 - 2014

1900

الفهرس

68.....	كتب وافدة.....	9.....	حكايات سديمية.....
74.....	كتابة.....	11.....	رحلة.....
77.....	كتاب البحر.....	13.....	بستان.....
79.....	بالكتب.....	15.....	الاسم الأعظم.....
81.....	برت إم هارو.....	21.....	مصارعة.....
85.....	الكتبي خربوش.....	24.....	مغربي أخيم.....
89.....	كتابات.....	26.....	وليف.....
92.....	كتب المستحيل.....	28.....	حديقة السماء.....
93.....	كتب لم تُعَد.....	30.....	اللا اسم.....
95.....	مجنون الكتب.....	35.....	حكايات الكتب.....
100.....	كتاب الوجود.....	37.....	كتاب الكُتب.....
105.....	حكايات سديمية.....	40.....	كُتب ما لم يُكتب.....
107.....	الاسم الأعظم.. تدوين مغاير.....	42.....	أبستاق.....
109.....	ما سيكون.....	44.....	كتاب الحقائق.....
112.....	نص.....	46.....	كتاب اللا كتب.....
116.....	مسافات.....	48.....	كتاب الفتح.....
120.....	موسيقى.....	50.....	أعجمي.....
123.....	جاء في الحكم لابن عطاء الله السكندري.....	52.....	كتب.....
129.....	سطور على شجرة.....	54.....	لا كليله.. لا دمنة.....
130.....	الأمر نسي.....	60.....	كتاب الخاص.....
131.....	ماء دافع.....	62.....	ما لم يرد في كتب.....
132.....	حرف السين.....	64.....	كُتب الوصول.....
134.....	فين؟.....	66.....	كُون.....

208	مسألة	135	طلي
209	مسألة	138	معرفة
210	مسألة	139	سبك
211	مسألة	140	فراشة؟
212	نصيحة	141	حلم
213	لا يتبه أحد	142	حلم
215	تفسير	143	معلم
217	مسألة	147	حكايات ومسائل تحوي
218	مسألة	149	من مسائل تحوي
219	نصيحة	151	طرق البحر
220	مسألة	154	نسيج الألوان
221	مسألة	157	ابن السهاء
222	مسألة	159	نومة العروس
223	مسألة	164	مجداف
224	مسألة	169	تماهي الغارين
225	مسألة	173	نصوص محيرة
226	مسألة	176	تخليق
227	مسألة	178	صقل
228	مسألة	180	مركز
229	مسألة	189	أوضاع
230	مسألة	192	حرير أخيم
231	مسألة	198	من متون توت
232	مسألة	199	مسألة
233	مسألة	200	مسألة
234	مسألة	201	مسألة
235	مسألة	202	مسألة
236	مسألة	203	مسألة
237	وجود	204	مسألة
241	سديم	205	مسألة
243	تفرق	206	مسألة
244	عمران	207	مسألة

315	تعريف	246	مَنُذِرَج
316	تعريف	248	هـدم
317	وحشة علي	249	انتقال
318	مسافات	251	لحظة
319	طوق	252	فَرَّاش
320	طائر	253	طريق
321	با	256	عَصَى
322	حمام الياهم	258	سؤال الأصوات
323	طوق	259	خزانة
324	عب الماء	263	حكايات الياهم
325	شعر	265	ياهم السطح
326	شعر	269	ياهم مفردة
327	شعر	273	حمام الديمومية
331	حكايات مراکشية	277	حمام الباء
333	في قبة الأمراء المراكشية	282	حمام الحاج فهمي
336	سليطين	285	مسألة
338	مقام الرجال	286	ياهم الحمام
341	طنجية	288	ياهم الدرب
343	حسون	292	ياهم المحيط
345	بلبل عراقي	296	ياهم الحد
351	سديم	301	يامام أبدا
353	بيت هائم	305	مقتبس
354	نية	306	مقتبس
355	وقت	307	مقتبس
357	كلام	308	مقتبس
359	مشيب	309	مقتبس
360	اسم	310	مقتبس
361	إنسان	311	بيت هائم
362	حلم	312	فُقُنس
363	حلم	313	أين سحر الياهم؟
		314	شعر

حكايات هائمة

454	رُسُوْفي التَخوم	373	ثمانية
460	شجر الغواية	375	عبود القائد
464	شجرة لا تبلى	380	عبود المهيّب
468	شجرة التحوّلات	383	عبود المدع
469	شجر الوصال	387	عبود الكحّات
472	شجرة الصمت	391	عبود المتذوق
474	شجرة الرضاعة	395	عبود العاشق
476	خبر	398	عبود الفُرصي
477	شجر الكون	403	عبود الفندقّي
478	نخلة الرغبة	405	سديم
480	حاشية	407	تحنّان
482	عشق الأشجار	410	بين سيدي مرزوق والشهباء
483	أشجار الأشجار	412	ماء
485	سرسوب	420	عَلَم
487	حقول يارو	427	حكايات الأشجار
489	مسار	429	نخل
490	شجر المستحيل	432	نخلة النخلات
491	سطور على شجرة	436	شجر الأنوثة
492	صَبَا	439	شجر الوقت
495	تحول	443	أصلها ثابت
499	بلذرة	444	شجرة الوحدة
500	أغنية النخلة	452	شجرة الكينونة
502	تساؤلات		

إصدارات المؤلف

الأستاذ

جمال الفيطني

- 24 - حراس البوابة الشرقية (الجيش العراقي في حرب أكتوبر).. دراسات ومشاهدات.
- 25 - نجيب محفوظ يتذكر.
- 26 - مصطفى أمين يتذكر.
- 27 - توفيق الحكيم يتذكر.
- 28 - ملامح القاهرة في ألف عام.
- 29 - أسبلة القاهرة.
- 30 - مقامات بديع الزمان الهمذاني (تحقيق الإمام الشيخ محمد عبده).
- 31 - شطف النار.. مجموعة قصصية.
- 32 - مختارات أبي حيان التوحيدي.
- 33 - مطربة الغروب.. مجموعة قصصية.
- 34 - سفر البُنيان.. رواية.
- 35 - حكايات المؤسسة.. رواية.
- 36 - الخطوط الفاصلة.. ترجمة ذاتية.
- 37 - خلصات الكرى (دفتري التدوين الأول).
- 38 - دنا فتدلى (دفتري التدوين الثاني).
- 39 - رشحات الحمراء (دفتري التدوين الثالث).
- 40 - نوافذ النوافذ (دفتري التدوين الرابع).
- 41 - نثار المحور (دفتري التدوين الخامس).
- 42 - «رَن» (دفتري التدوين السادس).
- 43 - دفتري الإقامة (دفتري التدوين السابع).
- 44 - من دفتري العشق والغربة.
- 45 - متون الأهرام.
- 46 - حكاية الخبيثة.
- 47 - يومياتي المعلقة.
- 48 - المجالس المحفوظية.
- 49 - يوميات الحصر.
- أوراق شاب عاش منذ ألف عام.. مجموعة قصصية.
- 2 - أرض.. أرض.. مجموعة قصصية.
- 3 - الزويل.. رواية.
- 4 - الزيني بركات.. رواية.
- 5 - وقائع حارة الزعفراني.. رواية.
- 6 - الحصار من ثلاث جهات.. مجموعة قصصية.
- 7 - حكايات الغريب.. مجموعة قصصية.
- 8 - ذكر ما جرى.. مجموعة قصصية.
- 9 - الرفاعي.. رواية.
- 10 - خطط الفيطني.. رواية.
- 11 - كتاب التجليات (السفر الأول).. رواية.
- 12 - كتاب التجليات (السفر الثاني).. رواية.
- 13 - كتاب التجليات (السفر الثالث).. رواية.
- 14 - إتحاف الزمان بحكاية جلبي السلطان.. مجموعة قصصية.
- 15 - رسالة في الصبابة والوجد.. رواية.
- 16 - رسالة البصائر في المصائر.. رواية.
- 17 - شطح المدينة.. رواية.
- 18 - هاتف المغيب.. رواية.
- 19 - ثمار الوقت.. مجموعة قصصية.
- 20 - أسفار المشتاق.. أدب رحلات.
- 21 - منتصف ليل الغربة.. مختارات قصصية.
- 22 - أحراش المدينة.. مختارات قصصية.
- 23 - المصريون والحرب من صدمة يونيو إلى يقظة أكتوبر.. دراسات ومشاهدات.

50 - آفاق الذاكرة.	58 - مدينة الغرباء.
51 - قوت العيون.	59 - تجليات مصرية «جولات في القاهرة القديمة» قصائد الحجر.
52 - حمام الحمى... يوميات الحج.	60 - نزول النقطة - الاستمرارية والانقطاع في الثقافة المصرية.
53 - الطريق إلى الجهات الأصلية.	61 - الأزرق والأبيض.
54 - مجرات الروح.	62 - يمام.
55 - مقاربة الأبد.	
56 - ملامح القاهرة في ألف سنة.	
57 - مقاصد الأسفار.	

جوائز:

- جائزة الدولة التشجيعية للرواية عام 1980
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.
- وسام الاستحقاق الفرنسي من طبقة فارس 1987
- جائزة الصداقة العربية - الفرنسية للرواية 1992
- جائزة لوربتايون لأفضل عمل روائي مُترجم إلى الفرنسية 2002.
- جائزة سلطان العويس للرواية 1997
- جائزة الدولة للرواية 2008.
- جائزة الرواية العربية - فرنسا 2005.
- جائزة الشيخ زايد للرواية - 2010.



يجذر شجرة أدبه في التراث العربي الثري، إنه يمر
من خلال الحاضر إلى الماضي. يعيد تحديث ما فات، يلعب
باللاماضي ويكشف عن قدم الجديد واستحالة استمراره.
الأديب الإسباني، خوان غويتيسولو

استطاع جمال الفيطناني، بجهده الشخصي ودأبه
العبقري وثقافته الذاتية، أن يعتصر روح الوجود
المقطرة في اللغة والمضاعة في الذاكرة حتى ينقش
عليها، يحملها في منقاره لسماء الأدب، لكنه قد يتخذ
أحياناً سمت الباحث المدقق في التراث، فيصل إلى نتائج
تخليية يأبأها التاريخ الأدبي كما فعل مع كليله ودمنة فلم
ينكر أصولها فحسب، بل شكك في وجود ابن المقفع ذاته،
فكانه يريد أن يلف في إهابه حقائق التاريخ بالتأويل
التخيلي، حتى يصبح الوهم قرين الواقع وتتحول شخوص
التاريخ إلى دمي في يد المبدع الفذ.

الدكتور، صلاح فضل

هذه الحكايات الهائلة بالنسبة لكاتبها هي وقفات،
ولكنها ليست أمام نص مكتوب، بمقدار ما هي وقفات
أمام مسار الحياة على الجملة، يستقطر فيها واضع
النص خبرته وحكمته وتجاربه، ويمرّج فيها - على نحو
مدهش - بين الفلسفة والأسطورة والواقعية والحواديتية
إذا جاز التعبير.

الكاتب الدكتور، عمرو عبد السميع

للطلب والاستفسار اتصل على

16766

www.nahdetm1sr.com
our page/nahdet m1sr group



دار نهضة مصر

للطباعة والنشر

القاهرة - مصر



6 221133 350426